عُمان عبر التاريخ

الجزء الثالث والرابع



تأليف الشيخ

سالم بن حمود بن شامس السيابي

الطبعة الخامسة
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

عُمان عبر التاريخ

ISBN 978-99969-0-263-5

9 789996 902635

عُمان عبر التاريخ

الجزء الثالث والرابع

الطبعة الخامسة

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

رقم الإيداع المحلي : ٢٠١٤/٧٥

رقم الإيداع الدولي (ISBN) : ٥-٢٦٣-٠-٩٩٩٦٩-٩٧٨

سلطنة عُمان - ص. ب: ٦٦٨ مسقط ، الرمز البريدي ١٠٠

هاتف : ٢٤٦٤١٣٢٥/ ٢٤٦٤١٣٠٠ فاكس : ٢٤٦٤١٣٣١

البريد الإلكتروني : info@mhc.gov.om

الموقع الإلكتروني : www.mhc.gov.om

سلطنة عُمان
وزارة التراث والثقافة

عُمان عبر التاريخ

الجزء الثالث والرابع

تأليف الشيخ
سالم بن حمود بن شامس السيابي

الطبعة الخامسة
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثالث

إمامة الإمام الخليل بن شاذان

اعلم أن الإمام الخليل بن شاذان بن الصلت بن مالك بن بلعرب الخروصي، أحد الأئمة الأجلاء في عُمَان، وإليه ينتسب آل الخليل الذين بعُمَان، وإلى جده الصلت ينتسب صلوت بني خروص، وأبوه الشيخ شاذان بن الصلت من أهل العلم والفضل، وأخوه محمد بن الصلت كذلك وهؤلاء عائلة بارزة بالفضل والعلم والتقوى في عُمَان، ولله في خلقه أسرار والخلق معادن. الحديث.

واعلم أن القرن الثالث الهجري ابتدأ بحوادث متعددة، منها الإمامة المستضعفة وما صار عليها من أهل عُمَان فيما بينهم، وإمامة الإمام سعيد بن عبد الله الرحيلي، وبأمراء بني العباس الذين صارعوا الإمامة وقضوا عليها من عهد يوسف بن وجيه وبني مكرم وغيرهم من البويهيين إلى القرامطة المعروفين في التاريخ، وإمامة الإمام راشد بن الوليد، وتسلط أمراء بني العباس عليه، واحتلوا إمامته وتولوا أمر عُمَان إلى تمام القرن الرابع، وهم فيها الآمرون الناهون لا يردهم راد ولا يصدّهم صاد، وفي ذلك العهد صارت عُمَان دار كفر ونفاق؛ لانطماس العدل، واختفاء آثار المسلمين باندراس معالم الدين، وبتسلط الجبابرة الظالمين، الذين هم أعداء الدين والوطن والجنسية عقوبة لأهل عُمَان على تضييعهم الأمر منذ الإمام الصلت، إلى أن وقعت الطامة الكبرى بتضييع إمامة راشد بن الوليد، فكانت عاقبة ذلك الأمر الوبال والخذلان، مع تلاعب بالإمامة في عهد إمامة الأئمة المستضعفين، وكل ذلك إضاعة للدين وتضيع لمنهج المسلمين، حتى بويع للإمام الخليل بن شاذان بن الصلت بن مالك بن بلعرب الخروصي.

قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: بويع له بالإمامة بعد راشد بن الوليد بزمان طويل، تجبر فيه السلطان على أهل عُمَان، وسامهم سوء العذاب بما بدلوا من نعمة الله ولعدم وفائهم بعهد الله، حين خذلوا الإمام راشد بن الوليد وظاهروا عليه عدوه، ومن أعان ظالمًا سلطه الله عليه – أي ليذوق وبال أمره – ولا يخفى العهد الذي بين

الإمامين راشد بن الوليد، والخليل بن شاذان، وعُمَان ترزح ثقلاً بوطأة الجورة الظلمة المفسدين للدنيا والدين، المتسلطين على بيضة المسلمين، فإن ذلك القرن قام في أوله الإمام سعيد بن عبدالله الرحيلي، فجمع الشمل ولم الشعث وأيدَّ الحق الذي يدعو إليه المسلمون، ورفع مستوى أهل الإيمان، حتى قضى الله عليه بمناقي من أعمال الرستاق وقبره بها، ثم قام على أثره الإمام راشد بن الوليد، فانقلب عليه لأهل عُمَان بغير جرم ارتكبه، ولا حدث اقترافه، ولا شقاق أوقعه؛ ولكن ابتلاه الله بذلك، وعسى أن تحبوا، وعسى أن تكرهوا، وكل شيء بيد الله.

قال الإمام: وبقى أهل عُمَان يكابدون النكال تحت قهر الجبابرة من بني سامة وغيرهم، حتى عقدوا الإمامة على الخليل بن شاذان في سنة سبع وأربعمائة، وفي بعض الكتب في سنة بضع وأربعمائة، فسار فيهم سيرة حسنة جميلة، ودفع عنهم الجبابرة أمنت بعدله البلاد، واستراحت في ظله العباد، ودانت له الممالك، ووفدت إيه الوفود؛ لظهور العدل، وانتشار الفضل، وقام الخليل بواجبات الأمة في حلها وترحالها، ودافع الخصوم وصارع الجبابرة، وجاهد في الله حق جهاده، وانتشر له صيت شاع في الجزيرة إلى اليمن، وحضرموت ونحوها، وقامت إمامته على أعمدة العدالة والإنصاف والمساواة بين المسلمين.

ووفد عليه الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن قيس بن سليمان الحضرمي، من أرض حضرموت مستنجدًا به ومستعينًا بالمسلمين على حرب أهل بلاده الخارجين عن طاعته في حضرموت واليمن، فأمده الإمام الخليل بالمال والرجال، حتى وطد به دعائم ملكه في تلك الأطرف اليمانية، وفيه يقول من قصيدة:

وذكر إمام شاع في النّاس ذكره ... وطاب الثنا فيه الخليل بن شاذان

إلى آخر القصيدة. وقال في أخرى:

وارمو بنا نحو الإمام المرتضى ... المفزع المأوى لكل دخيل

ذاك الذي جلى عُمَانا بعدما ... وأراهم غيم الطغى بذيول

إلى آخر ما قال فيها من الثنا والمدح والاستنهاض حتى مكنه الله من عدوه وأثبت به قواعد دينه ودوخ به أعاديه وبعد ذلك أرسل إلى الإمام يحدثه عن وَاقِعِهِ وعمَّا صار إليه أمره بقوله:

سل الوفد عني يا إمام ألم أكن تسربلت يوم الروع ثوب العزائم
وهل كان همي غير ما كنت ذاكرًا وهل نمت عن طرف الجود وصارمي

إلى أن قال:

سل الخطبا لما عوالك جهرة على رغم أهل الجور عند التصادم
وسل عرب البيداء هلا أذقتهم عشية خانوا العهد سم الأراقم

قوله: عرب البيداء أراد بهم البدو خاصة وهم نهد وعقيل، وها هنا يخبره بلسان المقال عن حقيقة الحال فيقول:

وأما نواحي حضرموت فإنها بحول إلهي طوع أمري كخاتمي

فاستقر لإمام الحضرمي البطل المقدام في أرض حضرموت بهمة الإمام الجليل الخليل بن شاذان رَحِمَهُ اللَّهُ

وكان للإمام الخليل وزير يتولى مهمات دولته ويقوم بواجباته في حضوره وعيبته اسمه محمد بن صلهام وهو يناصر الإمام الحضرمي قال صاحب المعالم ولم يجد أبو اسحاق في حضرموت من يناصره في صد غارات القرامطة فالتجأ إلى الخليل بن شاذان الإباضي إمام عُمَان طالبًا معه النجدة وقدم إليه قصيدة جاء فيها يشكو إليه الحال الذي هم فيه

يا خير خل خربت أوطاننا واستعبد السفهاء كل نبيل
يا خير خل لم نطق دفع الأذى عن أخذ مكنون وجذب نخيل
يا خير خل أصبحت أسواقنا أسواق سحت واعتداء محول
يا خير قد غلبنا فانتصر وانظر لنا بالرأي عزم الأصيل

وجاء في قصيدة أخرى يذكر ما نال من الإمام الخليل رَحِمَهُمُ اللَّهُ وما وفقه الله له

من النصر فيقول:

وجدت له بالعذر بسطا وجاد لي بما فيه نصر لا عدته المكارم

فها أنا ذا بالمال والبيض القنا على حضرموت بالسلامة قادم

سلا تخبرا عني إذا صرت نحوها وناديت في الإخوان أين اللهام

قال: وعاد أبو إسحاق إلى حضرموت بعد أن أمده الخليل بن شاذان بالمال والسلاح، قال: وقد استطاع بهذه المعونة أن يجمع حوله جنودًا وأنصارًا فرق بهم أعداءه، حتى لم تبق منهم سوى طوائف، التجأت إلى القرى الواقعة بأطراف البلاد، قال: وفي هذا يقول أبو إسحاق من قصيدة أرسلها إلى الخليل إمام عُمَان، مع وفد وجهه إليه عقب انتهاء الحرب يخبره فيها بما تم له من النصر، وهي القصيدة التي أشرنا إليها ومنها قوله:

سل الوفد عني يا إمام ألم أكن تسربلتُ يوم الروع ثوبَ العزائم

إلى آخر ما جاء فيها ويشير أيضًا إلى الصليحي أحد حكام اليمن في ذلك العهد إذ يقول:

لم يبق لي إلا الصليحي قائمًا وها هو أيضًا سعده غير قائم

إلى أن قال يذكر منه.

إذا وفده ولى إلى مصر رائدًا مضى وفدنا قصدًا لخير المعالم

يعني عُمَان أي إذا ولى وفد الصليحي إلى مصر مضى وفدنا إلى عُمَان، فهو يستنجد بمصر فنحن نستنجد بعُمَان.

قال: إن الخليل أمده مرة بالمال فقط ومرة أخرى بالمال والرجال، فهذا يدل على تردده على الإمام المذكور في تقويم وإصلاح شؤونه، وكان يفتخر بذلك ويهدد به الخصم ويعلن بذلك في المجامع. قال: ويزعم الشيخ سليمان الباروني أن أبا إسحاق أقام عاملاً بحضرموت للخليل بن شاذان مدة حياته، فلما نُصب راشد بن سعيد إمامًا بعُمَان بعد الخليل بقي عاملاً على حاله وله مع الإمام راشد

قصائد يعترف له فيها بالولاء، منها قصيدته التي أرسلها يعرض فيها للإمام راشد النجدة في حربه مع نهد وعقيل، حيث يقول:

إباضـيـة زهـر كـرام أفاضـل ... مناقبهم في كل سامي علا تبدو
وأنـت لنا من بعدهم صرت قيمًا ... حمولًا لثقل الخطب يوري بك الزند

وللإمام الخليل رَحِمَهُ اللهُ فضائل أعمال وجلائل خصال أولاه الله عَزَّ وَجَلَّ إياها، وقد ساد الخليل عُمَان سيادة ازدهرت بها البلاد، ونشط فيها الرشاد، وارتفعت به رؤوس الأمجاد، وكان علماء المسلمين بعُمَان أنصار الإمام الخليل، وأعوان السيّد الخليل، وكانوا لا يداهنون إمامًا ولا سلطانًا إذا خالف الحق، ففي يوم الثلاثاء لعشر ليال من شهر رمضان سنة تسع وأربعمائة، أي بعد وقوع البيعة للإمام الخليل بسنتين، أنكر العلماء بعض الأشياء في عهد هذا الإمام النبيل، فاجتمعوا ضحوة نهار الثلاثاء من اليوم المذكور، وهم موسى بن أحمد، وأحمد بن محمد، والحسن بن أحمد، وعمر بن محمد، وراشد بن محمد ومن معهم من إخوانهم المسلمين، ونظروا فيما استنكروا وكتبوا فيما أنكروا كتابًا إلى وزير الإمام محمد بن صلهام قالوا فيه كلامًا طويلاً من جملته:

وبعد هذا فنحب أن يقف الأخ على طرف من الأمور التي تجري في بلادنا من القائمين بها، أي من طرف الإمام المتولين لأمورها، من تركهم إتباع سنة رسول الله ﷺ، وآثار المسلمين وسيرهم في الرعية بغير الحق، حتى كثرت المناكر، ومات الحق وأهله، وارتفع الباطل وحزبه، وصار أهل الحق لا يقدمون على الأمر بالمعروف، ولا النهي عن المنكر؛ لأن المنكر ابتلى به من تسمى بالحق بلسانه، ويخالف ذلك بأفعاله، وقد خشينا من ذلك زوال النعم وتغير الحال، وقد كتبنا للإمام نصره الله عام أول كتابًا مترجمًا له فيه ما كنا نتوقعه من هذه الأشياء، ولم نرد بذلك إلا نصيحة له، وخروجًا مما يجب علينا مما تعبدنا الله به، فرجع الجواب إلينا على غير ما كنا نرجوه، وأنزلنا في ذلك بمنزلة التهمة، فلما رأينا ذلك توسعنا

بالسكوت؛ لأنه يوجد عن بعضهم أنه قال: إذا كان الذي ينكر المنكر لا يقبل منه ويستخف به لم يكن عليه، أن يعرض نفسه للاستخفاف أو نحو هذا من اللفظ، وهنا أقوام ممن قد عرفوا بكثير المناكر، صاروا يكاتبون الإمام نصره الله رقعة بعد أخرى، ويزينون فعل من قد ساعدهم على مناكرهم ويقولون غير الحق، ويشهدون بالباطل ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] كل هذا خشية أن يولي عليهم من يشدّ عليهم ويمنعهم من المناكر التي قد شهروا بها، ويصيروا هم وغيرهم من الرعية سواء، فإنما هم يرجعون على الإمامة في كتبهم بغير الحق، وقد أمنوا أن لا يبحث عن أفعالهم، ولا يسأل عن صحة قولهم، ولو كان الإمام نصره الله ينظر في هذه الأمور وصحتها، ويسأل عن حقها وباطلها، وصحيحها وسقيمها، فضرّ أهل الباطل باطلهم عنده، ونفع أهل الحق حقهم عنده، لما اجترأ أحد أن يكتب إليه الكذب، ويتقول على لسان الرعية ما لم يكن، ولكان هذا الباب قد انغلق، ولم يتجاسر أحد أن يكتب إليه إلا الحق.

ولما ضاقت أنفسنا من هذه الأمور التي شرحناها ووصفناها، رأينا اطلاع الأخ العزيز أدام الله أنسنا به على ما عندنا، وشرح ما نحن فيه لعلمنا أنه ممن يغضب للحق ولا يرضى الباطل، فإن رأى أن يطلع الإمام نصره الله على ما ذكرنا وشرحنا، فإنا لم نذكر له ما عندنا إلا اختصارًا، ولو ذهبنا نصف كل ما نراه ونعاينه من هذه الأمور لم تبلغ كل ذلك، إلا أنا نكل أمورنا إلى الله، ثم رأى الأخ فيما كتبنا إليه ورد جوابنا مما نستدل به منه على وصول كتابنا إليه، وما يقتضيه رأيه في ذلك إن شاء الله والسلام عليه من جماعتنا، ويسلم منا علي الشيخ أبي الحسن على بن راشد، متعنا الله ببقائه، والحمد لله وصلى الله على رسوله محمد وآله وسلم تسليمًا كثيرًا.

قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ: ولم نظفر بجواب هذا الكتاب، غير أني وجدت جوابًا من أبي الحسن بن أحمد النزواني وهو فيما أحسب وهو فيما أحسب قاضي الإمام

الخليل رحمهما الله تعالى، كتبه أبو علي جوابًا في مثل هذه القضية: قال رَحِمَهُ الله تعالى فهمت ما كتب به الشيخان في مال المشايخ، وتعدى من تعدى فيه وترك المنع من الإمام نصره الله، قال الإمام: ما ولي عليها محمد بن حمزة، ولا أمره بقبض الصدقات منها، وإنما سأله بعض أهلها أن يكون معهم للأنس وللإنكار فيما قدر على إنكاره، والمعروف من آثار المسلمين أن الإمام إذا كان في حال المحاربة، ولم يستول على المصر أنه مخير في الأحكام، إن شاء حكم وإن شاء ترك الحكم، حتى يفرغ من محاربة عدوه، وقول ليس له ذلك وليس عليه أيضًا، ولا يضيق على الإمام ما وسع له المسلمون، إلا أن الذي نختاره له ونحبه له أن لا يدع شيئًا من الأحكام، ولا من الإنكار مع القدرة عليه، وهما قد عرفا ما جرى في مال بني زياد بسمد نزوى من الخراب، وأخذ الدواب وإتلافها وإتلاف الثمار في أيام الإمام، فما عاب أحد على الإمام حتى سهل الله وتبين للوالي النظر في ذلك، ومنع عنه، وكان لم يزل يجري فيه الخراب مرة بعد أخرى، إلى أن كان أيام دهمان، ومنع عنه، وكان جرى في المال الذي تركه علي في السر ما جرى، ومنع الوارث وهو يصيح ويستغيث، فما عيب على الإمام ذلك، وليس أريد بهذا احتجاجًا من الظلمة إلا أني أذكرهما ما يعرفانه؛ لئلا يتوهما في الإمام غير ما هو عليه، وهؤلاء المشايخ حرسهم الله، لو وصلوا إلى ما لهم وقاموا فيه لكان كل من قدر على معونتهم بالحق من إمامهم أو غيره أعانهم.

وهذا يدل أن هناك أهواء ومنافسات، ولعل ذلك بين بعض الزعماء وأهل العلم بحسب المفهوم من سياق الكلام الذي تقدم من المشايخ الأولين، وفي الكلام الخير ما هو من نوعه وهو واضح. ولم يكن الإمام رَحِمَهُ الله ممن لا يقبل أقوال أهل العلم، ولا ممن لا يقبل النصح حاشاه، بل هو أحفى بذلك وأولى يرى ما لا يراه غيره، ولعل له عذرًا وأنت تلومه، وعلى كل حال إن الإمام رَحِمَهُ الله مبتلى بأمور الأمة، وعليه الصبر على ما يرى ويسمع.

وقال الإمام أبو اسحاق رَحِمَهُ الله:

من شاء يعلم ما كنت أوائلنا فيه فسيرتنا تكفيه برهانا
هذا الخليل إمام المسلمين حكت أنوار سيرته في العدل نيرانا

والمراد قوة الإضاءة فكأنها نيران تشتعل لا نارا فقط وذلك كناية عن قوة الاشتعال وقوة الإضاءة تجوزًا عمًّا لا يخفى ويليه قوله:

يا أيها العلم العدل الذي كملت له الخصال مروات وإيمانا
إني أحبك والرحمن يعلمه حب احتساب إلى ذي الطول قربانا

منها:

حتى عبرتُ إليك البحر منتصرًا أيام عدتُ بما أوليتَ جذلانا

منها:

إن الذي عمرت صنعاءَ دولتُهُ بالفسق أصبح من مولاي فزعانا

هذه هي حالة الإمام الجليل الخليل بن شاذان رَحِمَهُ الله، ومضت أيامه على هذا المنهج الكريم والصراط المستقيم، ولم تعرف له سوءة تذكر إلا ما أشار إليه مقال أولئك الأشياخ الذي أوردناه لك عنهم، وله فيه عذر، وعذر عند الله وعند عباده.

قال ابن رزيق: ولما ركدت زعازع بغي الخلفاء العباسيين عن عُمَان، وانقطعت مادتهم عنها بالبغي والعدوان، عقد أكابر عُمَان الإمامة على الخليل بن شاذان، فسار سيرة العدل والإنصاف، واتبع أثر السلف الصالح، وأقر عيون الرعية، وجعل الفقير والغني بالسوية، والضعيف والقوي في اتخاذ القضايا الحكيمة، وصارت بعدله أرض عُمَان في أمان واطمئنان، وقطع شقشقة لبغاة، وجدع أُنفًا شماء من الطغاة، فعاش حميدًا ومات كريمًا، وكانت دولته على الأشهر سبع عشرة سنة؛ لأنه مات سنة ٣٢٥ على التحري، وبعده بويع راشد بن سعيد، وعاش إلى عام خمس وأربعين، ومن هنا صار لابن رزيق الغلط في مدة إمامة الإمام الخليل بن شاذان، إذ قال كانت مدة إمامته خمسًا وأربعين سنة، وذلك

أن راشد بن سعيد مات سنة ٣٤٥، وكان بويع سنة العشرين بعد ثلاثمائة، وكان الزعماء الذينَ تسلطوا على الخلافة العباسية جعلوا التنكيل بأهل عُمَان كالمفروض عليهم، ونظر إلى ما قاله ابن رزيق، ولما ركدت زعازع بغي الخلفاء العباسيين عن عُمَان، إشارة إلى أن زعازع رياحهم لا تزال تعصف بعُمَان وتسفي عليها من غبار الطغيان، ولما كانت الزعامة العباسية، مسيطرة على عُمَان في هذا العهد منذ انمحت دولة الإمام راشد بن الوليد، وسقطت عُمَان في الحضيض، وصارت دار كفر ونفاق منذ ذلك العهد كما قدمنا، ولما هانت وطأة البغي وتراخت الزعامة العباسية عن عُمَان، وظلت عُمَان واهية الإرادة، هامدة الأهمية، وقد خمدت في ذلك الحال نار البغي ، وهانت الأمور، قام أهل العلم ورجال الحق كعادتهم عند حلول القرص، فبايعوا الإمام الخليل بن شاذان، وقاموا لإحياء معالم الدين والإيمان، وإخماد ما أثاره أهل البغي وإعادة الحق إلى مجاريه، فقام الإمام المذكور بواجبه امتثالاً لأمر ربه، وإتباعًا لسلفه الصالح، وشاع أمره وظهر صيته، جهزت له البغاة قوتها للكسر هذه الإمامة الخليلية، وهدم مبانيها القوية، فجاءت جيوشها بقيادة أركان حربها من الترك العتاة.

قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ: وخرجت الترك على عُمَان أيام الخليل بن شاذان. قال: ولعل هؤلاء كانوا جند بني العباس، فإنهم قد استخدموا الترك وغلبوا على أمرهم حتى صارت الدولة إليهم، وصار بنو العباس آلة في أيديهم، فخرجوا على عُمَان وأسروا الخليل بن شاذان.

ونصب أهل عُمَان بعد أسره محمد بن علي إمامًا، ثم إن الترك ردوا الخليل إلى هنا انتهى ذكر هؤلاء الترك وفعلهم في عُمَان، فإذا نحن بحثنا التاريخ سائلين: متى كان أسر الخليل؟ وفي أي بلد أُسر؟ وعلى أي صفة كان أسره لم نتلق جوابًا، فإن قوله: فخرجوا على عُمَان، وأسروا الخليل، لا نرى لنا فيه جوابًا، ولا يكفينا إذ لا نرى فيه صوابًا عن بحثنا، فهو كلام أشبه بمقطوع الرأس أو منهار الأساس،

فإن للتاريخ حقوقًا يجب أن تراعى، وهي كشف غموضه إذا أمكن، واستخراج وجوهه في فلسفة أدبية لا يجهلها إلا الأغبياء، فإن أسر الخليل وهو إمام في قومه سلطان في بلاده له جنود وأعوان وأنصار وإخوان فهل يمكن أسره على هدوء كما يفهم من التاريخ الذي بين أيدينا؟ أم كان بعد حرب غلب فيها وذلك غير مستنكر؟ أم نادوه فأجابهم وخاطبوه فأذعن لهم فقادوه سامعًا مطيعًا للأمر؟ لا نظن ذلك، وأين ترك جنده وكيف حكم بيعته؟ وعهد الله في الأعناق وأين عمدة أمره الذين أقاموه إمامًا للنّاس، وبايعوه على أقوى أساس؟ لم يذكر التاريخ الذي بين أيدينا شيئًا مما نشير إليه، ولا يكفينا ذلك عنه ولا يشفي غليل البحث على هذا الوضع منه،؛ لكن الأمر يحتمل أحد شيئين:

أما الأول: فإنه لابد هناك من وقوع حرب انتصر فيها البغاة، وبذلك قضوا على الإمام وأخذوه أسيرًا، وهذا من الجائز والممكن، وأنه لابد أن يكون ذلك مذكورًا في التاريخ، كما ذكروا حادثة الإمام عزان بن تميم، وأنه لما قتل قطع رأسه، وحمل إلى بغداد؛ ولكن التاريخ ضاع فلم يوجد، وهذا عذر؛ لكنه أوهن من بيت العنكبوت؛ لأنه شبيه بالمستحيل أن يقع مثل ذلك وينطمس ذكره بتاتًا، فلا يوجد له إشارة فضلاً عن ذكر جلي يحسن السكوت عليه.

وأما ثانيًا: فأن يقال أنه لما شاع خروج الترك على الإمام المذكور، فرَّ عنه جنده كما فرّوا عن راشد بن الوليد، إما طمعًا في دولة السلطان الخارج، وإما خوفًا منه واستشعار للغلبة ورهبًا من شماتة الأعداء، ولعل هذا أقرب إلى الصحة وأوضح في المقام، فإن الجنود العراقية ما زالت تغزو عُمَان أيام ضعفها، وتقضى عليهم قواتها ، كما أن عمان إذا امتدلها سلطان أعادت الكرة على أعاديها كما سوف يرى القارئ في محلة وقد وقع الإمام راشد بن الوليد من نوع ما نتكلم نحن هنا عنه، فأصبح الإمام خائفًا يترقب، حتى آل به الأمر أن أصبح مفقودًا من بيته، فلعل قضية الخليل بن شاذان من هذا النوع، ولما رأى العجز أخذ بالرخصة

واستسلم للأسر، وهما أمران أحلاهما مر؛ ولكن إذا ابتلى المرء أخذ بالممكن، والأمر لله ﷻ.

ولعل أيضًا لما دخل الترك عُمَان، وجدوا الإمام الخليل فريدًا ذليلاً بترك قومه له فقبضوا عليه راغمًا، وقادوه أسيرًا، ثم لما لم يروا لديه أمرًا هامًا يعرقل مساعيهم، وعُمَان إذا أرادوها وجدوها رهن أياديهم، فلذلك قالوا للخليل: رُح إلى بلادك وأولادك، مانين عليه بذلك؛ لكن هذا يعده أيضًا اجتماع العُمَانيين بعده حالاً على بيعة لمحمد بن علي إمامًا بعُمَان، ولعل الخارج لم ير صلاحًا له في عُمَان؛ لأنها ضعفت في ذلك الحال، إلى أقصى حدود الضعف عن الدفاع للغزاة، إذ المال فيها قليل، وقد مزقها الأعداء وذهب الخير منها، فلعله خرج عنها تاركًا لها، ولما علم العُمَانيون ذلك بايعوا محمد بن علي ولم يذكروه ممن ولا من أي البلاد، ثم لما رجع الخليل بن شاذان رجع إليه أهل عُمَان، وأعادوا الإمامة له في تأمر جرى بينهم لرعاية الأصلح لهم، ولعل الخليل أيضًا علم من الغزاة التُّركَ لعُمَان لعدم الصلاح لهم فيها، وإلا فكيف يقبل أن يعود إمامًا بعُمَان؟ وقد رأى وسمع ما ساءه من العدو الخارج، وأنه ربما خرج غدًا أيضًا أمر أشكل تحقيقه ونظر صَعُبَ تدقيقه، وعمل ابتلى به قوم، وحوادث وقعت أردنا أن نفهمها لنعمل فيها بعد العلم بها بما يجب علينا، وإذا ألقينا نظرة إلى قوة الغازي، وضعف أهل عُمَان فلن يقبل الإمام أن يعود إمامًا لأهل عُمَان، بعد ما صار عليه ما صار بين أظهرهم، ولا يرضى أن يكونَ كمن سبق إذا جاء السلطان دخل بيته واختفى، وإذا خرج السلطان برز إلى النّاس ونادى أنا إمامكم هلموا نحوي، هذه الاحتمالات نحررها للإشكال الذي أدى إليه الحال من أمر الإمام الخليل بن شاذان، وأسره بعُمَان بين الأنصار والأعوان، والأقارب والإخوان، ولم يذكروا سبب ذلك والله أعلم بما هنالك.

وأنه يفهم من قولهم خروج الترك على عُمَان، خروج تركيا الدولة المعروفة وليس كذلك، وإنما هم على الصحيح قواد جيوش الدولة العباسية، الذين تولوا

الأمر على بني العباس، فأطلقوا عليهم اسم السلطنة ثم ألحقوه بعد بمعناها تقية لهم، إذا أصبحوا يتلاعبون بهم تلاعب الصولجان بالكرة، ولم يبق لبني العباس حتى الاسم عقوبة على تضييعهم أوامر ربهم، وتعلقهم بالهوى، وإتباعهم لكل من غوى وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

المسلمون يأتمرون بعد رجوع الخليل إلى عُمَان

لما تحقق رجوع الإمام الخليل إلى عُمَان سالمًا نظر المسلمون في القضية ومن هو الأولى بالإمامة، فرأى فريق من المسلمين أن الإمام الأول حكمه حكم المفقود إذا رجع إلى زوجته، وقد تزوجت بعده أن له الخيار، إذا أرادها ينزل عنها الثاني، وتعود إلى زوجها الأول، وإلا فله أقل الصداقين وذلك للترغيب في العودة إليها وكذلك الإمامة إذا أرادها الإمام الغائب عنها رجعت إليه بذلك العقد الأول.

قال الإمام: تنصب أهل عُمَان من بعد أسره محمد بن علي إمامًا، ثم إن الترك ردوا الخليل، ومال النّاس إليه بحبهم له، ورغبتهم فيه لعدله، أي كان محبوبًا فيهم مقبولاً لديهم، فيقال: إن الإمام محمد بن علي اعتزل الأمر بنفسه، ورد الأمر إلى المسلمين فردوا الإمامة إلى الخليل بعد خلاف وقع في مسألة أيهما الإمام. فقال بعضهم: إن عقد الأول سابق وأنه هو الإمام أي مع وجوده، وقال آخرون: إن الأول زالت إمامته حين صار في يد العدو، وإن عقد الثاني هو الثابت. قال الأولون: بل الإمام يكون في حكم المفقود الذي حكم بفقده، وتمت أيام مدة فقده واعتدت امرأته وتزوجت، فإنه إن رجع بعد ذلك خيّر بين امرأته وبين أقل الصداقين، فأيهما اختار كان له، فلولا أن تزويجه سابق ثابت ما كان له التخيير، فالإمام إذا أُسر ثم رجع يكون مثل ذلك.

قال الإمام السالمي ﷺ: والذي أقوله إن الإمامة قد تزول بالعجز عن القيام بها؛ لأنها أحوال منوطة بقدرة القائم، فإذا زالت القدرة فالمسلمين أن يقدموا غيره، فإذا قدموا غيره كان هو الإمام. قلت: ذلك دليل على أن إمامة الأول

تزول بالعجز عن القيام بها، قال: وليس لهم أن يتركوا عقده لرجوع الأول إليهم بعد أن عقدوا له بوجه صحيح، فأما لو انتظروا رجوعه كان لهم ذلك جائزًا، وحين اعتزل الإمام الثاني اختيارًا وقبل المسلمون منه ذلك ارتفعت المئونة وانتفى الخلاف؛ لأن للإمام أن يعتزل عن مشورة المسلمين إذا قبلوا منه ذلك، ورجوا أن غيره أعزّ وأقوى على الأمر، وأصلح للدولة؛ لأن المقصود بالذات صلاح المسلمين، وقد قيل إن الإمام الجلندى بن مسعود رَحِمَهُ اللَّهُ، اعتزل مرتين، وما كاد في الثانية أن يرجع إلا بشق الأنفس حين لم يجد عذرًا من المسلمين.

ويفهم من الأحوال أن الإمام الخليل كان صاحب أخلاق واسعة، وعواطف جامعة، أخذت من قلوب الأمة مأخذها، ولولا ذلك لما أرادوا الرجوع إليه، وقد وجدوا الخلاص منه بقهر العدو الداهم له، وانحلال أمره بذلك؛ لكن العواطف الجميلة لها فعل جذاب لنفوس صفوة الأمة، ولم لا وأخلاق الصلت عرفها الكل في عُمَان.

❊ ❊ ❊

وفاة الإمام الخليل بن شاذان رَحِمَهُ اللَّهُ

لما كان لابد منه محتومًا على الإنسان، وكان الإمام الخليل بن شاذان ممن عاش في أيامه كلها مشغولاً بأمور المسلمين، معنى بحقوق رب العالمين، وقد مرت عليه شدائد في حياته، منها أسره في أيد عدوه، وزوال الأمر عنه بذلك حتى قاسى من ذلك.

قال الإمام: كان في إمامته مشكورًا وصار سجل الثناء عليه من بعده منشورًا، توفاه الله إلى رحمته ورضوانه في أول سنة ٤٢٥هـ على التحري، إذ ليس نص صريح في تحقيق حياته وموته، وبالأخص في قضية أسره كما قدمت ذلك، فإن إهمال التاريخ وعدم النشر للمؤرخ يقضي بذلك والعلم عند الله.

❊ ❊ ❊

إمامة الإمام راشد بن سعيد اليحمدي

وانـــه كـــان إمـــامًـــا شـــاريًـــا مجـــاهـــدًا في الـــبر والـــبحـــار

كان الإمام راشد بن سعيد رحمه الله من أهل سوني بايعه المسلمون بالإمامة في سنة ٤٤٥هـ خمس وأربعين وأربعمائة على أثر موت الإمام الخليل ابن شاذان بن الصلت، وكلاهما من عنصر واحد، ويحسب ظاهر التاريخ العُمَاني أن الزعامة العراقية تأخر رائدها عن عُمَان، وذلك بعد رجوع الإمام الخليل بن شاذان رحمه الله ، وكان ذلك في عهد المكتفي بالله العباسي، وكان انحطاط القوم في هذا العهد قد بلغ نهايته، قال الخضري في محاضراته سنة ٣٣٤هـ: وقد كان الخليفة المكتفي بالله، وكان البويهيون هم السلاطين والعباسيون هم الخلفاء اسمًا دون معنى. قال: كان من أهم مقاصد ابن بويه المسير إلى العراق بعد الاستيلاء على واسط، فصار أحمد بن بويه يسير إلى واسط، ثم يعود عنها حتى كاتبه قواد بغداد يطلبون إليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد فوصلها في إحدى عشر من جمادي سنة ٣٣٤هـ أربع وثلاثين وثلاثمائة، والخليفة بها المكتفي بالله، فقابله واحتفى به وبايعه أحمد، وحلف كل واحد منهما لصاحبه هذا بالخلافة، وهذا بالسلطنة، وفي هذا اليوم شرف الخليفة بني بويه بالألقاب، فلقب عليًا صاحب بلاد فارس عماد الدولة وهو أكبرهم، ولقب الحسن صاحب الرأي والجبل ركن الدولة، ولقب أحمد صاحب العراق معز الدولة، وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود، وهذا اليوم هو تاريخ الدور الثاني للخلافة العباسية، وهو سقوط السلطان الحقيقي من أيديهم،وصيرورة الخليفة منهم رئيسًا دينيًا لا أمر له ولا شيء ولا وزير، وإنما له كاتب يدبر اقتطاعاته واخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لعز الدولة يستوزر لنفسه من يشاء، ومعنى هذا أن الأمر إليه كله نقضًا وإبراماً، وحلاً وعقدًا، وأمرًا ونهيًا، وعليه فقد انتهت الخلافة تمامًا، وانقضى دورها، ولكل شيء غاية ينتهي إليها ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ظن بنو العباس

أن الدنيا خلقت لهم، والخلافة خصت بهم، والأمر إليهم وتأولوا الأحاديث، واستدلوا بتأويلهم أن الخلافة إلى آخر الدهر فيهم إليهم، وما دروا أن الله هو السلطان الحقيقي، وان كل العبيد تحت قهره وتصرفه، وأمرهم بيده، فعاثوا في الأرض فسادًا، وفي الدين ضلالاً، وفي الأحكام جورًا، وفي الحق باطلاً، فسلط الله عليهم عدواً أدنوه منهم، وقربوه بأنفسهم، فسلطوه على الأمة فتسلط عليهم عقوبة بغيهم وفسادهم، وتكبرهم وعنادهم.

قال الخضري في محاضراته: وكان يخطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة عنهم بل عن عامة آل العباس ويوليها علويًا؛ لأن القوم كانوا شيعة زيدية، وكانوا يعتقدون أن بني العباس قد غصبوا الخلافة إلى آخره، والقوم قد انحلوا من الأمر تمامًا قبل هذا التاريخ، وتولى عليه خدامهم الذين كانوا جنودًا وضباطًا، وأصبح اسم السلطان يعلن لهؤلاء، واسم الخلافة لأولئك، وكان السلطان إليه الحلُّ والعقد وليس للخليفة إلا اسمه وهو قاعد في لهوه وطربه، نائمًا بين قيناته وغوانيه، متمتعًا بلذاته وأغانيه، وهكذا وهذا شاهر، ظاهر، ولو كنا معنيين بتاريخهم لرأى النّاس فيه العجب، وذكرنا هذا توطئة لسكون الغزوات من نحوهم على عُمَان وعدم الاعتراض على العُمَانيين، أن الخوف من غاراتهم لم يزل يطن على آذان أهل عُمَان، وكان الإمام راشد بن سعيد من أجلة أئمة أهل عُمَان إذ كانت بيعته على الشرى، وهذا كان دليلاً على قوة نهضته في عُمَان.

قال الإمام: وكان إمامًا شاريًا يعني راشد بن سعيد، وكان لفظ الشرى الذي يشاري عليه هذا الإمام، إذ كان عماله يأخذون له البيعة من النّاس بهذا اللفظ، وهو أنت قد شاريت الإمام راشد بن سعيد على طاعة الله وطاعة رسوله، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الجهاد في سبيل ﷻ، وعلى أن عليك ما على الشراة الصادقين، بهذا العقد الذي يعاقدون به الرجال في الدين وهو عظيم، فإن الشاري متجرد للموت في سبيل الله لا ينثني ولا يخشى في الله لومة لائم، أو

تفنى روحه أو ينصره الله على عدوه، وبنفس هذه البيعة اهتزت عُمَان له هيبة له إذ كان أمره جللاً، وبذلك اندهش البغاة فرأوا أن سيوف الإمام وحزبه مسلولة ليلاً ونهارًا، إذا جاءهم الصريخ لبوه كالهيم العطاش، وكالأسود الضارية، فسكنت عُمَان تحت قدمه وقرت عيون أهلها بين يديه.

وفي هذا الأثناء لبته الزعامات، وقامت قناته على الرؤوس والهامات، ولم تتحرك عليه في عُمَان حركة، إلا أن بعض الغزاة من بادية اليمن وهم نهد وعقيل، كانوا يأتون أطراف عُمَان، فينهبون من لاقوا من ضعفاء المسلمين في الطرق، وكانوا ينزلون بأطراف الأحساء، ويناوؤن الإمام عداء، ويظاهرون عليه عدوه، إلا أنهم لم يقدروا أن يقروا في أرض خاصة خوفًا من هجوم الإمام عليهم، ولما تبين للإمام رحمه الله أنهم ينزلون الأحساء، خرج إليهم بجيش جرار، فما شعروا إلا والإمام راشد بن سعيد حولهم، وسرعان ما تفرق جمعهم وتشتت شملهم، وتفرقوا في الأرض شاردين والرعب حولهم كما يقول المتنبي: حتى أن هاربهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا، فانمحى فساد هؤلاء الأوغاد، وهم إنما تحصنوا بالبعد ويظنون أن يد الإمام لا تنالهم، وما دروا أنه من باع نفسه لله هان عليه كل صعب، ورأى المر أحلى من العسل، وبذلك تهون عليه المصاعب، ويتجشم الأمور راجيًا عليها عند الله فوزًا عظيمًا، وفضلاً عميمًا، وكان من الحزم بمكان، ومن العزم في أعلاه، ومن الورع في منتهاه، وزاره أبو إسحاق الحضرمي الذي زار قبله الإمام الخليل بن شاذان، واستنجد به كما استنجد بمن قبله وردد أصوات الثناء عليه في الأثير المترامي، فسير إليه من غرر شعره جواهره قائلاً فيه ومخاطبًا له:

ألا حي منها من حوى العلم والتقى	إلى همة تعلو السها والمرازما
ومن سل سيف الحق للحق داعيا	إليه مجدًا قد أزاح الأشائما
إمامًا بنزوى قائمًا قام في الورى	بعدل فأضحى الحق إذ قام قائما
أديبًا لبيبًا يحمد يا غضنفرا	من الأزد ليثًا في حمى الحرب غانما

أيا راشد إنا لعمرك نزدهي بذكراكم في حضرموت تعاظما
إذا ما عُمَاني ألم بأرضنا أحطنا به نسأله عنكم تزاحما
هينئا لك أهلا لم قد حباكم به الله من فضل له الحمد دائما

وما زال الإمام الحضرمي يهتف بالإمام وينادي به في الأوطان الحضرمية والمجامع اليمانية وفي قصائده الشعرية ومنها يقوله من قصيدة أخرى:

وبيض بأيدينا خفاف صواوم ثقال الظبى مشحوذة المبارد
معودة هتك الجماجم أظهرت سبيل إمامينا الخليل وراشد

وقال في أخرى ويذكر فيها أحوال نهد وعقيل الذين شرد بهم الإمام وهربوا عنه هروب النعام الجافل في الفلا وكناه بأبي غسان فقال:

ألا أبلغوا عني السلام تحية إمام عُمَان راشدا أيها الوفد

وسار فيها سير المشوق المحب المغرم بمن أحب ومدح وأثنى وردد الذكرى قائلاً:

وما كان من أبناء نهد وأختها عقيل أولى البغي الذي شابه الحقد
لقد زال عن آرى عقيل وأختها لنسل الفتى شاذان والديلم الرشد

أي زال عنهم الرشد إذا خاصموا الإمام فتى شاذان ومناصرتهم للديلم أيام الخليل بن شاذان فردوا على أعقابهم خاسرين وقال:

كذلك نهد قد أذلت رقابها لنصرهم الأعدا لقد عجزت نهد
لقد جمع الأقوام طرًا وخالفوا جيوش أبي غسان فاستوثق الحشد

ومضى يصف الحال التي وقع فيها أولئك الأوباش والأوغاد

وأموا للقياهم بجيش عرمرم ولم يثبتوا عند اللقاء ولا اشتدوا
ولما تراءى العسكران تدابروا كمل نعام شارد خلفه الأسد
فقتل منهم في التعارك عصبة على حنق خاضت دماءهم الفهد
فإن عدلوا عن بغيهم وتراجعوا إلى عسكر الإسلام والحق وارتدوا

فـاهـلا وسـهـلا بـالـعـشـيرة إنـهـم إليكم باخلاص لـرب السما أدوا
وإن هـم أبـوا فاستَصْرِخونا فاننا قريب ومـا للقوم من صحبهم بد

أي نادونا فانا معكم نجيب النداء ونرد العدا ولم تجد من ذلك بدًا

ومـا بين وادي حضرموت وبينكم إذا سركـم إتيـانـنـا نـحوكـم بُعد

أي ما بيننا ونحن في حضرموت وبينكم وأنتم في عُمَان بعد إذا أردتم مناصرتنا لكم عليهم فإنا مستعدون لها إلى أن قال:

متـى يـأتـنـا منكم صـريـخ نؤمكم بعسكر جـرار يضيق بـه النجد
كـهـولًا وشـبـانًا صباحًا مساعرًا ورادا إلى الهيجا إذا استصعب الورد
بـلـك رديـنـي أصـم ومـرهـف كمثل شعاع الشمس تحملنا الجرد

لله درك يا أبا إسحاق وأنت البطل المقدام لا يشق لك الغبار، ولا يستطاع لك لحاق، تجردت لله وبعت نفسك لرضاه، ولله إمامنا الراشد اسمًا ومعنى.

وكان الإمام راشد أديبًا لبيبًا له رقيق يدًا على ملكة عالية ونفس سامية وبلاغة في سهولة مورد، وعذوبة ذوق، ودماثة خلق ونشاط جميل، ورأي أصيل وذكاء ناضج، وفهم واسع، وشعر يدل على شعور كامل وذهن حاد، يتجلى على نفسه الوثابة للمجد وهمته العارمة على كل وغد منها:

لـمـن مـنـزل قـفـر تـعـفـت جـوانـبـه وغـير مـن سـافـح القَـطـر ساكبه
كـأن لم يكن فيه من البيض شادن تـضـاحـكـه أتـرابـه وتـلاعـبـه
فأضحى أستى من بعد أن كان سلوة تجـر بـه أذيـال خـز كـواعـبـه

انظر لطف هذه الأبيات وسلاستها وحسن التخيل فيها، بحيث تسلب اللب وتجذب القلب، وتحرك الجامد وجدا وتنعش الجامد حبًا وتحيي النفوس المتزمتة شوقًا.

وانظر إلى ما يقوله في نفس القصيدة من الحكمة البليغة في عبارتها المنيعة:

مـن الجـهـل أن تغنى بـأمـر كُفيتَه وتـترك مـا كُـلِّـفـتـه لا تـطـالـبـه

إذا المرء لم يعرف مذاهب سعيه لدى وعيه غالته يوما مذاهبه

ففي هذه الأبيات من الحكمة ما لا يخفى على أديب، ولا يجهله إلا غبي ليس له في ذوق الأدب نصيب واسمعه يعظ:

وما هارب إلا إلى الموت آيبُ ولا سالب إلا وذا الدهر سالبه

قد صدق والله في هذا كما صدق في قوله : لا إله إلا الله إلى أن قال في هذا المقام:

مدى الدهر لا ينجو من السخط والرضى فاسخطه قوما لقوم مواهبه
وما عاقل في النّاس من راح واغتدى يغالب في دنياه ما هو غالبه
وأجهل أهل الجهل من كان جاهلاً ولم يدر أن الجهل يهلك صاحبه
وأجهل منه جاهل يظن أنه بصير وقد عابته جهلًا عوائبه
ولا خير في خير ترى الشر بعده ولا في أخ دبت إليك عقاربه

فقد جاء في هذه الأبيات الثمينة والكلمات الرزينة بحكمة غالية وموعظة سامية أبرزها في قالب الأدب الصحيح وأخرجها من لجها الزاخر إلى الفضاء في منهجها الرجيح واسمعه يبدي شيئًا مما في نفسه الجياسة:

ولا عيش إلا أسمر اللون عاسل وأشقر في يوم عبوس تلاعبه
وقرن تعاطيه الحمام وفارس تعاطيه حينًا ثم حينًا تضاربه
ذريني وَخُلقي يا ابنة القوم إنني رأيت الأذى حربًا لمن لا يحاربه
على أنني إما امرؤ ضمه الثرى وأما فتى جلت بقوم كتائبه
وأما فتى أبكى عيون عداته وأما فتى تبكي عليه أقاربه
وأما فتى يقضى عليه حمامُه وأما فتى تقضى عليه كتائبه

وفي رواية قواضبه، وإنها لقنابل حماسة تحملها نفسه الحساسة وتعرب عنها شاعريته الإنسانية، وطويته الايمانية، وما يجيش به الصدر تقذفه اللسان، وما يهتز له الجان، يذيع به البيان والمرء بأصغريه كما قال رسول الله ﷺ، واسمعه يثني على

الحضارم إذ واعده القيام على نهد وعقيل إذا أراد منهم ذلك كما في كلام الإمام الحضرمي، حيث يقول متى يأتينا منكم صريخ نؤمكم بعسكر جرار إلخ فقال:

وفتيان صدق من رجال حضارم أوائلهم أعيت على من تغالبه
لهم همم تعلو العلى وعزائم يصدقها فعلًا كرام مناقبه
وأما إذا اشتدت البلى بتفوسهم وبالمال ما أن ضن بالمال واهبه
وأكرم بقوم قولهم هو فعلهم ولا فعل إلا ما كرام مناسبه

واسمعه يؤنب من كان بخلاف ذلك من الرجال:

وكم قائل في قوله غير فاعل إلا أن شرَّ القول ما أنت كاذبه

لقد صدق والله وبهذا جاء القرآن العظيم، وحديث النبي الكريم وبذلك يقضي حكم المروءة في الإنسانية الطيبة النزيهة، وأسمعه يعرب عمًا في نفسه الصافية من الأدران الصادقة الإيمان:

ولست امرءًا يرضى سلامة سبسب وأن يتلف الدين الذي هو طالبه
سلي هل قطعنا سبسبًا بعد سبسبٍ تعاوى به سيدانه وثعالبه
سل النسر هل زرنا فلم نقض حقه وقد نسبت في لحم قوم مخالبه
فما زال يخفى الليل ما في سواده إلى أن بدت عند الصباح عجائبه

واسمعه يرثي لساقط الهمة الخامل في الأمة بقوله:

متى يكسب المعروف من كان همه غذاء يغذي أو فتاة تراقبه

أي همته بطنه وفرجه، بئس من كان هذا غاية مطلبه، وفيه يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

إذا هم صدته زواجر خوفه وعاقته من دون الرحيل حبائبه

قال الإمام: وإنما ذكرنا القصيدة بأسرها لسهولة موردها وعذوبة مشربها، وهي مع ذلك دلالة على سمو همة الإمام وغزارة فهمه، وبعد مرامه وحسن اقتداره.

قلت: وإمامنا السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ يعشق ما كان كذلك من الشعر ويطرب له طبعًا،

فلله دره من همام ولله در ذلك الإمام.

وقد سكنت عُمَان أيام هذا الإمام الرضي الشاري الولي الذي باع نفسه برضى الله عزَّ وعلا، ولم يبلغنا أن قائمة قامت عليه من أهل عُمَان ولا غيرهم، وإنما انتقد بعض العلماء بعض الأشياء رأوها تقع في جيوش الإمام راشد بن سعيد فاستنكروها، وجردوا فيها سؤالاً للإمام رَحَمَهُ ٱللَّهُ، وأرادوا أن يعلموا ما عنده فيها فأجابهم عنها على نحو سؤالهم مع علمه بما يشيرون إليه، وقد برح الخفا ولا حيا في الحق، ولا طاعة للمخلوق في معصية الخالق، والاستكشاف تثلج به الصدور وتصح به الأمور، وسوف ترى قريبًا إن شاء الله.

وقال شيخنا ابن جميل فيه:

والحضرمي نشر الأشعارًا في فضله ورفع المقدارا

معناه رآه أهلاً لأن يمدح وتنشر فضائله وتذكر جمائله، ومن مدحته الأخيار وأثنت عليه الأبرار، كان أهلا لأن يذكر بكل جميل، والخلق شهود الله في أرضه، وهذه كتب من الإمام راشد بن سعيد أوردها العلماء في آثارهم، ليؤخذ منها أحكامه وتفهم منها نواياه، ويستدل بها على غزارة علمه ويعرف منها مبلغ حزمه، ويستعان بها على المراشد التي تنبغي من أولياء الأمر وقادة الأمة، وتجعلها دستورًا هامًا في الدين يقول على مثله هداة المسلمين، منها ما كان بصفة فتوى من الإمام، ومنها ما هو مراشد للولاة، وتوصيات للقضاة ونصائح للأخصاء من الأخوان، ودعايات إلى واجبات الدين والإيمان، ومنها تحريض للعمال على ملازمة الأعمال، وتحذير لهم من الميل والركون إلى الدنيا وأهلها من أصحاب الأموال.

قال الإمام السالمي رَحَمَهُ ٱللَّهُ: وفي الأثر مما كان يبتلى به الإمام راشد بن سعيد رَحَمَهُ ٱللَّهُ ، وسئل عنه ما تقول أيها الإمام في الإمام إذا غزا قومًا من أهل البغي ممن هو معروف مشهور بسفك دماء النّاس، وأخذ أموالهم مثل عقيل ونحوهم، فوقع

على بعض أصحابهم وأغار عسكره عليهم، وقتل من قتل منهم، وأخذوا لهم جمالاً وجواليق، ولم يمنعهم الإمام ذلك الوقت من أخذ الجمال؛ لأنه كان يحفظ الأثر أنه جائز أن يستعان على البغاة بخفهم وكراعهم، وهي الخيل والإبل، فسكت عن الإنكار لهذا ثم نظر وإذا بعض عسكره قد جعل ما أخذه من تلك الجمال غنيمة لنفسه، ورآهم قد حملوا عليها حبًّا، وركبوها ولم ينكر عليهم ذلك ما يلزم الإمام على هذه الصفة أيلزمه توبة وضمان، أم توبة بغير ضمان، أم لا يلزمه شيء من ذلك؟! فأجاب الإمام رَحِمَهُ اللهُ قائلاً: أما الضمان فلا يلزمه في هذه الجمال على ما وصفت؛ ولكن عليه أن يعلم من أخذ هذه الجمال أن غنيمتها لا تجوز لهم ويأمرهم بالتخلص منها إلى أصحابها، وإن لم يعرفهم أو يعرف أحدًا منهم دان الله بالإنكار عليهم إذا عرفهم.

ومنها كتاب كتبه الإمام راشد بن سعيد رَحِمَهُ اللهُ إلى أحد عماله وهو أبو محمد عبدالله بن سعيد والي منح، قال فيه: من الإمام راشد بن سعيد:

سلام عليك فإني أحمد الله إليك وآمرك بطاعة الله، وأوصيك وأنهاك عن معصية الله القادر عليك، وبعد هذا فإني أعلمك نصر الله الحق بك أن الأطماع قد اتسعت في أموال النّاس، وجعل كل فريق من ادعى في مال رجال دعوى طَرَحَ يَدَه فيه، والوجه أن تنادي في البلدان كل من يطرح يده في مال في يد غيره يحوزه ويمنعه ويدعيه ملكًا له، فإنه يعاقب على ذلك ولا يحصل على شيء غير العقوبة، ولا نطلب عليه البينة العادلة، بل يرجع في ذلك إلى قول أهل البلد، فاعرف ذلك واعمل به ولا تقصر فيه حتى تنحسم مادة الطمع، وزول الظلم وينغلق هذا الباب، ولا تؤخر ذلك إن شاء الله.

قال الإمام السالمي رَحِمَهُ اللهُ: وهي سياسة من الإمام أي راشد بن سعيد ونظر منه في قطع مادة الفساد جزاه الله خيرًا، فإن رأيه سديد.

وهذا كتاب من الإمام راشد بن سعيد رَحِمَهُ اللهُ، إلى عامله أبي المعالي محمد بن

قحطان بن محمد بن القاسم، عهدًا عهد به إليه يعلمه فيه شرائط العدل، ويتوخي فيه مسالك الحق لديه، ويتقي الله باريه، فإنه المالك لأمره والعالم بسره وجهره، قال فلقيته في جميع أموره التي جعلت له السبيل إليها وأوحدته الدخل فيها، على شروط يشتمل كتابي هذا عليها فأول ما ابتدأنا به بعد حمد الله تعالى فيه، وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ، وإني فأوصيك يا أبا المعالي قحطان بن محمد بن أبي القاسم بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، والانتهاء عما حرم الله عليك في زواجره، والعمل بما أمرك الله به من أوامره، فيما ساءك أو سرك، أو نفعك أو ضرك، وأن تأمر بالمعروف وتعمل به، وتنهى عن المنكر وتقف عنه، ولتحذر من خدائع الشيطان، وممن يؤازره على ذلك من الأعوان، احذرهم ونفسك وهواك وشهوتك ودنياك، فقد قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٢٧]، ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٞ وَلَهْوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغْفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٞۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، واذكر حق الله عليك، واشكر نعمته لديك، ولا تذهب بك حمية ولا تمنعك تقية أن تساوي بين وضيع النّاس وشريفهم، وقويهم وضعيفهم، وبغيضهم وحبيبهم، وبعيدهم وقريبهم، وقد جعلت حماية صُحار وما يتصل بها من العفة إلى صلان إليك، وعولت فيها عليك، فقم فيما وليتك من ذلك حق القيام، واستفرغ منك الطاقة والجهد التام، وشمر فيه عن ساق الجد، واحسر معه عن ذراع الشد أي لن صُحار هي البلد المنظور إليه في ذلك الطرق، وخصوصًا في ذلك الوقت، والمحذور عليه من الغزاة الذين طالما هاجموه، قال: من غير أن تتعدى في ذلك محظورًا، أو ترتكب فيه منكورًا، أو

تعترف فيه ظلمًا، أو تكتسب فيه حوبًا وإثمًا إلا ما تعتمده من منع ظالم في حال عدوانه من غير أن تعاقبه على شيء من عصيانه، فلترفعه إلى القاضي بصُحار، أي هو الذي يفرض العقوبات، وذلك لحفظ الوالي من التهور؛ لأنه لا يؤمن من الجاهل أن يضرب من حيث يظن النفع، أو يفسد من حيث يظن الصلاح.

قال: حتى يحكم عليه بما يلزمه من فعله، ويعاقبه بما يستحقه على فعله واعلم أني لم أجعل لك شيئًا من الحكومات، ولا أمرتك بشيء من العقوبات، بل جعلتك لحماية البلاد، وأمرتك بالمنع عن الفساد، ولدفع أهل الباطل عن ظلم العباد، فلا تتعاط ما لم يؤذن لك به، ولا تقصر عمَّا أمرتك بفعله، وكن للقاضي أبي سليمان مناصرًا ومعاونًا ومؤازرًا، ما دام في حكمه قائمًا، فقد أوجبت له ذلك عليك ما دام في حكمه عادلاً، وبطاعة ربه عاملاً، وأوجبت لك عليه وقبله أن يعينك على ما أهلتك له، وأوجبت على الشراة ما أوجبت عليه إلا أن تستعين بهم فيما لا يجوز لك ولا لهم المعونة فيه، وحجرت عليك وعليهم خذلان بعضكم لبعض فيما يجب عليكم من المعاضدة والمعونة والمساعدة، وفيما يعود بطاعة رب العالمين، وفي إعزاز دولة المسلمين وكسر شوكة المعتدين، فافهم ما ذكرته لك وتدبر فيه ولا تجاوز حده ومعانيه، وقد أوجبت على الشراة أن يطيعوا الشراة وغيرهم ممن تجب عليه طاعته في طاعة الله ربهم أن يطيعوا أمرك، ويقووا على الحق يدك، ما كنت في طاعة الله داعيًا، وعن معصية الله ناهيًا، وحجرت عليهم عصيانك وخذلانك إذا استنصرت بهم على محاربة أهل الظلم، ومن يعتمد في المسلمين بالجور والغشم، على أن تستمل في ظغنك وإقامتك وحربك ومسالمتك للمسلمين غير ما أحل الله لك ولدولتك، ولا تحرم غير ما حرّم الله عليهم وعليك، فإن فعلت ما رسمته لك فذلك رجائي وحاجتي إليك، وإن خالفته بعمل الباطل والجور وكون إلى الشيء المحرم المحجور، فإني بريئ من فعلك وأنت مأخوذ بما يجب عليك فيه في نفسك ومالك، فاتق الله في قولك وأعمالك، واستعذ به من

الورطة في المهالك، واستعنه على ما يتقرب به إليه، واعتصم به ما تحذره وتتقيه، وتوكل في جميع الأمور عليه، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الهكف: ١٧]، ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

فترى هذا العهد العظيم من الإمام الكريم لواليه على صُحار، فشمل القاضي والشراة الذين هناك، وقد ربط الإمام رحمه الله بينهم بهذا الرباط الوثيق، على هذا العهد الحقيق أن يكتب بماء الذهب، فقد بين فيه الواجب والجائز وما ينبغي في مصالح الدين والدنيا، وما يرام فيها بين المسلمين من الأعمال الخاصة والعامة، فلله درُّ إمام يراعي أمته في بعدها وقربها، وفي حلها وترحالها، ويؤيدها مع الحق ويتبرأ ويتنصل من أفعالها إن خالفت للحق غير مبال بها في طاعة الله وطاعة رسوله، فالحمد لله الذي جعل في الإسلام مثل هؤلاء الأئمة الأعلام، والهداة الكرام الذين لا يخافون في الله لومة لائم، ولا عذل عاذل، قريبهم المطيع لله، المستقيم على النهج الذي عليه المسلمون وبعيدهم من يخالف ما عليه المؤمنون فلا عنصرية ولا عصبية ولا مذهبية إلا الحق في كل دور من أدوار حياتهم، فهم في سيرهم وسراهم لله وفي الله. بمثل هؤلاء الرجال تسعد الأمة ويعلو مقامها عند الله ويجمع الله بها الشمل.

هذه هي سيرة أئمتنا الكرام أعاد الله علينا وعلى الأمة أمثالهم.

* * *

الإمام راشد بن سعيد يقضي بفصل قضية موسى بن موسى وراشد بن النضر والصلت بن مالك

في يوم الخميس لأربع عشرة ليلة بقين من شهر شوال سنة ٤٤٣هـ ثلاث وأربعين وأربعمائة، جمع الإمام راشد بن سعيد المشايخ الذين معه، وهم: أبو

علي الحسن بن سعيد بن قريش القاضي، وأبو عبدالله محمد بن خالد، وأبو حمزة المختار بن عيسى القاضي، وأبو عبدالله محمد بن تمام، وأبو النضر راشد بن القاسم الوالي، وأبو علي موسى بن أحمد بن محمد بن علي، وأبو الحسن علي بن عمر، وأبو بكر أحمد بن محمد بن أبي بكر، وعرض عليهم رأيه في قضية الأئمة: الصلت ابن مالك، وراشد بن النضر، وموسى بن موسى، وأفاد ما عنده في القضية فصلاً حاسمًا لنزاع لم يبن مشايخ العلم في تلك الحادثة التي لم تزل أحدوثة السمر، وبها قد انشقت عصا المسلمين، وحصل بينهم بسببها الحقد والكدر، والإيمان يدعو إلى التآلف والتآزر، ورفض ما يفرق أمر المسلمين، وهم جميعًا كما نص بذلك القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وكما نص الحديث الشريف عنه ﷺ: كونوا عباد الله إخوانًا وعلى الخير أعوانًا في أمثاله.

قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب حرره فصلاً للقضية المشار إليها وهو قوله: بسم الله الرحمن الرحيم، من إمام المسلمين راشد بن سعيد، قد اجتمعت بحمد الله ومنه كلمة عُمَان على أمر واحد، ودين قيم، وهو دين الله الذي أرسل به رسوله محمدًا ﷺ، فمنهم من تولى الصلت بن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، وبرئ من موسى بن موسى وراشد بن النضر، ومنهم من تتولى على ولايتهم الصلت بن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، وبراءتهم من موسى بن موسى وراشد بن النضر، واجتمع على الدينونة بالسؤال فيما يجب عليهم السؤال فيه عند أهل الحق الذين يرون السؤال واجبًا، واجتمع رأيهم على أن من دان بالشك فهو هالك، وكذلك اتفقوا على أن من عَلِمَ من محدث حدثًا وجهل الحكم فيه أن عليه السؤال فيه، وأن علم الحدث والحكم كان عليه البراءة منه، إذا كان حدثه ذلك مما يجب به البراءة من فاعله والحمد لله حق حمده، وصلى الله على خيرته من خلفه محمد النبي وآله وسلم.

وكتب هذا الإمام راشد بن سعيد بخط يده فصدق عليه المشايخ، ورضوا به فصلاً للقضية وحجة تقضي على تلك البلية، التي صار لها بينهم عظيم الأهمية،

إذ هي قضية دينية. قال الناقل عنهم: ولأجل هذا الكتاب غضبت الغلاة في أمر موسى بن موسى، وراشد بن النضر، على الإمام راشد بن سعيد غضب الخيل على اللجم، قال: فأضمروا في أنفسهم ما أضمروا، ولم يستطيعوا كيدًا للإمام ولا إظهار عداوة، بل انقادوا في الظاهر وأخفوا بدعتهم في أنفسهم، كما سترى بعض كلامهم في إمامة ولده حفص بن راشد بن سعيد، أي حين اختلف الوضع وتبدل الشخص عادوا إلى ما كانوا عليه والشيطان يتلاعب بالنّاس تلاعب الكرة بالصولجان وقاصد الخير لا يبعث الشر، والداعي إلى الحق لا ينبغي منه السعي إلى الباطل، وموسى بن موسى وراشد بن النضر، والصلت بن مالك، لا يخص من جاء بعدهم شيء من أعمالهم، والله لايكلف قومًا بأعمال غيرهم، ولا يرضى في عباده إلا الحق، ولا فعل هذا صحابة رسول الله ﷺ. وقد وقعت بينهم فتن وحوادث، ونزلت بينهم قضايا هامة وهي على كاهل أهلها ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤١]، فما بالنا نحن كلما طال الزمان جددنا المأساة، وأعدنا العداوات بها، أيرضى بهذا عاقل عافاه الله من ذلك، إن هذه لعجب.

وكان الإمام راشد بن سعيد رَحِمَهُ اللهُ يشاري النّاس، وبقى البحث هنا في هل يبقى حكم الشرى بعد موت الإمام أم لا؟ فأفتى الشيخ أبو الحسن بن سعيد ببقاء حكم الشرى على ما كان عليه، حتى يموت المشاري يراه عقدًا على طاعة لا يصح نقضه إلا بالموت، أي لا يرتفع عن المعاقد إلا بموته، وربما يرى بعض العلماء أن تلك صفقة صافقها المشاري إمامه وعليه الالتزام ما دام مصافقه حيًا، فإذا مات انحل ذلك لعدم المصافق، وبهذا أفتى محمد بن خالد أحد علماء ذلك الوقت والله أعلم.

قال شيخنا ابن جميل عفا الله عنه:

ولم يزل كذاك في الإمامه حتى توفي بالـفـا حمامه
وقبره بنزوى وقد روينا لا أعرفن موضعه تعيينا

وتوفي الإمام راشد بن سعيد رحمه الله في المحرم سنة ٤٤٥هـ بنزوى رحمه الله وقبره بها.

وهذا كتاب من الإمام راشد بن سعيد إلى الشيخ موسى بن نجاد، والي منح وأدم معًا في أحوال بعض السرايا التي سيرها الإمام المذكور في بلاد المسلمين، وانتقد بعض النّاس منهم أحوالاً، وذكروا عنهم أعمالاً، ولا تخلوا هذه الحياة من حوادث تنتقد، وأعمال تعتمد.

قال الإمام رحمه الله على أثر ذلك: فإن كان أحد من أهل هذه السرية قد ركب جورًا أو فعل فعلًا منكورًا فأنا بريء منه، أي لم آمر بفعل الجور ولا أرضى به، ولا يسعني السكوت عنه إذا قامت حجته، قال رحمه الله: أنا بريء منه ومن فعله، معاقب له على ذلك بعد الصحة، منصف بما يجب في الحق عليه، غير راضٍ بجهله وتعديه. وما بعثت هذه السرية إشارة للسرية التي وقع النقاش من أجلها لم أبعثهم، حتى نهيتهم عن ظلم العباد، أي تقدمت عليهم بذلك كما هي سيرة أئمتنا منذ الجلندى، بل منذ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إذ كان يتقدم على كل السرايا تحذيرًا وتنبيهًا وتنصلاً إلى الله، ثم إلى المسلمين إخوانه حتى لا يقع عليهم سوء ظن رحمهم الله وجازاهم عن الدين أفضل الجزاء، ما كان لهم نظر في غير المصالح الدينية، فهم هداة الأمة إلى الحق، وهم الدعاة إلى إحياء الشريعة المحمدية، لم يغتروا بالبيضاء والصفراء وإن كثرت، كما روي عن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين قوله: يا بيضاء ويا صفراء لا تغريني وغري غيري، أي لست المغتر بك لا أرب لي فيك، ولا يميل قلبي إليك، إنما أنت فتنة فلا أفتن بك، ونحوه عن أهل العلم المخلصين لله عز وعلا في المذهب.

قال الإمام راشد بن سعيد رحمه الله: وأمرتهم في غزوتهم المشار إليها بطاعة رجل من أهل الصلاح والرشاد، ولا بد للسرية من أمير من طرف الإمام، هكذا قال، فإن كانوا تجاوزوا في ذلك إلى ما لا يجوز لهم فعله فعليهم وزر ما فعلوه، وضمان ما أتلفوه على النّاس وأحدثوه، ولست بداخل معهم في عصيان ولا مشارك لهم

في ضمان، فإن يكن أحد يدعي على أحد من أصحاب السرية حقًا فليصل إلي حتى أوصله إلى حقه، وليس علي علم ما غاب عني، ولا إنصاف من لم يطلب الإنصاف مني، ولن تقوم الحجة على العسكر بالخط، أي بكتاب يرسله المدعي عليهم، بل عليه أن يحضر، على الإمام إحضار الخصوم، ثم يترافعون إليه، فإن شاء أن يحكم بينهم حكم وإلا دفعهم إلى من يراه أهلاً لفصل هذه القضايا من أهل العلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تقوم الحجة على العسكر بالخط والقرطاس، أي لاحتمال أشياء في المقام كما أشرنا إلى وجه من وجوهها. قال: ولا إلى كلام من لا يلتفت إلى كلامه من النّاس، أي كذلك لا تقوم الحجة على المسلمين بكلام الغوغاء والمرجفين الذين لم يكونوا حجة في دين الله، كما نص على ذلك الكتاب والسنة، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وللمسلمين بحمد الله مداخل في العدل ومخارج من الجهل، ينكرها من لا بصر له ولا تمييز معه، ويعرفها من هداه الله لمعرفتها ونفعه الله بها، ومن نطق بقول لا بصر له فيه ولا يعرف حلاله من حرامه، وقصد من لا يعرف جوره من دله، لم يسلم من ذلك ولو أصاب في قوله وفعله، أي لم تغنه إصابته تلك؛ لأنها كانت على غير علم، كما أشار إلى ذلك حديث الربيع وغيره في قوله عليه الصلاة والسلام، (ولو أنه أصاب الحق في خصوصه) حديث (من أفتى في مسألة أو فسر رؤيا بغير علم) الحديث.

وهذا الكتاب الذي كتبه الإمام راشد بن سعيد لوالي منح، وكتبه أيضًا لوالي أدم، وكتبه لوالي سني، وجعله حجة بينه وبين الولاة المذكورين فكان سدًا مانعًا عمّا قد يكون من بعض النّاس الذين تأخذ بهم معرة الجيوش ونشوة النصر، والله الهادي للحق بإذنه، فرحم الله الإمام الراشد ورضي عنه، وأن هذا هو سبيل أئمة الهدى الوقاة من الردى، والدعاة إلى الاهتداء، فإن أصل قوامهم الايمان بالله، والايمان يحتم عليهم الطاعة التي لا شائبة فيها، والتباعد من أهل السوء كما يفهم

من قوله ﷻ: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، والمراد بها التمسك بالأوامر الإلهية والثبات عليها في المكره والنشط، والعض عليها بالنواجذ. ورد من يرتد عنها إليها، وإرغام من عاداها عليها، ولن يقوم الإسلام الذي هو دين الله الذي فرضه على عباده، وأراده منهم وأرشدهم إليه في الأيام الخالية، فكان شمس الهدى العالم كله أضوء من شمس السماء التي تعرفها العوام الجهلة إلى بذلك، وما أشرق ضوء تلك الشمس إلا وأصبح العالم كله يتلألأ نورًا، ويشرق ضياءً، ينادي بلسان الحال كل ذي نهى في الكون.

* * *

إمامة الإمام حفص بن الإمام راشد بن سعيد

قال شيخنا ابن جميل بعد ذكر راشد بن سعيد:

ونصبوا من بعده سليله حفصًا وكان في الهدى مثيله
وكان سلطان العراق نقلا جيشًا على حفص وكان اقتتلا
وانهزموا ولم يزل إمامًا حتى توفي واحتسى الحماما

والمعنى أنه لم يزل على إمامته حتى توفاه الله لا كما يقول ابن الأثير في خريطته التي يدونها بغير تحقيق، ويعلق الأخبار متلقفًا لها من ألسن الأعداء الذين لا يبالون بما يقولون ولا بما ينقلون.

لقد عرفت نسب راشد بن سعيد مما تقدم، وهذا ولده حفص بن راشد، وقد توفي راشد بن سعيد في سنة ٤٤٥، وبويع ولده هذا بعده. قال في معالم الجزيرة: وبويع بعد راشد بن سعيد ولده حفص. قال الإمام: ذكر في بعض السير أنه نصب من بعد راشد بن سعيد ولده حفص بن راشد، قال: ولم يذكروا تاريخًا لبيعته ولا لمدة إمامته، قال: وظاهر كلام بعضهم أنه مات في الإمامة، فإنه قال مات ولم يعزله المسلمون، قال: وكلام أبي الحسن البسياني وهو من الغلاة في أمر موسى وراشد أن بيعته عنده غير صحيحة.

قال: ولعل: ذلك لسلوكه طريقة والده في أمر موسى وراشد، فإن أبا الحسن بما نصه: ما تقول أيها الشيخ في حفص بن راشد إن تاب ورجع وجددت إمامته يرجع إمام المسلمين أم لا؟ فإن عقد له من متعلمي أصحابنا وثقافتهم خمسة أنفس تنعقد له الإمامة وإن بلينا به وطلب منا النصرة والخدمة ما نعمل، وما يكون قولنا له؟ قال: أما العقد الأول فإنه لم يصح وعلى ما ذكر بعض من دخل فيه رأيته عقدًا غير ثابت، وأمرًا مشكلاً، وقد جرى بعد العقد الذي هو غير ثابت أحكام غير جائزة، ومشهور فسادها، ودخل فيها من لم يكن يجوز أن يتقدم بأمرها، ومع ذلك أيضًا حدث قتل من قد علمتم فتكًا بغير صحة ولا حجة علمناها،

وأوحشنا ذلك، فقد طلب منه تصحيح ذلك الحال أصحابنا، فلم يبينه، وقولنا في ذلك قول المسلمين، ونحن نتوب إلى الله. وأما إن اجتمع أمر المسلمين وأهل المشورة في الدين على شيء، ووقع التراضي على إمامته، فبعد التوبة وإظهار ذلك والإنصاف أو حجة أي تخرجه مما يدعي جائز أن يعقد له إن تاب.

قلت: إن هذا الشيخ ينكر العقد للإمام حفص بن راشد، ولم يبين وجه ما يقول ولا ما ينكر، وليته بين يعلم المسلمون ما عنده إن كان حقًّا تبعوه عليه، وإن كان باطلاً اجتنبوه معه، حتى يعلموا من الإمام الحق الذي لا ريبة معه، أما الحكم بالبطلان وعدم صحة العقد ليرتب عدم صحة الإمامة فلا يكفي، فإنه إذا اكتفى به هو لم يكتف به غيره من المسلمين، والأمر الذي يميل إليه الجمهور أولى من الأمر الذي يتبعه الأقل خصوصًا في الأمر الجامع كالإمامة ونحوها، فإنها من الأمور العامة بين المسلمين، وليتهم لم يشقوا العصا بينهم وإخوانهم فما يقوم به بعضهم يقوم به الباقون، وهو الذي يدعو إليه القرآن ويأمر به الرسول الأعظم صفوة آل عدنان، ولا ينتج الافتراق والتلاشي إلا من نوعه، وبذلك تسقط قوة المسلمين وتذهب هيبتهم من قلوب أعدائهم، وبذلك يطمع فيهم من كان يخافهم ويخشاهم.

قال الإمام: وسأله آخر أي سئل الشيخ أبا الحسن فقال: أفتنا في حفص بن راشد أكانت إمامته صحيحة أم لا؟ وقد بايعنا له محمد بن الحسن اللياني على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله فبايعناه، وخرجنا عندهم فلم نر من ذلك شيئًا، وسلمنا إلى الثقاة من أهل دعوتنا شيئًا من الزكاة فقبضها وأنفقها، فوقع الخوف فهرب وانتهبت فضمنها ذلك الإنسان الذي قبضها ألنا من هذا براءة عند الخالق أم لا؟ وذلك إنا كنا دائنين بطاعته مسلمين جاهلين بالبحث عن الإمامة، وكذلك ابتليت أنا لهم بقبض شيء من النّاس بأمر أصحابه أعلى فيه ضمان أما قبض بيدي فلا؛ ولكن كنت أحضر ذلك وآمر فيه ما يلزمني

في ذلك؟ بين لي رحمك الله، هذا سؤاله وما كان ينبغي له أن يسأل عن مثل هذا وقد بايع على حق بحسب الظاهر، ولا ينبغي له ذلك؛ لأن هذا يكون من نوع ما نهى الله عن السؤال عنه في قوله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١] ولما سأل عن هذه الأشياء أجابه الشيخ أبو الحسن بقوله: هذا أمر مستور، وأمره كان مقبورًا أي مكتومًا في النفوس، فلا أحب فيه ظهورًا، وأما أنا فقد بلغتُ الغاية وأفصحت الأمور مع الريب الذي فيه، وطلبت تصحيح ذلك فوجدت الأمر فيه غير ثابت في العقدة، والعمل غير مستقيم، ولم أكن دائنًا لله بطاعته، وكنت غرمتُ ما قبضوا مني، وأبدلتُ صلاتي يوم صلّيتُ الجمعة عندهم، وأما أنت على ما سألت فإن المستحل الدائن لله بالطاعة إذا أخطأ ثم علم بخطئه فأكثر القول أنه لا ضمان عليه، وعليه التوبة والرجوع عن ذلك، وأما الشيخ لعله يعني أبا محمد، فرأيت يوجب الضمان على من دخل مستحلاً بغلط، وقد كان ألزمني ضمان ما كان أيام راشد بن الوليد، لعل أرادوا من الذي دفعت وقبضت سوى الذي في الاستحلال والدينونة، والذي أحبه لك إن قدرت على الخلاص من ذلك أن تبدل مكان زكاتك وتستحل من أخذت منه شيئًا إلا أن يكون رسولاً لصاحب الزكاة إلى الوالي، فلا ضمان، وأما الأحكام عند الخالق فذلك إليه، وإنما تعبدنا بالحكم ما يعلم في الظاهر فعلمناه والسلام.

قال الإمام ؒ: هذا كلام أبي الحسن البسياني وفيه ما فيه على حفص، وما أراده إلا من قبيل مخالفتهم في الغلو في أمر موسى وراشد بن النضر، حيث إن الإمامين لم يكونا على بدعتهم، وكتبت بعد كلامه مسائل تشبه الرد عليه من كاتبها.

قلت: هذا في الحقيقة رد عليه؛ لأنها تعارض مدعاة، وتقضي بالاعتراض على ما أبداه، وهذا مما يخل بالأمر في الإسلام؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وكان ينبغي الاجتماع على الأمور ودفن كل سيء مهما أمكن، وكفى بالمرء نبلاً أن تعد معائبه، ولا يسلم الإنسان من هفوة وسقطة

مهما كان، والذي ينبغي التكاتف والتآزر وإلغاء العنصرية والعصبية في الممكن إلا أن يكون كفرًا بواحًا وهوًى متبعًا وإعجابًا برأي فهناك التناصح مفروض والتجاوز مرضي.

ومن تلك المسائل التي تشير بالرد على الشيخ أبي الحسن قوله: قال البعض إن الإمام لا يحتاج إلى العقدة إذا وقع الرضى به والتسليم له ثبتت إمامته، والمعنى أن المعتبر الرضى لا العقد، فإن وقع خمسين مرة على غير الرضى لا يكون حجة، ألا ترى إذا كان العقد على القهر والإجبار لا يكون حجة، وإن كان ألف عقد، أما الرضى ممن هم الحجة في الدين من علماء المسلمين وقادة المؤمنين، فإنه حجة ثابتة شرعية، ومن ذلك إمامة عمر بن الخطاب ﷺ، وإنما قدمه أبو بكر فقط فرضي به المسلمون وأذعنوا، فثبتت إمامته عليهم، ووجبت فيهم، ولم ينكر ذلك أحد من المسلمين، وإنما أنكر بعضهم غلظة عمر وشدته والقضية مشهورة بين المسلمين، معروفة صحتها في الدين، وبها احتج هذا القائل المعترض على هذا الشيخ الطاعن في إمامة حفص بن راشد رحمهما الله.

قال: ومن ذلك إمامة عمر بن الخطاب ﷺ، إنما قدمه على الإمامة للناس أبو بكر وحده ﷺ، فلما وقع التسليم والرضى بإمامته ثبتت له من غير عقدة أهـ بنصه.

قال: ومنها ما معناه أن الإمام مصدق فيما يكون فيه مؤتمنًا فلا يطالب بالبينة على يد سارق قطعها، ولا على حد أقامه، ولا على حكم أمضاه وأنفذه، وإنما يكون محجوجًا في الأشياء التي هو والرعية فيها سواء، مثل الحقوق التي للعباد فيها تعلق وتخرج منه مخرج الأحداث، كما من غيره أيضًا وفي هذا انتقاد واعتراض الشيخ أبي الحسن المنتقد على الإمام الحفص، المبتلى بأهل عُمَان في ذلك الزمان، وكان أيضًا الشيخ أحمد بن عمر بن أبي جابر المنحي من الغلاة في أمر موسى بن موسى، وراشد بن النظر، وكان يلوح بالانتقاد على حفص بن راشد، إذ كان يرى

فيهما رأي أبيه وكان الغلاة يغضبون عليه غضب الخيل على اللجم.

قيل لهذا الشيخ: ما تقول في إمام غير ثابت الإمامة ألزم رجل من المسلمين المدخل عنده في أسباب، وكان يأمره أن يكتب إطلاقات في الجبايات، إن كان إطلاق هذا الرجل لهذا المال على سبيل الاحتساب أنه يطلقه للفقراء وابن السبيل، وكان اعتماد هذا الرجل على هذه النية لا ليمضي أمر هذا الإمام ولا عمل برأيه، وإنما هو على قدر ما يرى من يستحق هذا المال لفقره لا غير ذلك، هل يسعه ذلك؟ قال: يسعه. قال الشيخ يسعه ذلك على هذه الصفة؟ قيل له: فإن أمره أن يحلف له رجلاً ممن يخشى منه كما يفعل الأئمة، قال الشيخ المذكور يحلفه للمسلمين لا له، قيل له: فإن أمره أن يبايع له أحدًا من النّاس هل له ذلك؟ قال الشيخ: يبايعه للحق لا له، قيل له: فإن أنفذه لغزو عدو المسلمين أو لقمع ملصة؟ قال الشيخ: يكون احتسابه ذكر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن امتنع عليه من أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر، وكان منكره الذي ارتكبه عيانًا كان له محاربته إن حاربه بعد أمره له بترك المنكر الذي ارتكبه، وإن كان على وجه التهمة له مثل قطعه الطرق والتعرض لمظالم النّاس والتعدي عليهم، ولحقه هذا القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لم يحاربه إلا بعد الاحتجاج عليه بأن المسلمين قد رأوا الإمساك في الحبس على الأشياء التي قد نسبت إليك، وشهرت عليك من المناكر، وقصدك إلى الظالم، فإن أجاب لم يكن إلا ما رآه المسلمون، وإن امتنع عن ذلك علموا له على الاستيثاق منه، فإن شهر السلاح وحارب على ذلك ولم يرجع إلى الحق كان قصدهم في مجاهدتهم هذه على أنهم يمسكون عن الأشياء التي قد نسبت إليه من المظالم والقصد لها، والمناكر والعمل لها، فإن تلفت نفسه في ذلك لم يكن فيه تبعة على هذه الصفة.

قيل له: فإن أراد هذا الإمام الخروج إلى بعض النواحي لغزو قوم ظلمة معتدين، وطلب صحبة هذا الرجل هل يصحبه؟ قال الشيخ: إن شرط عليه أن لا يفعل ولا

يقدم على شيء إلا برأيه وعرف صدقه في ذلك أن يقبل منه ولا يغضبه في شيء جاز له الخروج معه على هذه الصفة والله أعلم

وعلى كل حال إن محاربة البغاة وأهل الفساد في الأرض والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مفروضة على كل فرد من عباد الله، ولولا ذلك لضاع الإسلام وانهد كيانه وتبعثر بيانه، وإذا كان هذا الإمام غير صحيح العقد في الإمامة ورضى به المسلمون ثبتت إمامته كما ثبتت إمامة غيره بغير شك، وأي جرم اجترم حفص بن راشد حتى ينتقد عليه، أما متابعة والده في مقاله في موسى بن موسى وراشد بن النضر، والصلت بن مالك، فلم يفعل والده شيئًا يقدح في إمامته، وقد رام الرجل أمرًا يكون صالحًا أمر المسلمين جامعًا لشملهم، وأن تموت تلك الزعزعة العاصفة بالأمة وينقطع غبارها، وتنطمس آثارها، وأن لا تبقى تعاد طول الدهر لإثارة الشقاق وإقامة بواعث الافتراق، ولقد أحسن فيما صنع ولكل نظره والله ولي التوفيق.

أما ما ذكره ابن الأثير في كامله في آخر إمامة راشد بن الوليد، وهو يقول ذلك في إمامة حفص بن راشد المذكور، ففيه تخليط، أما أولاً فقد أروده في حوادث سنة ٣٦٣هـ ثلاث وستين وثلاثمائة، وأما ثانيًا: فلأنه ذكر خُروج سلطان العراق على الإمام حفص بن راشد، وأن حفصًا هذا جعل له أميرًا اسمه ورد بن زياد، وأن حفصًا بعد قتال سلطان العراق انهزم وفرَّ إلى اليمن فصار معلمًا إلى آخر ما قاله، وكله لا أصل له في التاريخ العُمَاني ولا غيره، وإنما هو تلفيقات أوردها وأخاليط اعتمدها آخذًا من ألسن العوام الذين لا يعرفون قبيلاً من دبير.

أما الحقائق العُمَانية التاريخية لم تذكر من هذا شيئًا أصلاً، وقد يؤخذ من نقله أشياء. قال ابن الأثير المذكور: اجتمع بجبال عُمَان خلق كثير من الشراة، واختص اسم الشراة بالإباضية وهي إحدى مزاياهم، قال: وجعلوا لهم أميرًا اسمه ورد بن زياد، وجعلوا لهم خليفة اسمه حفص بن راشد، فاشتدت شوكتهم. قال: فسير

إليهم عضد الدولة المطهر بن عبدالله في البحر أيضًا فبلغ إلى نواحي حرفان.

قلت: لم نعرف حرفان بهذا الاسم، ولا علمنا عنها شيئًا من أعمال عُمَان.

قال: فأوقع بهم وأثخن فيهم وأسر ثم سار إلى دما وهي على أربعة أميال من صُحار، فقاتل من بها وأوقع بهم وقعة عظيمة قتل فيها وأُسر كثيرًا من رؤسائهم، وانهزم أميرهم ورد وإمامهم حفص واتبعهم المطهر إلى نزوى، وهي قصبة تلك الجبال، فانهزموا منه فسير إليهم العساكر فأوقعوا بهم وقعة أتت على باقيهم، وقتل ورد وانهزم حفص وفرَّ إلى اليمن فصار معلمًا.

وجاء عنه أيضًا: أن الخوارج يعني المسلمين في حوادث سنة ٤٤٢هـ، قال: في هذه السنة استولى الخوارج يعني المسلمين ينبزهم بذلك إن لم يكن جاهلاً بالأصل وإلا فكيف يطلق على المسلمين الخوارج، ولا يطلق ذلك على غيرهم، وإذا سمّيناهم؛ لأجل التمييز فقط إباضية، من أين وجد الإباضية خوارج إلا إن كان يعني خوارج عن الباطل فأهلا وسهلاً؛ ولكن ما أراه أراد ذلك قال: استولوا على مدينة تلك الولاية، وأراد بذلك نزوى إذ هي عاصمة الداخلية. قال: وسبب ذلك أن صاحبها الأمير أبا المظفر بن الملك أبي كالبجا، كان مقيمًا بها ومعه خادم له، قد استولى على الأمور وحكم على البلاد، وأساء السيرة في أهلها فأخذ أموالهم فنفروا منه وأبغضوه، وعرف إنسان من الخوارج يقال له بن راشد الحال فجمع من عنده منهم وقصدوا المدينة، فخرج إليه الأمير أبو المظفر في عساكره، فالتقوا واقتتلوا فانهزمت الخوارج وعادوا إلى موضعهم، وأقام بن راشد مدة يجمع ويحتشد، ثم سار ثانيًا وقاتله الديلم، وكان الديلم هم جند الأمير أبي المظفر المذكور، ولا شك أنهم سيطروا على بني العباس في عراقهم، فكانوا جندًا، صاروا أمراء على الأمة، وأنه أهل البلد لسوء سيرة الديلم فيهم، فانهزم الديلم وملك بن راشد البلد، وقتل الخادم وكثيرًا من الديلم، وقبض على الأمير بن المظفر وسيره إلى جباله مستظهرًا عليه وسجن معه كل من خط بقلم من

الديلم وأصحاب الأعمال، وخرب دار الإمارة، وقال: هذه أحق دار بالخراب، وأظهر العدل وأسقط المكوس، واقتصر على ربع عشر ما يرد إليهم، وخطب لنفسه وتلقب بالراشد بالله، ولبس الصوف وبنى موضعًا على شبه مسجد، قال: وقد كان هذا الرجل تحرك أيضًا أيام أبي القاسم بن مكرم، فسير إليه أبو القاسم من منعه وحصره، وأزال طعمه. هذا كلامه والله أعلم بصحته.

وعليه فماذا يؤخذ منه فإنه قال أولاً: إن حفص بن راشد انهزم إلى اليمن وصار معلمًا، وهنا يقول خلاف ذلك كما تراه، أما تخريبه دار إمارة الظالم فصوابه ظاهر، وقوله. أظهر العدل فالعدل هو أنشودة أئمتنا رحمهم الله، وأما قوله: وأسقط المكوس واقتصر على أخذ ربع العشر مما يرد إليهم، يعني بذلك ما يؤخذ في الجمارك من أموال البحر الواردة للتجارة، وهو صواب وهل يبعد الصواب عن الإباضية فيما حرم الله وما أحل؟ لا والله إنهم أحق بذلك من غيرهم، ولذلك ينصبون الأئمة ويتجشمون المصاعب المهمة، وهذا هو بغية الإسلام من رجاله الكرام، وأما قوله: وبنى شبه مسجد لا نعرفه في أصحابنا فضلاً عن أئمتنا، اللهم إلا أن يكون موضعًا خصصه لصلاته، حيث لا يمكنه الخروج إلى المسجد؛ لأجل الحزم كصلاة الأئمة في غرفة الصلاة بنزوى، وبالرستاق وجبرين وهكذا، وأما قوله: وخطب لنفسه، فعلى كل حال إذا كان هو الإمام لابد أن يخطب لنفسه؛ لأنه الإمام أو يخطب له غيره بأمره. وقوله: ولبس الصوف لم يختص أئمتنا بحمد الله بلباس مخصوص، يكون شعارًا لهم، وإنما يلبسون ذلك زهدًا وقناعة كما كان على ذلك الصحابة رضوان الله عليهم، وأئمتنا مازالوا ولن يزالوا على طريقة الصحابة في كل جيل، من رآهم نادى بأعلى صوته هؤلاء الصحابة، أو من أراد أن ينظر إلى الصحابة فلينظر إلى أئمة الإباضية، وهذا لا يزال يردده الأجانب، وسمعناه منهم والحمد لله.

قال العلامة أبو إسحاق الإطفيشي قوله: وتلقب بالراشد بالله إلى آخره، هذا

اللقب وأمثاله لم تكن الأئمة من أصحابنا تلقب به في قطر من أقطار الإمامة في المشرق أو المغرب، وهذا من تخليط مؤرخي قومنا، وانظر إلى قوله: وبنى موضعًا على شكل مسجد، فإنه تعبير سخيف فيه شيء من التهكم لتستدل على مقصد هذا وأمثاله في حق من يخالفهم، ولتكن على بينة من أنهم حتى في الحقائق الواضحة المشتركة، لا يعبرون عنها تعبيرًا صحيحًا إذا شاء لهم الهوى، وإلا وأي غضاضة لو قال بنى مسجدًا وكأن هذا يرى أن الإمام ثار على خلفيته في زعمه، وقد لفق كلامه هذا ليبني عليه زعمه؛ ولكن تعبيره الأخير كشف مراميه وأبدى عواره، والإمام قائم بأمر الله تعالى تبعًا لسلفه من الأئمة، فهم منتخبون إمامًا بعد إمام إذا مات منهم سيد قام سيد، والحقائق لا ينكرها إلا عديم البصيرة، وإذا أنت أضفت إلى هذا قول ابن الأثير قيل وانهزم، حفص إلى اليمن فصار معلمًا، فهو أسطورة، ومؤرخو عُمَان أثبتوا أن الإمام حفص مات في إمامته دون خلاف كما لديك اليقين في الحكم على هذا التشويه التاريخي.

وقد قدمت لك التحقيق عن مقاصد هؤلاء المؤرخين، وقد وجهنا كلامه على أحسن الوجوه اللائقة! هذا ما قاله المذكورون، وفي ابن رزيق قال: ثم عقد بالإمامة بعده أي بعد راشد بن سعيد على ولده حفص بن راشد بن سعيد، فسلك نهج السلف الصالح في سيرته الحميدة، فما لبث فيها إلا يسيرًا إلى أن توفاه الله.

وهذا يدل على أن الإمام حفص لم يطل عهد إمامته، والتحقيق لم نتمكن منه وعسى إن شاء الله أن ندركه فنرفعه للاطلاع، ومن المستنتج المفهوم من المقام أن الإمام حفص بن راشد عاش زمانًا واسعًا في إمامته لا كما يقول ابن رزيق فإنه تولى الأمر وقام عليه الأعداء من زعماء السلطنة العباسية كما تردد المقال عنه في ذلك، وصار ما صار بينه وجيوش السلطنة المشار إليها.

❊ ❊ ❊

إمامة راشد بن علي من أئمة الطائفة النزوانية

قال ابن رزيق في سيرته: ثم عقد بعده أي بعد حفص بن راشد على راشد بن علي، فإن كانت هذه البعدية تاريخية فذاك، وإن كانت وقيته احتملت الفراغ في الوقت، وظاهر الكلام دال على أن راشد بن علي بويع بعد حفص بن راشد وهو الواضح، قال: فحمدته الخاصة والعامة وسار سيرة العدل وقمع أهل البغي والظلامة.

قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ: ولم أجد تاريخًا لوقت بيعته ولا عرفت نسبه، غير أن الأحوال تقتضي أنه بويع بعد حفص بن راشد، وعلى ذلك ترتيب السير أي لم يكن مانع بعد الإمام حفص بن راشد من إعادة الإمامة، والعُمَانيون لا يرون لهم قرارًا إلا تحت ظل الإمامة لما فيها من الاستقامة في الأمة، وما لديها من العدل والمساواة، وما تدعو إليه من الإنصاف بين النّاس، فلذلك ترى أهل إذا قامت الإمامة كانوا أعوانها وأنصارها؟ ورأيتهم تحت أجنحتها مسرورين بوجودها؟ وإذا زالت تضاءلوا وانضووا في بيوتهم مختفين حتى إذا رأوا الفرصة لها بروزا من مخابئهم، وخرجوا من أكواخهم منادين لإخوانهم، ناشرين لأعلامهم مؤيدين لإمامهم، جامعين لأمتهم تحت ظل عدلهم، وحسن الظن فيما قاموا له على أحسن التوجيهات التي تليق في الدين، وعلى أحسن المقاصد في المسلمين.

قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ: ووجدتُ تاريخًا لتوبته الآتي ذكرها قريبًا، أي فيستفاد منه وقت إمامته، قال إنها كانت أي توبته في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، فيكون على هذا هو على أثر حفص بن راشد كما أشار إلى ذلك ابن رزيق؛ لأن راشد بن سعيد، رَحِمَهُ اللهُ توفى في سنة خمس وأربعين وأربعمائة، وبويع بعده لولده حفص، ثم بويع بعد حفص بن راشد للإمام وراشد بن علي المذكور. قال: فحمدته الأمة وشكرته الرعية، وقام منار العدل قلت: إنما بويع لذلك وطلب منه هذا ومثله وهو حقيق؛ لأن يكون كذلك، والأوجب عزله وإقامة من يقوم بذلك عنه، وقوّي ساعد هذا الإمام وعلا صوته في عُمَان، وطال عمره في الإمامة وهو الذي

قتل القاضي نجاد بن موسى أحد الخارجين عليه في سنة ٤٩٦هـ في ذي القعدة لأحوال اقتضاها الحال، والله اعلم بمن هو المحق ومن هو المبطل، ولم نكلف عُلم ما غاب عنا، وحسب الظاهر أن الإمام راشد بن علي لما قدمت إمامته بعُمَان واشتدت صولته في الأوطان، وصفا له الجو من عمال بني العباس الذين طالما آذوا أئمة عُمَان، وطالما قادوا عُمَان بسلاسل الجور، وقد عرفت ذلك مما مضى، وهذا الإمام إذا سلم من أعداء عُمَان لا ينبغي أن يسلم من أهل عُمَان ليأخذ قسطًا مما أخذ إخوانه الذين تولوا الأمور قبله، وصارعتهم الليالي والأيام، وقد عاش الإمام راشد بن علي في الإمامة عهدًا واسعًا فإنه مات في سنة ٥١٣ هـ ثلاث عشرة وخمسمائة فيكون قد عاش قريبًا من ثلاثين سنة تقريبًا.

* * *

خروج الأعيان على الإمام راشد بن علي

لما قام عمود إمامة الإمام راشد بن علي انبعث عرق الشقاق، ونبض داعي الافتراق، ونفخ الشيطان في النّاس نفخته التي أثارت إحساس فريق منهم، وما كانت لهم أفكار تردعهم عن شق العصا بينهم وإمامهم، وأن ينضمّوا حول إمامتهم شادين عضده ومؤيدين دولته، داعين الله للتوفيق على طاعته، وأن يصرف عنهم معرة الجيوش الأجنبية، بل قام هؤلاء الأعيان المنظور إليهم في عُمَان، وهم نجاد بن موسى بن إبراهيم والقاضي أبو بكر أحمد بن عمر بن أبي جابر المنحي، ومن معهم من حزبهم وأهل طاعتهم، خرجوا على الإمام راشد بن علي لعزله عن الإمامة.

قال الإمام: وخرجت على الإمام الفرقة الرستاقية يريدون عزله، ورؤساؤهم يومئذ القاضي نجاد بن موسى والقاضي أبو بكر وهو أحمد بن عمر بن أبي جابر المنحي، خرجوا إلى الرستاق في ذي القعدة سنة ٤٩٦هـ ست وتسعين وأربعمائة فلم نجد ذكرًا لما كان بينهم، قال الإمام: غير أني وجدت تاريخًا قال: فيه خرج

نجاد بن موسى مغلوبًا مطرودًا ليلة الاثنين من سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، ولم يذكر أين كان الاجتماع للنقاش والمناظرة، ولعله كان في الرستاق وخرج القاضي المذكور وهو رئيس الجماعة القائمين، ورجع إلى نزوى وعلى أثر خروجهم من الرستاق إلى نزوى لحق بهم الإمام راشد بن علي، ولعله لما خرج القاضي مغلوبًا رأى له الإمام حركة فتنة عليه، فعاجله بالقتل فإن هذا القاضي قتل في هذه الأثناء، قتله الإمام راشد بن علي، قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ وقتل أي القاضي يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رجب سنة ٥١٣هـ ثلاث عشرة وخمسمائة، فكان بين خروجهم على الإمام وبين قتل القاضي المذكور سبعة عشر عامًا، وسبعة أشهر وبعض الأيام، وهذا يدل على أن الأحوال بين الإمام راشد بن علي وبين هذا الحزب الخارج توترت ومازالت تزداد توترًا حتى آلت على وقوع القتل بينهم، وكان الإمام أمر على القاضي من يقتله فقتله أنصار المذكور، كما يشير إلى هذه الأحوال كلامهم عنها، وهذا الذي نحن نلوم عليه فإن الاحتمال في الممكن الذي يكون له محتمل في الدين، ويسع المسلمين السكوت بل وفي السكوت عنه إطفاء لثائرته وإخماد لحرارة النفوس من جهته:

وما مضى قبلك لو بساعة دعه فليس البحث عنه طاعة

وكان قتل القاضي والإمام في نزوى، فخرج الإمام من نزوى على قتل القاضي في تلك السنة ليلة الجمعة لأربع ليال بقين من شهر شوال. وتوفي الإمام راشد بن علي بعد ذلك بيسير في هذه السنة وهي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وإلى الله المصير والأمر إليه، وهو العالم بأحوال عباده.

قالوا إن موسى بن نجاد عاش ستًا وخمسين سنة، وما مات حتى قتل ممن قتل أباه ثمانية عشر رجلاً ممن يدعي السيادة، وكأن الإمام راشد بن علي من بني خروص، فإن هذا الوقت وقت سيادة أئمة بني خروص، فإنه منذ الوارث بن كعب إلى هذا الوقت لم يكن إمام بعُمَان إلا منهم، إلا ما كان من إمامة عبد الملك بن

حميد، وإمامة سعيد بن عبدالله الرحيلي رحمهم الله، فلذلك يدعى لهم السيادة، فإن الدولة إذا حلت في قوم رأوا أنهم هم السادة للأمة، وكان القاضي المذكور له أتباع من نسبه ذكر منهم الإمام ولده موسى بن نجاد الذي قام بعد أبيه يأخذ ثأره ممن قتله ومنهم ولده كهلان بن موسى، ومنهم ولده معمر بن كهلان، وكان لهم أتباع وأنصار يؤيدونهم ويقومون معهم، وبذلك استطاع موسى بن نجاد قتل القوم الذين اشتركوا في قتل أبيه حتى قتل منهم ثمانية عشر رجلاً، وهذه عاقبة الشقاق والافتراق، ونعوذ بالله منه ونسأله عز وجل جمع الشمل تحت راية العدل.

وهذه رسالة بعث بها الشيخ القاضي أبو عبدالله محمد بن عيسى السري رَحِمَهُ الله، إلى الإمام راشد بن علي ينصحه بها، ويشترط عليه فيها، ويدلي بما عنده من الصراحة للإمام فيما يجب الدخول فيه من أمور المسلمين، وما لا ينبغي نوردها ليؤخذ منها المغزى الذي عليه الإمام المذكور وأصحابه، وما يجب لهم وعليهم، قال فيها:

أما بعد: فإذا طلبتم مني الاجتماع والألفة، وبذلتم من أنفسكم قبول النصيحة فإني راغب في مقاربتكم وموافقتكم، وكاره لمباعدتكم ومفارقتكم، غير أنه لا يصلح اجتماع على غير طاعة الله، وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، فإنه جعل في طاعته المحبة والاجتماع والألفة، وجعل في معصية العداوة والبغضاء والفرقة، فإن أردتم مني اجتماعًا في الظاهر، فإني لا يمكنني من ذلك غير ما أنا فاعل، وإن أردتم اتفاقًا في الظاهر والباطن، فحتى أرى منكم غير ما أنتم عليه والله لا يستحي من الحق.

وكأن هذا الشيخ ينكر على الإمام ومن معه الأحوال التي هم عليها كما يدل كلامه على ذلك. قال: ولا دهان في الدين، ونحن غدًا مسؤول بعضنا عن بعض، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقد أنزل الله كتابه وأرسل

رسوله وأوضح دينه، ولا جهل ولا تجاهل في الإسلام، وقد تقدم من المسلمين خلفاء وقضاة وأئمة وولاة، أخبارهم شاهرة وسيرتهم معروفة ظاهرة، فمن اتبع سبيلهم اهتدى، ومن خالفهم ضل وغوى، وقد قيل اتبعوا ولا تبتدعوا، وقيل شر الأمور محدثاتها، وقيل كل شيء إذا ذهب منه شيء ذهب كله. قلت: هذا مبني على أصل المذهب الصحيح أن الدين لا يتجزأ، بل إذا ذهب بعضه ذهب كله، ويدل عليه الحديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». الحديث بخلاف بقية الأشياء التي لها أجزاء أو تجوز تجزئتها، فما بقي منها له حكمه قطعًا. قال: والمسيء مخذول والله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

فأول ما اشترطه عليكم أن تنصحوني وتعرفوني عيوبي: وأن تقبلوا نصائح المسلمين ولا تردوا الحق على من جاءكم به بعيدًا كان أو قريبًا، بغيضًا كان أو حبيبًا، وأن تتوبوا إلى الله من جميع ذنوبكم، وتتقوه عز وجل في سركم وجهركم من العمل بطاعته، وأداء لفرائضه واجتنابًا لجميع محارمه، واقتداء بالسلف الصالح من المسلمين مع الورع الصادق، والوقوف عن كل شبهة وأن لا تعملوا عملًا إلا بحجة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والانتهاء عنه والموالاة لله والمعاداة فيه، ومشورة المسلمين أهل العلم والورع فيما يعود عليكم من الأمور، وقد قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولا تقتدوا برأيكم ولا تعجلوا في أموركم، ثم حسن الرأفة بالرعية عامة، وبأهل الصلاح خاصة والرفق بهم والعدل فيهم، وأن يتفقد الإمام أمر رعيته وقضاته وعماله، وإن اطلع على جور من عامل له أو غيره أنكر عليه، وقام في ذلك بما يلزمه ولا تطلبوا العلو والرفعة في الدنيا، ولا تستنكفوا ولا ترفعوا أنفسكم عن أدنى منازل الدين، ولا يكون القاضي إما أن يعطي الأمر كله وإلا غضب وجذب يده ووقف عمّا يلزمه، فإن من كانت هذه صفته لم يجز تفويض أمور المسلمين إليه، إذ ليس ذلك من صفات المسلمين، فإن ولى الإمام واليًا على بلد بمشورة غيره

من المسلمين لا يغضب، وإن كان القاضي والٍ على بلدٍ فعزله الإمام بغير رأيه لم يغضب، ولم يقف عمَّا يلزمه ولم يترك ما يجب عليه، وكذلك غير هذا من جميع الأمور، وأن تقتدوا بمن سبقكم من أئمة المسلمين وقضاتهم وولاتهم، وأن تتبعوا سبيلهم وأن تهتدوا بهداهم، فقد قال الله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وأن لا يُحلف القاضي النّاس لنفسه بما يُحلفُ به الإمام، فإن هذا لا يعلم أن أحدًا سبق إليه من ولاة المسلمين وقضاتهم وأن تردوا الخيل التي أخذت من الرعية.

هنا يتجلى بعض ما في نفس هذا الشيخ من الأمور التي ينتقدها، فكأن هناك أشياء شاع معهم أمرها، ولا ريب فإن النّاس لا يخلون من الأحوال يخالف ظاهرها باطنها وربما شاعت عليهم على غير وجهها اللازم لها، وربما كان لها في الحق مخرج، وربما كان للإمام فيها عذر، ولكل مقام مقال. قال: ومع ردها عليهم أي الخيل لا يجبرهم القاضي على الخروج معه لغزو ولا غيره، إلا أن يتفق للإمام الخروج بنفسه من أمر يجب عليهم الخروج معه، ولا يكون لهم عذر في ذلك، وأن تنصفوا النّاس في معاملاتكم ومداييناتكم، فإن كان لأحد عليكم حق فلا تمطلوه ليرضى بدون حقه تقية أو ضرورة، أو تلجئوه إلى أخذ شيء من العروض، حتى يأخذها بأكثر من قيمتها في البلد، ولا تبيعوا ولا تشتروا لأنفسكم إلا أن توكلوا في ذلك غيركم من الرعية، ممن هو غير داخل في حرمه وأمره، ولا يُعْلَم أن المُشتري لكم، ولا تقبلوا من الرعية الهدايا والعطايا، وأن تمنعوا خدمكم وأصحابكم من ذلك ولا تقبلوا من النّاس أموالهم على وجه، ولا ترسلوا إليهم في ذلك إلا أن يتبرعوا هم من تلقاء أنفسهم، أو يشير بعضهم إلى بعض من غير رسالة منكم، ولا تتحملوا الديون إلا من ضرورة في نفقة أو كسوة أو تقووا أمر المسلمين، ولا تبذروا أموالكم ولا أموال المسلمين، حتي تحتاجوا إلى أموال الرعية، وتأخذوا منهم على وجه القرض أو المداينة أو المعونة،

وتحتجوا أنكم فعلتم ذلك ضرورة أو حاجة، فليس هذا مما يوجد لكم عذرًا في أخذ أموال الرعية، وأن ترفعوا الطمع فيما لا يجب لكم على الرعية، وأن تسووا في الحق بين البعيد والقريب والبغيض والحبيب، ولا تصفحوا عن أحد وتأمنوه ثم تأخذوه وتعاقبوه بعد الصفح والأمان، ولا تخرجوا إلى النواحي والبلدان بعسكر لا تضبطونهم ولا تشدونهم عن الظلم والفساد، ولا تلزموا النّاس ما لا يلزمهم من الخروج، بل تعذروا من له عذر من مرض أو غيره، ولا تفوضوا أمرًا يحرج النّاس إلى العرفاء والجهال فيبعدوا وتأخذوا الرشاء منهم، ولا تجبروا النّاس على الخرج بلا زاد اتكالاً على الضيافة من عند النّاس، ولا تجبروهم على الرباط بلا نفقة، ولا تستفتحوا بلدًا من بلدان أهل القبلة، وأنتم لا تقدرون أن تتولوا عليها وتحموها وتأخذوها من ظالم وتسلموها إلى ظالم، وأن تبذلوا الإنصاف لأهل السر والسنينة من حرق منازلهم وخراب أموالهم.

وهذه أيضًا مما نفس الشيخ تنتقده عليهم وتتحرج منه صرح به الآن، وكأن هناك أحدثًا واقعة منهم لم نقف على تاريخها إلا ما نفهمه من كلام شيخنا هذا رَحِمَهُ اللهُ، ولا نعلم عذر المسلمين فيها ولا مقالهم عنها، فالله أعلم بها.

قال: وتعرفونهم عنها وأنكم أيضًا تعرفون جميع النواحي التي تجري فيها الأحداث من عسكركم وأصحابكم، وتظهروا إليهم الإنصاف حتى يعلموا أن الحق مبذول عندكم لمن طلبه، والباطل مردود على من فعله، ولا تخرجوا إليهم بعسكر تفعلوا عنده مثل ما فعل عسكركم الأول، وإذا شكت الرعية عاملاً من عمالكم، وطلبت عزله عنهم أن تعزلوه عنهم ولا تكلفوهم عليه البينة، وأن تردوا مكاتباتكم إلى ما كان عليه مكاتبات من سبقكم من المسلمين، وأن تفوا بعهدكم ووعدكم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] ولا تكتبوا لأحد رقاعًا خالية فارغة، فإن ذلك يخرج مخرج السخرية والهزل، وقد قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، ولا

تفوضوا إلى أحد الحكم بين النّاس، ولو كان لكم وليًا حتى يكون ممن يبصر الحق، ويعرف وجه الحكم، ولا تولوا واليًا على بلد ولا على حرب ولو كان لكم وليًا حتى يكون عالمًا بعدل ما تولونه عليه، ولا تأخذوا الزكاة من النّاس بالقيد والحبس على التهم، ولا تقولوا لمن تتهمونه بكتمان الزكاة إنا لا نقبل منك إلا بكذا وكذا، وهذا كأنه حكم، ولا يجوز الحكم مع المسلمين بالتهمة، وأن لا تبعثوا في طلب الزكاة من النّاس غير الثقاة؛ لتوكلوهم في تسليمها إليكم، فإنه قيل إن هذا لا يجوز، وأن لا تزيدوا على خدمكم فيما تعطونهم من أجرة خدمتكم خلاف سعر البلد، ولا تأخذوا أعطياتكم بغير حساب، فإن هذا لا يفعله صاحب دين ولا دنيا إلا ما شاء الله، وأن لا تكتبوا إلى ولاتكم وأمنائكم رقاعًا لا يجوز لهم أن يعلموا بها وأن لا تنفوا المسلمين ولا تعاقبوهم بالتهم والظنون، فإن العدول لا تهمه عليهم، وإن عاقبتم أحدًا من المسلمين فعرفوه الخطأ الذي أوجب عقوبته عندكم، وإن بلغكم عن أحد من أهل الصلاح ما تكرهونه فلا تعجلوا في عقوبته حتى تظهر الحجة عليه عند المسلمين، وأن لا تعرضوا لأحد في فعل منكر تأويلاً منكم أنكم لم تأمروا تصريحًا لم يلزمكم في التعريض، بل قد قيل إن التعريض يقوم مقام الأمر الصريح، وأن لا تعملوا بالآحاد من الأخبار التي لا عمل عليها عند المسلمين، وأن تقربوا أهل الصلاح وتدنوهم من أنفسكم، وتبعدوا أهل الجهل والسفل، وتنزلوا كل منهم حيث أنزل نفسه، وأن تعتذروا إلى من لحقه منكم جفاء من المسلمين، وأن ترجعوا في العبدة التي اشتريت من عند أبي الفرج والبيت الذي اشتري من عند موسى الفرقاني إلى قول المسلمين، وما يوجب الحق في ذلك.

وهذه النقطة الثالثة التي يعرب انتقاد الشيخ أبي عبد الله لها، قال: وأن ترجعوا في حكم المال الذي يمنح إلى قول المسلمين، ولا يستبد القاضي فيه برأيه دون المسلمين، وأن لا تعرضوا من عند أبي العرب بن أبي جابر شيئًا من عماله بقرض

ولا معونة ولا عارية، ولا تمنعوا ورثة إبراهيم بن عبدالله من مالهم بغير حجة ولا حكم، فإنا لا نعلم أن في ذلك جوازًا، وإذا سألكم أحد حاجة فإما: نعم منجزة وإما لا مريحة- أي إما وعد صادق وإما نفي كذلك، فإن خلف الوعد نفاق ومطل الوعد تنغيص. قال: فإن المماطلة عند العطاء تنغيص وتنكيد، والمماطلة مع الحرمان تخلية وهزل، وكلا الحالين مذموم عند ذوي الدين، وإنما يفعل ذلك من هانت عليه نفسه ودينه وعرضه، والمعنى أن ذلك من الأخلاق المسترلة التي نهى الشارع عنها، فلا يرضى بها إلا أهل الدنيا، ولا يرضى بها المسلمون.

فإن قلتم: إن ذلك من خدمكم وأصحابكم، فلو علموا منكم الكراهية لم يتجرءوا على ما تكرهونه إلا ما شاء الله، فأما إذا كانوا لا يتقربون بذلك إليكم فإن عاره وإثمه راجعان إليكم، ولا تحرموا الفقراء والمساكين هذا المال، فإن لهم فيه سهمًا، ولا تقفوا في شيء يلزمكم وتزيلوا عن أنفسكم إثم العذر في التخلف في العهد والوعد والتهمة بذلك، وأن تؤمنوا من خوفتم من المسلمين، وتردوهم إلى منازلهم، فإن قلتم قد بذلتم لهم الأمان، فلم يثقوا بأمانكم فلا أرى هذا يسقط به حجة عنكم، ولا يوجب به عند المسلمين عذركم، إذ كانوا قد عرفوا منكم الرجوع في عهدكم ووعدكم، بعد بذل الإمام خطة لهم بالأمان، وخافوه أن يفعلوا منهم من بعد كما فعلتم من قبل، وأن تبدوا الإنصاف لأهل السر في تلك الأحداث الشاهرة، وتفعلوا كما يوجد عن محمد عن محبوب رَحِمَهُ اللهُ أنه كتب به إلى بعض الأئمة، وعليك إظهار الإنكار في ذلك والطلب لمن فعله حتى يعلم النّاس أن من فعل ذلك فإن الحق معروف، وأنك مؤثرة على ما سواه وتظهر الدعاء إلى الإنصاف حتى تبسط لطالب الحق بلسانه، وأنا أشير عليكم في الأحداث التي جرت في السر وغيرها من النواحي والبلدان، وجميع الأحداث التي تجري من عساكركم وأصحابكم ورعيتكم حتى يظهر عند النّاس أنكم أنكرتم الباطل ولم ترضوا به ولم تواطئوا عليه، ولم تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتزيلوا

عن أنفسكم الأوهام الفاسدة، فأما إذا كنتم تنادون بتخويفهم وتظهرون الغضب على من تتهمون أنه أراد أن يكتب إلى الإمام، ويعلمه بما يجري من الأحداث فكيف يتجاسر الضعيف والمظلوم أن يرفعوا إليكم وينتصفوا ممن ظلمهم، وإياكم والتحقم على الأمور بغير حجة ولا برهان، وإياكم وسوء التأويل فإنه روى عن النبي ﷺ أنه قال:أخوف ما أخافه على أمتي ثلاثًا: ذلة العلماء، وحيل الحكماء، وسوء التأويل. فانظروا لأنفسكم وسلوا المسلمين عمَّا يجب عليكم ويلزمكم إتباع كتاب ربكم وسنة نبيكم، وآثار الصالحين قبلكم، ولا تميلوا بالنّاس يمينًا وشمالاً، واحذروا يومًا حذركم الله إياه فقال في محكم كتابه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وأنا استغفر الله مما خالفتُ فيه الحق والصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليمًا.

والإمام أراه ضعيف المعرفة قليل العلم والبصيرة، ولا أرى له أن يولي واليًا ولا ينصب قاضيًا ولا ينفق من مال المسلمين إلى أحد من النّاس، ولا يفعل شيئًا من هذه الأمور إلا بمشورة المسلمين أهل العلم والورع، ممن يكون له حجة في ذلك، وليس كل المسلمين يكون حجة في هذا، وإنما الحجة هو الفقيه، وهو الذي يجتمع له حالان: العلم والورع، فإن فعل شيئًا من هذه الأمور ببصر نفسه أو بمشورة من لا يكون حجة له في ذلك، فإني أخاف ألا يجوز له ولا يسعه ولا يجوز لمن دخل معه في ذلك ولا يسعه، وإن كان الإمام ضعيف المعرفة قليل العلم والبصيرة لا يعرف المشورة، ولا يهتدي لها ولا يعقلها فأخاف أن لا يثبت له عقد ولا يجوز للمسلمين أن يجعلوه إمامًا، ولو كان لهم وليًا وسلوا المسلمين عن ذلك، ولا تأخذوا منه إلا ما وافق الحق والصواب، وأنا أستغفر الله من كل خطأ كان مني في هذا الكتاب وغيره، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيرًا.

انتهى كلام الشيخ أبي عبدالله محمد بن عيسى ﷺ، ويستفاد من كتابه وقوع أحداث من الإمام وجيشه وأعوانه، كما نص عليها الشيخ وكأنها واقعةُ لا محالة، وما وقع من الجيش فهو من جملة ما يعد على إمامة إلا ما خرج منه بحجة صحيحة، وكان الإمام كما يقول الشيخ السري أنه قليل العلم ضعيف المعرفة، ولعلهم لم يروا غيره أصلح منه إذ ذاك ولكل زمان رجال، ولكل إمام أعمال، ولعله له عذراً وأنت تلومه، فهذا الكلام ظاهره مسوق إلى الإمام من هذا الشيخ احتجاجًا عليه، ولم نعرف عذر الإمام فيه ولا عذر أصحابه الموجه إليهم فيه الخطاب، ولابد لهم من جواب، ولابد إما أن يكون حقًا أو صوابًا لهم فيه العذر أو لا، ولعل توبة الإمام الآتي ذكرها كانت لأجل هذه الأحداث التي ذكرها هذا الشيخ الزاهد الرضي ﷺ وجزاه عن الإسلام خيرًا، وهو الواضح فإنهم حررها على رأي الشيخ أبي علي الحسن بن أحمد بن نصر الهجاري، قرر فيها ما يجب على الإمام أن يتوب منه وأن ينشر توبته منه للإطلاع عليها من أهل العلم الذين في نفوسهم اشمئزاز من وقوع ما وقع، وأرادوا بذلك إظهار الإمام بالدينونة فيما يلزمه أن يدين لله فيه عند المسلمين، فإنه ابتلى بأمور المسلمين، ولما ابتلى بقى في حيّرة من الأمر الذي دخل فيه بغير علم، والإمامة أمرها عظيم وخطبها جسيم، وللمسلمين أن يقدموا المفضول إذا تحققت المصلحة في تقديمه، كتقديمهم للإمام عزان بن قيس ﷺ، مع أن المقدمين له كلهم أعلم منه، إلا أن أحوالاً أخرى أهلته للتقديم، وأحلته للمقام الكريم، وكذلك تقديمهم للإمام سالم بن راشد بن سليمان الخروصي في عصرنا، فإن في الجماعة من هو أعلم منه؛ ولكن لكل مقام مقال، ولكل زمان رجال، وكل يصلح لشيء لا يصح له غيره، والمسلمون مكلفون بالقيام بأمور الدين ابتلاء من الله الذي يعلم المفسد من المصلح والله ولي التوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم: توبة الإمام راشد بن علي، عمل القاضي أبي علي الحسن بن أحمد بن نصر الهجاري، أي رتبها له على هذا الوضع لينشرها بين

المسلمين، معترفًا بما جاء فيها من اعتراف، وإذعان وخضوع وانقياد للمسلمين بحسب ما جاء فيها من الأقوال، والرجوع المطلوب من الإمام على أثر تلك القضايا التي وقعت، وعدت على الإمام، والحقيقة ليست التوبة عملاً صناعيًا ولا قولاً مسطورًا، بل هي رجوع قلبي وخضوع إذني، واعتراف نفسي يتجلى على لسان التائب نطقًا، وعلى هيئته صفة وعلى جميع جوارحه خضوعًا وانقيادًا لله وللمسلمين، إلى ما يعدونه عليه مخالفًا للحق، ومباينًا لمذهب المسلمين، وهذه التوبة التي يصنعها هذا الشيخ أبو علي الحسن بن أحمد لإمامه راشد بن علي؛ ليقبل المسلمون منه، وأن يرفضوا الحرج عليه ويكون عندهم بالمنزلة المرضية المقبولة في دين المسلمين؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمعترف بما عليه تنصلاً لا يطالب بضده في الحكم ولكل حالة حكمها ولكل قضية مقامها.

وهذا نص التوبة المشار إليها يقول فيها بعد البسملة والحمد له: أنا أستغفر الله وتائبُ إليه من جميع ذنوبي كلها قليلها وكثيرها، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، ما علمت منها وما لم أعلم، كان ذلك مني على العلم أو الجهل أو الخطأ أو النسيان، أو التدين أو الاستحلال، أو التحريم، كنت متأولاً فيه أو دائنًا به بلساني، أو اعتقدته بقلبي، وتائب إلى الله تعالى من السيرة التي سرتها بغير العدل مخالفة للحق، ومن كل خطأ مني في إلزام أهل النواحي الخروج منها، ومن ترك النكير على نجاد بن موسى بعد علمي بسيرته، ونجاد هذا هو الذي قتله هذا الإمام، وكأنه وقع منه أمر أنكره المسلمون، استوجب به القتل فقتل كما سبق ذكره، وكأنه أي القاضي المذكور سار سيرة غير مرضية؛ ولكن لم يبين الإمام حقيقتها، وكان يتولاه فندم على ولايته، وتاب منها، وكان ولاه الأمور وهو يرى أحداثه، وهذا الشيخ الذي عمل هذه التوبة للإمام معه على أحداث نجاد بن موسى، وهذه الأمور هي التي أنكرها الشيخ محمد بن عيسى السري في كتابه المتقدم، قال الإمام في توبته: ومن ترك النكير على نجاد بن موسى بعد علمي بالسيرة التي

سارها مخالفة للحق والعدل، ومن ولايتي له على ذلك وتوليتي إياه بعد علمي بأحداثه وفعله، ومن الجبايات التي أمرت بها وجبيت بغير حق، وأنفقت في غير أهلها ومستحقيها ومن العقوبات التي عاقبت بها بغير الحق، وتعديت فيها بغير الواجب، أو أمرت بذلك من فعله ومن إخلافي لكل وعد ولم أوف به، ورجعت عنه، ومن كل عهد عاهدته ثم نقضته، ومن تقصيري عن القيام بما يلزمني من الحق والعدل، ودائن لله تعالى بما لزمني في الأحداث التي أحدثتُ في القرى على أهل القبلة من الخراب والحرق، وأخذ الأموال وعقر الدواب والأحداث في تخريبها وما جرى من العساكر التي أخرجتها ومن كل حرب حاربتها، وسفك الدماء فيها بأمري وملزم نفسي بذلك، وما لزمني من حق وضمان ودية وأرش وغير ذلك، فأنا دائن لله بالخروج منه، وقابل قول المسلمين، وراجع إلى قولهم، وقابل نصيحتهم، نادم على ما سلف مني في نفي أحد من المسلمين، أو عقوبته بغيرما يلزمه، ومعتقد أني لا أرجع إلى ذنب، وإن علمت بذنب بعد هذه التوبة فهو داخل في هذه التوبة، وهذه التوبة لازمة لي إلى الممات ومن كل تولية والٍ وليته، ولم يكن أن أوليه، شهد الله وكفى به شهيدًا ومن حضر من المسلمين.

وكانت هذه التوبة من الإمام راشد بن علي بحضرة القاضي أبي عبدالله محمد بن عيسى السري رَحِمَهُ اللهُ، والقاضي أبي علي الحسن بن أحمد بن نصر الهجاري، والشيخ أبي بكر بن عمر بن أبي جابر، وأخيه أبي جابر محمد بن عَمْرو بن أبي جابر، وعلي بن داود، وعبدالله بن إسحاق المنقالي وغيرهم من المسلمين، وكانت هذه الشهادة يوم الاثنين لإحدى عشر ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٢هـ اثنين وسبعين وأربعمائة.

هذا تمام هذه التوبة المحررة باسم الإمام راشد بن علي المنشورة بين أهل العلم من أهل زمانه، وهي ثمرة ذلك الكتاب الذي حررة ذلك الشيخ السري رَحِمَهُ اللهُ وهي جامعة لكل ما يتعلق بأمور الدنيا والدين، وعسى أن يكون مقتضاها من الإمام

المدعو لها من صميم القلب وخالص الإيمان، والله يتولى من عباده الصالحين، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ولم نجد للإمام اعترافًا بذنب خاص وتوبته تتناول كل ما يلزم، والله الموفق للخير وحده، وقد عرفتَ ما ندد به الشيخ السري محمد بن عيسى على الإمام، الله في خلقه ضنائن والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

ولما بلغت هذه التوبة إلى الشيخ المذكور، وعرف مقتضاها، أجاب الإمام بقوله فيها إذ سأله الإمام عن ذلك قال:

بسم الله الرحمن الرحيم، من القاضي أبي عبدالله محمد بن عيسى رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إلى الإمام راشد بن علي، فيما سأله عنه من هذه التوبة، وما رد عليه فيها، سألت عن التوبة التي دعاك الجماعة إليها وإلى الكتاب الذي كتبوه لك فيها، فاعلم أني نظرت في ذلك على قدر ضعفي وقلة بصيرتي، فرأيت الكتاب يشتمل على معانٍ كثيرة يطول شرحها، غير أني أذكر لك من ذلك ما يسر الله، والله أسأله التوفيق لذلك، أما توبتك من السيرة التي سرتها بغير العدل مخالفة للحق، فإن كان ذلك قد جرى منك على الاستحلال والتصويب لنفسك، فلا أرى هذه التوبة تكفيك ولا تصح لك، ولا يقبلها المسلمون منك حتى تفسر ذلك تفسيرًا غير هذا، وتتوب منه بعينه على التفسير، وإن كان منك على التحريم والتعمد لمخالفة الحق عند فعلك فما كان فيها من تلف نفس أو مال، فعليك الضمان والخلاص من حقوق العباد في الأموال مع التوبة، إن كان ذلك منك جهلاً بحرمته، وظنًا منك أنه واسع لك من غير تعمد للحرام، ولا قصدًا منك لمخالفة الحق والاستحلال لذلك بديانة وتأويل، فقد يوجد مثل هذا يخرج مخرج التحريم، وقد تقدم القول في المحرم، وما يلزمه في الأموال والأنفس والخلاص من ذلك، وأما توبتك من الجبايات التي أمرت بها وجبيت بغير الحق، وأنفقت على غير أهلها ومستحقيها، فالأمر فيه على نحو ما تقدم من الكلام في المحرم والمستحل، فإن كان ذلك على وجه الاستحلال

لما حرم الله فلا أراك تكتفي بهذه التوبة، ولا يصح ذلك حتى تفسر تفسيرًا غير هذا، وتتوب منه بعينه على التفسير، وإن كان منك على وجه التحريم، فقد تقدم الكلام في المحرم، وعليك الخلاص من جميع ما أتلفته من الأموال والأنفس، وإن كان ذلك على وجه العمى والظن أنه واسع لك، فقد تقدم القول في ذلك أنه يخرج مخرج التحريم، وأما توبتك من العقوبات التي عاقبت بها بغير الحق، فإنها تجري مجرى ما تقدم من القول به والجواب واحد، وأما توبتك من كل حرب حاربتها، وسفكت الدماء فيها بأمرك فإن كنت حاربت حربًا بعد حرب منها ما هو بالحق وما هو بالباطل، فتبت من جميع ذلك فلا يجوز لك أن تتوب من الحق، وعليك التوبة من توبتك من الحق، وعليك التوبة أيضًا من الحرب التي حاربتها بالباطل، وإن كان على الاستحلال فقد تقدم الكلام في المستحل، وإن كان على التحريم فقد تقدم الكلام أيضًا في المحرم وما يلزم في ذلك من الضمان في الأموال والأنفس، وإن كنت مخطئًا ففي جميع محاربتك من أول الأمر إلى آخره فقد أصبت في التوبة منها، وأما الضمان فهو على ما تقدم فيه الكلام من المستحل والمحرم وأما توبتك من ولايتك لصاحبك، فإن كنت علمت منه حالاً تحرم به ولايته عليك أو توليته على أول الوجه لا يجوز لك أن تتولاه عليه، فقد أصبت من توبتك في ولايته، وإن كنت توليته من أول وجه يجوز لك ولايته عليه ولم تعلم عنه حدثًا مكفرًا، فقد أخطأت في توبتك من ولايته بغير حجة، وعليك أن تتوب من توبتك من ولايته، وإن كان قد صح عنك عليه حدثًا مكفر بشهرة لا دافع لها أو شهادة عدلين مع تفسير الحدث أو شهادة عالمين بالحدث بتفسير أو بغير تفسير، أو شاهدت أنت منه حدثًا مكفرًا، أو أقر عندك بذلك وتوليته من بعد، فقد أصبت في توبتك من ولايته على هذا الوجه؛ ولكن استتبه من ذلك فإن تاب وكان مستحلاً، فقد قيل إنه يرجع إلى حالته الأولى من الولاية ولا نعلم في ذلك اختلافًا، وإن كان محرمًا ففي أكثر القول أنه يرجع إلى ولايته الأولى، وقيل

فيه قول آخر ولا أرى لك أن تهمل أمره، ولا أن تترك استتابته، ولا الإنكار عليه إذا قدرت على ذلك، فإن لم تفعل ولم تستتبه فأخاف أن تكون أتيت خلاف ما عليه أهل الحق والعدل من المسلمين، وأما توبتك من توليك إياه بعد علمك في أحداثه وفعله، فإن كنت عَلمتَ منه حدثًا مكفرًا ووليته على ذلك الرعية فجار عليهم في أنفسهم وأموالهم وأنت محرم لذلك فأخاف عليك ضمان ذلك في أحداثه، وإن أتلف شيئًا من أموال النّاس وأنفسهم، وإن كنت مستحلاً لذلك فقد تقدم من الكلام في المستحل والمحرم والجاهل ما فيه كفاية إن شاء الله تعالى، وأما قولك وملزم نفسك ما لزم للعباد من حق وضمان ودية وأرش، وأنك دائن بالخلاص منه فهذا هو الصواب، إذا صدقته بفعل وقيام لخلاص نفسك لحقوق الله وحقوق العباد، وأم القول وحده بلا فعل ولا قيام ولا اجتهاد في خلاص النفس، فما النفع في ذلك فقد قيل لا ينفع التكلم بالحق إلا بإنفاذه، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣]، وإن كنت محقًا في هذه الفصول كلها والمعاني التي دعاك الجماعة إلى التوبة منها، ولم يكن منك خطأ في الظاهر، ولا في الباطن فتبت من الحق ليرضوا عنك، فلم يكن لهم أن يدعوك إلى التوبة من الحق، ولا كل أن تجيبهم إلى أن تتوب من الحق، فإذا فعلتم ذلك جميع كان ذلك عليك وعليهم التوبة، ولو أن الجماعة عند استتابتهم لك سلكوا بك مسلكًا غير هذا الذي حملوك وحملوا أنفسهم عليه، ربما كان أسلم لك ولهم وأخف وأسهل عليك وعليهم، ولولا مخافتي أن لا يسعني السكوت ولا التغافل عن جوابك فيما سألتني عنه لم أذكر لك شيئًا من هذا؛ ولكنك سألتني عما يلزمك في تلك التوبة، فاستصعبتُ الإمساك عن رد جوابك، فقد ذكرتُ لك ما قد ذكرته على قدر ضعفي وقلة بصيرتي، فإن كان حقًا فهو من الله فخذ به، وإن كان فيه مخالفة للحق فلا تأخذ به، وأنا أستغفر الله من كل من خالفتُ فيه الحق والصواب، وصلى الله

على رسوله محمد النبي وآله وسلم تسليمًا.

انتهى كلام القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى السري رَحِمَهُ اللهُ تعالى ولم نجد جوابًا لكلامه، وما ندري ماذا كان بعد هذه النصائح البليغة الصادرة عن صدق والإخلاص، غير أني وجدت أنه قتل رَحِمَهُ اللهُ في نزوى في موضع على طريق مساجد العباد، غربي المقبرة الكبيرة تمر على حضيرة غلافقة، ولم يسموا قاتله ولم يؤرخ وقت ذلك وهذا دأب الأمة هذا داع للحق صادع به وهذا مضاد له معاد لأهله، لا يبالي بما يلاقي وإن قتل العلماء عند الله ﷻ عظيم، يهدم كيان الدين؛ ولكن الحظوظ الإلهية لا تفوت أهلها مهما كانوا وأفضل موتة يموتها العبد الصالح القتل في طاعة الله ﷻ، فإن للشهيد منزلة يغبطه عليها حتى النبيون عليهم الصلاة والسلام، نسأل الله الفوز بأعلى المنازل عند الله والتوفيق لما يحبه ويرضاه.

❊ ❊ ❊

إمامة الإمام عامر بن راشد بن الوليد الخروصي رحمهم الله

كان هذا الإمام عامر بن راشد من أفاضل الأئمة ومن أخيار الأمة؛ لكن لضياع التاريخ العُمَاني الذي طال ما تكلمنا عنه في هذا التاريخ، وطال ما ضاعت منه حقائق يأسف عليها العاقل، ورثي اللبيب لها، ضاعت عنا مهام من التاريخ، فإن التاريخ كما قلنا عنه حافظ أعمال الأمة صالحها، وطالحها، وديوان جامع لما مضت به الأجيال، وما وقعت فيها من أعمال.

قال الإمام: عقدت له الإمامة سنة ٤٧٦هـ ست وسبعين وأربعمائة. قلت: هذا الوقت هو وقت إمامة راشد بن علي المتقدم، وقد توفى سنة٥١٣هـ، اللهم إلا أن يكون الغلط في تاريخ بيعة الإمام راشد بن علي أو بيعة الإمام حفص بن راشد، فإن والده راشد بن سعيد رحمه الله توفى سنة ٤٤٥هـ، وبويع ولده حفص بن راشد بعده، وعند بعض أهل التاريخ أن حفص بن راشد لم يطل عهد إمامته، بل هو عند بعضهم عاش في الإمامة فقط سنة واحدة؛ لكنه لم يظهر له تحقيق.

قال الإمام نقلاً عن المؤرخ لهذا الإمام: كان رجلاً عالمًا زاهدًا ذا ذكاء وفطنة محسنًا في الرعية، قال: وكان إمامًا شاريًا، قال: وهو آخر الأئمة الشراة من بني خروص، قال: فاستقام على الحق حتى توفاه الله رحمة الله عليه.

قال الإمام رحمه الله: وأنت تدري أن هذا الوقت الذي ذكر فيه بيعته هو وقت إمامة راشد بن علي بعينه، فإن صح ما ذكر فكأنه إنما بويع في وقت إمامة راشد، فإن النّاس قد اختلفوا على راشد على حسب ما تقدم، وفي هذا التاريخ اضطراب، ولعل هذا الإمام من أئمة الطائفية الرستاقية، فإن كان كذلك فربما صح التاريخ والله أعلم.

ولما كان النباهنة ظهروا على ملك عُمَان في أول القرن السادس للهجرة، وكان الإمام الخليل بن عبدالله قام والنبهانية قائمة السيطرة وقاتلها وقاتلته، وتولى بعض ملك عُمَان كنزوى ونخل والرستاق والباطنة، وما بقى من ملك عُمَان،

بقي في أيدي النباهنة، دل ذلك على أن هؤلاء الأئمة الثلاثة قاموا في أول قيام دولة النباهنة، وإن قيل إن الإمام محمد بن غسان كان أكثر حربه الحساء، وأرض نجد، فلعل النباهنة كانوا يستجيشون أهل الحساء، وأهل نجد، وكانوا يتحيزون إليها عندما يجدون صراعًا عنيفًا وغلبةً من الإمامة، لاسيما أن ذلك في بادئ الأمر، فالذي ينبغي أن يعوّل عليه أن عامر بن راشد بن الوليد، ومحمد بن غسان بن عبدالله، والخليل بن عبدالله ثلاثتهم قاموا في صدر الدولة النبهانية في أول القرن السادس، فإن النباهنة برزت سيطرتهم في عُمَان بعد مضى النصف الأول من نفس القرن المذكور.

وسيأتي إن شاء الله تحقيق ذلك قريبًا عند الكلام على تلك الدولة التي عبرنا عنها في العنوان بالدولة الرابعة من دول عُمَان، وذكرنا ما قيل في أول نشأتها على سبيل الإجمال، وكان الإمام عامر بن راشد آخر من بويع بالشرى في عُمَان.

❊ ❊ ❊

إمامة الإمام محمد بن غسان بن عبدالله الخروصي

من أفاضل المسلمين هذا الإمام الرضي محمد بن غسان بن عبدالله، ولعله من ذرية الإمام غسان بن عبدالله، الذي قام عقب الإمام الوارث بن كعب رحمهم الله تعالى، وإنها ذرية طيبة، وكان هذا الإمام أيضًا من الأئمة المجهولة تواريخهم، ووقت إمامتهم، فإن كانوا من أئمة الطائفة الرستاقية فالله أعلم بأحوالهم، فإنهم لم يذكروا من بايعه من المشايخ، ولا وقت بيعته ولا مكان إقامته، ولا يمكن مثل هذا أن يخفى إلا أن الدهر الذي مرَّ على العُمَانيين في ذلك العهد كله اضطراب.

وسبب ذلك الاضطراب موسى بن موسى ومن معه ومن شايعهم ومن الغلاة فيهم، ومن الدعاة ضدهم، وكان ذلك داعية تفرق للكلمة بين المسلمين، ووضع شقاق في الدين، وأهل العلم إذا لم يقصدوا بالأمر لله وحده سرعان ما يكون فيه اضطراب، وخبط الأمور على غير هدى من الله.

قال الإمام ﷺ: كان إمام دفاع فأرادوه أن يكون شاريًا، فخاف أن لا يطبق الشرى خوفًا من خلفاء بني العباس أو قال خوفًا من خلفاء بغداد؛ لأنهم طالما جهزوا الجيوش على عُمَان، وطالما هاجمها جنودهم فيستمر الصراع عهدًا، فتارة يغلبون على العُمَانيين فيقبضون على دولته، وتارة يستغلبون فينهزمون إلى بغدادهم، كما عرفتَ ذلك مما مرَّ عليك في تاريخنا هذا، والحرب لا تزال سجالاً طيلة الدهر الخئون، وأهل عُمَان أيام إمامتهم رحمة للأمة؛ لكن رحمة الله لا تدوم إلا ريثما تمر على الأمة لإقامة الحجة عليهم، وهذا الإمام محمد بن غسان من خيرة الرجال في عُمَان؛ لكن كأنه لم يمتد له عهد في الإمامة، أو لم تكن له حروب يسجلها التاريخ في الأمة.

قال الإمام ﷺ: وكان رجلاً عالمًا بليغًا زاهدًا ذا حلم ورأفة للرعية، غيورًا على الممالك، قال: وكان أكثر حربه الحساء وأرض نجد.

قلت: لعل نهدًا وعقيلاً عادوا على ما كانوا عليه أيام الإمامين السابقين الذين عاصرهما الإمام الحضرمي، أو أن بغاة نجد وأجلافهم كما عُهِدَ منهم النهب

والعيث في الأرض فسادًا، والحساء هي دار بغي في السابق، فكان فيها القرامطة من شر البرية، وفيها الخوارج الذين لا يبالون بالواجبات في الدين.

قال: وكان في إمامته عادلاً لم يعب عليه شيء ولا عابه أحد في زمانه، ولا طعن عليه طاعن في شيء من أحكامه حتى توفي رحمة الله عليه. قال: وكانت إمامته تسع سنين إلا خمسة أشهر.

قال الإمام: ومن خصاله أي من خصال الإمام محمد بن غسان الحميدة وأفعاله الغريبة، أن كل أحد أراده بسوء وعزم على حربه و مخاصمة، ووصل هذا الإمام في ساحته، يسلم المخاصم له الأمر من غير قتال. وكان ذلك كرامة له رَحِمَهُ اللهُ ولعله لإخلاصه لله في حله وترحاله، ومن كان مع الله كان الله معه، وسهل الله له كل صعب، ويسر له كل عسير، وليتنا وجدنا تحقيق تاريخ هذا الإمام الميمون وأعماله ورجال دولته، حتى تفيد الأمة عنه، فلله در التاريخ ولله در رجاله الأجلاء الحافظين لمآثر الأئمة المخلصين، والملوك العادلين، والمتغطرسين الذين لا يعتبرون الأمة إلا قطعان غنم أو عبيدًا مماليك، يتصرفون فيهم كما يشاؤون.

ومن مزايا التاريخ إن تركنا نأسف على ضياع كثير من المآثر الإسلامية السامية، ونعض عليها أصابع الندم، ونبذل في إدراكها ما عزَّ علينا، فإن وجدناها طابت أنفسنا وانشرحت لها صدورنا، وإلا تولى الأسف علينا، والأمر لله من قبل ومن بعد، لقد أجمع العلماء على فضل التاريخ وأشار إليه من قال:

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

فالتاريخ جماع الآثار كلها، وسجل الحوادث في الأمة، وإليه ينظر الناظر في الآثار، وبه يكون الاعتبار بعد انتهاء ادوار أمته وانقراض دولهم، والله حض إلى الاعتبار بماضي الدهر وحوادثه ذوي الأبصار، وأساطين الأفكار من الرجال في عموم الأدوار.

❊ ❊ ❊

إمامة الإمام الخليل بن عبدالله بن عمر الخليلي

وهذا نسبه: الخليل بن عبدالله بن عمر بن محمد بن الخليل بن شاذان بن الصلت بن مالك بن أبي العرب، لا يخفى على المطلع أن أشرف بيت في آل اليحمد بن حمى بيت آل الخليل بن شاذان بن الصلت، إذ توالى الفضل فيه إلى وقتنا هذا، وكان هذا الإمام الجليل من ذرية الإمام الخليل بن شاذان بن الصلت، كما صح نسبه، إنه الخليل بن عبد الله بن عمر بن محمد بن الخليل بن شاذان بن مالك بن بلعرب الخروصي رحمه الله كان ثالث الأئمة المجهولة تواريخهم وبيعتهم وأمكنتهم وحروبهم، وأكثر أعماله، وذلك لإهمال التاريخ، وكان هذا الإمام من أئمة الطائفية النزوانية، وقد بويع في أول وقت بدأت فيه روح الدولة النبهانية في عُمَان، تجسس جسمها وترمز اسمها، وتعلن عهدها الذي تتوقع ظهورها فيه في هذا القرن الذي أراح الله فيه عُمَان من حروب بغداد.

وكانت بيعته في نزوى، ولم نعرف من بايعه ولا من شايعه، وإنما وجدنا أنه قاتل النباهنة في نزوى، واستولى عليها وقهر الرستاق، ونخل وجميع أقطار الباطنة، وكأنه قامت له قوة خافها بنو نبهان أن تقضي عليهم، فاستجاشوا الجبور وبني هلال، قال: ولم يزل يقاتلهم في كل أرض، فكأن القتال استمر بينه وإياهم، والظاهر أن شرق عُمَان ووادي سمائل كان مع النباهنة، والرستاق والباطنة مع الإمام، وكأن الأيام ما زالت بينهم في تداول لقوله، ولم يزل يقاتلهم في كل أرض.

قال ولم يعب عليه في إمامته أحد حتى توفي رحمة الله عليه مستقيمًا على طريق الحق، ولا يخفى أن جيوش بغداد لم تكن لها في هذا العهد عمل في عُمَان؛ ذلك لأن الدولة العباسية قد انهارت صروحها منذ أول القرن الخامس، ولكن بقى لها اسم فقط، ثم انتهى أمرها اسمًا ومعنًا، وقوضت بتمام القرن السادس وبالنصف الأول من القرن السابع، انمحت آثارها تمامًا؛ فلذلك لا ترى لها أثرًا في عُمَان، ولكل شيء غاية ينتهي إليها، وكل شيء مرتهن بوقته والأمر لله فلذلك

لا ترى لها هنا بعد ذلك ذكرًا بعد ما كانت تعاني عُمَان منها النصب، وترى منها البلاء الماحق والوبال الساحق، بطرًا وعدوانًا بغير حق، كما عرفته مما تقدم، والأمر لله.

ولكن قام هنا دور بني نبهان وهم إذ ذاك ملوك عُمَان والملك لله يؤتيه من يشاء وسبيل بني نبهان كغيرهم من الملوك، وبدأ أمر القوم في عهد هذا الإمام الخليل، ولكن لم يتم لهم أمر الملك حتى منتصف القرن السادس، واستمروا إذ ذاك حتى قامت دولة اليعاربة في أول القرن الحادي عشر وهم فرع من النباهنة المشار إليهم، كما سوف تقف على ذلك أيها القارئ فإنه ستأتي بعد هذا الإمام أربعة أئمة، ثم انتقلت الدولة إلى بني نبهان كليًا؛ ذلك لأن أهل عُمَان هنا تحزبوا فصاروا حزبين: رستاقية ونزوانية، وظلت كل فرقة تنصب أئمتها لقتال الأخرى، وجعلوا بأسهم بينهم، فسلط الله عليهم النباهنة عقوبة لهم على ذلك ولله في خلقه أسرار.

❊ ❊ ❊

إمامة محمد بن أبي غسان

وهو من أئمة الطائفة الرستاقية كما أشرنا إلى هذا والأشبه أن يكون خروصيًا، وأن يكون ابن الإمام راشد بن سعيد الذي كناه الإمام أبو إسحاق الحضرمي بأبي غسان في شعره كما عرفت ذلك، وكانت إمامته وقت إمامة راشد بن علي الذي سبق ذكره، وقد عرف التنافس إذ ذاك بين الطائفتين وهو الذي سبب ضعف أمور المسلمين وقيام الجبابرة عليهم، واغتصابهم للأمر رغم أهل الحق منهم فإن الباطل يجد أنصارًا والحق قد لا يجدهم إلا في أوقات خاصة تمر على النّاس مرور الشمس على العالم، ثم يعود الظلام أدراجه.

وكان إذ ذاك بالباطنة أخيار أيدوا محمد بن أبي غسان تأييدًا شاهرًا على أضداده، وكان هذا الإمام كاتبهم وراسلهم واستعان بهم وفي جوابهم له ما يدل على ما نقول، وقد روى الإمام السالمي كتابه لهم وجوابهم له في تحفة الأعيان، وأنه كان كتابًا حافلاً نثرًا ونظمًا، اكتفى الإمام المذكور بذكر النظم عن النثر، ولما فيه من العذوبة ولطف الذوق الحسي، وما له من فصاحة رائعة نعرض نحن عن الكل إذ كان ذلك قد عرف ودرس، وأخذه أهل الأدب، وقد مدحه أهل الباطنة مدحًا رائقًا وأثنوا عليه ثناءً فائقًا، وإليك جملة واحدة من ذلك تستدل بها على ما هناك.

يقولون فيه: الذي خلص عند النقد والتميز خلوص الذهب الإبريز، ثم استرسلوا فيه إلى حد بعيد حتى ألحقوه بخيرة الأئمة، وعبروا عن خالص رضاهم عنه وكان وزيره وسيف دولته الهمام أبو المعالي نجاد بن موسى بن نجاد، وكان من أركان دولته الشيخ أحمد بن عبدالله بن موسى المعروف.

* * *

الإمام محمد بن أبي غسان يشن حربًا على أهل عقر نزوى

لقد نفر عنه أهل نزوى وخصوصًا أهل العقر، إذ هم في ذلك العهد حجة أهل نزوى، وخالفوه؛ لأنهم يقدحون في إمامته؛ بسبب الافتراق الذي أشرنا إليه، فلم تزل الحرب قائمة بينه وإياهم، حتى أمر بقطع نخيلهم وكسر أنهارهم، ودمر كل ما قدر عليه من أملاكهم، وقامت معرة الجيش تعيث في الأرض، وذلك هو شأن الجيوش في كل أمة غالبًا إلا ما شاء الله.

وكان أهل العقر ينتقدون أعمال هذا الإمام قبل الحرب، ولعلها هي التي أهاجته على حربهم، وحملته على خضد شوكتهم، فكانت الحرب أضرّ على القوم مما كانوا ينتقدون؛ ولكن أمر الله ﷻ سابق في أزله، وهناك حوار ونقاش في إمامة المذكور بين من يرى صحة إمامته، وبين من يعاكس الوضع، وهذا كله من مكائد الشيطان بين أهل الإيمان في بلد واحد، وعلى مذهب واحد، والأمر لله من قبل ومن بعد.

وقد تركنا ما قيل في مدح هذا الإمام والثناء عليه، إذ حفظ ذلك كله أثر المسلمين، وكان محمد بن غسان المذكور انتصر على أهل نزوى، ولم أجد تحقيقًا لوقت بيعته بالذات أو وقت وفاته، وهل قُتِلَ أم مات حتف أنفه؛ ولكنه على الإجمال هو من أئمة القرن السادس.

* * *

الملك محمد بن مالك

من المفهوم من استقراء التاريخ أن محمد بن مالك، قام على مُلكِ عُمَان بعد محمد بن أبي غسان، وتولى ملك عُمَان، ومن المحتمل أن هذا الملك كان من الأزد إلا أنه لا يعرف من أي بطون الأزد؛ لعدم التواريخ التي يمكن الاعتماد عليها، إلا أن الأحوال ظاهرة على أنه أزدي؛ لأن أعوانه غالبًا من الأزد، وكان ملكًا عادلاً حسن الأخلاق، عاقلاً ذا أناة وتؤدة وعقل واعي وبصيرة تتصل بالأعلاق النائية، وتمتد إلى الأعماق البعيدة، وكان الملك المذكور قائمًا بواجبات الشريعة ولا يلزم في الإمامة نفس العقد، إذا قام الأمير بحقوق الله وأجرى الشرع في مجاريه، وحمل النّاس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأدى ما لزم من حق الله ﷻ، وحمى البلاد وحفظ بيضة المسلمين، ولم يتعد حقوق المسلمين، ولا ترك أوامر الدين، فإن المطلوب من الإمام هو هذا لا غير.

وهذا عمر بن الخطاب ﷺ لم يعقد عليه الإمامة ولا قام بالبيعة له أحد أبدًا، إنما عهد إليه بالخلافة أبو بكر ﷺ، ورضي به المسلمون خليفة، ومحمد بن مالك لما قام بالعدل، كان من الواجب تأييده فإن المعتمد على الأعمال لا على الألقاب، فإن لقب الإمام أو الخليفة أو السلطان ونحو ذلك لا معول عليه في جانب الحق، إنما المعول على الأعمال الصالحة، ولكن إذا أراد الله أمرًا أنفذه وإن رغم أنف الدهر، وحب الذات والاستبداد هما اللذان يوقعان الفرقة والشتات، ويفرقان الجماعات، وإلا فكيف يرفض رجل قام بحق، ودعا إلى حق، ليس هذا من الدين في شيء، وهل الإمام إلا ملك وإلا سلطان، وهل السلطان إلا إمام من حيث المعنى.

وعلى أثر قيام هذا الملك واستيلائه على الملك قام المنافسون له فبايعوا موسى بن أبي المعالي بن نجاد بن موسى، ولم يعرف نسبه من أي القبائل إلا أن الأشبه أنه حفيد القاضي نجاد بن موسى الذي كان قاضيًا للإمام محمد بن أبي غسان، وها نحن نفرد له بابًا خاصًا للكلام على أحوال إمامته.

❊ ❊ ❊

إمامة موسى بن أبي المعالي بن نجاد بن موسى

بويع بالإمامة سنة ٥٤٩هـ وهذا الوقت اشترك فيه ثلاثة أئمة مع الملك محمد ابن مالك، وكل ذلك لاختلاف الأمور وتسلط الأهواء، وحب الرئاسة لا غير.

ولن تقوم قناة قوم والحال هذا؛ ولكن كل الأمور بيد الله ﷻ يصرفها كيف يشاء، وإلا فما الداعي إلى هذه الأحوال التي تقع بين أهل مذهب واحد في قطر واحد، وما الداعي إلى الافتراق فتصير الأمة إلى فرق شتى وفي هذه الأثناء افترقوا إلى رستاقية ونزوانية، فكثرت الأئمة وضعفت الأمة، وحل الخذلان والشتات في إخوان مجتمعين والله المستعان.

الصراع بين الملك محمد بن مالك والإمام موسى بن أبي المعالي

لما تولى المُلك المَلك محمد بن مالك، قام أكثرية أهل عُمَان ضده، فبايعوا موسى بن أبي المعالي، ولمّا عَلِمَ بالواقع أهمه جدًا وأقلقه، وكانت الأكثرية معهم والسواد الأعظم عليه.

ويقول الإمام رحمه الله: خرج عليه أهل عُمَان وكان يومئذٍ إمامهم موسى بن أبي المعالي بن موسى بن نجاد «في عسكرٍ لا يحصى ولا يعد»، قال: وخرج الملك في جملة اليحمد، إلا أن الأقل منهم أي أن غالب اليحمد هم الذين كانوا أنصار الملك محمد بن مالك، وكان الملك كما يظهر من حاله عادلاً قائمًا بواجبات الملك، مراعيًا لأحوال الأمة بالعدل، مُصلحًا للأحوال التي يستدعيها الوقت الذي هم فيه، وكانت له نصائح إلى هؤلاء القائمين عليه خوفًا من شقّ العصا، وابتعادًا من إثارة الفرقة بينهم.

ولكن لم يكن ذلك مجديًا، بل أصرَّ أنصار الإمام على القيام عليه، أو يتخلى عن الملك، ولم يرض هو أيضًا أن يتخلى عمّا تولى، وبذلك انشقت العصا بينهم، فظل هو يجمع الجموع، وهم كذلك؛ لكن كان السواد الأعظم مع الإمام، وأهاج الشيطان الفتنة، واحتج الملك على القائمين عليه بحجج لم يقبلوها ولم يسلموا لها، وكأنهم لم يلتفتوا إلى أقواله.

وذكر في كتابه الأخير لهم تحقيق الصدد الذي هم فيه غائبًا عليهم بقوله: «إني قد كتبت قبل كتابي هذا كتابًا أطلب فيه إيضاح الحق، وإظهار برهان الصدق، ولم يرجعوا إلي جوابًا يقطع ولا أتو بإيضاح ينفع» إلى آخر ما جاء في كتابه من العتاب، وما ورد فيه من الخطاب، وقد اعتذر إليهم بأعذار غير خارجة عن الحق، ولم يذكروا جوابًا لها ولا اعتذارًا في قيامهم، ولا عدوا عليه ما يوجب القيام عليه، ولعله كونه تولى الأمر على غير صحة من رضى المسلمين به.

والظاهر هو هذا، وكان كتاب الملك عبارة عن تاريخ حافل بالنقاش مشحون بالاحتجاج، مملوء بالأدلة من القرآن والسنة، أورده الإمام كله للاعتبار، باعتبار من النصائح والاستعطافات، وجميل المخالقة والتنصل؛ ولكن لا بد من أمر أراده الله، يقول في آخر كتابه، وكأني أقرع حجرًا أصم أو أكلم أخرس أو أصم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ومنه: وإن طعن علي طاعن فيما أنا فيه، فأنا مقر بالتقصير، ومعترف بالخطأ، ودائن لله تعالى بالواجبات، والتخلص من التبعات، وإن وجدت قومًا لله، كنت منهم ولهم، ولله أمر هو بالغه، وحكم هو نافذه إلخ.

إن هذا الرجل هو الإمام الصحيح الإمامة، الرجيح في الاستقامة الذي تجب مناصرته لا الخروج عليه، ولا يصح قتال رجل لا تعد عليه جريمة في شيء ما ولم تقم عليه حجة شرعية مع إذعانه بالواجبات، وامتثاله للطاعات، وانقياده للحق، وقد دل كتابه هذا على استقامته. وبرهن به عن الحال التي يرونها، وقام لله بواجب يرى أن الله ألزمه إياها إلا أنه تولى الأمر على غير اجتماع عليه، من المسلمين عليه وعلى غير بيعة منهم له وبهذا اجتمعوا عليه..

ولم يجد من القوم إلا الإصرار على قتاله، وكان قد وقع بينه وإياهم أمر كبير في ناحية كدم، وأسر منهم جملة ولم يعاقبهم، بل أطلق سراحهم ولم يثنهم ذلك عن قتاله، وهنا تتم الملحمة التي ينتهي بها الأمر بينهم، فكان اللقاء بينهم في حوزة الطو، واستمر الجيش من عقبة بوءه إلى الطو، وكانت الدائرة على القائمين عليه وقتل منهم الكثير.

❊ ❊ ❊

أعيان المقتولين في هذه الوقعة

قُتِلَ في هذه الوقعة رئيس الجيش وأخوه أبو المعالي بن عبدالله، وعبدالله بن خنبش بن أزهر، وأحمد بن محمد المعروف بالصليحي، وجماعة من أهل سمد، ومن سائر القوم عدد لا يحصى. قال الإمام رَحِمَهُ الله في تحفة الأعيان: فانهزمت أهل عُمَان ولم يعقب أحد، فقتل الرئيس وأخوه وقتل من النّاس خلق كثير ما لا يحصى، وكذلك الموت بالعطش، أي هلك كثير بالعطش، ولعل القضية كانت في وقت الحر.

قال الإمام: ولم ينج إلا ذو عمر طويل، قال: وأتت اليحمد والبدو على جميع التجافيف والدروع والسلاح، قال: وكانت القضية بالطو، وليست هي بالطو، بل في طريق الطو، في عقبه بُوَءه وهناك أحاطت اليحمد وأنصارها بجيش ابن أبي المعالي، وذلك المكان مضيق جبال. والقوم أكثرهم غُرب لا يعرفون المسالك، وقيل: إن الرئيس أبا المعالي ومن ذكر معه هؤلاء كلهم أسرهم جيش الملك، وأخذوا منهم السلاح، وباء أهل عُمَان بهزيمة منكرة، أكثر المؤرخون ذكر هذه الوقعة فهي أشبه بوقعة تنوف، ووقعة القاع من ظهر عوتب وكأن الملك انتصر على الإمامة وأركانها إلا أنه لم يعد له خبر بعد هذا، وهذا من إهمال التاريخ، أو ذكر ولكن لم نطلع عليه.

وإنما جاء بعد هذا ذكر إمامة خنبش بن هشام، وقرائن الأحوال تدل أن هذا الوقت وقت ضيّقَ بين أهل عُمَان أنفسهم، فإن الرستاقية تحاول الاستيلاء على الأمور، وتروم السيطرة على عُمَان والنزوانية ضدها، والصراع لا يزال في هذه الآونة، فإنهم ذكروا إمامة خنبش، وإمامة ولده بعده، وإمامة أبي المعالي في وقت واحد، اللهم إلا إذا كان العهد غير طويل للإمامة الأولى، فيقوم الإمام الثاني أثر السابق، ويسرع الموت عليهم بالقتل، فإن هذا الوقت اختلط تاريخه بهؤلاء الرجال، الذين لعبوا فيه دورًا هامًا، وفعلوا فيه ما فعلوا فإن إمامة ابن أبي المعالي

في تاريخ سنة ٥٤٩هـ وإنهم قالوا: إن خنبش بن محمد بن هشام المذكور، مات في جمادى الأولى سنة ٥١٠هـ، هو بعد ابن أبي المعالي، وهذا لا يصح إلا أن يكون غلطًا كما قلنا أو سهوًا من الكتاب، وإن ولده محمد بن خنبش بويع في تلك السنة، فإن صح ذلك فيلزم أن يكون ابن أبي المعالي بعدهما في التاريخ، وإن وضعه قبلهما خطأ من المؤلفين، وقد قالوا: إن محمد بن خنبش مات سنة ٥٥٧هـ سبع وخمسين وخمسمائة.

وجعل بعضهم أن محمد بن خنبش هو محمد بن أبي غسان مما يدل على اضطراب التاريخ، مع أنهم قالوا أيضًا إن هذا الوقت وقت إمامة راشد، فاضطرب التاريخ اضطرابًا كثيرًا. واختلط حابله بنابله، فعسر توضيحه غاية العسر، وكذلك لم يبينوا خنبش وولده ممن من القبائل، وعلى الأقل من أي البلاد، وكذلك راشد بن علي، وقد عَرَفتَ أيضًا مثل هذا في شأن الملك محمد بن مالك، وليتهم بينوا وليتهم وضحوا توضيحًا يحسن السكوت عليه.

ومن يعتبر في كتاب الملك يجده عظيمًا يحتوي على قواعد هامة، ومعارف عامة، وقد أورده الإمام في (التحفة)، وإنه ليعبر عن عقل صحيح ورأي رجيح، ولم نورده؛ لأنه يطول به علينا المقام، ونكتفي بالإشارة إليه؛ لأنه ميسور التناول، وإنه ليفيض ببيان صحيح، ولسان المرء دليل عقله، والله يؤتي ملكه من يشاء، والحمد لله، وكان يسمى ذلك الكتاب في الأثر العُمَاني كتاب الملحمة أي المقتلة.

❊ ❊ ❊

إمامة خنبش بن محمد بن هشام

لم أدرك نسب هذا الإمام كما أشرت إليه آنفًا. قال الإمام رَحَمَهُ اللَّهُ: وأظنه من أئمة الطائفة الرستاقية، وهو ظن لا يحقق، غير أن العاقد لمحمد بن خنبش أي ولده، فإنه بويع بعده كما سوف تراه. وكون العاقد له صاحب المصنف وهو من الطائفة الرستاقية، قال: وكأن إمامتهما أي إمامة محمد بن خنبش، وإمامة أبيه خنبش بن محمد بن هشام، كانت في وقت واحد، وهو وقت من ذكرنا إمامتهم.

قال الإمام: وهو المقدم في نقلنا عنه خصوصًا في المختلف فيه أيا كان لتحريه الحق، واعتماده على الصدق بحسب الإمكان، قال: فأما خنبش بن محمد فلم أجد لسيرته ذكرًا في شيء من الكتب إلا ما قالوه في تاريخ موته، إنه توفي يوم السبت من جمادى الأولى سنة ٥١٠هـ.

قالوا جرى على النّاس بموته مصيبة عظيمة، فكأنه كان محبوبًا، ويفهم من ذلك صلاحه فيهم واستقامته في الدين. ولا شك أن الصالح مفقود، وأن المحق مأسوف عليه، وأن الدين والإيمان هما عُروة وثيقة لها مقامها عند الله، ولها تأثيرها في النفوس. والله يؤتي فضله من يشاء.

* * *

إمامة محمد بن خنبش بن محمد بن هشام

عقد على محمد بن خنبش في اليوم الذي مات فيه أبوه، وإن متولي العقد عليه العلامة نجاد بن موسى، وكان المذكور قاضيه ووزيره، وسيف دولته، وكذلك الشيخ أبو بكر أحمد بن محمد، وهذا الوقت كما قلنا آنفا إنه آخر إمامة راشد بن علي، وعاش هذا الإمام في إمامته إلى سنة ٥٥٧هـ سبع وخمسين وخمسمائة.

وكان العقد على هذا الإمام «بسوني» التي هي العوابي الآن، في علاية الرستاق، وهذا الإمام من جملة الأئمة الذين ذكرنا انبهام تواريخ إمامتهم، فإن هذه الآونة هي وقت إمامة محمد بن أبي غسان، وإمامة موسى بن أبي المعالي،

وإمامة راشد بن علي. وإمامة خنبش بن محمد، وإمامة ولده محمد المذكور، والاحتمال يوجب كون المذكورين في نفس تواريخهم؛ لأن عُمَان في هذا الأوان قسمان، وبها إمامتان، فهما دولتان والله المستعان.

ومات الإمام خنبش وولده المذكورين بنزوى، وكان محمد بن خنبش إمامًا عادلاً، وأميرًا فاضلاً، بكت عُمَان عليه من صميم قلبها، لعدله وحسن سيرته مع طول مدته، وعلى كل إن للعدل ثمنًا غاليًا وقدرًا عاليًا، وشرفًا ساميًا والحمد لله.

انسحب ذلك القرن فسحب بقية العلماء الذين زاولوا الإمامة في تلك الأيام، وأقاموا دعائم الحق، وإن كانوا اختلفوا فيما بينهم، فإنما هو خلاف في أمر القيام بالعدل بين المسلمين، ولكل واحد اجتهاده، فإنا لا نقدر أن نلوم أحدًا منهم، وإن تأسفنا على الواقع فالأمور الاجتهادية كل يرى أنه المصيب فيما أتى، والمحق فيما فعل، ورحمة الله واسعة، وليس لعلمائنا أهواء تخالف الشرع حاشاهم، وإنما جلُّ اجتهادهم بل كل أعمالهم هي في صالح الأمة، وبصالح الدين والوطن، والله ولي كل شيء وإليه المرجع وعليه الاتكال ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❊ ❊ ❊

الملوك النباهنة ودورهم

لقد لعب بنو نبهان بعُمَان دورًا كبيرًا، وابتنوا لهم قواعد، رفعوا لهم معالم، وركبوا في أيامهم كل صعب وذلول، ولا شك أن الملوك لهم مذاهب معروفة، ومعالم موصوفة، ومقامات لها شأنها، ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، أي ذلك شأنهم إلا ما شاء الله ممن وفقه الله لسلوك سبيل الحق، والعمل بواجبات الشرع، وسنة الله في عباده أن لا تبقى الدنيا على حال ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وتلك هي سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وهو الحكيم في كل ما يأتي وما يذر، وإنما العباد آلات تحركها اليد الإلهية التي لها الحول والطول في الكائنات.

والنباهنة قوم من العتيك معرفو النسب، صار الملك إليهم بعد الأئمة السابقين، وذلك لأمر أراده الله تعالى في عباده، فإنهم لما افترقوا فرقتين، وصاروا طائفتين متعاديتين، نزع الله دولتهم من أيديهم، وسلط عليهم العقوبة من أبناء جلدتهم، وأهل ملتهم، وجعلهم رعايا بعد ما كانوا رعاة، وضحايا بعد ما كانوا هداة، وأسارى في أيادٍ لا تعرف لهم حقًا.

ولا شك أن الله يظهر العدل في الكون على يد من ارتضاه من عباده، لتقوم حجته ﷻ على النّاس، وينفذ سلطانه فيهم بما اكتسبوا، فإن الافتراق شؤوم، وإن الاتفاق قوة، وإن الاختلاف داء ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، والله ولي التوفيق.

كان بنو نبهان أسرة بارزة في محيطها لها قدرها وشأنها الأزدي، فإن عُمَان من أول أمرها أزدية باتفاق.

تسلط النباهنة

كان العلماء يعالجون إقامة الإمامة في آنها، ويصارعون الباطل بالحق ويدافعون الجور والظلم بالعدل والإنصاف، ولم تزل في عُمَان تلك أيام، والأيدي تحل أعلام السلطنة وبنود الإمامة، ولم تزل المصاولات في حلّ وترحال، ولكل عمله، فالملوك في بلدان والإمامة في أوطان، والسلطان في مكان والإمام في آخر، وربما غلبت الإمامة في بعض الأحيان، ويرجع الأمر بعد ذلك إلى السلطان.

وهكذا استمر الحال عهدًا، وقد أشرنا إلى وميض من الحركة النبهانية وهنا علا لهبها وعظم حَطبها وكثر موقدوها، ملك بنو نبهان عُمَان مرتين، كان بينهما فاصل غير قوي، إلا أن الله الحكيم في صنعه، العليم بخلقه، يُري عباده من مطالع قدرته، ما يستدل به العاقل على الأحوال التي تنبغي، وقد ضاع تاريخهم التفصيلي، وكان ينبغي حفظه؛ ليكون لسانًا معبرًا عن الأحوال التي أحالت الأمر إليهم، ثم أحالته إلى غيرهم، والظاهر أن أولهم الذي ترشد إليه المعارف الأدبية بالاشتراك.

❊ ❊ ❊

أول ملوك بني نبهان

أبو عبدالله محمد بن عمر بنن نبهان، وأخوه أبو الحسين أحمد بن عمر بن نبهان، وأخوه الثالث أبو محمد نبهان بن عمر بن نبهان، هؤلاء الثلاثة لا يعرف هل هم تتابعوا على الملك، أم كانوا اقتسموه في آن واحد؟ ومشوا فيه مشية ازدهاء، ولا يعرف تسلطهم على الأمة بأي طريق كان، ثم بعدهم أبو القاسم علي بن عمر بن محمد بن عمر بن نبهان، وأبو الحسن ذهل بن عمر، ثم أبو العرب يعرب بن عمر، وهو الذي تفرع عنه اليعاربة الميامين.

وأبو إسحاق إبراهيم بن أبي المعمر عمر بن محمد بن عمر بن نبهان، ثم توالت الأيام بأبنائهم وذراريهم، ومنهم أبو عبدالله محمد بن عمر وأبو المعالي كهلان بن محمد، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر وأبو محمد نبهان بن ذهل.

توالى هؤلاء على الملك، وسيطروا على الأمة قهرًا، وفعلوا شنائع تشمئز منها النفوس، وذهب تاريخهم ضياعًا، حيث إن العلماء كانوا يبغضونهم ولا يعتنون بأخبارهم، وهؤلاء العشرة تتابعوا أول بني نبهان، فهؤلاء المذكورن لم يعرف تاريخهم، وكان في الصبا وصل إلي جدول جامع لهم فيه تواريخ مواليدهم، ووفياتهم وأسمائهم، وعاصمة كل واحد منهم، وإذ ذاك أنا في سنّ الصبا لم أدر أين ضاع ذلك الجدول مني، مع أني في ذلك العهد لم تكن لي أهمية ناشطة لهذا الصدد، بل كنت أقرأ وأسمع كلمات لبني نبهان، تدل على التأنيب لهم، وأنهم جبابرة ظلمة.

ولما حاج الحال إلى العلم عنهم، والتعرف على أحوالهم تاريخيًا، ضاع ذلك المذكور، كما ضاع مني تاريخ الإمام سلطان بن سيف صاحب الحزم، وهو القصيدة الميمية التي ذكرها الإمام وشرحها، وكنت استطعت أن أنسخ نظمها، ثم ضاعت مني أيضًا وكذلك أيضًا ضاع مني «سراج المسترشد في تاريخ الإمام ناصر بن مرشد» رَحِمَهُ اللَّهُ.

و ابن رزيق يرفع أمر النباهنة فوق مستوي ملوك عُمَان فإن تعبيره عنهم كبير جدًا لم يعوّل عليه الواقفون على تاريخه مع ما فيه من الاغلوطات والأخطاء وكل من نسخه زاده أخطاءً، وهو وثائق فقط لخروجه منهج التأليف ومن كلماته فيهم يقول: إن بني نبهان كانوا ملوكًا عظماءً بعُمَان، ولهم فيها من الملاحم والمكارم شأن أي شأن، فمن أين يكون بعُمَان ملوك عظماء بالأخص إذا لم يكن بيدهم إلا عُمَان؟ نعم إذا كان يعني ملوكًا عظامًا في ظلم النّاس، فنعم لقد ظلموا العباد، وجاروا في البلاد، فأخذوا أموال الناس، وشردوا العباد عنها مستأثيرين بها دونهم، فملوك عُمَان بهذه المثابة لا ينبغي أن يطلق عليهم إلا أمراء فقط، وكل ملوك عُمَان الماضين، اللهم إلا ما كان في عصرنا الحالي، حيث أصبح سلطان الآن ويده مملوءة بالمال، ما أخرج الله لعُمَان من البترول.

فإن الملك يعتبر فيه الغنى، ألا تسمعون ما يقول الله في كتابه حكاية عن طالوت يقول الله فيها على لسان القوم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فإن الشرط في الملك الغنى والأمة والبلاد، وبقدر ذلك يكون الملك. وأشهر ملوك بني نبهان فلاح بن محسن.

قال الإمام ﷺ: فإذا استقريت التواريخ، أخبرك الحال أن بني نبهان ملكوا مرتين فملوكهم الأوائل هم الذين كان يمدحهم أبو بكر أحمد بن سعيد الستالي، وهو شاعر مشهور خروصي المحتد، وله فيهم قصائد غراء، ذكر الإمام منها طرفًا، قال: وحيث كانت دولة هؤلاء مبنية على الاستبداد بالأمر، وقهر النّاس بالجبرية لم نجد لدولتهم تاريخًا، ولا لملوكهم ذكرًا إلا من ذكر الستالي في ديوانه، ولشاعر الشباب السيد هلال بن بدر بن سيف بن سليمان البوسعيدي يقول في همزيته التاريخية:

ومـلـوك مـن آل نـبـهـان صـالـوا وبـنـوا مـلـكـهـم عـلـى الـكـبـريـاء

ومضوا لا الزمان عنهم براض... إلى آخر ما قال.

والذي يدل عليه الحال أن بني نبهان قاموا في القرن السادس الهجري، أي بَدْأُ نشأة دولتهم حين كانت الإمامة المستضعفة، فعضوا على الملك بالنواجذ، حتى رسخ فيهم عهدًا وأصبح من مألوف النّاس، فطالت أعناقهم وكبرت نفوسهم، ولم يروا من يقوم لردهم عمَّا هم فيه، والظالم في المألوف لا يلد إلا ظالمًا والجبار لا ينتج إلا جبارًا كما أشار إلى ذلك القائل: هذه العصا من تلك العُصَيّة لا تلد الحيَّةَ إلا حَيَّة.

هذا هو المعتاد في الكون وخلاف شاذ أوكالشاذ وعلى هذا كانت نشأة القوم حتى اجتاحوا ملك عُمَان، وتسلطوا على أهلها بالظلم والعدوان، فحاول أهل العلم إزالة ظلمهم، ولم ينجحو كما ينبغي، فإنهم بايعوا بالإمامة لأناس كما سوف تقف عليه أيها القارئ.

فكان الصراع بين الإمامة والملكية مستمرًا، وما برح الخلاف والشقاق يتوالى بينهم، والملك لله وحده، كلما رأى العلماء فرصة للقيام بالعدل والعمل بكتاب الله، بايعوا إمامًا فيظل الصراع مستمرًا، وفي الغالب أن النّاس أعنى أكثرهم لا يحبون الإمامة؛ لأنها تأخذ على أيديهم، وتعترض على أهويتهم؛ لأن أهل الجهل هم السواد الأعظم، وأهل الحق هم الأقلون حتى عهد النبوات؛ ولذلك أدلة من الكتاب والسنة، وبنو نبهان شهروا بالفساد في البلاد، وبظلم العباد والاستبداد.

قال شكيب أرسلان في التعليق على حاضر العالم الإسلامي: استولى على الملك بنو نبهان، وتلقبوا بالملوك، واستمر ملكهم مائتين وستين سنة، واستمر في ذكرهم إلى أن قال: ثم أخذ بنو نبهان يظلمون ويعسفون، فلم يطق الأهالي حكمهم، وانتخبوا إمامًا من قبيلة الأزد، ويشير بذلك إلى الإمام عمر بن الخطاب الخروصي، إذ هو الذي خضد شوكة النباهنة، وكسر أجنحتهم، فكانت له بذلك شهرة في عالم التاريخ، وإلا فقد بايع العُمَانيون عهد بني نبهان أئمة عديدين.

قال شكيب: وانتهى ملك بني نبهان في نحو سنة ٨٣٩هـ. قلت: أما تحديد مدة ملكهم فأهل عُمَان أعرف؛ لأنها على كواهلهم، أما شكيب، وأمثاله تأتيهم

الأخبار من بعيد لا تحقيق فيها، وإنما يأخذون ما يسمعون. قال: وكان بنو نبهان قد ضبطوا أملاكًا كثيرة، فاستردها عمر بن الخطاب من سلالة شاذان بن الصلت، وما لم يوجد له أصحاب كأن يكون هؤلاء انقرضوا أو غابوا غيبة منقطعة، رده إلى بيت المال.

قلت: هذا من جملة ما لم يعرف شكيب مصدره، وسوف تقف إن شاء الله على تحقيق هذه الأملاك التي يذكرها شكيب، وفي معالم الجزيرة العربية، عين ما قاله شكيب، وأما دليل الخليج، فلم يكن لديه معلومات عن تاريخ النباهنة؛ لأنه كان حديث عهد بالخليج، فكتب أكثر ما كتبه في عهد وجود بريطانيا وإنما أشار إلى النباهنة إشارة خاطفة، وذكر عهد اليعاربة، وكتب عنهم بعض الأحوال.

والواضح أن غموض تاريخهم؛ بسبب جورهم وظلمهم فكرهتهم الأمة أعظم من كرهة اليهود والنصارى والظلم لا تبنى عليه دار، ولا يقوم له منار، وإنما هو البوار، فلا يغتر به إلا جاهل خليع.

* * *

كهلان بن نبهان وأخوه عمر بن نبهان

لقد استمر النبهانيون طيلة القرن السابع الهجري، وفي سنة ٦٦٠هـ ستمائة وستين، كان السلطان منهم أبو المعالي كهلان بن نبهان خرج عليه أمير من هرموز يسمى محمود بن أحمد الكرستي، والمصادر عنه في حديثها متحدة، ففي كشف الغمة لسعيد بن سرحان الأزكوي، وابن رزيق وأخذه عنهما الإمام السالمي في تحفة الأعيان، أن محمود المشار إليه وصل إلى قَلْهات؛ وذلك لأنها إذ ذاك إحدى عواصم عُمَان، وهي على ساحل البحر في جبال منيعة، إلا أن الظلم يكسر تلك المنعة، ويمهد الطريق للغازي كما هو المعروف في الطباع البشرية، فإن المظلوم لا يزال يطلب الغوائل للظالم؛ لينتقم منه ولو بعدوه.

ولما وصل محمود قَلْهات، كان أبو المعالي في داخل عُمَان فدعاه فلبى دعوة

محمود خوفًا، ولم يكن لديه ما يدفعه به من قوة، فلما حضره طلب منه المنافع، وبعبارة أوضح طلب إتاوة من عُمَان، وخراج أهلها فاعتذر أبو المعالي إليه وقال: إني لا أملك من عُمَان إلا بلدة واحدة. فقال له محمود: خذ من عسكري ما شئت واقصد به من خالفك من أهل عُمَان، وانظر كم كان عسكر محمود، إذ بلغوا مبلغًا كبيرًا خمسة آلاف رجل، وعُمَان تحتوي على مئات الآلاف من الرجال، فينزل عليها محمود ويهدد ملكها في عاصمته، إلا أن الجند الغالب هنا هو الجور والظلم.

قال أبو المعالي: إن أهل عُمَان ضعفاء، لا يقدرون على تسليم الخراج، فحقد عليه محمود وأضمر له المكيدة، واستدعى محمود أمراء البدو من عُمَان، فكساهم وأعطاهم، فوعدوه بالنصر على أهل عُمَان والخروج معه، وانظر أيضًا هنا طلب محمود لبدو عُمَان، وإجابتهم له على ما طلب، لولا ظلم الحاكم لما لبوه، وانظر إليه هو لم يقدر على منعهم من إجابة عدوه، ومن قبولهم عطاياه وهو يرى ويسمع؛ ولكن الله ﷻ زحزحه عن أن تتم البلية على أهل عُمَان، فلو دخل عُمَان لاستباحها وحمل نسائها وذراريها، واستعبد أهلها.

ولكنه واعد البدو على العودة، وتوجه إلى ظَفَار على أن تكون عودته إليهم من جهتهم فيدخل عُمَان من ناحيتهم، ولو تم له ذلك لكانت بلية على أهل عُمَان، من أعظم بلايا بني نبهان، ألا ترى بأنه لما وصل ظَفَار، قتل أكثر أهلها ونهب أموالهم ورجع قاصدًا عُمَان لتنفيذ مخططه.

قال الإمام: وأخذ طريق البر أي ليمر على بدو عُمَان من عفار وحسريت ووهيبة وجنبة ونحوهم، وكان قد حمَّل أثقال على سفنه، ولما تمكن في الصَحَاري الظَفَارية العُمَانية، نقص عليهم الزاد؛ لأنهم لا يعرفون قدر المسافة، فيأخذون لها ما يلزم، فأصابهم جوع وعطش شديد لقلة الماء في الطريق، فمات من عسكره قدر خمسة آلاف رجل، وقتل أكثرهم.

والمفهوم أن الأكثر ماتوا جوعًا وعطشًا لا سيما أن الموارد في الطريق قليلة، ولا يهتدون لها، ومن هناك لم يحدث التاريخ عنه هل هلك أم لا، إلا أن أخباره اختفت ولعله قنع من الغنيمة بالإياب، وأراح الله منه البلاد والعباد، وانتقم الله منه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[1].

وكذلك أيضًا اختفت أخبار أبي المعالي ولعله مات وتولى بعده أخوه عمر بن نبهان.

❋ ❋ ❋

عمر بن نبهان وأهل شيراز في عُمَان

لما تولى عمر بن نبهان سلطنة عُمَان بعد أخيه، خرج عليه أيضًا أهل شيراز بقيادة فخر الدين أحمد بن الداية، وأخيه شهاب الدين وهم أربعة آلاف وخمسمائة فارس تبعًا لخروج محمود الكوستي، والنصير لهؤلاء في خروجهم ظلم ولي الأمر في عُمَان، وإلا كيف يتسنى لمثل هؤلاء دخول عُمَان، وهم أربعة آلاف وخمسمائة رجل، وعسكر في عُمَان في أيام الإمام المهنا أربعون ألفا، وفي بلاد عُمَان آلاف الرجال.

ولا شك أن ألف رجل في بلد مواطنين فيها أقوى من عشرة آلاف رجل غزاة، إلا أن الباطل ظهير لهم، وانظر أفعالهم التي فعلوها في عُمَان.

قال الإمام السالمي نقلاً عن التاريخ العُمَاني، قال: حلَّ على عُمَان منهم «أذى كثير لا غاية له» قال: وأخرجوا أهل العقر من نزوى من بيوتهم، وأقاموا على ذلك أربعة أشهر في عُمَان، قال: وحاصروا بهلاء.

فانظر إلى خمسة آلاف رجل يتغلغلون إلى داخلية عُمَان، ويقتلون وينهبون ويخرجون النّاس من بيوتهم، ويحتلونها ويقيمون فيها أربعة أشهر بين ظهراني أهلها، إنها لمن الدواهي التي لا يرضاها حر، ولا يقف معها من في وجهه حياء.

وهكذا شأن الغازي إذا تسلط في أمة، ولا شك أن الأنصار لهذا الغازي هم أهل

---

(١) سورة آل عمران، من الآية ٤؛ وسورة المائدة، من الآية ٩.

عُمَان الذين أوغلوا في عتوهم وجورهم، يرسل عليهم من يريهم الذل والهوان، وإذا جاءت الفتنة عمت- والعياذ بالله- لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة.

* * *

كهلان بن عمر وآل الريس في عُمَان

وبعد حصار ابن الداية لبهلاء ليحتلها فحماها الله منه؛ لأنه لم يقدر عليها، حيث اجتمع أهلها وتعاقدوا بإخلاص وفي أثناء ذلك مات ابن الداية وكسر الله شوكة قومه، وانحل أمرهم وذهب عمر بن نبهان، وتولى الأمر كهلان بن نبهان، ورأى أهل شيراز أن الطريق معبد للخروج إلى عُمَان لاستغلالها.

ففي شوال من سنة ٦٧٥هـ خمس وسبعين وستمائة خرج أولاد الريس على كهلان؛ ليلعبوا دورهم بعُمَان، فخرج لهم كهلان المذكور بمن معه من جنوده وعساكره؛ ليلقاهم بالصحراء، وخرج معه أهل العقر من نزوى، فتخالفوا في الطريق فدخل آل الريس العقر، وأحرقوا سوقها وأخذوا جميع ما فيها من أموال، وسبوا النساء، وهم كما علمت شرذمة قليلة بالنسبة إلى نزوى فضلاً عن بقية أهل عُمَان، وأحرقوا الكتب التي في مخازن الجامع وفعلوا تلك الأفعال في نصف يوم واحد.

ثم التقى بهم كهلان بالسراة في أول يوم من ذي القعدة من السنة المذكورة، وكان مع آل الريس آل الحدان بن شمس، ولعل هناك ضغائن للقوم وألفت بينهم فزحف آل الريس، ومعهم من آل الحدان، وكانوا قدر سبعة آلاف رجل.

ودارت رحى الحرب بينهم فقتل من الفريقين خلق كثير، ويقال إن جملة قتلى آل الريس ثلاثمائة قتيل. ودارت الدائرة عليهم فولوا منهزمين، ثم لم يعد لهم ذكر في التاريخ العُمَاني، فلعلهم كفتهم تلك الوقعة، والحرب نار تلتهم كل ما تصل إليه ولا خير فيها.

* * *

خردلة بن سماعة بن محسن في سمائل

كان خردلة بن سماعة بن محسن بن سليمان بن نبهان على سمائل وتوابعها، جبارًا في منتهى حدود الجبروت، وكان الله ﷻ ابتلى به أهل ذلك الطرف، فأذلهم واستعبدهم إلى حدٍ بعيد، بحيث أصبح لا يقدر أحد أن يزوج وليته إلا بإذنه، وشرط على الولي أن يكون له نصف الصداق العاجل، وإذا طلقت أو مات زوجها كان الآجل كله له، وكان يكلف النّاس من الأعمال ما لا يطيقون ولا يبالي، كان يأخذ من النخل باسم الزكاة السبع أي من السبع النخلات نخلة، ويسقي أمواله بمياه النّاس، ويتولى أموال المساجد والمدارس ونحوها، ويكلف النّاس حمل الخراج الذي يفرضه عليهم إلى الحصن بعنف، ويكلف أهل قيقا وبدبد وما إليهما يحملون متاعهم من تمر وثمر ونحوه على ظهورهم وظهور دوابهم، ويأخذ نصف حق المدعي ولا يحلف المنكر، بل يريه من العذاب ما يحمله على الإقرار، حتى يحصل المطلوب، وعليه ما على الإنسان إلا أن يدعي وهو المنفذ للمدعي، وإن رغم أنف المدعي عليه.

فابتلى به العباد، وساءت به حاله البلاد، وتكدر الصفو وظل النّاس يرتحلون من تلك النواحي، من سوء تلك الأفعال، وأتم القضية بقتل الشيخ أحمد بن النضر على غير شيء، ويقال إنه أرسل إلى جماعته وأقاربه فقتلوا في بيوتهم، وأحرق كتب الشيخ، ونهب كل ما في بيته، فكانت الضجة إلى الملكوت الأعلى.

وبالجملة أفعال تشمئز منه النفوس، وتنفطر له الأكباد، وخرجت منازل بني النضر، واشتطت الوطأة عليهم، وها هي قبورهم في بساتينهم معروفة إلى الآن والله المستعان.

* * *

إمامة الحواري بن مالك في العهد النبهاني

بويع الحواري بن مالك في العهد النبهاني في سنة ٨٠٩هـ تسع ثمانمائة أي في العقد الأول من القرن التاسع، فقام بواجب الشرع، وبذل النفس والنفيس، وبقي

في إمامته ثلاثًا وعشرين سنة، أدى فيها واجب الحق، وأقام أعمدة العدالة حد المستطاع ولم أجد شقاقًا بينه وبين بني نبهان، ولا ذكروا له حروبًا، وهذا الوقت وقتهم، ولعلهم تهادنوا هم وإياه، فإن الأئمة في غالب عهد بني نبهان يكونون في بلد، والسلطان النبهاني في آخر، إذ كان العُمَانيون وحدهم، فيكون الصراع بين الإمامة، والسلطنة ويقوم الخصام والنزاع هكذا.

فتارة ترتفع راية الإمامة، وتارة تقوم الملكية، ولها كبكبة، وهكذا كان الحال، والحواري بن مالك يعيش ثلاثًا وعشرين سنة، بين أولئك العتاة، ولعل الله كفَّ شرهم عنه، وتوفي الإمام الحواري المذكور في سنة ٨٣٢هـ اثنتين وثلاثين وثمانمائة، وبايعوا ولده مالك بن الحواري.

* * *

إمامة مالك بن الحواري في العهد النبهاني

لما توفي الحواري بن مالك الإمام، رأى أهل الفضل ابنه أهلاً؛ لأن يكون إمامًا بعد أبيه، فاجتمع عليه أهل العلم، فبايعوه بالإمامة بعد أبيه حالاً، وكان عقد الإمامة له بنزوى، ومنها تولى جبل بني ريام، ولعله أراد أن يجعله عاصمة لإمامته، وإنه لخليق بذلك، فإن جبل بني ريام من أعظم عواصم عُمَان، ثم هبط بعسكره إلى الرستاق، ووقعت بينه وبين من بها من الجنود مناوشات، وقتل من عسكره ناس؛ ولكن لم يصرح التاريخ السبب الموجب لذلك.

وقيل إن الإمام المذكور أمر عبدالله الملقب بالهول أن يغزو الرستاق، وأمر بحرق سور القلعة، ولعله أراد بذلك أن يخرج الذين تحصنوا بها، فيقاتلهم إذ لا يستطاع احتلالها مصادمة، إذ لا طائرات إذ ذاك ولا دبابات، ولا مدافع تعمل شيئًا له أثر، وكأن عمر هذا الإمام كان قصيرًا، فإنه ما عاش في الإمامة إلا سنة واحدة، ثم توفي فأراحه الله من عناء ما هو بصدده، فإنه توفي في سنة ٨٣٣هـ.

* * *

إمامة أبي الحسن بن خميس بن عامر في العهد النبهاني

لم يعرف تحقيقًا بعد موت مالك بن الحواري ماذا صار حتى بويع للإمام أبي الحسن المذكور، والمدة نحو ست سنين فإنه مات سنة ٨٣٣هـ، وبويع أبو الحسن في شهر رمضان سنة ٨٣٩هـ.

قال: وخاصمه بنو صلت. قلت: لم نعرف بني صلت المخاصمين للإمام المذكور، ولا في أي بلد كان هذا الخصام، وحاربوه فإن كان المراد بهم آل الصلت بن مالك، فهم في بهلاء ولم نعرف الحقائق التي يشير إليها التاريخ، وكان لهذا الإمام ولد يدعى عبد السلام، روى عن أبيه المذكور أنه أمر بخشي نخل بني ربيع خدم بني صلت، وهو يومئذٍ إمام عُمَان؛ لأن بني ربيع خاصموه عند بني صلت.

وفي الأثر كان أمره بخشى نخلهم الشيخ العالم ورد بن مفرج، شهد بذلك سليمان بن راشد بن صقر العدوي، ودهمان بن راشد؛ ذلك لأنهم حاربوه وأفتاه الشيخ المذكور بجواز خشي أموالهم عقوبة لهم، وتجوز عقوبة الباغي بإتلاف أمواله التي يتقوى بها على بغية.

قال ابن رزيق: عقد لأبي الحسن بعد أحمد بن محمد الزنجي. قلت: لعله كانت إمامته في تلك المدة التي لاحظناها بين مالك بن الحواري وأبي الحسن، وهي ست سنين. قال: وأقام في الإمامة سنة واحدة، فخرج عليه سليمان بن سليمان بن مظفر، فمات أبو الحسن عند خروج سليمان عليه والله أعلم.

❋ ❋ ❋

إمامة عمر بن الخطاب في العهد النبهاني

لما توفي الإمام أبو الحسن بن خميس بن عامر في سنة ٨٤٦هـ، بقيت الأمور في يد بني نبهان يتلاعبون فيها كيف شاءوا، ويفعلون في الأمة كما تهوى أنفسهم، ورأوا ذلك هو العز والشرف، أغمار غلب عليهم الجهل واستمروا للباطل، وكانت عقولهم مقصورة على كلمة السيد أو السلطان أو الملك، ولم

يرفعوا رؤوسهم إلى أعلى من ذلك المستوى، فهوت المملكة العُمَانية وتحطمت أركانها، وأصبحت تتناقص أطرافها، ويتقلص ظلها، وينضب معينها، وهم في تيهم عاكفون على الشهوات يتظالمون فيما بينهم، ويظلمون الرعية، ويمتصون الثروة أين وجدوها، ويستصفون أموال العباد ولا يبالون.

وفي سنة ٨٨٥هـ ضاق المسلمون بهم ذرعًا، فاجتمعوا فيما بينهم وتشاوروا في أمرهم، فاعتمدوا على مبايعة عمر بن الخطاب، فقام بالأمر، وكان السلطان إذ ذاك بن سليمان صاحب الديوان الحماسي، فثار المذكور بجيشه، وخرج الإمام برجاله، وكان الالتقاء ببلد حممت من وادي بني رواحة، وهي التي تعرف الآن بالجناة، وكان أكثر أنصار السلطان في هذه البادرة هم بنو رواحة، وهم القوام بأمره، فانهزم الإمام وعسكره، ورأوا أنهم وقعوا في كبيرة أمر، فلزمهم أن يتوبوا ويتراجعوا، ولعلهم كانوا استخفوا بالأمر، فعوقبوا عليه،فجددوا البيعة له مرة ثانية، فصال على النباهنة صولة الأسد الباسل، فهزموهم هزيمة أتت على سحق قوتهم، وإبادة شملهم.

ولكن لم يذكر التاريخ أين وقعت الوقعة بينهم، ولا ذكروا من قتل منهم، فإنه لابد أن تكون وقعت عليهم وقعة أو وقعات، أوجبت خضوعهم، فإنهم لا يخضعون بالهوينا، ولا يكفي من المؤرخين مثل هذا التعبير، فإن الذكر الذي يعتمد عليه ينبغي أن يكون واضحًا، فإنهم قد أشادوا بذكر نصر الإمام وانتصاره عليهم إجمالاً.

وهذا الإمام السالمي المؤرخ الكبير يقول:

وفي بني اليحمد من أسد الشرى إمام صدق كان يدعى عمرا
كذا أبوه يدعى بالخطاب مساميا لعمر الصحابي
وقد قضى على بني نبهانا جبابرا كانوا على عُمَان
قضى بأن مالهم لمن ظلم من العُمَانيين لكن ما علم

فجعلوا ذلك بيت مال... إلخ

لكن المؤرخين العُمَانيين يجازفون الحقائق غالبًا، قال الإمام السالمي: صال على النباهنة صولة الأسد الصائل، فأمكنه الله منهم، وأرثه أرضهم، وديارهم، وحكم بتغريق أموالهم، وهذا التعبير يرمز إلى سلطة كبيرة كانت للإمام المذكور: وليتها كشفت حتى تعلم على أي الوجوه كانت، فإنهم لم يبينوا من قتل ومن أسر، وعلى أي صفة كانت هزيمتهم، حتى صفا الجو للإمام ومن معه، بحيث يتمكنون من حكم التغريق، ويستطيع العلماء القيام بهذه المهمة الساحقة التي تقضي أموال القوم، حتى أقاموا للمظلومين وكيلاً، وللسلاطين وكيلاً، والوكيلان ينظران في الأمور، ويحققان القضايا، ويستطيع العلماء أن يسجلوا الحكم، ويصححوا عليه.

والحال يدل أن السلطنة النبهانية هنا وهت، ولم تعد تستطيع القيام في وجه الإمام لمعارضة حكمه القاضي بتغريق أموالهم، وتمزيق شملهم، وتمكن المسلمون من تنفيذ أحكام للشرع تمكنًا تامًا صحيحًا لا هوادة فيه، وخمدت الشرارة النبهانية، إلا أنها بقيت وميضًا تحت الرماد، فإنه لم يطل العهد حتى طلع لها نجم كما سوف ترى.

* * *

صفة الحكم في أموال بني نبهان

اعلم أن المسلمين نظروا إلى النباهنة نظرة الحنق؛ لأن القوم انخرطوا في سلك الجبروت والظلم الفاحش، وبلغوا فيه مبلغًا كبيرًا وكثر المتظلمون منهم والشاكون جورهم، وعند هذا الحال نظر الإمام عمر بن الخطاب المبتلى بأمر المسلمين بعُمَان، وناظر العلماء وناظروه، وآخر الأمر أقاموا للمظلومين وكيلاً يشكو من النباهنة المظالم، وأقاموا للملوك وكيلاً يدافع عنهم، وعشية لأربعاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ٨٨٧هـ سبع وثمانين وثمانمائة اجتمعوا لهذا الصدد، وللتشاور واستخراج ما يتتني عليه الحكم، فإنهم مسؤولون أمام الله ﷻ.

قرروا سعيد بن زياد بن أحمد بن راشد البهلوي للحكم في أموال بني نبهان، وأقام أحمد بن عمر بن مفرج وكيلاً للملوك المقدم ذكرهم وكان القاضي في هذه القضية هو الشيخ العالم أحمد بن صالح بن محمد بن عمر، بجميع مال آل نبهان من أموال، والمراد بها بساتين النخل. قال: من أموال وأرضين، ونخيل وبيوت وأسلحة وآنية، وغلال وتمر وسكر، وجميع ما لهم كائنًا ما كان من ماء وبيوت ودور، وأطوي وأثاث وأمتعة، قضاء واجبًا تامًا، وقبل محمد بن عمر بن محمد بن أحمد هذا القضاء للمظلومين من أهل عُمَان من غاب منهم ومن حضر، وكبر وصغر، الذكور منهم والإناث، فصارت هذه الأموال بالقضاء الكائن الصحيح للمظلومين. والمظلومون قد جهلت معرفتهم، فصار كل مال مجهول ربه جاز للإمام قبضه، ويصرفه في أعزار دولة المسلمين، وكل من أصبح حقه وأثبته فهو له من أموالهم، ويحاسب بالتجزئة لما يصح له بقسطه إن أدرك ذلك، وإن لم يدرك التجزئة ولم يحط بها فذلك نصيب غير معلوم، وهو مجهول للفقراء.

وللإمام أن يقبض الأموال المغيبة وأموال الفقراء ومن لا رب له، ويجعله في عز دولة المسلمين، فقد صح هذا الحكم والقضاء فيه، ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٨١] كتبه الفقير لله تعالى علي بن محمد بن علي بن عبد الباقي، وصلى الله على رسوله وآله وسلم، شهد بجميع ذلك: أحمد ابن صالح بن عمر بن أحمد بن مفرج وكتبه بيده.

وهذا تاريخ وقوع الحكم المشار إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، وقع الحكم والقضاء للمسلمين المظلومين بأموال أولاد نبهان في عشى الأربعاء لسبع ليال خلون من شهر جمادى الآخرة من سنة ٨٣٧ هجرية نبوية محمدية، على مهاجرها أفضل الصلاة والسلام، وعلى أثره كتب: أقام الشيخ القاضي المجاهد سيف الإسلام، وقطب عُمَان، أبو عبد الله محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج بن عمر بن أحمد بن مفرج، وكيلاً للملوك المقدم ذكرهم، فقد صح عندنا ذلك، فقضى

أحمد بن صالح بن محمد بن عمر بجميع مال آل نبهان من أموال وأرضين، ونخيل وبيوت وأسلحة وآنية، وغلال وتمر وسكر وجميع ما لهم من ملك، فقد صح ذلك لمن ظلم من المسلمين من أهل عُمَان الذين ظلمهم السادة الملوك من آل نبهان، من لدن السلطان المظفر بن سليمان بن المظفر بن نبهان، إلى آخر من ظلم من نسله وولده الملكين سليمان بن سليمان وحسام بن سليمان، هذا الحكم الذي هو في البادرة، وقد سجّل هذا الحكم جملة من أهل العلم، وكل من عرض عليه هذا الحكم أثبته وأمضه من جملة المسجلين إثباته. عبد الله بن مداد بن محمد.

وقال الشيخ محمد بن عبدالله بن مداد: صح عندي وثبت لدي أن جميع الأموال والأملاك التي خلفها السيد سليمان بن المظفر قد استهلكتها الديون التي على سليمان والضمانات، وقد صارت جميع هذه الأملاك والأموال للإمام دون أولاد سليمان، ينفذها في عز دولة المسلمين، وكذلك الزروع الحاضرة وغيرها، صارت للإمام، وأنفذ الإمام عمر بن الخطاب ﷺ هذا الحكم، واستحل تلك الأموال، وأدخلها في بيت المال، فبيت المال الموجود بعُمَان هو أصله أموال ملوك بني نبهان؛ لأن عُمَان لم تكن بيت مال في حال من الأحوال؛ لأنها أسلمت طوعًا كما عَلِمَ ذلك الخاص والعام، وقد صرح أهل العلم في الأثر بذلك، فكل الأموال التي كانت لبيت المال بعُمَان من سمائل، وإزكي، ونزوى، وبهلاء ، ووادي القريات، ووادي السحتن، والرستاق، وأوديتها، والعوابي، ونخل كل هذه الأموال هي أموال المذكورين، إلا بدبد فقد عرف أمرها، وبعض أنهار أجراها أئمة اليعاربة، وأفلاج في عُمَان وهي يسيرة بالنسبة إلى أموال بني نبهان، ولحق بها بعض الأموال كأموال بني رواحة، وأموال بعض آل بوسعيد، التي غرقها الإمام عزان، وأموال بعض عتاة أهل عُمَان.

وعُمَان أيام الإمام عمر بن الخطاب كانت غاصة بأهل العلم، وكلهم وافقوا على ذلك التغريق وأمضوه، لمَّا صح لديهم من أعمال بني نبهان الذين استمرءوا

الظلم وركنوا إليه، والله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وسحق الله الظلم ومحا أرسمه في قوم عاد وفرعون وقوم لوط وأصحاب الأيكة، كل ذلك بسبب ظلمهم، والظلم لا تبني عليه دار والعياذ بالله.

وسأل الإمام محمد بن إسماعيل عن الأموال التي غرقها الإمام عمر بن الخطاب من أموال بني نبهان، ما وجه تغريقها؟ وما هو العمل فيها؟ وهذا معنى السؤال يتضمنه جواب الشيخ العالم أحمد بن صالح بن عمر بن أحمد بن مفرج، يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم ليعلم الواقف على كتابي هذا من المسلمين، أنه قد سألني الإمام المعظم الهمام المكرم إمام المسلمين محمد بن إسماعيل عن أموال بني نبهان، وحوز المسلمين لها ممن تقدمه الأئمة مثل عمر بن الخطاب بن محمد، وكيف سبب حوزهم؟ وهل عندك حفظ ممن تقدم من المسلمين والأئمة الماضين أنهم بماذا أحلوها لهم؟ وبأي وجه دخلوا فيها؟ فأجبته بما حفظته ووجدته ونظرته في ورقة فيها خطوط المسلمين، وفي تلك الأيام علماء وفقهاء أخيار، نظروا في بني نبهان أنهم أخذوا أموال المسلمين، وسفكوا دمائهم، وصار جميع ما أصابوه من الأموال والدماء والقتل، وصاروا لم يعرفوا لكل ذي حق حقه ليعطوه إياه، ولم يعرفوا لها أهلاً.

وقد قال المسلمون: إن كل شيء لم يعرف له أهل فهو راجع إلى الفقراء، والإمام أولى بكل شيء مرجعه إلى الفقراء من الصدقات والوصايا وغيرها، فهو أولى بذلك ويجعله في عز دولة المسلمين، وبهذه الحجة أجازوها وأحلوها للإمام عمر بن الخطاب، فجعلت تنتقل من إمام إلى إمام إلى يومنا هذا، ولم يعب أحد ذلك، وكان في ذلك الأوان جمة من العلماء الأتقياء، البلغاء الفصحاء، فهذا حفظي عنهم، ونظرت خطوطهم في الورقة المتقدم ذكرها، والحق أحق أن يتبع، وما بعد الحق إلا الضلال، ولا توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، ولا حول

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، كتبه العبد الفقير لله تعالى أحمد بن صالح بن عمر بن أحمد بن مفرج بيده، وصلى الله على رسوله محمد النبي ﷺ.

وقد أجزت للإمام المقدم الذكر أعزه الله، حوز هذه الأموال المقدم ذكرها اقتفاء لما تقدم من الأحكام من العلماء الأبرار الأتقياء الأخيار، ولا حجة لمحتج على الإمام في حوزه لها ومنعه إياها، إذ هو مقتف أثر غيره من الأئمة الماضين، وحكم العلماء المتقدمين، ولا عليه مطعن لطاعن، ولا حجة لمحتج، والسلام على من اتبع الهدى. كتبه أحمد بن صالح بن عمر بن أحمد بيده، وصلى الله على رسوله محمد وآله وسلم تسليمًا كثيرًا، وسجل عليه وصححه الشيخ أبو القاسم بن شائق بن عمر بيده، وصححه الشيخ سالم بن راشد بن خاتم، وصححه أيضًا وأثبته الشيخ سليمان بن أبي القاسم بن محمد، وحكم بصحته أيضًا الشيخ خالد بني سعيد بن عمر بن إسماعيل، وحكم بصحته أيضًا الشيخ عمر بن موسى، والشيخ راشد بن غسان.

واستمر العلماء الأبرار والقادة الأخيار كل من وصل إليه ذلك الحكم أثبته وأمضاه وأوجب العمل به واعتمده الجماعة على التوالي؛ ذلك لأن جماعة بني نبهان خلطوا المظالم كبيرها وصغيرها أرضها وماءها، وغللها وحيواناتها، وأصولها المنقولة وغير المنقولة، والدماء بأنواعها، والحلي والمنازل، وكل ما يطلق خردلة في سمائل، وقد مرت عليك الإشارة.

وهكذا اسم مال إذا أرادوه طردوا أهله عنه وناهيك بأعمال الحال كان من القوم طيلة تلك المدة التي عاشها النبهانيون، وهذا عملهم، فلما رأى العلماء تراكم الضمانات، وتزاحم الجنايات، ورأوا أن انتزاع المظالم من الظالم، وردها إلى صاحبها المظلوم، عسر عليهم معرفة أموال زيد من أموال عمر، واختلاف أنواع المظالم وتداخلها على بعضها بعضًا جعلوها مجهولة الأرباب، ومجهول الأرباب محل مخرجه الفقراء، وما كان محل الفقراء من هذه الأنواع فهو راجع

إلى نظر الإمام في زمن وجوده يفعل ما يراه حقًا، ورأى الإمام إنفاذ تلك الأموال في عز دولة المسلمين، أعم منفعة وأعلى شأنًا، وأولى مخرجًا؛ حيث عز الدولة يشترك فيه العامة من المسلمين، فصارت تلك الأموال بيت مال المسلمين منذ ذلك العهد، حتى الساعة.

ولا يخفى أن المسلمين لم يكونوا مختصين بهذا العمل دون غيرهم، فإن عمر بن الخطاب ﷺ، أول من وضع حجر زاوية التغريق، ومبنى ذلك على أعمدة التحقيق، وحكم في عهد خلافته والمسلمون متوافرون، وأهل الحق من أجلة الصحابة حاضرون، وله موالون ومؤازرون، ولم ينكروا شيئًا من هذا العمل، بل رأوه حقًا وصوابًا، وعلى ذلك بنى أئمة عُمَان الإباضيين المخلصين أحكام تغريق أموال الجبابرة الظلمة، وما زال ذلك جاريًا والعمل عليه، وقد عمل به في المتأخرين الإمام عزان بن قيس، ثم تبعه الإمام سالم بن راشد، وأقره العلماء، وفيه ألف العلامة أبو مالك عامر بن خميس المالكي (غاية التحقيق في الانتصار والتغريق)، والله أعلم.

وبعد هذا الإمام الخروصي أعني عمر بن الخطاب ﷺ، عمل به الإمام محمد إسماعيل كما سوف تقف عليه إن شاء الله.

وتوفي الإمام عمر بن الخطاب رحمه الله ورضي عنه في نزوى.

❊ ❊ ❊

إمامة الإمام محمد بن سليمان بن أحمد

لما انتهت الأمور النبهانية، وتقرر حكم تغريق أموالهم، وانطبق عليه المسلمون، وتمت الحجة على ذلك، اختار الله ﷻ لعبده ما عنده، فتوفى الإمام عمر بن الخطاب، وبقي في نفوس أهل الباطل من السوء ما بقي كما عرفت، بايع المسلمون محمد بن سليمان بن أحمد بن مفرج القاضي البهلوي، ولم يطل عهده فإنه من المحتمل أنه رأى الأمور تنظر إليه شزرًا، بحيث سبق من آبائه تغريق أموال

الملوك النباهنة، والملوك مرهوبون من قبل سواد الأمة، فاعتزل عن الإمامة أو أنهم عزلوه للأحوال التي يلاحظ وميض نارها وما كل مجتهد مصيب، فإن من النّاس من لا تواطئهم الأحوال ولا تثبت لهم بحال، ولا سيّما إذا اختلفت آراء الأنصار، فإن الإمام بأنصاره، أما وحده فلا يقدر على فعل تشترك فيه الأمة، وهناك أحوال تتلاعب فيها الأهواء والأمر لله.

* * *

إمامة عمر الشريف

من الأمور التي يقف لها الإنسان حائرًا مثل إمامة محمد بن سليمان الآنف الذكر، وإمامة عمر الشريف فإنهم لم يعرّفوا بهذا الرجل ولا بلقبه المشار إليه، ولا ممن هو من القبائل، وعلى الأقل من أي البلاد هو حتى يعلم عنه شيء يحسن السكوت عليه؛ وأقام عمر الشريف في إمامته سنة كاملة، ثم لما خرج من نزوى إلى بهلاء، بايع أهل نزوى إمامًا بعده، وهذا ليس من الحق في شيء، فإنه كان قصر أو رأوه عاجزًا عليهم أن يقووه وإلا فعليهم أن يحتجوا عليه، ويبينوا له وجه الأمر الذي يعدوه، فيقتنع ويكون لهم معذرة عند الله وعند العباد، أما كون إمامهم خرج إلى بلاد لإصلاح أحوالها، فلا يعلم إلا وإمام آخر قام عنه.

فهذا الحال شبيه بلعب الصبيان لا يرضاه الدين ولا الإيمان، ومن العجائب أنهم لما تركوا الإمام محمد بن سليمان بن أحمد الذي اعتزل عن الإمامة، رجعوا إليه فبايعوه مرة أخرى ثم لم يعرف ماذا صار عليه، فلم يذكروا من أحواله شيئًا، ولعلهم ذكروا فضاع المذكور كما ضاع الكثير من التاريخ العُمَاني، أما كون الأمور على هذا الشكل، فمن القبائح التي ليتها لم تكن، فإن هذا العهد تبص فيه نار النباهنة تحت الرماد.

* * *

إمامة أحمد بن عمر بن محمد الزنجي

لما انتقض بناء إمامة محمد بن سليمان المفرجي، وإمامة عمر الشريف، بويع بها أحمد بن عمر الزنجي البهلوي، ولم يذكروا عنه شيئًا إلا أنه مات، ولم يذكروا في أي تاريخ مات، ولعله مات حتف أنفه قبل أن تكون له أحوال، وقبره بنزوى، هذا الذي ذكروه عنه فقط والله أعلم بما هناك.

❊ ❊ ❊

إمامة الإمام أبي الحسن بن عبد السلام

إن أبا الحسن كان من نزوى، وكانت نزوى تضم كنوزًا من أهل التقوى، ورجال الدين والإيمان، ومنهم ابن أبي الحسن بن عبد السلام، ولآبائه ذكر في أهل الفضل بنزوى، ومضى لابن أبي الحسن في إمامته سنة واحدة، فخرج عليه سليمان بن سليمان النبهاني.

قلت: هنا يتبين ما توخيناه من عزل الإمام محمد بن سليمان، وعمر الشريف ومن بعدهما، فإن الوميض النبهاني يلمع تحت الرماد باتقاد، وله من أهل البغي أعضاد، ومن الجهلة والعوام أنصار وأجناد، ولم يبينوا عنه شيئًا، والذي يفهم من الأحوال أن السلطان عادت له قوة طرد بها ابن عبد السلام، وتولى الأمر واستأسد، ولم تقم لابن عبد السلام قائمة، فإنهم ذكروا عن سليمان المذكور بعد هذا القيام الذي قامه على أبي الحسن بن عبد السلام، هاجم امرأة من أهل نزوى خرجت لفلج الغنتق، حيث اعتادت النساء يخرجن لحوائجهن فيه، فما شعرت إلا وهذا الظالم وراءها، فهربت من الفلج عارية تستجير وتستغيث، ولا يقدر أحد أن ينجيها مما يدل على تسلط سليمان بن سليمان مرة أخرى.

ولم يعتبر بالحال الذي صار عليه ولم يتعظ بما وقع من الإمام عمر بن الخطاب، حتى تجرد له محمد بن إسماعيل كالمخاطر بنفسه، فصرعه على الأرض حتى تفر المرأة المسكينة الضعيفة من هذا الجبار الذي يتهجم عليها كالجمل الصائل بئس الفعل وبئس الرجل.

❊ ❊ ❊

إمامة الإمام محمد بن إسماعيل الحاضري

إن الإمام محمد بن إسماعيل بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل الحاضري، وهو معروف النسب مذكور في التاريخ العُمَاني، فلا حاجة إلى إيراد نسبه هنا فهو من قضاعة بن مالك بن حمير، كان هذا الرجل بطلًا ملأه الله إيمانًا، وشد قلبه وأيده بروح من عنده، ومن ينصر الله حقاً بنصره الله على أعدائه.

رأى محمد بن إسماعيل تلك الضعيفة التي لا مجير لها من هذا الجبار الذي هتك سترها وانطلق وراءها جهارًا، عند هذا فضل محمد بن إسماعيل رَحِمَهُ الله الموت على الحياة؛ لأنه يعلم أن الرجل غير تاركه حيًا، ولكن من حسن الحظ أن أنعش الله أهل الايمان، فقاموا عند محمد بن إسماعيل قومة رجل واحد، فتداركوا الأمر قبل استئصال الخطب، ورأوا جرأة محمد بن إسماعيل يخوله الإمامة، فإن الإمامة شرطها الشجاعة، فلا إمامة لجبان، وكان محمد بن إسماعيل يسكن الحارة الغربية من سكة باب مرار، لا كما يقول ابن رزيق كان من أهل إزكي، وأن محمد بن إسماعيل لما صرع السلطان سليمان بن سليمان جرد له خنجره وذبحه.

وقال الإمام رَحِمَهُ الله: وسبب اختيار المسلمين له أن سليمان بن سليمان هجم على امرأة تغتسل بفلج الغنتق، فخرجت من الفلج هاربة عنه عريانة، فجعل يعدو في أثرها حتى وصل حارة الوادي، فرآها محمد بن إسماعيل فخرج إليه وأمسكه عنها وصرعه على الأرض، حتى مضت المرأة ودخلت العقر، فخلى سبيله، فعند ذلك فرح به المسلمون لما رأوا من قوته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنصبوه إمامًا، وذلك في سنة ست وتسعمائة.

وقام هذا الإمام بعُمَان قيام الأئمة الكرام والسادة الأعلام، وآمنت البلاد في أيامه، واستراحت الرعية طيلة أعوامه، وذلك توفيق من الله عَزَّ وَجَلَّ، والله يؤتي فضله من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

لما تمكن قدم إمامة محمد بن إسماعيل نظر في أحوال الجبابرة وأعمالهم، وكان

قد عرف عمل الإمام عمر بن الخطاب رضوان الله عليه، فحكم بتغريق أموال بني رواحة الذين دخلوا في أعمال سليمان المذكور، وقادوه على النّاس في الفتن الآنفة الذكر التي كان يمارسها سليمان، وولده سليمان في أهل عُمَان، وقادوا أيضًا مظفر بن سليمان، حكم الإمام محمد بن إسماعيل بتغريق أموالهم بسفك دماء المسلمين، ونهب أموالهم، وهتك أعراضهم، وكان العلماء إذ ذاك متوافرين ومتناصرين، يؤيدون الحق على الباطل، ولا يالون عندما يجدون سنوح الفرصة لهم.

* * *

صفة الحكم في أموال بني رواحة

اعلم أن الإمام عمر بن الخطاب، نظر إلى الجبابرة من نبهان، وأن الجرائم التي اقترفوها تختص بهم، إذ هم الفاعلون، حيث لهم السلطان، ولم ينظر إلى من كانوا لهم أعوانًا، ولا شك أن لهم أعوانًا يقومون بأمورهم ويمتثلون لما يرومون فعله، وما من دولة إلا ولها رجال هم يدها الباطشة، وهم عينها الباصرة، وهم لسانها الداعية؛ ولكن لم يلتفت الإمام عمر بن الخطاب إلا إلى الملوك المذكورين.

والتفت الإمام محمد بن إسماعيل الحاضري إلى الأعوان، ومن بينهم بنو رواحة الذين قادوا سليمان النبهاني، ومظفر بن سليمان، وكانوا لهم سهامًا على عباد الله، وكانت الواقعة الكبرى بينهم بحممت من وادي بني رواحة، وحممت هي التي تسمى الآن الجناة، وهي الواقعة التي انهزم فيها الإمام، ثم تلاوم المسلمون وتراجعوا فصالوا على النباهنة، ومكنهم الله من خضد شوكتهم، وكسر أسنتهم، وغلَّ أيدي الضلال بذلك الحكم الذي حكم به علماء دولة ذلك الإمام، فأمضاه الإمام المذكور.

وهذا الإمام محمد بن إسماعيل يتمم العملية فيغرق أموال بني رواحة، وهي التي في الجناة وهي أموال معروفة عند أهل عُمَان؛ ولكن لطول العهد وتبدل الأحوال، وتلاشى الأمور بانحلال السلاطين المذكورين، رجعت أموال بني

رواحة إليهم، ولعل بعض الأئمة رأى من الصلاح إرجاعها إليهم في مقابلة استقامتهم له، فإن لكل دولة رجالًا، وهذا ما لا يختلف فيه أهل العلم، فإن الإمام إذا رأى من قوم استقامة له أن يخصهم من بيت مال المسلمين لما يراه من مصلحة المسلمين، ولكل وقت سياسة، وكم مال رد لأهله في عُمَان بعدما صار عليه القهر من حاكم مصلح في الأمة، بل ومن جائز أيضًا إذا رأى صلاحه في تقريب قوم وإبعاد آخرين

ولكن بقي الفرق بين نظر أهل الفضل وغيرهم، فقبض الإمام محمد بن إسماعيل أموال بني رواحة وأضافها إلى بيت المال واستغلها طيلة إمامته، وكذا الأئمة بعده. وحكم هذا الإمام في إبطال بيع الخيار.

❊ ❊ ❊

صفة الحكم في بيع الخيار

لا يخفى أن أئمة عُمَان ما زالوا ولا يزالون مع مقتضيات الشريعة يراعونها في أدنى النقاط فضلاً عن أكبرها، ولا غرض يهمهم إلا إجراء أحكام الشريعة في مجاريها مهما كانت، ومن حيث إن بيع الخيار فيه علل لا تزال معروفة، والعلماء فيه على طرفي نقيض منهم المثبت ومنهم المبطل، ومنهم المتوقف، ولذلك عقد الإمام محمد بن إسماعيل رَحِمَهُ اللهُ مؤتمرًا للنظر في هذا الأمر، واجتمع معه العلماء، فكتب كتابًا بين فيه رأيه في هذا البيع كما في الأثر، إنه لما كثرت معهم المعاملات من الربا والفساد والحيل، فصاروا يظهرون أنهم يتبابعون بيع الخيار، ويجعلونه تغطية على ما أسسوه وأرادوه؛ ليكون لهم حلالاً في الحكم الظاهر، وباطنهم الزيادة للدراهم، وأخذ الثمرة على قدر ما يسلمون من الدراهم، إذا قلت الدراهم أخذوا له قليلاً، وإذا كثرت أخذوا له كثيرًا، والمراد بكثرة الدراهم وقتها أنه إذا كان البيع معقودًا بمائة ريال أخذوا غلة من البائع، بقدر المائة المذكورة، وإذا كان البيع مثلاً بألف ريال أخذوا من البائع غلة بقدر الألف. ولا يريدون

مالًا مهما كان، وإنما المراد غلة الدراهم والمبيع حيلة بينهم فقط، فلا يراعون كثرة المبيع وقلته، وإنما الذي يراعونه نفس الغلة، وليس القصد بذلك العقد الأصلي، وإنما إذا رأوا المدة التي جعل الخيار فيها قد قاربت أن تنتهي زادوا مدة أخرى، ويتظاهرون بذلك كحسن خلق ورأفة بصاحب المال أن لا يفوته ماله فكأن المال باقٍ له ولم يخرج عن ملكه، وهم يمتصون دمه، إذ يقوم هو بمصارف المال، وما يحتاج إليه من مغارم على أنه ماله، وهم يأخذون غلته سالمًة لا شيء عليهم فيها.

والمراد بالمال عند العُمَانيين في مثل هذا المقام الأصول، سواء كانت نخلاً وهي المراد عند الإطلاق، أو مياهاً أو أروضًا أو مباني ونحوها، فيبيعونها بالإقالة لمدة سنوات على هذه الشريطة المذكورة، وربما عقد الشاري مع البائع الغلة أن تكون كذا وكذا عددًا أو نوعًا، وهذا كله حرام محض، إذ هو ربًا في نظر الشرع؛ لأن المقصود غلة دراهم معروفة، وهي باقية في مال البائع، والأقل منهم من يسلم الثمرة للشاري، فيتناولها غلة له والمال في يد البائع، وفشا هذا الحال بين الجهال وأهل الباطل، واستمرءوه ولا يبالون، وقد صرح الأثر المنقول أن البيوع على ما عقدت عليه في الأحكام، وعلى ما أسست عليه في الحلال والحرام.

فلما رأى المسلمون والمراد بهم أهل الفضل الذين هم الحجة في الأرض، أهل هذا الزمان همجًا رعاءً لا يتقون الحرام مع ما يحتاجون إليه من المكاتبة والإشهاد، خافوا أن يحاط بهم، وأن يقعوا جميعًا في المعصية إن لم ينهوهم عن ذلك، ويكونوا كمن قال الله فيهم ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩].

❊ ❊ ❊

العلماء يجتمعون لمراجعة آثار المسلمين في هذا الصدد

لما كثر القيل والقال في هذا الصدد، اجتمع المسلمون الموجودون في ذلك العهد لمراجعة آثار السلف الصالح، وما قرره العلماء في مثل هذا البيع المشار إليه،

وهم المشايخ الفقهاء الأجلاء، الذين هم القدوة إذ ذاك، وفي مقدمتهم مداد بن عبدالله بن مداد العقري النزوي، والفقيه عبدالله بن محمد بن سليمان عمر النزوي، والقاضي أبو غسان بن ورد بن أبي غسان البهلوي، وعمر بن زياد بن أحمد البهلوي، ومحمد بن أبي الحسن بن صالح بن وضاح المنحي، وجماعة آخرون ممن كان من أهل العلم عند الإمام العادل الكامل العاقل محمد بن إسماعيل– نصره الله– بقرية نزوى، وطالعوا الآثار، رأى الواردة عن أهل العلم السابقين والأئمة الماضين، المسندة إلى سيد المرسلين نبينا محمد ﷺ وآله الوارد بها الوحي المبين عن رب العالمين، فوجدوا فيها أن غلة بيع الخيار حرام، فحكم الإمام رحمه الله ومن معه من العلماء المذكورين، والفقهاء المشهورين بتحريم غلة بيع الخيار، وبفساد البيع أيضًا، وأن ذلك أقرب للتقوى، وأصح في الفتوى، وأسلم عند الله من البلوى لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أجبا فقد أربا»

وهذا ما كتبه الإمام محمد بن إسماعيل رحمه الله في ذلك، بعد ما صح معه الدليل، واتضح لديه السبيل، قال:

بسم الله الرحمن الرحيم، لما كان في نهار الأربعاء لست ليال خلون من شهر جمادى الآخرة أحد شهور سنة ثمان وعشرين وتسعمائة، قد صح الحكم الصحيح الثابت الصريح من الإمام العادل، إمام المسلمين محمد بن إسماعيل ومن حضره من المسلمين، وما أجمعوا عليه، بأن غلة بيع الخيار لا تجوز، وأنها حرام وأن المراد بها الثمرة، وأنها ربا، ووافق ما نهى عنه النبي ﷺ «من أجبا فقد أربا»، وقد جاء الأثر عن عَمْرو بن علي في قول المسلمين في بيع الخيار، أنه غير ثابت وهذا قول من لا يراه ثابتًا، فإن الأصل عنده فيه أن هذا بيع وقع على الثمرة لا على الأصل، ومثل هذا لا يصح في حكم المسلمين، لعلل عديدة تتناول هذا البيع بالفساد، وليس محل بسطها، وقد الفت فيه رسالة خاصة سميتها «توضيح المنار في إبطال بيع الخيار»، وذلك في أيام الصبا، وأوردت فيها أقوال العلماء

والأحاديث المروية في هذا المقام، مع شرح لمعانيها وبيان محل الاستدلال بها، فكانت رسالة جامعة، وأصبحتُ الآن لا أعلم عنها أين صارت؟ والله حسبي ونعم الوكيل، أحتسب عنده أجرها، فإن العناء والتعب الذي ألاقيه حال التأليف كبير، إذ لا مساعد ولا فراغ، وإنما هو صراع للحياة، والله ولي التوفيق.

وإنما بيع الخيار حيلة على تحليل الغلة، بل لا أقول على تحليلها إنما هي حرام، وما كان حرامًا في نظر المسلمين لا يزال حرامًا إلى يوم الدين، وكذلك يقول العلماء الذين يقولون بتحريم هذا البيع وتحريم غلته، وقالوا: لما صح عندنا أن بيع الخيار المراد به الثمرة حينئذٍ قلنا بفساد ذلك البيع، وكان هذا المقال موافقًا لنهي الرسول ﷺ في قوله «من أجبا فقد أربا»، والدليل على هذا ما صح عندنا من قوله: إنهم جعلوا هذا البيع طريقًا يتوصلون بها إلى تحليل الثمرة على الجملة من قولهم، وأظهروا هذا البيع على تغطية ما لا يجوز، أي تستروا بذلك في الظاهرة عن إشاعة ركوب المحرم، فكان قولهم هذا موافقًا للرجل الذي تزوج امرأة في السريرة تحليلاً لمطلقها، أو كالرجل الذي كان في نيته في بيع باعه مكوكًا بمكوكين، أو تمرًا بحب، أو حبًا بتمر، ثم أظهر ذلك عند عقدة البيع أنه بدارهم، أو كالذي يخطب امرأة في السريرة، فأظهر أنه قد عقد عليها نكاحًا وأنه قد تزوجها، وما يجيء بحق هذا، وهذا كله، فقد قيل: إن النيات هن المهلكات وهن المنجيات، وكذا قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى» وقال عليه الصلاة والسلام: «نية المؤمن خير من عمله ونية الفاجر شر من عمله».

لما صح عندنا أن المراد بالبيع الخيار الثمرة، وإنما جعلوا هذا طريقًا فيما عزموا للتغطية على تحريمها، والدليل على فساد هذا: أن كل هذا البيع وقع لنخلة فكانت الثمرة لربها، وإن كان البيع المراد به الثمرة فقد وافق هذا البيع قول النبي ﷺ: «من أجبا فقد أربا» فهذا أحد وجوه الفساد في ذلك.

والوجه الثاني: مثله، كمثل رجل تزوج امرأة ثم طلقها ثلاثًا فتزوجها

لاستحلالها لزوجها الأول، أي ليحللها لزوجها الأول، فهذا مما قال بفساده المسلمون على الزوج الأول والزوج الثاني.

والوجه الثالث: رجل وافق رجلاً على شراء حب أو تمر من عنده المكوك بمكوكين، أو تمرًا بحب، أو حبًا بتمر، ثم أشهد على نفسه بدراهم فهذا أيضًا حرام لما كان في السريرة من الفساد، قال: فهذا قولنا في بيع الخيار والله اعلم.

هكذا جاء الأثر كتبته كما وجدته كما وجدته منها، وهذا تقرير الإمام لهذا المكتوب، يقول رَحِمَهُ اللهُ: نعم ما كتب علي فهو من إملائي، والحق أحق أن يتبع وما بعد الحق إلا الضلال، وكتبه الله سبحانه الإمام محمد بن إسماعيل بن عبدالله بن محمد بن إسماعيل الحاضري بيده حامدً لله وحده، ومصليًا مسلمًا مستغفرًا.

وهذا تأييد العلماء إذ ذاك لهذا الحكم، يقول الشيخ مداد بن عبدالله بن محمد: صحيح ما حكم به الإمام من تحريم غلة بيع الخيار، فهو الحق والصواب موافقًا لآثار المسلمين من السلف، وبذلك جاء الأثر وعليه العمل، كتبه العبد الفقير مداد إلخ.

وبمثل ذلك أيضًا قال الشيخ محمد بن أبي الحسن بن صالح بن وضاح نصًا بعينه، وكذلك أيضًا الشيخ العلامة عبدالله بن محمد بن سليمان، وكذلك عن الشيخ العالم أبي غسان بن غسان بن أبي غسان، وبمثل ذلك النص أيضًا كتب الشيخ العلامة عبدالله بن عمر بن زياد بن أحمد، وكذلك أيضًا كتب الشيخ العالم أحمد بن مداد بن عبدالله بن حداد بن محمد، وكلهم على عبارة واحدة، وكلهم بنص في عبارته بعدل الإمام محمد بن إسماعيل.

وإذا كان هؤلاء العلماء الأجلاء يشهدون لهذا الإمام بالعدل، فما وجه ما يقوله بعضهم من أن الإمام محمد بن إسماعيل له أحداث استوجب بها البراءة، وأحمد بن مداد بنفسه يصف الإمام محمد بن إسماعيل بالإمام العدل، ثم يعود يقول إن لمحمد بن إسماعيل أحداث استوجب بها البراءة عنده من ذلك أنه جبى الزكاة من رعيته بالجبر من غير حماية منه لهم، وغير منع من الجور والظلم.

قلت: إن صح ذلك فمن لمحمد بن إسماعيل أن يقوم به على ردع أهل الجور والظلم، وقوته يستمدها من أنصاره الذين هم حجته على عدوه، وكيف تتسنى لمحمد بن إسماعيل الحماية ولا مال بيده إلا الزكاة، والزكاة لا ينالها إلا بالجبر من أهل الأموال، ولا مال له بنفسه، ولو كان له مال أيلزمه أن ينفقه في تقويم دولتهم؟ وهل المسؤولية عليه أكبر من المسؤولية على أنصاره؟ أما علموا ما قام به محمد بن إسماعيل في اعتراضه لذلك الظالم الذي يطارد المرأة في الشارع، وهي كما في بعض القول عارية، ولا يقدر أحد أن يجيرها منه، فتجرد هذا البطل لذلك الجبار، ولا بد أن تكون متوقعًا للخطر منه، وقد عرفت أعمالهم في أهل العلم والفضل، وعرف ظلمهم وجورهم، ومتى يمنع محمد بن إسماعيل النّاس عن الظلم والجور، وهذا حال أنصاره، وإليك سرد الأحداث المشار إليها والتعليق عليها.

* * *

الأحداث المعدودة على الإمام محمد بن إسماعيل

لقد عرفت ما قيل آنفًا إن الإمام محمد بن إسماعيل جبى الزكاة من رعيته بالجبر من غير حلية منه لهم، وغير منع من الجور والظلم ومنها جبر رعيته على شراء الزكاة من ثمرة النخل بما تقوّمه عمّاله من الدنانير، وأخذ تلك القيمة بالجبر منهم، ومنها أنه جبى المعاشير غير الزكاة دنانير بقيمة ثمرة النخل من أموال رعيته بما تقوّمه أعوانه وعماله من الدنانير، بالجبر من رعيته اليتامى والبالغين والأرامل وغيرهم، لنفسه وعماله وأعوانه وأضيافه وعياله هدرًا وقرضًا بالنية.

ومنها أنه جبى الخراج وأخذ الكسرة وهي المغرم المقدر للجبابرة من أموال رعيته بالجبر على الخوف، وخشية الظلمة على دولته ونفسه ورعيته وأموال رعيته.

هذا ما عده عليه المنتقد لأعماله، ولا شك أنه ليس الجبر كالمعاينة، فإن أولئك الرجال هم المبتلون بما هنالك، أما شراء الزكاة من النخل بما تقوّمه العمال، فإن

كان هؤلاء العمال أمناء، واتفقوا على تثمين الزكاة فهذا وجه يجوز بحسب ظاهر الحال، وقد أجازه العلامة الخليلي للإمام عزان بن قيس رحمهما الله، وعمل به في عهدنا الإمام محمد بن عبد الله الخليلي رحمه الله، ولم ينكر عليه أهل العلم الذين هم في منزلته العلمية، وهم كثيرون، يضيق المقام بذكرهم فردًا فردًا.

وإذا اتفق العمال وأهل الأموال على ذلك، جاز إجبارهم في تسليم ما اتفقوا عليه حقًا لله ﷻ، لاسّيما لتقويم دولة المسلمين، وإذا لم يجبرهم بعد الاتفاق. وأصروا على عدم التسليم، فماذا يصنع بهم؟ ولا يتصور الإجبار إلا بعد الإصرار، والعمال ما داموا أمناء الإمام فهم أمناء المسلمين؛ لأن من تحت راية العدل فحكمة العدالة، ويجب أن يحسن به الظن، والمعاشير التي يذكروها إن كانت هي المعروفة بالعشور التي تؤخذ من المبيعات بالأسواق فهي حق المسلمين، تكون كأجرة على استعمال أرض المسلمين، أي أرض بيت المال، وهذا أمر جار لاسيما في مواضع الخراج.

ولا شك أن ما وجب في الأموال عمَّ الكل، فاليتامى والأرامل والغياب ونحوهم كلهم في ذلك سواء، وقولهم: وجبى الخراج فإن ما حلَّ لغيره من الأئمة فله أيضًا حلال لا فرق بينه وبين غيره، هذا إذا احتاج، أما إذا أغناه الله فالزكاة لا حق له فيها، وإنما شرعها الله لأصناف مخصوصين ما لم يكن الإمام أحد الأصناف المذكورين، وإذا احتاج الإمام إلى الزكاة كانت حاجته مقدمة على حاجات الفقراء والمساكين ومن إليهم نزل الإمام منزلة المسلمين كلهم؛ لينظر في المصلحة العامة للأمة، أما أخذ الكسرة التي تجعل للجبابرة دفاعًا لشرهم، فالإمام حاشاه أن يرضى بأخذها، اللهم إلا إن كانت مما احتمل الحق والباطل، ولم يترجح أحدهما على الآخر، واضطر لأخذها جاز له للضرورة، ولاحتمال أن تكون حقًا، وليس كل كسرة يتولاها الجبابرة تكون حرامًا، فلعلها كسرة كانت لوجه بر، فتولاها جبار حائزًا لها عن أهلها الذين وضعت لهم، فإذا جاء الإمام المحق حق له أخذ ما وضع لوجه بر؛ ليصلح به شؤون المسلمين.

ولا شك أن بقاء دولة المسلمين أولى من ذهابها، ولا شك أن الدول تحتاج إلى المال، فما كان لفقراء المسلمين وما أخرج لوجه، وحتى الكفارات التي يوصي بها المكفرون إذا رأى الإمام الحاجة إليها فهو أولى بها من غيره لصيانة دولة المسلمين، ومن ذا الذي يبيع ماله لينفقه على إمام المسلمين ودولته. بل الأمة بطبيعتها تطالب الأمام لينفق عليها وهذا هو المعروف غالبًا من أحوال الأمة. وهذا الإمام الحضرمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

كل من طالبت منهم قال لي ... كم لي وكم لابني وكم لأمرأتي

حتى إذا ما قلت أبشر بالعطا ... انهض وشمر قال قبلا هاتي

هذا هو غالب حال الأمة إلا ما شاء الله.

قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يذكر أحمد بن مداد الذي يعد على الإمام الأحداث: «وقد أطال في الاستدلال على أبطال هذه الأشياء بأمور مسلمة عند الفريقين» أي هي بحسب ظاهرها لا تبعد عن منهج الحق؛ ولكن لا بد أن للإمام فيها وجها هو أحق، لأنهم وصفوه بالعدل، فهم مجمعون على عدالته، ومتفقون على صحة إمامته، وأي إمام سلم معهم من الانتقاد منذ الجلندى بن مسعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال الإمام: وما أدرى ما يقول المنتصر له في بعض هذه الأمور، فإنها لا تخرج على شئ من أقوال المسلمين، قال: ولعلهم ينكرون وقوع ذلك منه، وكان هذا الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أشار إلى ذلك أول الكلام حيث قال: وكان أحمد بن مداد يذكر لمحمد بن إسماعيل أحداثًا استوجب بها البراءة عنده، وكان غيره من بعض معاصريهم يعتذر لمحمد بن إسماعيل في ذلك ويحتج له بحجج لا يسلمها أحمد ابن مداد ويقول هنا أيضًا: ولعلهم ينكرون وقوع ذلك منه، ويحتجون للبواقي بالترخص ببعض الرأي المأثور عن المسلمين، لأجل الضرورة إليه. قال: أما الجباية والخراج فلا يجتمعان أصلاً، ليس للإمام أن يجبي أرضًا يأخذ الجبار خراجها إلا إذا حماها ومنع الجبار من خراجها، ورفع اليد عن مظالمها، وأنصف بعضها من بعض،

فها هنا تطيب له الجباية بالقهر؛ لأنه قد حماها وأقام فيها العدل، وكذلك أخذ العشور من الأموال التي لا زكاة فيها، فإن ذلك لا يجوز ولا يقبل الرأي، فإن صح هذا أن أحدًا فعله واستتيب فلم يتب، فإنه يكون خليعًا أي إذا: كان إمامًا وقارف ما منعه منه الشرع، واستتيب من ذلك الذي فعله ولم يتب، فقد ركب محجورًا تسقط به إمامته؛ لأنه يصير عاصيًا محتاجًا؛ لأن ينتصف منه.

قال الإمام: لكن لا يكون ذلك بالدعوى خصوصًا على الأئمة، فإنهم أعظم حرمة. قال: وأما القرض فقد احتج له من احتج، ورخص له من رخص؛ لأجل الخوف على الدولة، ولا يرى ذلك الفقيه أحمد بن مداد، وإنه كان يبرأ من العامل والمرخص.

قلت: ليس له أن يبرأ ممن عمل بما رآه المسلمون واسعًا في الرأي فيما يصح فيه الرأي، قال: وأما الخرص للثمار، وإن فإنه وإن كان الأصحاب على غيره فلا يخرج عن دائرة الرأي؛ لكن جبر الرعية على تسليم الدنانير عن الزكاة المخروصة في رؤوس النخل شيء لا يجوز.

هذا تحرير المقام في هذه القضايا التي ابتلى بها الأئمة في معاناة أمور الأمة، إن أقدموا على شيء تدعو إليه الأحوال الضرورية نوقشوا من جهة من ابتلاهم بالأمر، أو من أمثالهم، وإن سكتوا أصيب الدين والدنيا بجبار لا يردعه دين ولا ضمير، ولا يتجنب أي مركب يجده، فتذهب بذلك دولة المسلمين، وينهار صرح الدين، والأمر لله.

وقد عاش الإمام محمد بن إسماعيل إلى سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة، فكانت إمامته ستًا وثلاثين سنة، وبعد موته حالاً بايعوا ولده بركات.

❋ ❋ ❋

الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل

لما قضى الله على الإمام محمد بن إسماعيل في التاريخ المذكور بنزوى، وكان في مقدمة العلماء إذ ذاك العلامة عبدالله بن عمر بن زياد الشقصي النزوي، ومحمد بن أحمد بن يفسان، فقام ضده الفقيه أحمد ابن مداد؛ لأنه لم يرض إمامته، وطعن في إمامته، وعلى كل حال إن الطعن في إمامته طعن في العاقدين عليه، وتبرأ بن مداد من هذا الإمام، وممن نصبه؛ لأنه ليس بولي عنده ولا بأهل للإمامة، وذلك لولايته لأبيه على أحداثه التي ذكرها عنه وأنه عمل بأحداث أبيه من بعده، وقلده في ذلك.

هذا هو جرم بركات عند هذا الفقيه، وهنا سوف تنكشف المصائب التي يقع فيها النّاس، ويتلاشى بها الدين الحنيف، وتعود الأمور إلى شر ما عاد، وهذا الذي نشير إليه؛ ولكن لا راد لأمر الله ﷻ.

بقي بركات في إمامته عند المرتضين له حتى سنة ٩٦٤هـ أربع وستين وتسعمائة، وفي هذه الآونة عادت السلطة النبهانية تعود سيرتها الأولى، فإنه سيأتي أن سلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان، تولى نزوى في هذا التاريخ، وذلك لاختلاف الكلمة والأمر لله ﷻ.

فكانت إمامة بركات يقرب عهدها من إمامة أبيه، إلا أن أباه كان إمام عُمَان كلها، وكانت شوكة الجبابرة منكسرة، ودعوتهم خامدة؛ ولكن نتيجة للخلافات التي أتت هنا مكنت النباهنية العودة إلى معاهدها.

* * *

إمامة عمر بن القاسم الفضيلي

عندما سخط الشيخ الفقيه أحمد بن مداد على بركات، ورأوا أن الأمور الآن ميسورة، ومتناولها قريب، وإقامة إمام يرتضي ضد إمام غير مرتضى كذلك، بايع هذا الفريق الساخط على بركات عمر بن القاسم المذكور، فقام هذا الإمام في

عهد بركات، وبقي النّاس بين إمامين متضادين متخالفين متخاصمين، وأحزابها معها، وكل يرى صاحبه البطل والآخر المحق.

وقال الإمام، وغيره من أهل العلم: إن أحمد بن مداد يثني على الإمام الفضيلي ويحمد سيرته ويتولاه، قال الإمام: وذكر غيره أي ابن مداد أن المسلمين رضوا إمامته، قال: ولم يؤرخوا وقت بيعته ولا وقت وفاته.

قلت، ولا ذكروا شيئًا من أعماله وأين بويع وأين حلَّ؟ وماذا فعل؟ فإن هذا الوقت رقصت فيه أيضًا إمامة أخرى ليتم ما قضى الله في غيبه، فإنهم بايعوا في هذا الأثناء عبدالله بن محمد القرن، وكأنه واسطة بين الفضيلي وبركات والله المستعان.

* * *

إمامة عبدالله بن محمد القرن

قام فريق يرى له في النظر ما ليس لغيره فقدموا عبدالله بن محمد القرن من العنصر الهنائي، ولم يذكروا ماذا فعل الإمامان القائمان قبله، ولا ما آل إليه أمرهما، وهذا من البلاهة بمكان يعرفه كل إنسان، وهنا ترى ثلاثة أئمة في بلد واحد، وفي مذهب واحد، وحوزة واحدة، والأثر يقول:

وباطل سيرة فيها الإمامة في ... إثنين لو بلغا في المجد ما كملا

وأنت تدري هنا ثلاثة أئمة في عهد واحد، إنها لمصيبة تقضي على الدين كما أشار إلى ذلك القرآن حيث يقول: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وأي تنازع أكبر من هذا، وأي فشل مما وقعوا فيه بعد ذلك، إذ أديل الجبابرة مرة أخرى وضعوا أيديهم على ما شاءوا، وكانت البيعة لعبدالله بن محمد القرن في منح يوم الجمعة لخمسة عشر يومًا من رجب سنة ٩٦٧هـ سبع وستين وتسعمائة، وكأنه خرج من منح إلى بهلاء، فدخلها لليلتين بقيتا من هذه السنة، أي بعد مضي خمسة أشهر وثلاثة عشر يومًا منذ وقعت له البيعة، فأخذ بهلاء من آل عمير، وكان آل عمير قد اشتروا حصنها بثلاثمائة لك من محمد بن جيفر بن علي بن

هلال الجبري، وكان محمد بن جيفر المذكور قد أخذ هذا الحصن بالغلبة من عامل بركات، وهذا يدل أن محمد بن جيفر عارض بركات حين رأى الأمور تسير على ورائها، وإذا هبت الرياح العواصف قام كل أحد يلتقط نصيبه، فمن العامل بركات أن يكون وبركات نفسه.

ولا شك أنه عندما يتبعثر الأساس ينهار البناء طبعًا، قال الإمام: وكان دخول آل عمير حصن بهلاء يوم الثلاثاء لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ٩٦٧هـ سبع وستين وتسعمائة، فما لبث آل عمير في بهلاء إلا يسيرًا حتى أخذه منهم عبدالله بن محمد القرن، وفي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من رمضان سنة ٩٦٨هـ دخل الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل حصن بهلاء، وأخرجوا منه عبدالله بن محمد القرن، وبنصب الأئمة في وقت واحد تشتت الكلمة، وتفرقت الجماعات وضعفت دولة المسلمين ووهت قوتهم وطمع فيهم من كان لا يطمع.

* * *

تفرق ملك عُمَان إلى رؤساء متعددين

لا يخفى أن التنازع في الأمر داعٍ للفشل، ومسبب للوهن، وما زالت علة المسلمين في دينهم تفرقهم، واختلافهم في الأمور واجتذابهم لأمراس الشقاق، وأخذهم يمينًا وشمالاً، وقد قرأت في هذا التاريخ أحوالاً من ذلك، وعلمتَ ما صار إليه أمر المفترقين، وما انتهى إليه الحال، وقد التأم حالهم حين اجتمعوا مع الإمام عمر بن الخطاب، فنصرهم الله ﷻ حتى سحقوا دولة السلاطين النباهنة، وتمكنوا من خضد شوكة البغي، وقطع شأفة الفساد، ثم تراهم سرعان ما اختلفوا في أمرهم، وراحوا ينصبون الأئمة ويتجاذبون الأمور، ويتخاذلون فيما بينهم، وكل فرقة ترى الحق لها، وترى أنها أولى بالأمر من غيرها. وبهذا الحال أصبحوا في انحلال، فتراهم يبايعون إمامًا ثم لم يشعر إلا وإمام آخر يقوم خلفه، وبذلك تفككت القوى، ووهنت الأمور، وأصبح العدو يطمع في القهر على أهل الحق،

فكانت العاقبة غير محمودة، والله يقول لنا في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٦]، أي قوتكم، وحكمة الله بالغة، ودعوته نافذة، ولو أغضى المسلمين لشر رأوه مخافة الوقوع فيما هو أضر، لكان أولى بهم وأبقى لدولتهم ألا ترى أنهم لما غاضبوا عمر بن عبدالعزيز وخرجوا عنه على الحال الذي رأوه لامهم إخوانهم، وما زالوا يلومونهم إلى الآن، وكذلك الحال في قضية خازم ابن خزيمة مع الإمام الجلندى رحمه الله، وإن كانوا رأوا أمرًا يوجبه الشرع ويقتضيه الدين، فالشرع والدين يدعوان إلى ارتكاب أخف الضررين وقول الحكيم:

إن الكريم إذا ألمَّ بجسمه ... مرضان مختلفان داوى الأخطرا

فالتغاضي والاحتمال لأمر في مصلحة أعلى منه وأنفع وأولى، وهذا شيء قرره القرآن والسنة والمعقول؛ ولكن إذا حلَّ القدر عمي السمع والبصر، وصغار العقول هم الأكثر وإليهم يرجع السواد الأعظم، فيرى الأقلون أنهم مغلوبون فيخضعون لما يرون، وبهذا ينزل الضعف على الجسم الإيماني وتسرى ناره فيه والأمر لله.

وفي هذه الآونة ثارت الروح النبهانية إلى العرش العُمَاني مستغلة ذلك الافتراق، وما خرج عنها قام له آل هلال رهط الجبور وآل عمير، وللهديفي نصيبه ونصيب آخر لرجال آخرين من هناءة بن مالك، والداهية هي البرتغال إذ ذاك، جاءت تسحب قواتها وتجر جحفلها؛ لتأخذ نصيبها من المملكة العُمَانية، فإنها دخلت وآن حصادها، فهذا لاقط وهذا شاري، وهذا بائع ولكل درجات مما عملوا، فكان الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل في الوجود، واسم الإمامة مرقوم على صحيفة إمامته والقوم يقتسمون المملكة، فكان في هذا الأوان لسلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان ملك نزوى وتوابعها، وكان لفلاح بن محسن ملك ينقل وما يتبعها، ولعرار بن فلاح ملك بهلاء وتوابعها، وكان لمهنأ بن محمد الهديفي ملك صُحار وما إليها، وكان لعرار بن فلاح ملك الظاهرة، وكان ينوب عن سليمان

بن مظفر في بهلاء، وكان لعمير بن حمير ملك سمائل وتوابعها، وكان لمالك بن أبي العرب وهو جد الإمام ناصر بن مرشد، وهو من العنصر النبهاني ملك الرستاق، وكان لنبهان بن فلاح ملك مقنيات.

وتولت البرتغال الساحل، هذا مآل ملك عُمَان في هذه الآونة التي أعقبت خلافات أهل عُمَان فيما بينهم، وتلاعبوا بنصب الأئمة كما بيناه آنفًا والله عز شأنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

بقي هؤلاء الأمراء والرؤساء يتزعمون الملك، وكل واحد منهم يرى أنه الأحق بالملك والأولى بالسلطان، واختلفت الأهواء ووقع الذل المرير على أهل الفضل في عُمَان، وكاد سلطان المسلمين لا يبقى له أثر ولا تقوم له قائمة في هذا العهد، ولله أمر هو بالغه وإن رغم أنف الدهر.

* * *

ذكر ملوك النباهنة المتأخرين

اعلم أن النباهنة المتأخرين هم أحفاد النباهنة الأولين، بقيت في نفوسهم دعوى الملك وأحقيته دون غيرهم؛ لأنهم أبناء السلاطين المتقدمين، وقد اقتسموا الملك كما بيناه؛ ولكن ما زال بينهم تنافس، وما زالوا يلتمسون الغفلة من بعضهم البعض فإذا أمكنتهم الفرصة اغتنموها وإن لم تمكنهم نكصوا على أعقابهم ورجعوا إلى مراكزهم، وأول هؤلاء الملوك بحسب المعروف سلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان.

* * *

الأمير سلطان بن محسن بن سليمان وأولاده الثلاثة

خرج هذا السلطان على الإمام بركات بن محمد بن إسماعيل بمن معه من النّاس الذين تسوءهم وطأة الإمامة، ويرون السلطنة أولى بالأمر؛ لأنه لا ينال معها ما لا يناله مع غيرها، فتملك نزوى سنة ٩٦٤هـ وبقي عاضًا عليها بالنواجذ،

وعاش في ملكة تسع سنين ونزوى هي كرسي عُمَان الداخلية كما سبق الكلام عليها، وكان هذا السلطان حجر أساس النبهانية الثانية، وبعد موته كان له أولاد كان المقدم فيهم مظفر بن سلطان، وهو الذي تولى الأمر بعد موت أبيه، وكان الحصاة الثانية في بناء هذه الزعامة النبهانية، فكانت نزوى في يده إرثًا له من أبيه ونصيبًا من ملك عُمَان، وما تبعها في ذلك الوقت منوطًا بمالكها، وكان ثاني أولاده طهماس، وثالثهم سلطان بن سلطان، وكلهم يحاولون أخذ الأنصباء؛ لأنهم هم الخيرة في الأمة ليس لأحد حق في السلطنة غيرهم.

وهذا طبيعي في النّاس والذين لهم عناصر مسلطة لا يزالون يحلمون بالسلطة، ويحاولونها بما عزَّ وهان، ويرتكبون من أجلها المخاطر ويبذلون عليها النفس النفيس، حبًا للعاجلة وترفعًا على الغير، وإن لهم في ذلك شنشنة لا تبرح من نفوسهم، ولا يزال أحدهم يراها له ويقاتل عليها أباه وأخاه، وقد أعماهم الجهل عن الواجب الأخروي والملك الأبدي الذي ينبغي التنافس فيه.

❊ ❊ ❊

فلاح بن محسن بن سليمان

بعد موت سلطان بن محسن تولى الأمر مظفر بن سلطان، ولم يترك لأخوته رأيًا في الأمر إلا أنه لم تطل أيامه فمات وخلف ولدًا صغيرًا اسمه سليمان لا يصلح للقيام بأمر الملك، وكان فلاح بن محسن عم أبيه مالكًا لحصن مقنيات، وقيل إنه هو بناه وشيد أركانه.

قال ابن رزيق حميد، وهو يذكر فلاح بن محسن: هو الأكثر منهم جوادًا وسياسة، وكان مسكنه مقنيات من أرض السر والصواب من أرض الحجر بحسب عرف أهل عُمَان، قال: وهو الذي بنى حصنها السامك فسماه الأسود، وهو حصن عال على مرتفع منيع، وكان لفلاح هذا نوع اهتمام بالغراس والزراعة، وهو الذي جلب شجر المانغا لعُمَان، وهي الشجرة التي تسميها أهل

عُمَان الأمبا، ويسميها أهل شمال الباطنة الهمبا بقلب الهمزة هاء غرسها في مقنيات، فتسامع بها أهل عُمَان فتهافتوا على جلبها، حتى فشت بعُمَان كلها إلا ما شاء الله.

وكان فلاح محبًا للأدب العربي خصوصًا الشعر، وكان موسى بن حسين بن شوان شاعرهم الخاص، كان كثيرًا ما يمدح فلاح بن محسن وبنيه وبني عمه، وكان له فيهم ديوان شائع عند أهل عُمَان يتداولونه ويعرف بالكيذاوي عرفًا عامًا أو بالكيذا تشبيها بالكاذي الشجر العطري المعروف للطافته ورقته، ومدحهم الكثير من أهل عُمَان من أهل هذا الفن فأجازوهم وأعطوهم وكانوا لا يحتجبون عن وارد ولا عن صادر، بل يدخل عليهم من شاء متى شاء، ودخل عليه في وقت جلوسه رجل من أهل الأحساء ، فاندهش، وقد قال رسول الله ﷺ: لكل داخلي دهشة. فأراد أن يسأل طعامًا لفرسه، وبدهشته تلك قال: أريد خيلاً لقتي، والقت هو البرسيم وهو الفصفصة أو القصفصة القت اليابس، ثم انتبه فأعاد قائلاً أريد قتًا لخيلي، فقال فلاح أعطوه قتًا وأعطوه خيلاً، وأعطوه مالاً وكسوة كما هي عادات الملوك في إكرام الوافد، وخالفه أهل وادي بني خالد من شرق عُمَان، واعتزموا بالجبال الشاهقة المنيعة، وأصروا على خلافهم فجهّز لهم جيشًا خضمًا سحبه من ظاهرة عُمَان إلى شرقيتها، فدخل الوادي ولم تمنعه الجبال من الدخول، وقد ذكر القضية الشاعر المذكور كما في قصيدته النونية التي يقول في مطلعها:

عـرّج فـهـذي رسـوم الأثـل والـبـان

ومنها:

وأسأل معالمها اللاتي خلت وعفت	عـمّـن بـهـا كـان مـن حـي وجـيـران
منازل قاضها حكم الزمان من الـ	بـيـض الحـسـان بـآرام وصـيـران
كم قد سحبت بها ذيل الشباب وكم	في سوحها صدت من عين وغزلان

إلى أن قال:

شعر يردده معنى البديهة في علياً فلاح يحاكي لفظ سبحان

ثم سار فيه يمدحه إلى أن عاد إلى وصف الجيش.

وأقبلت من نواحي الأرض مقبلة تأتي إليك السرايا يا ابن نبهان
حتى نهضت بجيش والملوك به موفون من آل قحطان وعدنان[١]
وسرت بالجيش من بهلاء إلى سمد إلى سياق إلى صور فجعلان[٢]
جيش به مالك الرستاق ما لك مشهور الثنافي بني نصر بن زهران[٣]
وناصر وعدي والفتى سند بنو شماس سليل القرم سرحان
والمر عفان القنا في كل معركة بنو ربيعة والندب بن شيخان
وآل عمرو مع الحدان قاطبة في آل دهمش في جندا بن جيلان
وآل وحشي جميعا في عطارفه من آل يشكر ،من آل غيلان
وآل صلت وهم أهل العناد وهم فيه وفيه بنو ذهل بن شيبان
وفيه آل عمير يقدمون على صواهل ضمر تهوى بفرسان
وفيه آل عزيز مع بني عمر مع آل حمير مع عبس وذبيان
وغافر وشكيل والصوارخ هم في الروع أثبت من أركان ثهلان
وآل عبرة في أبنا عدي وبنو هناة هم خير أنصار وأعوان
وآل محرز أرباب العلا وبنو بطاش أهل النهى والأمر والشأن
وفيه آل شهيم جملة وبنو حبس هم في التلاقي أسد خفان

وهكذا مر يصف ذلك الجيش إلى أن قال:

جيش يعبعب مثل البحر ملتطـ ـم التيار بالموج في بيد غيطان
حتى فتحت به سم المجادل من وادي بني خالد من بعد عصيان

(١) أشار به إلى الأمراء الذين في الجيش. المؤلف
(٢) أراد بسياق سيق من هذه الناحية. المؤلف.
(٣) وكان سلطان الرستاق معه وهو مالك بن أبي العرب، المؤلف.

وكانت هذه القضية ألبست هذا السلطان تاج الشرف وأخضعت أكثر أهل عُمَان وأيّدت هذا المليك على خصومه، حيث هي أكبر حادثة في تاريخه.

ولما مات سلطان بن محسن سنة ٩٧٣هـ وكان ولده المظفر أكبر إخوته تولى الملك بعد أبيه، وفي ابن رزيق أن الذي تولى الملك بعد فلاح بن محسن ولده عرار بن فلاح حتى توفي بتاريخ عشر خلون من شهر الحج سنة٩٩، ولعله بعد تسع مائة وتسع وتسعين وأنه لم يمكث في الملك إلا مدة شهرين وفي قول آخر: أن مظفر بن سليمان هو الذي تولى الملك بعد فلاح بن محسن، وهو الذي بقي في الملك شهرين فقط، وفي تحفة الأعيان: توفي سلطان بن محسن ليلة الأثنين عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة ٩٧٣هـ، وترك ثلاثة أولاد وهم طهماس وسلطان ومظفر.

وكان المظفر هو المتقدم عليهم في الملك إلى أن مات وترك ولده سليمان صغيرًا لا يقدر على القيام بأعباء الملك، وكان عم أبيه فلاح بن محسن مالكًا حصن مقنيات، فلما علم بموت مظفر جاء إلى بهلاء وأقام مكانه.

قال الإمام: ويقال إنه عدل في ملكه وكانت مدة ملكه عشر سنين ثم مات وملك بعده سليمان بن مظفر الذي سبق الكلام عليه، وهو ابن اثنتي عشرة سنة واستولى على الأمر في عُمَان ونواحيها، وأخذ خراج أهلها من الطائع والعاصي والداني والقاصي. قال: وحاربه أهل نزوى وكان معهم جبري يقال له محمد بن جيفر، وعنده جيش عظيم فتآمر عليه النبهانيون والتفوا عليه من جميع النواحي فقضوا عليه.

* * *

عرار بن فلاح

بعد موت فلاح تولى الملك ولده عرار بن محسن، وكلن على وتيرة أبيه فلاح في الأخلاق والأعمال والكرم العربي وخصال الملوك، ولم تكن في أيامه حروب

بعُمَان مما يذكره التاريخ، وكان ممدوحًا من ألسنة الشعراء على اختلاف أحوالهم، وكان عرار ملكًا له في الملك صوت عالٍ في الأفق العُمَاني، ولموسى بن حسين شاعرهم فيه مدائح طويلة عريضة تدل إن دلت على شيء فعلى الكرم وحب الثناء ومن أراد أن يعرف مقامه فليلتمسه من شعره شاعره قال ابن رزيق: مضى على طريقة أبيه في الكرم وحسن الخلق، وكان عرار المذكور أحد أركان الحرب عندما دخل محمد بن جيفر الجبري نزوى، فقام عليه سليمان بن المظفر، وعرار بن فلاح، وناصر بن قطن حتى قتل محمد بن جيفر في الواقعة، وعقب محمد بن جيفر ولدًا اسمه محمد بن محمد وأمه بنت عمير بن عامر، فتزوجها سليمان بن المظفر وشغف بها، فكان يركن إليها ببادية الشمال شتاء ويتولى أمر بهلاء عرار بن فلاح، ويقال هو الذي بنى الركن الشرقي من حصن بهلاء وزخرفه ونظمه، وكان يعرف بحصن عرار بن فلاح، وكان ملك الظاهرة ولمخزوم ملك ينقل، وكل واحد من هؤلاء يروم الاستبداد دون أبيه وأخيه أن لو ساعدته الأقدار، فهم أبناء عم أقارب، وهم من ناحية الملك أباعد وأجانب، إذ كل واحد يرى أنه الأحق بالملك من غيره كما قالت بنو إسرائيل، لما قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤١] فهذه الأحقية لا تزال ضاربة أطنابها وواضعة دعائمها في أدمغة الإنسانية، وأين هم من نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها.

* * *

العجم يهاجمون صُحار

في هذه الأثناء كانت صُحار بيد مهنا بن محمد الهديفي، والعجم بجلفار فتحركت العجم لاحتلال صُحار من مهنا بن محمد المذكور، فلما علم مهنا بن محمد عمَّا يرومه العجم، استجاش سليمان بن مظفر، فلباه سليمان بجيش جرار وعسكر ضخم، ونزل معه صُحار فوصلت العجم بعدها وعديدها على طريق

البحر، فنشبت الحرب بين الفريقين، وكانت حربًا حاميًة آثارها العداء الخالد بين الطرفين، ودارت الدائرة على العجم فانهزموا شر هزيمة أرجعتهم إلى ورائهم، وتبين منهم في الحال عدم الحراك، فرجع سليمان بن مظفر إلى بهلاء وهي عاصمة المذكور، ومعه بنو عمه وهم عشرة، وإخوته اثنان وهما نبهان ومخزوم، وأولاد فلاح كان المقدم عليهم كما سبق عرار.

وباستقلال مخزوم بملك ينقل بقي عند سليمان بن مظفر من بني عمه حمير بن حافظ وأولاده الأربعة: وهم حافظ وسلطان وكهلان وهود، ومن بني عمه مهنا ابن محمد بن حافظ، وعلي بن ذهل بن محمد بن حافظ، وكان لسليمان المذكور همم غير هينة وله صولة جبروتية ممزوجة بالدم النبهاني.

* * *

سليمان بن مظفر وأعماله الغاشمة

كان سليمان كما قدمنا عنه جبارًا زاد في جبروته وعتوه انتصار في الحركات التي مرت، وكان له وزراء في القرية وفي إزكي وفي سمد الشأن، يديرون أعماله ويقومون بأوامره ولا يبالون بما يدخلون فيه من أعماله، نظرًا إلى دولته وكانت سمد الشأن للجهاضم من آل مالك بن فهم، وهم سكانها، وكان سليمان جائرًا عليهم ضاغطًا عليهم يعاملهم بالإهانة التي أوجبت خروجهم من بلادهم وتفرقهم في نواحي بلاد عُمَان ثلاثين سنة، وهم على هذا الحال لا يقدرون على الرجوع إلى وطنهم، وعلى ذلك يلتمسون المخرج من بليته، ويرمون القيام عليه وإخراجه منها، وعلى الأقل على القرار في بلدهم، وكان بنو هناءة من أنصار سليمان هم المقدمون معه، وهم يده اليمنى التي يتناول بها وبقية النّاس يده اليسرى.

وكان يقود بني هناءة خلف بن أبي سعيد، وسيف بن محمد بن أبي سعيد، وكانا عنده قدوة أهل زمانهما فافترقوا فيما بينهما؛ بسبب شقاق وقع بين بني معن وبني النيّر، وكلاهما من آل مالك بن فهم، وسبب الافتراق امرأتان تخاصمتا

على شيء يسير على الحشيش من مال بني النيّر، فتضاربتا ثم كانتا سبب الفتنة والافتراق، فانحاز بنو النيّر إلى بني هناءة، ورجع بنو شكيل وبنو معن إلى سليمان بن مظفر، فعند ذلك سار خلف بن أبي سعيد إلى داره دار سيت ومعه بنو عمه وكان سليمان بن مظفر في هذا العهد بالبادية الشمالية.

ولما علم سليمان بن مظفر أرسل إلى وزيره الذي في القرية، وهو محمد بن خنجر، أن قُلْ لخلف يترك شأن القوم أي لا يتدخل في الأمر، فأبى وأظهر أنه يريد الإصلاح بين بني معن وبني النيّر، ولعله يريد أن يجمع شملهم؛ ليكونوا عونًا له؛ لأنهم من العنصر الهنائي، فأرسل محمد بن خنجر إلى سيده سليمان بن مظفر أن خلفًا لم يقبل ما أمرت به ولم يكف عن التدخل فيما بين القوم، فأرسل سليمان إلى وزيره المذكور أن أفعل في أموال بني هناءة من القرية من كدم، وكانت أموال للشيخ خلف بن أبي سعيد، فوقعت العداوة والبغضاء بين الشيخ خلف هذا وسليمان ابن مظفر، وتعكر الصفو وأغبرَّ الأفق، فاشتد الشيخ خلف على تدمير أمواله، وأمر بني عمه على غزو بهلاء، فغزوها فقتلوا منها ناسًا، فكتب الوزير بذلك إلى السلطان سليمان بن مظفر وأعلمه عن الواقع ببهلاء.

فلما بلغ سليمان ذلك انتقل من الشمال إلى بهلاء، وأراد الصلح بينهم وبين بني هناءة فلم يقع فإن العداوة قد ضربت أطنابها بين الفريقين، وضرب الشيطان مخيمه، فيهما كل فريق همته لحرب الآخر، فجمع سليمان الجموع وهيأ جنده وعساكره لقتال بني هناءة، فلما تحقق الشيخ خلف الأمر أرسل إلى عمير بن حمير ملك سمائل وتوابعها يستنصره على سليمان بن مظفر، فسار عمير بن حمير ناصرًا للشيخ الهنائي حتى وصل غبرة بهلا، فالتقاه سليمان فوقعت الحرب ساعة واحدة بين الزعيمين، وبعدها رجع كل إلى عاصمته[1] وكان الأمير عمير بن حمير ترك

---

(١) الذي يظهر من السياق أن الأمير عميرًا فضح سليمان وتأخر عن استمرار الحرب؛ ولذلك ترك حامية عند الشيخ خلف خوف أن يتحرك سليمان على الشيخ خلف بعد خروج الأمير عمير بن حمير فلينظر إلى ذلك المؤلف.

للشيخ خلف من قومه حامية في دار سيت خوف الهجوم من سليمان بن مظفر، وكان هذا الأمير موصوفًا بأخلاقٍ حميدة، وبحب الخير أكثر من حبه للشر.

وفي هذه الآونة رأى الفرصة لإرجاع بني جهضم المتفرقين في بلدان عُمَان، المشتتين في النواحي ظلمًا وعدوانًا بغير حق، فأرسل إليهم فجاءوه، وأرسل إلى سلطان الرستاق وهو مالك بن أبي العرب جد الإمام ناصر بن مرشد، وكان ذا مكانة بين أمراء الوقت، ولعله لأجل الرستاق، فجاءه وبصحبته أبو الحسن علي بن قطن، ولما وصل سلطان للرستاق المذكور تفاهم هو والأمير عمير بن حمير في شأن الجهاضم، وما هم عليه من الذل والهوان الذي ألقاه عليهم سليمان بن مظفر وبعد ذلك خرجوا بهم غل سمد الشأن فأقروهم في بلادهم وأيدوهم وناصروهم وأمدوهم بالمال والرجال، وبنوا لهم مباني تحفظ كرامتهم من الامتهان وحلول الهوان.

وكان إذ العُمَانيون وحدهم في داخليتهم، وترك معهم الأمير عمير بن حمير بعض رجاله وما يحتاجون إليه من الطعام وآلت الحرب التي في وقتهم، ورجع الأمير إلى سمائل والسلطان إلى الرستاق.

* * *

الصراع بين عمير بن حمير النبهاني أمير سمائل.والسلطان سليمان بن مظفر

لما رأى سليمان بن مظفر أن مالك بن أبي العرب قام عونًا لعمير بن حمير في إرجاع الجهاضم، الذين شرد بهم سليمان وأجلاهم عن أماكنهم، أضمر العداوة لمالك وللأمير عمير، واستمرت بين بني هناءة وسليمان بن مظفر، فقام الأمير والسلطان وتوجها إلى نزوى، ولعلهما يظهران إرادة الصلح بين الطرفين، فنزلا نزوى وسليمان بن مظفر في بهلاء، ولما فرَّا إلي بهلاء قام أهل محلة عيني من الرستاق، فأخرجوا وزير السلطان من عيني وأرغموه على الخروج منها، فأرسل إلى سليمان بن مظفر يطلب النصرة منه، فأعانه ببعض قومه، وقد سر سليمان بذلك، فأرسل عرار بن فلاح قائدًا لجيشه، فلما بلغ ذلك السلطان أشغل باله،

فهمَّ السلطان مالك بالعودة إلى الرستاق، وإذا بالأمير عمير يجاذبه ويرى تأخيره وينوّه له في التأخير بأنه من صالحه، ولعلها سياسة منه.

وهنا استجاش بنو هناءة عمير بن حمير وأشاروا عليه باحتلال بهلاء له من سليمان بن مظفر فلبى دعوتهم، ولما قرب من بهلاء، ورأى ضعف قومه بالنسبة إلى عدوه، فرجع من الطريق قبل الوصول إلى بهلاء واستقر بنزوى فسار إليه الشيخ سيف بن محمد الهنائي من بلده دارسيت، إلى نزوى وجرى بينهما عتاب اقتضاه الحال، وأخيرًا قال الأمير عمير لسيف بن محمد: خذ من الرجال ما شئت، وسار بهم إلى دارسيت، وبقي الأمير بنزوى ماذا يكون.

فلما بلغ خبرهم سليمان بن مظفر وأنهم ربما يحاولون القرية أو سيفم أو بهلاء، فعند ذلك قام سليمان ورتب رجاله على الجهات الثلاث، وكان ذا حزم وعزم، وأقام له بناء على رأس فلج الجزيين حتى لا يتأمل عدوه تدميره، وكذلك قبض الخضرا وحارة الغاف وجامع بهلاء ومعهم حمير بن حافظ، وكان ابن عمه عرار إذ ذاك في الرستاق في نفس عيني منها، فسار سيف بن محمد من دار سيت إلى بهلاء عندما رأى أن قوى سليمان بن مظفر تفرقت، وأنها بتفرقها يهون عليه صراعها، فدخل بهلاء من الجانب الغربي، حيث تسوروا السور، وتمكنوا من الدخول من غير أن يشعر بهم أحد، فهنا قسم سيف بن محمد جيشه ثلاثة أقسام: قسمًا على اليمين: وقسمًا على الشمال، وقسمًا على الوجه، وهي التي تواجه الجامع من البلاد، وأحكم إرصاده، ورتب مقابضه في الأماكن التي يرى لها النفوذ في البلد، وحاصر الجامع ومسجد بني عمر، وجميع أبواب العقر، وما بقي لسليمان بن مظفر شيء من البلد إلا الحصن والخضرا، ودارت رحى الحرب بين الفريقين، فكان القتل مسلطًا على قوم سليمان بن مظفر، فأخذ جانبًا منهم بل قتل أعيانهم في تلك الليلة التي كان دخول سيف بن محمد فيها، وعلى صوته في البلاد، ونادى بالأمان

في البلاد، وكان الكثير من أهل البلد لها يرون من ظلم سليمان بن مظفر.

ولما وصل الخبر إلى الأمير عمير بن حمير بنزوى، ركب بمن بقى معه ومعه الأمير سلطان بن محمد، والسلطان مالك بن أبي العرب، وعلي بن قطن وأهل نزوى، وسار الشيخ خلف بن أبي سعيد الهنائي من دار سيت بمن عنده أيضًا من الرجال، نصرة لأصحابهم، وكان دخولهم ليلاً، ونزل الأمير عمير بن حمير بحارة الغاف وكانت الخضرا في يد السلطان سليمان بن مظفر، وبها رجاله ومعهم علي ابن ذهل، فأرسل إليهم الأمير عمير؛ ليخرجوا بما عندهم من القوة، فأقبل علي ابن ذهل على قومه يحرضهم على القتال، فلم ير منهم التفاتًا إلى ما يقول، وهموا بالخروج، وإذ ذاك بلغ الخبر عرار بن فلاح وهو في عيني من الرستاق، فنهض بمن معه ومن قدر عليه، ونزل القرية وكانت إذ ذاك في أيديهم.

وكان الأمير عمير بن حمير وسيف بن محمد قد سيطروا على بهلاء ونواحيها إلا الحصن، وهم يحيطون به من كل الجهات، وقد أحكموا رصدهم حتى إنهم وضعوا في شجرة الصبار التي في السوق برجًا من خشب، ورموا منه رجالاً في الحصن فقضوا عليهم، وكذلك قَومُ الأمير بنوا برجًا بالجامع فضرب صاحب البرج رجلاً في داخل الحصن، ثم زحف القوم على الحصن فقشعوا جانبًا من سور الحصن؛ ليدخلوا منه على من بالحصن فصدهم عسكر سليمان بن مظفر، ثم إن العسكر رأوا سلامتهم في الخروج فخرجوا بعد ثلاثة عشر يومًا، وطلبوا من الأمير عمير ين حمير أن يسيرهم بما عندهم، وسير معهم وزيره، ثم طلع سليمان ابن مظفر وبنو عمه وعسكره مسيرين من بهلاء إلى القرية، وذلك أنه رأى الخلل في قومه، وأيقن بالغلبة، فلما نزلوا القرية خرج هو وعرار بن فلاح إلى الظاهرة، فعند ذلك أمر الأمير عمير بن حمير بقشع الحصن فقشع، ولم يتركوا منه جدارًا قائمًا على الأرض، وإذ ذاك جعل عمير خلف بن أبي سعيد واليًا على بهلاء من طرفه، ورجع هو من سمائل فبقى خلف بن أبي سعيد في بهلاء أربعة أشهر ليلة

ربيع الأول سنة ١٠١٩هـ تسع عشرة وألف سنة.

لم يشعر خلف بن أبي سعيد إلا وسليمان بن مظفر وابن عمه عرار ومن معهم يدخلون الخضرا وهم في العقر، وكان سيف بن محمد وهو ومن معه من أعيان الرجال في السر من الظاهرة، فأرسل سليمان بن مظفر لخلف بن أبي سعيد؛ ليخرج من بهلاء، ويسيره بما عنده من عدة، فعند ذلك استشعر العجز، ورأى أنه خارج راض أو كاره، فعول على الخروج بأمان من سليمان، وخرج معه من شاء الله من أهل البلد الذين تظاهروا بالعداء لسليمان، ولما علم سيف بن محمد وعلم الأمير عمير بن حمير جاءا كل واحد منهما بما معه من قوة، فأما الأمير عمير حالاً هاجم القرية فاحتلها وسلمها لسيف بن محمد، ورجع هو إلى نزوى وبقى بها أيامًا يفكر في الأحوال التي هم بصددها.

وبعد أيام توفي سليمان بن مظفر. وكان له ولد صغير السن، فملك من بعد عرار بن فلاح، ثم قام سيف بن محمد إلى نزوى يطلب المعونة من الأمير عمير بن حمير، فلبى طلبه وأعطاه رجالاً من جيشه، فدخل بهم القرية وبقى فيها سبعة أيام، وبعدها هاجم بهم محلة أبي مان من بهلاء ويسمونها الآن محلة بيمان، وهناك أحاط بهم عرار بن فلاح وحصرهم مدة أيام، ثم طلبوا منه الأمان وأن يسيرهم بما عندهم من المتاع وآلة الحرب، وبقى له حصن في القرية، وكان ذلك في السادس من صفر ١٠٢٤ للهجرة، وتمام هذه السنة توفى عرار بن فلاح في خصوص الحادي عشر من شهر الحج من نفس السنة، وملك من بعده مظفر بن سليمان، وبقى في الملك مدة شهرين فقط، وتولى الأمر بعده مخزوم بن فلاح، وبقى في الملك شهرين فقط أيضًا فخرج عليه نبهان وسيف بن محمد الهنائي فأخرجاه من الحصن على شرط لا يخرج من الحصن بسلاح ونحوه، فرأى لابد له من ذلك أي من امتثال الأمر، فخرج مرغمًا إلى ينقل، فتولى أمرها مدة أيام وأقام ببهلاء نبهان ابن فلاح، واستوزر فيها ابن عمه علي بن ذهل، ثم أخرجه وجعل بدله سيف بن

محمد، وراح هو إلى عاصمته مقنيات، ثم طرد ابن عمه من بهلاء وهو سلطان بن حمير؛ وذلك لأنه خاف عليها، فراح سلطان بن حمير إلى صُحار، وتولى أمر بهلاء سيف بن محمد.

ثم ثار الأمير عمير بن حمير على بهلاء فمنعه سيف بن محمد فرجع إلى نزوى، وكانت نزوى تحت سلطته طيلة هذه المدة، وهو يرتب أمور الهجوم على بهلاء، وكان رجلاً ذا تدبير وسياسة وله عقل غير هين، ولما رأى الفرصة مواتية دخل العقر من بهلاء ولم يعلم به أحد إلا وهو متمركز فيها، وكان سيف ابن محمد في بلده دارسيت، فهجم على بهلاء ودخل الحصن؛ لأن الحصن فيه قومه وبيدهم أمره، وهنا أرسل إلى نبهان بن فلاح يطلب إلى بهلاء، وأنها لا تزال بيده فظل نبهان يجند الجنود قصدًا إلى بهلاء، وأخذ في الاستعداد؛ لأن عمير بن حمير أحكم مقابض البلد، فأنى له الدخول على هذا الحال، وبقى سيف بن محمد في الحصن، وعمير في البلد ولم ير نبهان بن فلاح الدخول على هذا الحال، فرأى الخروج من حصن بهلاء فطلب من الأمير عمير بن حمير أن يسيره إلى القرية، فأنعم له بذلك هو ومن معه، وبما معه أيضًا من عدة، ثم تراجع الأمير عمير بن حمير وسيف بن محمد على حسن الصحبة والمعونة والمناصرة.

والنّاس من يلق خيرًا قائلون له ما يشتهي ولام المخطئ الهبل

حتى تحالف الرجلان على التآزر والتعاون وأن لا يخون أحدهما صاحبه وبذلك بقي سيف بن محمد بصفة والٍ من طرف الأمير عمير وسلمت إليه الرعية وعدل في قومه وأدى واجبًا كان على عاتقه ولم يزل أمره يقوى وسلطته تطول فناصر بنو عمه وعضده رجال قومه حين رأوه يتقدم واستراح من مصادمة الأمير عمير بن حمير وأركانه ولاشك أن لكل علة دواء فإذا أراد الله زوال الداء أرشد إلى معرفة الدواء والله ولي كل شيء ولكل شيء غاية ينتهي إليها.

التهارش بين أبناء العم من النباهنة

كان سلطان بن حمير، ومهنا بن محمد بن حافظ، وعلي بن ذهل بن محمد بن حافظ مسكنهم صُحار بالقرب من محمد بن مهنا الهديفي حاكم صُحار إذ ذاك، ولعلهم وهم بالقرب منه يحاولون فيه ما يحاولون في إخوانهم، وكان الهديفي المذكور ذا وعي وبصيرة في أمره، وذا حزم على ما في يده، وكان الرجل يحاول الإصلاح بينهم، وابن عمهم نبهان بن فلاح، فتكون له عليهم يد بذلك ويستريح أيضًا من عنائهم، إذ هم معه بصفة لاجئين، وكان عمهم المذكور في مقنيات وهي إذ ذاك جديدة تختال في صباها عروسًا رائعة، وكان مخزوم بالقرب من نبهان بن فلاح، إذ كان بينقل وهي أخت مقنيات، وكلاهما فتنة المغتر، فحاول الهديفي الصلح بين المذكورين، ولم يتفق وأين الاتفاق وكل واحد يدعي في نفسه أنه الملك، وكل واحد يخشى الآخر.

وفي هذه الأثناء أشيع أن سلطان بن حمير وعلي بن ذهل يرومان بهلاء، وقد خرجا بجيش ضخم وخميس جرار، ولما بلغ هذا الخبر الأمير عمير بن حمير، أهمه فتحرك له وجمع جموعه وخرج بعسكره من سمائل يروم بهلاء قبل أن ينزل بها سلطان بن حمير وعلي بن ذهل، وواصل سيره حتى جاء بهلاء، وكان سلطان بن حمير قد دخل حارة بني صلت، وكانت لها إذ ذاك أهمية، ولما وصل عمير بن حمير وتلاه مناصرًا له سيف بن محمد الذي كان واليًا لبهلاء من طرفه، فدارت رحى الحرب بين الطرفين، ووقع القتال، واستمر الحال على ذلك، وكل يحاول النصر له، وكانوا أحاطوا الحارة المعروفة بمراصد مهمة ومقابض حصينة، عند ذلك رأى عمير بن حمير أن الأمر أصبح ليس بهين؛ ولذلك أرسل إلى من يأمل مناصرته، وعند ذلك أيضًا لبى دعوته الزعماء الميامين وهم الشيخ ماجد بن ربيعة بن أحمد بن إسماعيل الكندي بجماعته من سمد نزوى، والشيخ عمر بن سليمان العفيف من سفالة نزوى، والشيخ سعيد بن أحمد بن أبي سعيد الناعبي مع رجال من أهل نزوى من أهل الحل والعقد فيها.

وجاءه أيضًا ناس من أهل منح، ولما تكاملوا ببهلاء أحاطوا بسلطان بن حمير في حارة بني صلت، وطبقوا الحصار عليها، والقاعدة كما قيل كل محصور مغلوب عادة، ولما ضاق الخناق بسلطان بن حمير، ورأى أن لا حيلة له على زحزحة هذا الحصار إلا بالإذعان والتخلي طلب من الأمير عمير بن حمير التسيار والخروج أي الإذعان له والإذن بالخروج من بهلاء بعد ما اشتد عليه الحصار ولا يدخل عليه داخل، ولا يخرج من تلك الحارة خارج وتحقق الغلبة، فسيره الأمير عمير بن حمير بما عنده عدة وما لديه من قوة، فتوجه إلى الظاهرة واجتمع سلطان المذكور، وأخوه كهلان، وعلي بن ذهل، ومهنا بن محمد بن حافظ، بمقنيات مدة حتى خاف منهم نبهان حاكم البلاد، وأوجس منهم أن يخرجوه من مقنيات، فاحتال على إخراجهم منها قبل أن يخرجوه، فمضوا إلى صُحار لاجئين مع محمد بن مهنا الهديفي، وظلوا معه سنة كاملة، وإذ ذاك عمل سلطان بن حمير حركة يشتغل بها في حال قيامه بصُحار عند الهديفي المذكور، فأشار للهديفي أن يغزو دير عمير بن حمير في باطنة السيب؛ لأن عميرًا المذكور أصبح سلطانًا هامًا في قلب عُمَان، ينقض ويبرم ويحل ويعقد، ويجر الجيوش، وأصبح مقبولاً في السواد الأعظم.

وكان بالدير الخاص عمير بن حمير أبناء عمه وهم سنان بن سلطان، وعلي بن حمير، وسعيد بن حمير، فأثر ذلك علي الهديفي فثار، ولعله احتال عليه بأن عمير ابن حمير لا بد أن يثور عليك بوجودنا معك، ويخرجنا نحن وإياك من صُحار، والأولى أن نبدأه قبل أن يبتدئ بنا وهو يريد أن يتذرع بالهديفي؛ لأن الحركة تحتاج إلى مال ولا مال لسلطان، فركب الهديفي محمد بن مهنا ومعه سلطان في جيش كثيف من صُحار، فسبقهما الخبر إلى الأمراء سلطان بن حمير، وعلي بن حمير وأخيه سعيد بن حمير، وتحققوا خروج الهديفي وربعه من صُحار، قادمين لغزوهم وما كان إلا قدر ما يخلع الرجل نعليه أو يغسل الرجل رجليه وإذا بالقوم

هاجمون عليهم، فالتقت العساكر وسلت البواتر، فوقع القتال بأسرع حال، وعظم النزال حتى بلغت القلوب الحناجر، فانكشفت الوقعة عن قتلى عديدة من بينهم الأمير علي بن حمير.

وعند ذلك انفصل القتال ورجع محمد بن مهنا ومن معه مسرعين إلى صُحار خوفًا من مهاجمة الأمير عمير بن حمير، إذ هو قريب منهم بسمائل، ولما علم عما جرى على إخوته وبني عمه بالسيب من محمد بن مهنا الهديفي ومن معه وكان إذ ذاك وهو في بهلاء عقد عقيدة الحزم، وامتلأ غيظًا وحنقًا على الواقع، وكان الرجل ذا همة عالية ونفس سامية، يقال إنه حلف لا يرجع عن صُحار حتى يحصدهم بالسيف، ويحرقهم بالنار ويبدد شملهم في كل دار، فأخذ في جمع العساكر من عُمَان من حيث تصل دعوته، وطلب ممن رجا نصرته من كل مكان، وأرسل إلى سلطان هرمز يطلب نصرته فساق إليه جيشًا أرعن حمله في المراكب محملاً بالعدة الكافية من المال والرجال وآلة الحرب.

وشاءت الأقدار أن تلقي إلى الأمير عمير ما أراد وما لم يرد إذ جاء مركب من الهند بعسكر كثير وقوة حربية ساقته الريح إلى مسقط[1] وكانت مسقط للأمير عمير بن حمير، ولعله جاء بطلب منه من حكومة الهند إذ ذاك وهو المتبادر، فإن البرتغال إذا ذاك ضربوا على الهند بيد من حديد، ويحاولون التدخل في الخليج، وأن هذه البادرة سوف تمهد لهم فيه طريقًا يبسًا لا عوج فيه ولا أمتا.

ولا شك أن الطالب لهذه النصرة منهم هو الأمير عمير، ولما وصل هذا المركب اهتز الأمير وتحركت نفسه ناشطة، وما يدري أن عاقبة ذلك وضع اليد على صُحار وغيرها بقوة لا يقدر على زعزعتها يومًا ما، وهذه أول بادرة كانت يد الاستعمار تمتد بها بعُمَان إلى ما سيأتي خبره، وما صار إليه الأمر ولو صبر

---

(١) الواضح أن الأمير عمير طلب من البرتغال المناصرة، كما طلب من أمير هرمز، ورأت البرتغال أن الفرصة قد حانت فخرجت باسطول ضخم مسلح كما ينبغي المؤلف.

هذا الأمير على عدوان قومه، ولم يدخل الاستعماريين في بلاد المسلمين لكان أولى؛ ولكن أنفس الزعماء الذين لا يهمهم أمر الدين، بل يهمهم فقط أمر الدنيا ويرغبون في الاستعلاء، على المعادي ولو بذهاب الحياة كلها، خرج هذا الأمير بجيشه المشار إليه، وعسكر بالسيب سبعة أيام يرتب الحركة القاضية، وعند ذلك تحرك المتعصبون لمحمد بن مهنا الهديفي وفي أولهم محمد بن جيفر، خرج بجيش لمناصرة الهديفي في صُحار، ولما وصلها استبشر به محمد بن مهنا وأدخله الحصن، ولما اجتمعا بالحصن جرى بينهما حديث في بعض الشؤون، وانقلب الحب عداوة، والمناصرة شرًّا، والذي في قلوب الرجال لا يحيط به إلا الملك المتعال.

عند ذلك أمر محمد بن جيفر بالقبض على محمد بن مهنا وإذ ذاك ألقى بنفسه من سور الحصن إلى الخارج، وصاح على قومه الذين في الحصن وكان بعضهم في برج داخل الحصن، فوقع بينهم القتال ساعة من النهار خرج بعدها محمد بن جيفر وقومه من صُحار، ولم يكن يتحقق الداعي لذلك من الجانبين، ولما وصل هذا الخبر إلى الأمير عمير بن حمير توجه إلى صُحار بمن معه من الرجال وما لديه من القوة برية وبحرية، وأتى صُحار نهار تسعة عشر ربيع الآخر، وإذا بمحمد بن مهنا الهديفي وربعه على استعداد للقتال، فاستقامت الحرب على ساقها طيلة ذلك اليوم إلى الليل وبعد ذلك اليوم هبطت جنود النصارى البرتغاليين من المراكب بما عندهم من آلة حربهم، وكانوا يجرون أمامهم قطع القطن؛ ليتقوا بها رصاص بنادق عدوهم، وكانت الأسلحة غير ما هي عليه الآن، وكانت عند النصارى مدافع تمشي معهم على أعجال الخشب في البر، وعليها ما بقى من رصاص العدو.

وكان بالحصن برج فيه عسكر الهديفي فجرت عليه النصارى والمدافع وقطع القطن أمامهم؛ ليقيهم رصاص عدوهم، وكان الرصاص يلتوي بالقطن فلم تكن للرصاص أهمية كبيرة؛ لأنه خلاف رصاص عهدنا، فإن رصاص هذا العهد حتى

الجبال لا تقي منه ولا يقي منه الحديد، فضربت البرتغال البرج المذكور، فانهدم وخرج منه قابضوه، فدخله جيش البرتغال، وعند ذلك صاح صائح العرب على البرج المشار إليه، وتراكضوا عليه بالسلاح الأبيض وبما لديهم من قوة فانكشفت الوقعة عن قتل محمد بن مهنا الهديفي زعيم الحصن وحاكم صُحار، ومعه علي بن ذهل وكانت الوقعة ليلاً ولما علم الأمير عمير بن حمير بقتل المذكورين واحتلال النصارى قوى نشاطه وزاد اغتباطه واشتد الحرب.

* * *

صُحار تتعرض للدمار

لا يخفى أن الجيش المنتصر لاسيما إذا كان جيش عدو بالطبع لا شك أنه يفعل ما يهوى ويقضي كما يشاء، بعد قتل الهديفي وقتل أعيان من حمايته وأنصاره منهم علي بن ذهل، وسقوط البرج في يد العدو، قام عن الهديفي سلطان بن حمير بن محمد بن حافظ النبهاني وأخوه كهلان بن حمير، وابن عمه مهنا بن محمد بن حافظ، وعسكرهم الباقون في الحصن.

ولما علم الأمير عمير بن حمير أن سيد القوم أي الهديفي قتل ندب قومه للقتال بكل الوسع، فكان القتال بينهم مستمرًا في النخل وفي الطرق وفي الحوائر، حيئنذٍ خرج عمير بن حمير بمن معه من جهة جامع البلد، ولم يتعرض له أحد، وفي أثناء ذلك قتل سلطان بن حمير الذي قام بالحرب بعد الهديفي وانهزم قومه شر هزيمة، ولم يجدوا لهم عونًا ولا مناصرة، بل أذلاء حيارى لا يدرون أين يتوجهون، وشأن المنهزم هذا.

قال الإمام: صاروا شتاتًا متفريقين، فمنهم من قتل ومن أحرق بالنار، ومنهم من أسر ومنهم من جرح، ومنهم من خرج ذاهبًا على وجهه لا يدري أين يذهب و لا أين يتوجه، وعلى هذا جميع أهل البلد. قال: وأحرقت البلد بأجمعها من أولها إلى أخرها، قال: وأقام النصارى في حصن صُحار، وهذا يدل أن الجيش استباح

البلد، وأرى أهلها الهوان وشمت بهم من كان له علاقة بالهديفي وأصحابه، ومن لم تكن له علاقة ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، بل شأن الفتنة شأن النار، وتمركز العدو في مركز المسلمين، واغتنمها فرصة؛ ليضع مخططه الذي كان يحلم به في قهر البلاد.

وبحسب الواقع أن الأمير عمير بن حمير انتصر في هذه الوقعة انتصار هائلاً، ورجع إلى بلده سمائل جذلاً مسرورًا، والحقيقة ليس هو نصر ما دام العدو يتمركز في العاصمة الهامة صُحار مركز سلاطين عُمَان، وبعدها سيوالي بقية المراكز؛ ولكن الآن المنتصر الأمير، وفي هذه الآونة أصبح هو الذي له في عُمَان الحول والطول، وعاث النصارى في صُحار، ودمروا المنازل وقضوا على أهلها بالذل والهوان، وأصبح ذلك المعهد مقام حزن وعويل على من قتل من الرجال، وأحرق من الأبطال ومن هلك على وجهه هاربًا، وإنها لمن البلايا الفادحة؛ ولكن المقدر لابد من كونه والله يتولى عباده الصالحين.

❊ ❊ ❊

البرتغال يواصلون عملهم

لما قرَّ البرتغال بحصن صُحار، وتولوا أمر البلد، ورأوا أنهم أهل الحل والعقد، وأن عُمَان الداخلية مملوءة خلافًا وشقاقًا وافتراقًا وتحزبًا وحنانات اغتنموها فرصة فلعبوا دورهم، والفرص إذا لاحت يغتنمها الرجل الذمر، فتولوا أيضًا بعد صُحار مسقط، وإن كانت لا أهمية لها إذ ذاك بالنسبة إلى صُحار؛ ولكنهم رأوها الحصن الحصين، لما يحاولون ثم مشوا بعدها إلى جلفار فتولوها، وضربوا بأيديهم على الباب الشرقي لعُمَان وهو صور فتولوها، ثم أناخوا بقريات فاحتلوها، وأصبح الساحل العُمَاني بأسره في أيديهم، وأصبحت أبواب عُمَان التي عليها المعول تحت سيطرتهم يفتحون ويغلقون ولا منافس لهم من أهل عُمَان.

ومن هناك أيدوا مسقط لحصانتها وإحاطة الجبال بها، فتولوا القسم الداخلي

من أهله برغم أنوفهم، فأحاطوه بسور لا يزال باقيًا إلى الآن، وبنوا الحصنين الكبيرين على جبالها، والثالث القلعة على سور الخندق، وحفروا الخندق وأدخلوا فيه البحر، وطردوا الأهالي منها إلا ما كان لا يعبأ به خارج السور، وحصنوها تحصينًا كاملاً وتمركزوا فيها، وجعلوا لها قوات هائلة، ووضعوا فيها تجارة هامة، وعاشوا فيها وأهل عُمَان في الداخل.

وعلى أثر خروج الأمير عمير بن حمير من صُحار، كان مخزوم أميرًا على حصن ينقل، وكان سيئ السيرة في الأهالي، وكان قبض على رجلين منهم فأراد قتل أحداهما، وأمر خادمة ليقتل المذكور، فأخذ السيف ليضربه وهو يستجير، وكان من القضاء الذي لابد منه أن وضع مخزوم يده على فم الرجل عند الضربة الثالثة، والخادم يرسل السيف عليه، فأصاب السيف يد مخزوم على فم الرجل فجرح مخزومًا جرحًا مات منه بعد سبعة أيام والله هو الضارب ﷻ، والرجل المقصود بالضرب عاش بعد ذلك، إذ مر عليه العبد الضارب لليسحبه معتقدًا أنه ميت، ورجل آخر هناك، ولما تركه الخادم قال للرجل الآخر: ألا من يعينني على دفن هذا المقتول، فقال له أنا حي، فحمله على كتفه وأدخله البلد، فعالجه حتى صحا من ذلك، وعاش باقي أجله.

ولما علم نبهان بموت أخيه ركب من مقنيات إلى ينقل، وترك بعض عسكره في حصن مقنيات للحفاظ عليه، وكانوا قد ملوه من كثرة جوره وظلمه وفساده وبغيه، وتآمروا على إخراجه من مقنيات، فأرسلوا إلى الأمير عمير بن حمير، وسيف بن محمد إذ هما المنظوران بعُمَان وإليهما أمر الخوف والأمان، فقاما معًا ملبين لدعوة المنتصر بهما، وراغبان في الملك، وخرجا بقومهما إلى مقنيات ودخلا الحصن، ولم يعارضهما معارض ولا رأوا من أحد خلافًا، وبقيا بها مدة يمهدان أمورها، ويضعان خططهما عليها، ثم توجها إلى ينقل؛ لقطع مادة الفساد التي طال ما سئم منها العباد، فلما علم نبهان بهما خاف منهما وخرج من البلد

هاربًا يترقب، ولحق بأخواله الرئائسة طلبًا لنصرتهم، أو قل على الأقل لحمايتهم من الأمير عمير بن حمير ومن معه، وذلك لاثنتي عشرة من شهر صفر ١٠٢٦هـ ست وعشرين سنة وألف سنة.

وأقام الأمير المذكور ووزيره سيف بن محمد بينقل مدة ولم يريا حركة من أحد، وإذ ذاك سلم الأمير عمير البلاد لأهلها، فكانت له بذلك المنة الكبرى وزاد النّاس في حبه ورجع هو إلى مقنيات وأرسل إلى أهل البلد فسألهم عن أعمال نبهان المذكور فيها ومعاملته لأهلها، وأجابوه بأنه كان يأخذ نصف غلة النخل، وربع غلة الزرع.

قلت: ولعله يعتبرها بيت مال وهو الزعيم وإليه أمر بيت المال، فأسقط عنهم غلة النخل، واكتفى بربع غلة الزرع، وأما أموال بيت المال فهي لمن يقوم بالحصن وشؤونه، وجعل عمر بن أبي سعيد واليًا عليها ورجع هو وسيف بن محمد إلى بهلاء، وفي هذه الأثناء تحرك نبهان المذكور، واستجاش أخواله آل الريس، وجاء إلى الظاهرة ودخل فدى وأقام بها.

ثم جاءه بعض أصدقائه في ينقل، ولكل أمير أعوان ولكل أحد أخدان، وحركه فتحرك وأغراه فقام وواعده بالنصرة والمعونة على من يقوم عليه، فراح مع هذا الواصل ودخل ينقل ليلة النصف من ربيع الآخر من نفس السنة المذكورة آنفًا، وأحكم مقابض البلد وبذل قوته لحرسها وسورها بما استطاع أولها وآخرها إلا الحصن الذي هو قلبها، فإنه كان في يد الذين ولاهم إياه الأمير عمير بن حمير، وهم بنو علي وحصرهم نبهان واستقامت الحرب ونشب القتال بين الفريقين، وفي هذا الحال خرج رجل من حماة الحصن خفية، وذهب إلى آل قطن بن قطن وكان الأمير فيهم يومئذٍ ناصر بن ناصر، واستصرخهم؛ لنصرة قومه المحصورين بحصن ينقل فلبوا دعوته وثار معه ركب منهم يقوده محمد بن محمد بن محمد بن جيفر، وعلي بن قطن بن قطن بن قطن بن علي بن هلال، وناصر بن ناصر بن ناصر

بن قطن بمن عندهم من الرجال الذين هم أبطال الرجال، وكانوا ببادية الشمال، ولما دخلوا ينقل قامت الحرب على ساقها بينهم وبين نبهان بن فلاح، واشتد الأمر إذ كان هؤلاء مهاجمين وأولئك قابضين البلد، ومتمركزين في حصنها، ودارك معارك حامية وطال لهبها وحميت نارها واشتد أوارها، حتى ارتفع العجاج واظلمت الفجاج ولا بد أن يكون النصر حليف طائفة.

عند ذلك رأى السلطان نبهان أن كفة القوم ترجح، وأن ميزان نبهان يخف، وأن نار العدو يعظم خطبها فانهزم جنده وأخذ القتل منهم جانبًا كبيرًا حتى ضجوا وأرسلوا إلى العدو المهاجم يطلبون الأمان للخروج، وانحل أمرهم إلى الدمار الساحق، وكان سيف بن محمد الهنائي جاء بجيشه لقتال نبهان، فبلغه خبر خروجه من ينقل في الطريق، وأن الرجل قد انهار أمره وتمزق شمله، وانحلت عُرى قوته، فرجع سيف بن محمد إلى بهلاء.

وكان الأمير عمير في سمائل يجمع الجموع ويكتب الكتائب وينظم عدة حربه لإخراج نبهان بن فلاح من ينقل، ولما بلغه الواقع تهيأ لحرب بني لمك في الرستاق، حيث اشتقوا هم والسلطان مالك بن أبي العرب اليعربي، وكان هذا السلطان هو والأمير عمير بن حمير كنفس واحدة، فخرج جيشه إلى الرستاق ودوّخ بني لمك وقر قرار السلطان بالرستاق، وهذا السلطان هو جد الإمام ناصر بن مرشد رحمه الله ورضي عنه كما سوف يأتي خبره إن شاء الله.

* * *

التفرق عنوان الوهن

هذا حال المملكة العُمَانية في هذه الأثناء تدور على مقنيات وينقل وبهلاء ونزوى وسمائل وسمد الشأن والرستاق، وهنا موطن التهارش القتال والقلاقل والاضطراب، فصغرت المملكة العُمَانية حتى أصبحت أشبه بمشيخة قبائلية، تتهارش على هذه الفريسة حبًا للرئاسة، ولو كانت غير كبيرة الشأن بعد ما كانت

عُمَان تسيطر على النواحي النائية إلى حضرموت والبحر الأحمر، وإلى اليمامة وإلى البحرين كما علم ذلك مما مر، أصبح اسم السلطنة مقصوراً على هذه الرقعة التي هي قلب عُمَان، فإنه في هذه الأثناء، صار ملك بهلاء للشيخ سيف بن محمد الهنائي، وصار ملك سمائل إلى نزوى، وسمد الشأن إلى الأمير عمير بن حمير، وصار ملك الرستاق إلى السلطان مالك بن أبي العرب اليعربي، وصار ملك الظاهرة إلى آل هلال رهط الجبور، وصار الساحل العُمَاني من صور إلى مسقط وصُحار وجلفار إلى البرتغال، وهكذا اقتسم هؤلاء هذه المملكة السامية المنيعة، وتلاعبوا فيها حتى صح على حالها قول القائل:

وتفرقوا شيعًا فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

هذا ما أفضى إليه الحال العُمَاني، فمتى ينجلي الكوكب الدري الذي يقضي بسعده الجامع، على نحس المفرق، الواقع ويجتمع الشمل ويلتئم الشعث، وتعود المياه في مجاريها، انظر هذه الأحوال فصوت الحق فيها خافت، وراية العدل فيها مطوية، وأعلام الشر على الرؤوس لا تزال منشورة، وأوجه العلماء غير مرئية، ومصابيح الشريعة لا تعرف، إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال الإمام رحمه الله: وخربت عُمَان وعاشت فيها الجبابرة، وقل فيها العلم، وذهب منها الخير، وارتفعت منها البركات، وانضمت العلماء في بيوتها، ولازمت سربها، كما أمرها رسول الله ﷺ، حيث قال:(فإذا رأيتم هوى متبعًا أو شحًا مطاعًا وإعجاب كل رأى برأيه فالزم حلسًا من أحلاس بيتك).

أفضى الحال بأهل عُمَان في هذا الجيل المتهارش أن أمير وبل من أعمال الرستاق من اليعاربة، ولعله من طرف السلطان مالك بن أبي العرب، احتاج إلى قاضٍ فلم يجد قاضيًا من أهل المذهب الحق، فاتخذ قاضيًا من أهل الخلاف، فكاد أن يضل النّاس ويزلهم عن مذهبهم، وإذا ذاك قام بعض أهل الغيرة من أهل العلم فنصحوه وبينوا له مغبة الحال، وما يئول إليه الأمر، فاستجاب ذلك الأمير

لهم، فعزل القاضي المشار إليه، وأرسلوا له رجلاً من أهل المذهب، فأخذ العلم عنه جملة من أهل الرستاق، وإذ ذاك لاح للأمة وميض ضياء كان له بعد ذلك أثرًا أضاء البلاد، وأحيا أرواح العباد، وشع له بالطرف الرستاقي نورًا امتد بسلطان الله ﷻ، وقد تعهد الله عزَّ وعلا أن يبعث للأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، ويحفظ لها كرامتها، ويعيد إليها نبراس حياتها.

وكل هذه الأحوال التي نكتب عنها تحتوي على حكم إلهية، وتمتاز فيها أعلاء بفضائل، وتهوي بها رجال إلى الحضيض الأسفل، والله ولي التوفيق.

في هذا العهد قامت حوادث بعُمَان أشبه بإرهاصات النبوة، وشهرت أحوال ذكرها المؤرخون إن دلت على شيء فإنما تدل على إشعاع سماوي يتجلى على ربوع عُمَان المظلمة بغيوم الفتن التي مرت، وبظلام الشرور التي طالما ما أرخت سدولها على هذا الأفق العزيز، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ونرى أن نعرض عن ذكر ما حكى التاريخ، ونذهب إلى الأهم والله نسأله العون والرضى إنه كريم منان.

هنا انتهى الدور الذي لعبه بنو نبهان بعُمَان طيلة تلك المدة النائية التي ما زالت مغطاة بغبار المظالم، ومشحونة بالحوادث السيئة التي تباعدت عن مقتضيات الشرع الشريف، وأخذت جانبًا قصيًا عن معالم الحق.

* * *

مقدمة العهد اليعربي بعُمَان

عهد اليعاربة بعُمَان يشكل عهدًا جديدًا للأمة العُمَانية، حيث كانت المملكة العُمَانية انحطت إلى الحضيض الأسفل، وتأخرت تأخرًا محسوسًا، وأصبحت كمشيخة غير كبيرة الشأن وإن انتفخت زعماؤها في هذه الآونة المعلنة بانتقال الدولة إلى اليعاربة، وادعوا أنهم ملوك أو سلاطين، والحال هم إذ ذاك كما يقول القائل:

وتفرقوا شيعًا فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

ذلك لأن المملكة أصبحت نهبًا مقسمًا واقتصرت على ما يحدث بصُحار في الساحل الشمالي، وبجعلان في الجانب الشرقي الجنوبي، وهذه الرقعة أشبه ما ترى العين من دائرة القمر، وإن كان إذ ذاك لا أهمية لدبي ولا روح لأبوظبي؛ ولكن كانت عُمَان إلى الإحساء واليمامة وحضرموت وما إليها عدا الممالك الأخرى التابعة لها؛ ولكن قال رسول الله ﷺ: «ما رفع الله شيئًا إلا وضعه» وقد حكم الله ﷻ على أيام الدنيا بالتداول، فبينما ترى قومًا في الأوج العالي والمحل الأرفع، وهم في نمو زائد مالاً ورجالاً وذريةً وعيالاً، بحيث يصبحون والحال فيهم كما يقول القائل:

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

وبعد حين تري الديار بالواقع كما قيل أيضًا:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بحمكة سامر

ولما أراد الله أن تستعيد عُمَان مجدها السالف، ويعود إليها عزها أقام لها الدولة اليعربية، فقام مجدها، وعاد شرفها، كما سوف يقف عليه القارئ إن شاء الله.

قال شكيب أرسلان في تعليقه على عُمَان بعدما ذكر ما قبل اليعاربة قال: ولم يتأصل الملك وترسخ قواعده إلا في أيام ناصر بن مرشد، وناصر المذكور هو الدعامة الكبرى في بناء الدولة اليعربية، والحجر الثقيل في أساسها الذي تقوم عليه، وفي

كلام بعضهم: أدرك الله الأمة بالدولة اليعربية، فجاء الإمام ناصر وجمع شملها وداوى جراحها وأصلح شأنها، وزالت بسببها النزوانية والرستاقية، وأصبحت ذات أسطول عالمي هزم البرتغال، وطهر الخليج من الجنوب إلى الشمال، وأعاد لعُمَان الشرف الباذخ والمجد الشامخ.

قال شكيب وهو يصف الإمام ناصر: كان من نبعة عربية صحيحة، ومن أقدم الأرومات الإباضية، قال: ولما استلم ناصر الزمام كانت بعض المدن المحصنة في الداخل بأيدي زعماء يلقبون أنفسهم ملوكًا، وكانت مدن أخرى يحكم فيها مجالس شيوخ من أهلها، ولم يكن بقي من الثغور البحرية بأيدي الأهالي سوى فرضة (لاوه) يعني لوى، قال: والباقي كان داخل في حكم أمير هرمز إلى أن قال: وكان إذ ذاك قد أستأسد البرتغال، وظهروا على بلاد الشرق، وصارت أساطيلهم الكلمة العليا مثل كلمة الإنجليز اليوم ثم ذكر البوقيرق إلى أن قال: ومن جملة مغازيه سواحل عُمَان التي كان البرتغاليون فتحوا قسمًا منها أي من مراسيها وتركوا القسم الأخر بيد الأهالي مكتفين منهم بأتاوة يؤدونها منهم سنويًا.

أما المدن البحرية التي كان فيها حاميات برتغالية عظيمة فكانت مسقط وصُحار ومطرح، وقريات، قال: فسار ناصر بن مرشد أولاً إلى لاوة، أي لوى فاستعان أهلها بالبرتغال، فأمدوهم بالمال والسلاح؛ ولكن ناصرًا تغلب عليهم وفتح البلدة، ثم هاجم أنفس البرتغاليين في المدن التي كانوا فيها فانتزعها منهم وبقيت حامياتهم ممتنعة بقلاعها ليس لها أيد تمتد إلى البلاد، ثم طرد البرتغاليين من رأس الخيمة، وكان البرتغاليون قد اضطروا أخيرًا لأجل الاستقرار في قلعة مسقط أن يؤدوا للإمام ناصر جزية، فبعد أن أدوها مدة امتنعوا من أدائها، فزحف عليهم ودارت رحى الحرب بينهم، وانتهت بصلح ثقيل الشروط على البرتغاليين، إذ انتزع من أيديهم عدة حصون في مطرح والقلاع الخارجية في مسقط، وأجبرهم على عدم التعرض لحرية التجارة وعلى أداء الجزية، ثم افتتح ناصر مدينتي صور وقريات، وطرد الأجانب

منها، وبالاختصار فإنه منذ بداية ملكه وضع نصب عينه تطهير البلاد من المعرة الأجنبية، وفهم في ذلك الوقت ما لم يفهمه كثيرون من ملوك الشرق وأمراء الإسلام، من كون الأجنبي الأوروبي إذا نشب براثنه في محل لم ينته منه إلا باستخلاص جميع البلاد، واستعباد من فيها من العباد، وأن الأولى بالعاقل وتوقي هذا المرض قبل أن ينشب، والمبادرة إلى اقتلاعه بكل الوسائل قبل أن يستفحل.

قال: وجرت ثورات في زمان ناصر فأطفأ ثائرتها بحزمه وحكمته، قال: وقد أكمل عملاً عظيمًا، وبنى مملكة عُمَان على بوانيها، وحررها من السلطة الأجنبية إلى أن قال: وكان حازمًا جادًا شائحًا في الأمور، فاضلاً تقيًا، أحبه الأهالي إلخ.

وبحق أقول: إن الإمام ناصر بن مرشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أعاد سيرة السلف الصالح في عُمَان، وجدد من المعالم ما أبتله أيدي الزمان، وأعاد السيرة النبوية متوجة بتاج الايمان، فهو الذي أعاد المجد الذي كان لعُمَان أيام الجلندى بن مسعود، وسعيد بن عبدالله الرحيلي، ووضع حجر الايمان الصحيح رغم أهل الطغيان فكأن عُمَان بعهد ناصر بن مرشد، إنما ولدت في عهده، وأقام مجدها بعزمه وجهده، فهو رَحِمَهُ ٱللَّهُ أمة واحدة.

* * *

مشاهير دولة الإمام ناصر بن مرشد

لقد قيض الله للإمام ناصر بن مرشد رجالاً قاموا بأمور دولته، وكانوا له أياد قوية، وسهامًا حادة، وسيوفًا ماضية، عاركوا البغاة، وقاتلوا الطغاة، وصارعوا العتاة، ودوّخوا أهل الباطل، وأسسوا دولة ضخمة بعُمَان امتد لها بعد ذلك صوت عالٍ في بلاد العرب، كما سوف يراه القارئ في هذا التاريخ، ولكل دولة رجال، ولكل رجال أعمال.

كان يضرب المثل بالإمام ناصر في الزهد والورع والعبادة، وكان رجاله كذلك، وإذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابًا، وأقام له دعائم، وسخر له من يقوم ببنائه،

وكذلك إذا أراد هدم ذلك، ودولة الإمام ناصر قامت على أثر رسوخ الظلم والفوضى بعُمَان، وهي الفوضى التي خلفها بنو نبهان الذين لعبوا دورًا طويلاً بعُمَان.

ولا شك أن لكل أمة غراسًا وغراس دولة الإمام ناصر العدل والفضل ونشر العلم، وحمل النّاس على الصراط السوي الذي وضعه الله تعالى لعباده، وكلفهم سوكه، ويسر لهم المسير على جادته.

ومن رجال دولة الإمام ناصر بن مرشد المشاهير: الشيخ العلامة خميس بن سعيد الشقصي الرستاقي، صاحب كتاب منهج الطالبين في الفقه، وهو كتاب من أمهات الكتب، يحتوي على عدة أجزاء.

ومنهم العلامة البطل: مسعود بن رمضان النبهاني، وهو سيف من سيوف الحق، قام بواجبه، وسيأتي ذكره في حروب الإمام رَحِمَهُ اللهُ.

ومن رجال الإمام ناصر بن مرشد المشاهير الشيخ خميس بن رويشد الضنكي، الذي ما زال يقود الجحافل لحرب بغاة الظاهرة.

ومن مشاهير رجال الإمام ناصر بن مرشد، محمد بن سيف الحوقاني، الذي قام بدور هام في أيام الإمام لإقامة معالم الإسلام في ربوع عُمَان.

ومن مشاهير دولة الإمام ناصر بن مرشد: محمد بن علي بن محمد كان بطلاً مقدامًا لا يرهب ضوضاء السوء، ولقلقة أهل الباطل وستخبر عنه أحواله في دولة الإمام.

ومن أبطال دولة الإمام ناصر بن مرشد: العالم الهمام عبدالله بن محمد بن غسان الكندي النزوي، مؤلف خزانة الأخيار. ومنهم حافظ بن جمعة الهنوي.

ومن مشاهيرهم: علي بن أحمد الذي قاد سرية جلفار كما سوف يأتي ذكره إن شاء الله.

ومن مشاهيرهم: محمد بن صلت الريامي، وعلي بن محمد العبري، وأحمد بن بلحسن البوشري.

ومن صناديدهم: سعيد بن خلفان القرشي، الذي أبلى بلاء حسنًا في دولة الإمام، ولم أدر من أي بطون قريش الذين بعُمَان هو هؤلاء الرجال الذين أقاموا دولة الإمام المؤيد ناصر بن مرشد رَحِمَهُ اللَّهُ، وإن كان معهم كثيرون من رجال عُمَان إلا أن المذكورين هم الرؤوس الذين قاموا بقيادة الجيوش في حروب الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ لبغاة أهل عُمَان، وبهم قرت دعائم الإسلام بعُمَان، وكأن طورًا جديدًا قام بعُمَان حتى كأن لم تكن عُمَان أسلمت قبل ذلك، ومن جملة قواد جيوش الإمام ابن عمه سلطان بن سيف اليعربي، وأخرنا ذكره؛ لأنه صار بعد ذلك الإمام الثاني من اليعاربة، وهو الذي فتح مدينة صور من البرتغال، الذين طوقوا ساحل عُمَان بالقهر، وهو الذي أجلاهم من مسقط في عهد إمامته، وطاردهم في السواحل الأخرى كما يأتي ذلك مفصلاً في إمامته إن شاء الله.

* * *

الإمام ناصر بن مرشد رَحِمَهُ اللَّهُ

لما كان لكل عمل رجال، وأن الأعمال الدينية يلزم أن ينتقي لها الرجال الدينيون، والذين تطمئن بهم النفوس لحمل الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن تحملها وأشفقن منها وحملها الإنسان، فهذا الإنسان يجب أن تكون فيه أهلية صالحة لحمل الأمانة، أهلية تقوى، أهلية غيره لله على حرمه، أهلية تدعو إلى العمل الصالح، أهلية لا ترى لمن خالف دين الله حقًا يجب احترامه حتى يعود إلى الصراط المستقيم، والمنهج القويم.

فبعدما تمزق ملك عُمَان بتلاعب الظلمة وأعمدة الفساد، وأهل البغي والعناد وانحطت الزعامة العُمَانية الكبرى إلى الحضيض، واقتحم لاقتناص صيدها كل من لم يكن من أهلها لأمر أراده الله بأهل الظلم والفساد، وكان الله عَزَّ وَجَلَّ بفضله وبرحمته تعهد أن يعيد للأمة دينها على رأس كل مائة سنة، لإقامة الحجة عليها وإيضاح المحجة لها، حتى لا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، في هذه الثناء

وما علم من انتقاص الأرض من أطرافها بقلة العلم، وظهور الجهل، أثرًا للزعامة الجائرة، شاء الله أن يمحو ذلك الأثر كما هي سنته في عباده، أطلع طالع سعد ينير الطريق، ويكشف المضيق، ويرفع نير الظلم والجور، ويعيد الحرية إلى عمودها.

اخرج الله عز وعلا في هذه الآونة السيد الهمام المقدام، ناصر بن مرشد رَحِمَهُ اللهُ، فشع له شعاع في عالم الدين، وبرق له من بريق في أرجاء عُمَان، فتحدث بأخلاقه الدينية الركبان، وعطف الله عليه قلوب أهل الايمان، وألفت إليه عقول أهل الخير في الوطن، وإذا أحب الله عبدًا من عباده لإخلاصه واستقامته في الدين، أعلن ذلك في الملأ الأعلى، ثم نودي به في أهل الأرض، وإذ ذاك كان هذا الإمام يتيمًا رباه الشيخ العلامة المحسن خميس بن سعيد الشقصي صاحب منهج الطالبين، فنشأ نشأة أهل الفضل والايمان يحمل دينًا وإيمانًا وتقوى، مع خصال الخير وأعمال البر التي يتطلبها القائم أو من يقوم بشرعة الله عز وعلا.

وكانت المدرسة الرستاقية غاصة برجال من أهل العلم والعمل تسابق رجالها إلى تحصيل العلوم، وتنافسوا في خصال الفضل، وكانت الرستاق نصيب آباء هذا الإمام حين اقتسم الزعماء الممالك العُمَانية، وما زال أمر الرستاق راسخ الأقدام في آل مالك بن أبي العرب، وكان الإمام المذكور من البيوتات المعروفة شرفًا وعزًا، ويقال: إن أباه مات عنه يتيمًا وتزوج أمه الشيخ الشقصي المذكور وتربى في بيئته وعلى وتيرته فوفقه الله للصالحات، وكل ميسر لما خلق له، وما جرى به قلم الأزل لا بد من وقوعه، وإذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابًا.

وكان ناصر بن مرشد رَحِمَهُ اللهُ من أسباب الخير لعُمَان في هذا العهد العصيب الذي كاد تختفي فيه معالم الدين وتموت الروح الإسلامية ولا يقوم لها وجود.

❊ ❊ ❊

الافتراق داعي الخذلان

لقد أشرنا آنفًا إلى بعض ما كان عليه الحال في الآونة التي أثار الله فيها الدعوة اليعربية، وأقام الله ﷻ برحمته عبده الأواب، والسيد المهاب، عالي الجناب، وأحب الأحباب، ناصر بن مرشد اليعربي، وكان ملك عُمَان في أيدي المتزعمين، فكانت نزوى لسلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان، وكانت سمائل لمانع بن سنان العميري، وكانت بهلاء لسيف بن محمد الهنائي، وكانت سمد الشأن لعلي ابن قطن الهلالي، وكانت إبراء لمحمد بن جيفر بن جبر الجبري، وكان صور وقريات ومسقط والجانب الشمالي من الباطنة للبرتغال، وكانت نخل لعمه سلطان بن أبي العرب، وكانت الرستاق في يد أبيه، وبعد موته تولاها بنو عمه، وكان حصن الغبي لآل هلال رهط الجبور، وكان حصن مقنيات في يد الجبور أيضًا، وكانت ينقل في يد الجبور أيضًا، ومالكها ناصر بن قطن وكانت لمحمد بن جيفر، وكانت صُحار بيد البرتغال وكذلك مسقط، بل هي العاصمة إذ ذاك لما لها من الأهمية، وكانت جلفار بيد العجم والمالك لها ناصر الدين العجمي.

هذه هي الحال التي كان عليها أمر عُمَان في هذا العهد، ولتفرق الملك في أيدي البغاة حكمة بديعة يعقلها أفراد من الرجال، ولله أمر هو بالغه، وحكم هو نافذه، وإذا أراد الله أمرًا كما قلنا آنفًا هيأ له أسبابًا، وأراد الله الذي له كل شيء أن يعيد نور الشريعة على الأفق العُمَاني؛ ليكون هداية لذلك الجيل في ذلك القرن.

❊ ❊ ❊

ذكر مؤهلات الإمام ناصر بن مرشد لهذا المنصب العالي

أولها أنه كان رحمه الله من بيوتات الشرف كما تقدمنا، فهو من العنصر اليعربي العربي، وجده سلطان الرستاق وتوابعها، وقد مضى لها عهد وهي حكومة

مستقلة ودولة منفردة بعُمَان كما عرفت ذلك فيما سبق.

ثم كان هذا الهمام النجيب علامة فقيهًا وسيدًا نبيهًا، والفقه في الدين هو الحجة التي يعتمدها الزعيم المسلم، ثم كان على جانب عظيم من الزهد، فكان أزهد أهل عُمَان في عصره، والزهد في الدنيا من صفات عباد الله الصالحين، فلما رأى أهل العلم في وقته هذه الخصال متوافرة فيه، ورأوا الحال العُمَاني متفكك القوى، جعلوا ذلك العون الصالح لهم لا سيما وقلوب النّاس متوغرة من فعل الجبابرة، وبصفة عامة رأوا تلك الداهية الدهياء البرتغالية، تهم بالتهامهم، والفرص إذا لاحت وجب اغتنامها، وهنالك أقام العلماء هذا العمود الصالح؛ لأن يستند عليه الدين فاجتمعوا على بيعته والحمد لله.

* * *

العلماء الذين اجتمعوا على البيعة لهذا الإمام

لا يخفى أن أمر عُمَان من قديم الزمان ما زال إلى علمائها، وهم الذين يحلون ويعقدون ويقومون ويقيمون، في هذه الآونة شاء القدر أن تكون له ثلة من رجال العلم، أهل الفضل والهدى والرشد والتقوى، الذين يعلو بهم البناء ويقوى، وفي مقدمتهم الشيخ العلامة خميس بن سعيد الشقصي، والعلامة الجليل مسعود بن رمضان النبهاني السمدي النزوي، والعلامة الصالح صالح بن سعيد الزاملي النزوي العقري، والشيخ العلامة خميس بن رويشد المحروقي، والشيخ العلامة الجليل عبدالله بن محمد بن غسان مؤلف خزانة الأخيار.

وقال الإمام السالمي رَحَمَهُ ٱللَّهُ: قيل أن جملة العلماء أربعون عالمًا أو يزيدون، فكان الأساس بهم مكينًا والبناء قويًا والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ولا يخفى أن ذلك من حسن حظ هذا الإمام ولله في خلقه أسرار.

قال الإمام السالمي رَحَمَهُ ٱللَّهُ، وهو يذكر الإمام ناصر بن مرشد: وهو أول إمام من اليعاربة، وأول من قامت به دولتهم، وكانوا قبل ذلك كغيرهم من العرب، أي

العُمَانيين رؤساء في الرستاق وما يليها، أي كانت الرستاق وتوابعها نصيبهم من ملك عُمَان إذ ذاك، فإنهم من العنصر النبهاني، وكان النباهنة كما علمت اقتسموا الملك بعُمَان، إلى أن قال: وسبب ذلك أي اجتماع المسلمين بعد فرقتهم أي بعد الافتراق الذي تقدم ذكره إلى رستاقية ونزوانية، وسببه خذلهم الله وتسلط عليهم الظلمة يسومونهم الخسف، وما وقع عليهم من أمراء الظلم وملوك الغشم من تراكم الفتن وشدة المحن، واختلفت آراء أهل الرستاق ووقعت بينهم المحنة والشقاق، وسلطانهم يومئذٍ مالك بن أبي العرب المقدم ذكره.

وهذا ما يدل أن أهل الرستاق افترقوا فيما بينهم. قال: وهو جد الإمام ناصر بن مرشد. قلت: لقد وضعت نسبه إلى يعرب بن عمر بن نبهان فيما كتبته من أنساب أهل عُمَان. قال: ثم مات مالك وبقيت الرستاق في يد بني بنيه وهم أولاد عم الإمام، فتبين منه أن الإمام عند موت أبيه كان يتيمًا، وقد صح أن الشيخ خميس بن سعيد، وهو من أكابر أهل الرستاق، تزوج والدة الإمام ناصر. قال: فتراسل المسلمون وتشاوروا أن ينصبوا لهم إمامًا يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وقدوة العلماء يومئذٍ خميس بن سعيد الشقصي الرستاقي، صاحب منهج الطالبين. قيل: وفيهم مسعود بن رمضان النبهاني من أهالي سمد نزوى، وصالح بن سعيد الزاملي من عقر نزوى أيضًا، بل قيل إن عدة العلماء يومئذٍ كانوا أربعين عالمًا أو يزيدون قال: ولعلهم لم يحضروا البيعة كلهم بل حضررها بعضهم، ورضي الباقون.

وكانت بينهم المراسلات والتشاور فوقعت خيرتهم على ناصر بن مرشد وكان فيما قيل ربيبًا للقاضي خميس بن سعيد، وكان قد عرفه قبل ذلك، فدلهم عليه فرضي به الجميع.

قلت: كيف لا يعرفه وقد رباه تلك التربية الصالحة، وأخذ به إلى المنهج الذي أراده الله من المسلم فزاده العلم شرفًا على شرفه، وتوجته التقوى تاج المحبة

والصفا.

قال: فعقدوا عليه الإمامة بالرستاق في عام أربع وعشرين بعد الألف، فكان مسكنه قصرى محلة من الرستاق أي عند شيخه زوج أمه ذلك العلامة القدوة سيد العلماء يومئذ.

قال الإمام: الممالك في يد الرؤساء يشير بذلك إلى ما قدمناه، فقام بأموره رجال اليحمد بأنفسهم وأمدوه بأموالهم وذخائرهم.

قلت: وفي مثل هذه الأحوال يحسن إنفاق المال، ومن طلب الخير فليحتمل فيه كل ما عزَّ وهان، فإن سلعة الله عزَّ شأنه لها ثمنها الرفيع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [التوبة: ١١١]، ومن طلب العلياء لم يغلها مهر، قال: وأجمعوا أن يهجموا على القلعة ليلاً، فما كان إلا أن حميت حفائظهم وتجردوا للمصاعب، فما شعر بنو عمه وهم في تلك القلعة الشماء إلا وأسود الله يقتحمون عليها، فاستفتحوها وكانت لهم فألًا للفتح، فإنها من أصعب الحصون في ذلك العهد الذي لم تكن الآلات النارية موجودة فيه ولا السلاح البارودي أيضًا موجود؛ ولكن عزائم الرجال هي السلاح الفعال.

الزحف على نخل

ولما تم فتح الرستاق وقبضت عليها يد الحق سارت الركبان في أرجاء عُمَان بهذا الحديث الداهم، وإذا بالقلوب تنصرف إليه، وإذا بالرجال تتشوف عليه، فزحف على نخل يقدمهم الرعب، وفي نخل عمه سلطان بن أبي العرب، فأحاط بها أيامًا وحاصرها حصارًا عامًا، فما كان منها إلا أن خضعت للحق وسلمت للأمر، وعلتها راية العدل، وأيقن المسيطرون على الحصون أنها زائلة عنهم، فنزل عمه من قلعتها وعلاها الحق فقرأ على عرشها.

ومن حيث أن أهل البغي يسوءهم ما يرون من العدل الذي يقهر أياديهم على

روائها، ويردهم عن غيهم، فثارت عليه فرقة من أهلها ممن لا يرى إلا الفساد، فما شعر الإمام إلا والقوم محيطون به، فحصروه في قلعتها، فجاءه رجال اليحمد ففرجوا عنه الحصار ونصروه على عدوه، فبدد الله شمل الأعداء، وأقام أعلام الهدى برجال أشبه بصحابة رسول الله ﷺ، ثم عاد الإمام إلى الرستاق، فكانت عاصمته، وفي هذه الأثناء جاءته دعوة من أهل نزوى يدعونه لملكها وإزالة ما بها من ظلم وجور فلبى دعوتهم، وخرج على شريطة المناصرة والمساعدة والمعاضدة والمؤازرة؛ لأن الإمام لم تكن عنده مواد كافية؛ لأن يستند عليها.

خرج الإمام من الرستاق على طريق الجبل إلى نزوى فلم يشع خبر خروجه حتى نزل بسمد نزوى في شرجة صفد، وإذا بالداعين له لم يفوا بما وعدوا، ورأى الأمور غير متهيأة للمرام، فرجع منها إلى الرستاق، ثم تواصلت سلاسل الطلب من عدة أناس منهم الشيخ أحمد بن سليمان الرواحي في رجال من بني رواحه، ومنهم وفود من مانع بن سنان العميري أمير سمائل إذ ذاك، فأقاموا معه يطلبون منه القيام على سمائل ووادي بني رواحه ولعل مانعًا كان طلبه اختبارًا لنوايا الإمام، واكتشافًا لما عليه من القوة، فإنه بعد ما تبين نفاقه وكان أحد المناوئين للإمام، فإن الإمام رحمه الله اعتمد عليه في الأموال، فتجلى نفاقه سافرًا، ففي هذه الآونة أعلن الخضوع للإمام والانقياد للأوامر، فجاء الإمام برجاله المخلصين على طريق خدش؛ حيث كانت نخل تحت سلطانه ونزل وادي بني رواحه، ولعل أحمد بن سليمان كان يحاول المال الذي غرقه الإمام محمد بن إسماعيل الحاضري، ومانع بن سنان يحاول أيضًا أموالاً، فأقام الإمام بهذه الأيام في هذه الرقعة آملاً من الداعين الصفا والوفا، فدار بنهم مدار النظر، وعلا صوت الحق على الباطل، فأسلمت له إزكي قيادها، والشيخ الشقصي هو زعيم في هذه الدولة الفتية الجديدة، التي تحمل مشعل النور؛ لتضيء الظلام الدامس المتراكم، ثم إن الاتجاه إلى نزوى من هذه الطريق التي مهدها الله ﷻ لعبده

الصالح، وعصبة الميامين.

فدخل الإمام نزوى على حال هدوء واطمئنان، كما دخل إزكي كذلك، فكانت هذه الخرجة مباركة يحيط بها التوفيق، فنزل الإمام بالعقر إذ هي مركز نزوى من العهد القديم؛ ولكن تحرك بنو أمبوسعيد من أهل العقر، وكانوا إذ ذاك قوم غلبت عليهم الأهواء ودخلتهم حمية جاهلية، وباينوا الإمام بالسوء السافر، وتظاهروا بالحمية الجاهلية، ولكل قوم مقاصد، فشايعهم من سوقة نزوى قوم آخرون، وضعوا مخططهم لقتال الإمام عند خروجه لصلاة الجمعة؛ ذلك لأن الإمام يخرج للصلاة على حالة هادئة غير متهيئ لحرب هكذا في أنفسهم، ولما صح مع الإمام أمرهم، وتحقق صحة القصد، أمر بإخراجهم من البلاد وطردهم من أماكن الإمام، فقد صاروا محاربين وأمرهم إلى الإمام ما يراه فيهم، فأخرجوا من نزوى صاغرين، وذهبوا عن الأرض لاجئين، فكان فريق منهم عند مانع بن سنان وهم الجمهور فآواهم وبذلك انكشفت خيانته وأسفر عما أضمر، وكان أعطى الإمام العهود والمواثيق على الطاعة؛ ولكنها مواثيق نفاق وعهود ظلال، والتجأت فرقة منهم إلى سيف بن محمد الهنائي، وكانت بهلاء إذ ذاك بيد المذكور، وحركته على حرب الإمام فما شعر الإمام إلا والهنائي يعلن الحرب على الإمام في نزوى، فقابله الإمام بالمثل، وأمر في أثناء الحرب ببناء الحصن الذي أسسه الإمام الصلت بن مالك، فأتم الإمام بنيانه، واستقر قرار الإمام بنزوى، ولم يفلح الهنائي في سعيه، ورجع إلى بهلاء خائفًا يترقب صولة الإمام، فتركه الإمام في الحال على ما هو عليه لعله يتراجع أو يرجع إلى الحق، فإن أنشودة المسلمين هي الرجوع للحق، وفي هذه الآونة جاء أهل منح يطالبون من الإمام القيام بالعدل في بلادهم، فخرج لهم بجيش أخضع به منح وتوابعها، وقضى على الفساد الذي بها، وقد ظاهره أهلها وأمدوه بالمال والرجال، وظهر علمهم بين أعلام المسلمين.

وبعدما أتم أمر منح عاد إلى نزوى، ثم جاء أهل سمد الشأن يدعونه إلى ملكه وكان المالك لها علي بن قطن الهلالي، كما قدمنا بيانه فجهز الإمام لها جيشًا ولى قيادته إلى ذلك العلم مسعود بن رمضان النبهاني، فأخضعها راغمة وتخلى الهلالي منها وتولى القائد أمرها، ثم جاءت رجال الشرقية وعاصمتها إذ ذاك (إبراء)، وكان المالك لها كما ذكرنا سابقًا محمد بن جيفر بن جبر، فلبى الإمام طلب القوم، فجيش لها جيشًا ضخمًا فاجتاحها تياره، وبفتحها انتهى أمر الشرقية، ولم يبق فيها منافس إلى جعلان ما خلا صور بالساحل الشرقي ففيها البرتغال، كذلك في قريات ومسقط وصُحار، فإن البرتغال تولوا الأبواب من عُمَان.

ولاشك أن الدخول والخروج من الأبواب وأما الاقتحام من الخلف أمر صعب لا يصار إليه إلا بعد ما يتعذر أمر الأبواب، والمنغشمون يتهورون في الأمور إلا إذا توفرت القوى، وبعد هذه الآونة سحب الإمام جيشه لمحاربة الهنائي ببهلاء، حتى إذا قاع المرخ من حدود بهلاء، رأى في الجيش بعض الفتور ولعل هناك شيئًا من الدسائس متى تعتري الجيش في بعض الأحيان، فإن النوايا تعتريها في بعض الأحيان أحوال تخالف سياسة الوقت، فرجع الإمام على غير حرب، واستقر بنزوى وطن الإمامة بعُمَان، وبعد مدة اجتمع له جيش ضخم من عُمَان، فتوجه به لبلاد الظاهرة وترك الهنائي ببهلاه حتى يحين وقت حينه، فافتتح هذا الجيش وادي فدى وهو مفتاح تلك الثغور، فبنى حصن فدى، ورأى من أهل علاية ظنك عونًا ناشطًا، ومساعدة فعاله؛ ذلك لأن القائد لهم ذلك البطل الشيخ العالم خميس بن رويشد الذي قدمنا ذكره، ولا شك أن أهل الخير يدعون للخير ويعينون عليه، ولما فرغ الإمام من أعماله هنا انسحب بجيشه متفقدًا للبلاد حتى انتهى إلى سمد الشان، وأكثر الجيش في هذه المرة بنو ريام ثم عاد إلى الرستاق.

❋ ❋ ❋

النفاق يثير الشقاق ويدعو إلى الافتراق

كان الإمام ناصر بن مرشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يغلب عليه الحلم، ولذلك يعاهد النّاس ثم يخونون فيعرض عنهم استبقاء لهم وحقنًا لدمائهم، وقد علمت رجوعه عن أهل نزوى ورجوعه عن أهل بهلاء، وهكذا غالب أحوال العصر ما لم يرو بريق السيف، في الآونة هاجم محمد بن جيفر بلدة نخل واحتلها ماعدا قلعتها، فنهض إليه الإمام بمن معه شد عضده رجال المعاول، فلم يبقى لمحمد بن جيفر ما يتعلق به مما كان رامه، بل لم يبقوا بنخل إلا ليلة والليلة الثانية هربوا من البلاد، وعلى كل حال أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع النّاس فيمكث في الأرض فالحق هو الباقي والباطل هو الزائل.

* * *

الظاهرة تظهر عدائها

تحركت عصابات الفساد بالظاهرة، حين رأوا حلم الإمام الأرشد لا يعاجل الجناة بالعقاب، وذلك مما يجرأ أهل الباطل في هذه الأثناء، وعندما فرغ الإمام من نخل إذا بالغبى تتعرض لفساد عاجل عندما وصل الإمام الرستاق، وقر قراره بها، تواطأت رجال الظاهرة على حرب الإمام، واشتهر به آل هلال وهم رهط الجبور، ومعهم طغاة الظاهرة الذين لم يعرفوا إلا سفك الدماء والسلب والنهب والتمرد والعتو على أهل الحق، وكان مجتمعهم بحصن الغبي بين العراقي وعبري، فجاء ذلك البطل المقدام الشيخ خميس بن رويشد يستنهض الإمام، ويذكر الأحوال ويحركه على قطع مادة الفساد، فثار البطل المجاهد الزاهد العابد، وجمع الجموع وتولى قيادتها بنفسه حتى نزل بالصخبري، وجاءه أهل السر الذين لا يمالئون الباطل وجاءه رجال الضحاحكة يحملون إليه المال، ويسوقون إليه الرجال.

وهذه الأعمال هي التي تخلد لأصحابها الذكر الحسن الذي يشتاقه أهل

الإيمان، فزحف على الغبي وتلاقت الأبطال، وتزاحفت الرجال، ودارت رحى الحرب، وناد منادي الدين والإيمان، هلم يا حماة الأوطان، من أبطال عُمَان، فوقعت بين الفريقين مقتلة هلك فيها الكثير من المسلمين وغيرهم، وقتل فيها أخو الإمام وهو جاعد بن مرشد، وانكشفت الوقعة عن حال يسيء الطرفين، ولم تنته إذ ذاك فعاجل الإمام عبري التي هي عروق الشر، فقبض على ناصيتها ثم عاد إلى الغبي وحاصرها حصارًا قضى بإذعانها له، فخرج بغاتها وتولاها الإمام، وولى فيها خميس بن رويشد المذكور، ثم تولى حصن بات، وكان له أهمية إذ ذاك فولاه من ارتضاه من أهل الرستاق من يعلم ثقته وحزمه، وناصره بمحمد بن سيف الحوقاني وعهد إليهما بفتح ما بقى من حصون الظاهرة، إذ هما محل ثقته وأمانته، ويعلم حقيقتهما.

ورجع الإمام إلى وطن الإمامة نزوى، وفي هذه الأثناء وبعد العلم برجوع الإمام من حرب الغبي ومتعلقاتها، ثارت عليه ثارة البغي من آل هلال الذين ما زالوا إذ ذاك شرًا مشتعلاً لا يزال يظهر في بقاع من عُمَان ابتلاء من الله لأهل عُمَان، حتى يميز الله الخبيث من الطيب، والله يبتلي عباده اختبارًا لهم، ولا شك أنه العالم بأحوالهم؛ ولكن تلك سنته تعالى فتجمع آل هلال ومن معهم بضنك، وضربوا معسكرهم بالأفلاج، وظلوا غزاة على الظاهرة، حيث هم بادية على طائراتهم من النوق في ذلك العهد، فالتقاهم الولاة الذين قررهم الإمام حماة لتلك النواحي، ففضوا فضًا، وقضوا على جمعهم واستولوا على إبل قطن بن قطن زعيم القوم، وحاصروا حصنه وكان هو خارجاً منه فجاء إلى الإمام معتذراً متبرءاً متنصلاً مما وقع أنه لم يكن بعلمه ولا بأمره، فسلم الحصن للإمام على أن ترد له إبله، فردها الإمام عليه وهو القرصان المنافق والمفسد في الأرض، أحد قطاع طرقها وأكبر بغاتها، يعامله الإمام رَحِمَهُ اللهُ معاملة المؤلفة قلوبهم المرجو رجوعهم المحذور فسادهم.

الإمام يعهد إلى ولاته بفتح باقي حصون الظاهرة

بعد انتهاء قضية عبري والغبي، وما كان للإمام فيهما من النصر المؤزر رجع الإمام إلى نزوى وعهد إلى الولاة الذين تركهم على الغبي وعلى عبري، وبات بفتح ما بقي من حصون الظاهرة؛ لأنه خلف لديهم جيشًا ضخمًا من هيبته، وجحفلاً جرارًا من الرعب يقوم عنه مع ولاته بفتح ما بقي من الحصون، فإن هيبة الحق هي التي تدوخ جنود الباطل وتدعم زعامة المسلمين، فإن بني هلال وهم رهط الجبور خرجوا على الظاهرة آملين أن ينالوا مرادًا أبعد غيبة الإمام، فتجمعوا بضنك كما قدمنا والتقاهم الولاة بقلوب غير مرتاعة ففضوا جموعهم، وأخذوا إبل الطاغية قطن بن قطن، ولم خضع المذكور للإمام رد الإمام عليه إبله، وليته ما ردها عليه؛ لأنه شيطان، ولو قبلها الإمام لكان خيرًا له وللمسلمين؛ ولكن غلب على الإمام الحلم الذي عرف به.

ثم حاصر الولاة حصن مقنيات وكان بيد الجبور، فثار الجبور بجيش ضخم من طغاة الظاهرة الذين لا يفقهون دينًا ولا يهتدون سبيلاً، وبعد ما رأوا عجزهم انقلبوا إلى حصن بات نظرًا إلى أنه واسطة العقد في طريق المسلمين، وإذا قبضوه رأوا أنهم قبضوا طريق الثورة من ناحية الشرق، والتقاهم الولاة هناك، فدارت بينهم المعارك منذ صلاة الفجر إلى نصف النهار وكثر القتل وعظم الخطب ولم تزل الدماء سائلة والسيوف تعمل في الرجال من الجانبين، وكادوا أن يعجزوا عن دفن القتلى فكانوا يحفرون الحفر ويرمون القتلى فيها السبعة والثمانية.

وهكذا ولم يتسلط البغاة على حصن بات إلا أن شوكتهم بقيت ناشطة والقلوب؛ بسبب القتلى حرى دامية جريحة، وعند ذلك سار الإمام من نزوى، ووصل بهلاء وكان الهنائي السالف الذكر أحد البغاة العتاة، وأحد الذين ناصروا الجبور، فرأى الإمام قلع هذه الشجرة الفاسدة وعند ذلك ثارت الجبور؛ لمناصرة الهنائي ببهلاء؛ لأنه أحد أركانهم في حرب الإمام، وولاته وكان دخول الإمام

بهلاء ليلة عيد الحج، وكان الهنائي قد استعد لحرب الإمام لعلمه أن أفعاله تستدعي ثورة المسلمين عليه، وأن الإمام لابد له من زحفه عليه؛ ولكن البغي يصرع صاحبه، فحاصره الإمام وجيش البغاة، فاقتتلوا في البلاد وحواليها وحول حصنها، ودارت معارك دامية وقتل من جيش الجبور أحد قواده وهو قاسم بن مذكور الدهمشي، وقتل معه رجال كثيرون، ورجع الجبور منهزمين، وبقى الهنائي في حصنه ولم يزل محصورًا حتى رأى أن لابد له من الخروج فطلب الأمن من الإمام فأمنه هو ورجاله وماله وآلة حربه.

وتولى الإمام الحصن وولى عليه واليًا ورجع إلى نزوى، وكان الإمام ناصر ابتلاه بالبغاة من عُمَان، ومازال هو وإياهم في أزمات متتابعة وثورات حامية، كلما سكن حركة بلد قامت عليه أخرى، والمال قليل والحروب تتوالى ابتلاء من الله ﷻ؛ لتعلو منزلته مع الله، وكان من عباد المسلمين وزهادهم، لا يميل إلى الدنيا ولا يطمح إليها ولا ترتفع عيناه إلى رياشها كل همه إنصاف المظلوم وإغاثة الملهوف والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف، والنّاس غلب عليهم العتو ولا يبالون بأمر الدين، ولا يراعون إلا الرئاسة التي يرفعون بها خسيستهم، ويأكلون مما هب ودب ولا يسألون عن حرام ولا حلال؛ لأن العهد الفاسد طال عليهم عهدا طويلاً كما عرفت، ويرون الإمامة تمنعهم عن مطالبهم وتقهرهم عن مآربهم، ولذلك يتكالبون ويتعارفون بأن يناصر بعضهم بعضًا.

* * *

مانع بن سنان العميري ثعلب سمائل

كان مانع بن سنان واليًا على سمائل، ولما جاء الإمام ناصر بن مرشد إلى وادي بني رواحة انضم مانع إلى الإمام، وكان من أقرب النّاس إليه، وتظاهر للإمام بالطاعة والصداقة، فاقره الإمام على سمائل، بل ترك عنده من جيش المسلمين فرقة، والذي يفهم من حال مانع بن سنان أنه يريد الإشاعة بأنه مع الإمام على

حال اتحاد؛ ليتقوى بذلك في أعين أعدائه، أو أنه يريد المكر بالإمام؛ ليكون الإمام طوع رغبته، فإنه كان من جملة الداعين للإمام إلى ملك سمائل، وقبض وادي بني رواحة؛ لأنه المضيق الذين يفضي من داخلية عُمَان إليها، ومن سمائل إلى عُمَان الداخلية فإنه هو الحلقوم، كما أن وادي العق كذلك لشرقية عُمَان، واتفق مانع بن سنان مع الإمام على أن يسير معه إلى نزوى.

ولما طرد الإمام أهل عقر نزوى وهم أمبو سعيد حين رأى منهم ما يخل بالأمر، ورأى نفاقهم المعلن شقاقهم التجأ فريق منهم إلى مانع ابن سنان في سمائل، فآواهم بعد العهود والمواثيق التي واثق بها الإمام على الطاعة، فتوجه إلى الإمام لحرب المذكور، وعندما وصل الإمام سمائل لباه مانع بن سنان، وتصنع للإمام بالأكاذيب الخاطئة وصالحة الإمام على ألا يخرجه من حصنه، ويكون تابعًا للإمام مذعنًا للحق، فتركه على ما هو عليه وفي الآونة الأخيرة كاتب سيف بن محمد الهنائي الذي كان ببهلاء سرًا على الإمام، وجمعا الجموع ودخلا نزوى، واحتويا على العقر وجميع شؤونه، ولم يبق للإمام إلا حصنه وهو محصور فيه، وكادوا يحتلونه كليًا، هموا أن يقتلوه من أصله وهم جموع وافرة.

وعند ذلك قيض الله للإمام أنصارًا يؤيدونه فجاءه أهل إزكي ورهط من بهلاء وقوم من بني ريام ففرجوا أزمته وقاتلوا عنه حتى أيده الله بهم، ولما تم أمر نزوى وظهر أمر الإمام على عدوه، هم بهدم حصن مانع بن سنان في سمائل؛ لئلا يكون مأوى لبغيه، فخرج الجيش له حتى سمائل، ولما علم مانع بن سنان بالقصد هرب إلى فنجا راجيًا أن يرجع الجيش عن الحصن، حيث إن مانعًا غير موجود به، فقضى الجيش على حصن مانع، ولما تحقق مانع هدم الحصن راح إلى مسقط ملتمسًا له مناصرًا، ومنها إلى لوى عند محمد بن جيفر، ثم راح إلى جلفار وكل هذه الأماكن التي راح لها في يد البرتغال إذ ذاك، وكان يحاول النصرة منهم، ورأى الإمام أن قتل مانع بن سنان أمر لابد منه، فأمر الإمام مداد بن هلوان فعمل

مداد الحيلة لمانع، وتعارف مع والي لوى حافظ بن سيف، فكاتبه مداد وأطمعه في إدخاله حصن لوى، وأخذه من يد الوالي بالحيلة، فتواعد في ليلة معلومة.

وكان إذ ذاك في دبا عند الشحوح فجاء فرحًا مسرورًا طامعا في حصن لوى، ونزل صُحار؛ ليدبر هو ومداد الحيلة لحصن لوى، فعين له مداد الليلة الموعودة، وإذ ذاك فرق الوالي عسكره في البلاد كأنهم جواسيس يتجسسون أحوال البلد، وتعاهدوا أن يلتقوا في مكان خاص، ويكون مانع قد وصل ذلك المكان، فما شعر مانع إلا والرجال ومحيطة به من اليمين والشمال، فقبضوا عليه قهرًا وقتلوه صبرًا وأراح الله المسلمين منه، هذه قضية المذكور أوردناها مسلسلة حتى النهاية.

* * *

الإمام ناصر بن مرشد يجدد حصن سمائل

بعد خروج مانع بن سنان من سمائل فارًا من الإمام، وتولى الإمام الحصن أمر بتجديد بنائه فأنفق عليه آلافًا من النقود، وكان من جملة البناء الذي بناه الإمام المذكور القلعتان العاليتان المتقابلتان، واحدة في الجهة الشمالية المربعة، والثانية الجنوبية المستديرة، وبنى في السور أيضًا وكان الباب الرئيسي للحصن المذكور مقابل مسجد قرنة قائد الذي في بستان الحوض، وإنما بدله في موضعه الحالي أحمد بن عبدالله الرواحي في أيام تهارش أولاد سعيد بن سلطان، خصوصًا بولاية عبد العزيز بن سعيد، والمذكور أحمد بن عبدالله، وانتقل عنه إلى سمد الشأن، فرأى أحمد بن عبدالله أن عدوه سيأتيه من قبل السالفة باعتبارها غافرية.

فحول الباب المشار إليه إلى الجهة الجنوبية؛ ليقابل العلاية فتكون نصيرته، واستمر على ذلك وهذا الباقي منه هو بناء الإمام ناصر خصوصًا القلاع، وبقى على ذلك الحال، ومن حيث إن الإمام المذكور كان رَحِمَهُ اللهُ يزن الأمور بميزان عقله، وينظر إلى الداخل بميزان صحيح كان بناؤه متوسط الحال، لاسيما أن الإنفاق على البناء كما يتطلب الوقت يحتاج إلى مال واسع، مع أن الحروب التي ستنزف المال

لا تزال مستمرة؛ ولكن الله ﷻ حكيم يضع رسالته حيث هو أعلم بمحلها، وأخبر برجالها لقد ضرب المثل بأيام هذا الإمام زهدًا وطاعةً ورحمةً، وأصبحت عُمَان في عهده أشبه بالمدينة في عهد رسول الله ﷺ فيها فدرت الخيرات وعظمت البركات.

❊ ❊ ❊

حرب مقنيات

لقد أشرنا إلى حرب الإمام لمقنيات، وذلك أن الإمام لما رجع إلى نزوى بعد انتهاء قضية سمائل، جهز جيشًا لمقنيات، وتولى قيادته بنفسه، ولما وصلها حالاً نشبت الحرب بين الطرفين، وكان حصنها مانعًا وكان جديد عهد؛ لأنه وليد الدولة النبهانية كما عرفته مما تقدم.

وليست لدى ذلك العهد نسافات أو طائرات، فكان السلاح لمثل هذه الأحوال الحصار، حتى إذا فرغ ما عند المحصور طلب الصلح، للخروج، وهكذا أحوال ذلك العصر فحاصر الإمام هذا الحصن ثلاثة أشهر فنفد ما عند قابضيه، فاضطروا للخروج وتولاه الإمام، وولى فيه محمد بن علي بن محمد الحراصي كما يقول ابن رزيق في تاريخه والله أعلم.

البغاة يتجمعون لحرب الإمام

لا شك أن المصائب يجمعن المصابين، ويؤلفن بين المنكوبين في كل زمان ومكان، ولما كان في هذه الآونة للجبور زعامة وصولة غير هينة؛ لكثرة من يناصر البغي غالبًا، فبعد حرب مقنيات رأى أهل البغي المظاهرة لبعضهم بعض على حرب الإمام، ورأوا الخضوع للحق صعبًا عليهم، ومنذ العهد القديم أن بلايا عُمَان من ناحية الظاهرة غالبًا، وأن رجلاً يقال له سعيد بن مسعود الحيالي من قبيلة الخيالين من بعض فصائل عُمَان الجديد، وكان يتزعم فريقًا من البغاة، فكاتب الجبور وكاتبوه وبقوا يتراسلون ويتآمرون على حرب الإمام، واجتمع مجتمع القوم في قرية الصخيري، وهنا بدأ تناوشهم، فقتلوا رجلا من الضحاحكة

وقتلوا ناسًا من شراة الإمام، وقامت الحرب والقوم فيها يمرحون بطرًا وعنادًا للإمام رحمه الله، حيث هو يريد الحق وهم يريدون الباطل.

ولا شك أن جنود الباطل أكثر في كل أمة منذ خلق الله الخلق، ومنذ أرسل الرسل وأنزل الكتب، وما زالت الوقائع بين هؤلاء البغاة وأنصار الإمام ورعاياه ومن أطاعه، وما زال الصراع قائمًا على أشده، ووقعت بينهم ست وقائع هائلة كاد يتزعزع منها ركن الإسلام لولا أن الله بفضله ربط على قلوب المسلمين، وحبب إليها الصبر على البلاء، منها وقعة شديدة بموضع يقال له العجيفة أو العقيقة بالقاف ببدل الجيم، والثانية وقعة مثلها بموضع يقال له الغاية، والثالثة وقعة بموضع يسمى المطهرة، والرابعة وقعة شديدة بموضع يقال له الزيادة، وهي التي هلك فيها الكثير من النّاس، وفقدت فيها أشخاص من الرجال.

وكان قائد المسلمين في هذه الوقائع التي ذكرها التاريخ إجمالاً محمد بن سيف الحوقاني فيما أحسب، وهو البطل الذي صارع تلك الرجال الجائرة الغالب عليها البطر، فدوخها ولم يتزعزع عن مواقفه، ولله رجال تقربهم العين، وتسكن إليهم النفوس، وعند الابتلاء تبرز رجال الحق وتظهر على مسرح الأحداث، معلنة تأييد الحق غير متبرمة في شيء ما. مع أن المذكور فر عنه أكثر رجاله، حيث ملوا الحرب وضاق بها ذرعهم، وما بقي معه إلا القليل، وهو في أزمة شديدة يتذرع فيها الصبر، ويحتمل وطأة البغي صابرًا محتسبًا، وآخر أمره انحصر في حصن الغبي وقد أحدقت به الرجال فحاصرته حصارًا شديدًا حتى أغاثه الله بوالي مقنيات، وهو محمد بن علي بن محمد المعروف، جاء بجيش كثيف وأبطال انتخبهم، فدخل الغبي على حين غفلة من جيش العدو، فما شعروا إلا والجيش متغلغل في البلد تعمل سيوفه في الرقاب، فارتاع البغاة روعًا شديدًا، وتفرقوا فراراً في الأرض على وجوههم، منهم إلى بلدة ينقل، ومنهم إلى الصخبري، ومنهم إلى الفيافي والقفار، ونحل أمرهم من الغبي ونجا الوالي ومن معه من شرهم.

سرية لبلادسيت

كان سيف بن محمد الهنائي في بلادسيت من عتاة الرجال الذين يرون أنهم أولى بكل زعامة من شأنها السيطرة بعُمَان، فإنه لما خرج من بهلاء حدثته نفسه أن يبني حصنًا ببلادست يكون مأوى له ولمن معه من الرجال البغاة، ولما علم الإمام الراشد ناصر بن مرشد ذلك الحال منه، وقد عرفه فيما سبق من حاله جهز له جيشًا وجعل قائده العلامة عبدالله بن محمد بن غسان مؤلف خزانة الخيار في بيع الخيار.

ولما حل الجيش بدارسيت استشعر المذكور العجز وأيقن بالذل، ففضل الخضوع والهرب من البلاد، فتولى الشيخ القائد الأمر في البلد، وأمر بهدم الحصن المشار إليه فهدم، وبعد ذلك ضاقت الأرض بالمذكور فجاء إلى الإمام مظهرًا للتوبة يطلب العفو من الإمام والصفح عمَّا أحدث، فعفا عنه ومنع البناء لمثل هذا الحال أصلاً، وهدأت سورة المذكور واستكان لسلطان المسلمين.

* * *

الإمام يزحف بنفسه إلى ينقل

لما انتهى أمر الهنائي سيف بن محمد في بلادسيت، خرج الإمام رحمه الله بجيش ضخم إلى ينقل؛ لتأديب ناصر بن قطن صاحب ينقل فنزلها جيشه المرهوب، وأحاط بالبلاد وطبق عليها الحصار فضاق ذرع الهلالي ولم يسعه حصنه، فطلب التسيار من الإمام فسيره وولى على البلد واليًا إلى الرستاق عاصمة مكللا بالنصر والظفر.

* * *

سرية إلى شمال عُمَان

من حيث قلنا سابقًا إن داء عُمَان لا يزال يأتي من شمال عُمَان، وإن أرض الجو هي المصباح المطل على عُمَان الشرقية، ومنه يتراءى الغربيون شرق عُمَان وأن الموتورين ببغيهم لا يزالون متحيزين إلى ذلك الأفق، عند ذلك جهز الإمام سرية كبيرة تفوت الاصطلاح في السرايا، جعل قوادها أولئك الأبطال الذين جربوا الحرب وجربتهم، وهم عبدالله بن محمد بن غسان الذي هدم حصن سيف بن محمد في بلادسيت، وخميس بن روشيد الضنكى، وحافظ بن جمعة الهنوى، ومحمد بن على الرستاقى، ومحمد بن سيف الحوقاني، هولاء الخمسة هم أركان الجيش فخرج ذلك الجحفل الأرعن له زحزحة في الأرض، يقدمه الرعب، فجاء أولاً إلى الجو والمراد بها ناحية البريمي، وهى الرأس إذ ذاك الذي يجب أن يكسر أولاً أو يقطع، ولما نزلها علم الحق خضعت نعرتها وسنكت شرتها ولم ترفع رأسها خوف قطعة، فتولاها الشيخ محمد بن سيف الحوقاني العمود الصلب، وبعد ذلك انسحب الجيش إلى أرض الشميلية بالساحل على طريق وادي الجزى، فنزل لوى وكان بها جبابرة، فاختلفوا فيما بينهم ووقعت بينهم فتن قتل فيها محمد بن جيفر.

وكان ذلك سبب تغلل العداوة فيما بينهم، فنزل القائد الأكبر عبدالله بن محمد بالجامع منها، وأمر الجيش أن يحيط بالبلد وبالحصن، وكان إذ ذاك فيه سيف بن

جيفر وفر عنه إخوته وأعيان قومه، والتجأوا بالنصارى البرتغال وفي صُحار، وقاموا يمدون إخوانهم المحصورين بحصن لوى بالطعام وآلة الحرب، ويغزون بالليل لجيش المسلمين، فرأى القائد المذكور أن يجهز من الجيش سرية أمر عليها محمد بن علي، ووضع لهم برنامج سيرهم وهجوهم على عدوهم الذي بصُحار، سواء كان من العرب أو النصارى، فلم يشعر المذكورون إلا والجيش محيط بهم، وقبل الصباح بقليل كان الجيش بالموضع المسمى منقل مقرن، وهو مكان يقع جنوب الحصن، فدارت المعركة بين الطرفين واشتد أمرها وعلا لهبها وقتا قضى الله فيه ما شاء أن يقضي فانقطعت غزواتهم إرسال المدد لحصن لوى مع الحصار المستمر به.

وبعد مدة رأى صاحب الحصن أن لا محالة عن الخروج، فطلب من القائد الأمان؛ لينزل من الحصن، ثم خرج خفية ولعله خاف القتل، وكذلك من بعده، وتولى الشيخ القائد الحصن، وكان الحصار ستة أشهر تمامًا قضاها المسلمون في هذه الوقفة الحرجة، وكان ناصر بن ناصر بن قطن ورجال العمور قد ظاهروا المسلمين على حصار حصن لوى، ذلك للخلاف الذي وقع بين الجبور أنفسهم، كما أشرنا إليه آنفًا، ولذلك ولاه قائد المسلمين رجلاً من الجبور المناصرين للمسلمين، وجعل مع هذا الوالي الرجال الذين يثق بهم دينًا وإيمانًا وإخلاصًا للمسلمين؛ لأن الجبور لا يؤمن شرهم؛ ولكن تلك الولاية كمكافأة من القائد للناصرين، وترغيبًا لهم ثباتهم بجانب الإمام، ورجع القائد المظفر بفتح الجو، وفتح لوى وانه لأمر غير هين.

ولكن من ينصر الله ينصره الله ويؤيده على عدوه كما صرح بذلك ﷻ في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

❊ ❊ ❊

السرية الكبرى إلى مسقط

لما كانت مسقط إذ ذاك بالمكانة المرموقة، وهي المدينة المحاطة بالجبال الشاهقة والمحصنة بالقوات الكاملة، لعلم البرتغال بأن الدار لابد لأهلها منها، ولا بد من هجومهم عليها، ولا جامعة تجمع بين الطرفين، وإنما الاعتماد على القوة، وكان البرتغال قد اخذوا أهبتهم لما كان أهل عُمَان متهارشون في داخليتهم غير ناظرين إلى الساحل بنظر طويل، هنا جهز الإمام المجاهد لدين الله، المتجرد لقتال أعداء الله، بكل ما لديه من قوة جهز جيشًا أسند قيادته إلى العلامة المجاهد مسعود بن رمضان النبهاني من أهالي عقر نزوى، فخرج المذكور حتى أتى المطرح، ونزل بطوى الرولة، وضرب معسكره بها، فجاءته جنود الأعداء فالتقاهم بأبطال عُمَان الذين مارسوا الحروب وقابلوا الرجال.

قال ابن رزيق المؤرخ، بعد أن ذكر وصول الجيش: فدارت رحى الحرب بين المسلمين والمشركين فنصر الله جيش المسلمين أو قال جيش الإمام، قال: فهدموا من مسقط بروجًا باذخة، ومباني شامخة، وقتلوا كثيرًا من المشركين، قال: ثم إن النصارى طلبوا الصلح فصالحهم القائد المذكور، أي بعد ما راجع الإمام على فك ما بأيديهم من أموال العمور وأموال الشيعة التي قبضوا عليها في صُحار، قال: فأذعنوا بالطاعة فأمنهم مسعود على ذلك، وأخذ منهم العهود والمواثيق على الوفاء.

ورجع إلى الإمام، وكان من جملة الشروط التي وقع عليها الصلح أن يؤدي النصارى المذكورون الجزية رأس كل سنة، وألا يؤذوا مسلمًا إذا وفدوا على مسقط.

وكان هؤلاء النصارى البرتغاليون جبابرة عتاة طواغيت، لما تسلطوا أساءوا إلى النّاس تمامًا وغلب عليهم البطر، ورأوا أنهم قاهرون، وقد تغلغلت عدواتهم للمسلمين طبعًا، وكان النصارى المذكورون قبضوا على أموال العمور وأموال

الشيعة في صُحار حين ناصروا المسلمين، وصُحار إذ ذاك في أيديهم، وكان جنودهم نازلوا جيش المسلمين في مطرح عند وصوله بها، وانهزموا إلى مسقط بعد قتل وقع فيهم ولحقهم الجيش في قلب مسقط، ولم تمنع المسلمين الجبال المحيطة بمسقط، بل قبضوا البلاد وهدموا أبراجًا على جبال مسقط، وقلاعًا منيعة إلا أن الحصنين الكبيرين الجلالي والميراني المنيعين يصعب فتحهما إلا بعد حصار طويل وشدة عزيمة، فرأى القائد البطل الصلح في الحال أصلح إلى أن تراجع قوة المسلمين.

ورأى النصارى أيضًا الصلح لهم أنفع في الحال والنظر في المقبل من الطرفين المتعاديين، والبادى أظلم؛ لكون البلاد بلاد المسلمين النصارى تعدوا عليهم ، لا سيما بعد ما جرت الدماء ووقع القتل والنصارى هم المعتدون على ممالك المسلمين وفي بلادهم، وكانوا أجبروا الأهالي على التخلي من أملاكهم من رقعة مسقط وطردوهم منها وحصنوها بسور مانع، وضربوا عليه الأبواب الضخمة التي تقوم عليها سلطنتهم الظالمة، ومنعوا العرب من الدخول أصلاً.

وبعد ما تعاطوا كؤوس الحمام وعظم بينهم الالتحام، وبعد ما حمى الوطيس بينهم كما قال الإمام في تحفة الأعيان، حيث يقول: وقتل منهم خلق كثير لا يحصون عددًا «وتمنعوا بالكيتان وبعالى البنيان» وبقوا بمسقط على هذا الصلح المعلق بالشروط الثقيلة التي أشار إليها أمير البيان في تعليقه كما عرفته حتى أخرجهم منها الإمام سلطان بن سيف ابن عم الإمام ناصر كما سوف تراه في محله إن شاء الله.

* * *

السرية الثانية لفتح جلفار

لما رجع القائد النبهاني من مسقط منتصرًا ورأى الإمام رَحِمَهُ اللهُ أن سياسة القائد حسنة أو مستحسنة، ورأى من الواجب القيام على جلفار؛ لأنها باب عُمَان الغربي الشمالي، وبها كما قدمنا العجم ومعهم بعض النصارى مناصرون لهم، جمع الإمام الجيش وانتقى من الرجال الأبطال، وعقد لواء هذه السرية باسم علي بن أحمد وعضده ببني عمه من آل يعرب، فسار الجيش إلى جلفار وكان عليها ناصر الدين العجمي، فكانت سهمه الخالي من ملك عُمَان والعجم يراعون في جلفار معنى لم يهتد إليه غيرهم، فأحاط بها الجيش وقامت الحرب على ساقها وأطلقت الحصون نيرانها والنصارى تقذف بمدافعها من البحر فما كان من المسلمين العُمَانيين إلا الاقتحام لأسوار الحصن وأبراجه، ولم تكن إلا فترة قصيرة وإذا ببرج الحصن في يد المسلمين أخذوه ليلاً وقتلوا من فيه، وتسابقوا إلى الحصن فاحتلوه بأسرع من رصاصهم، ودوخوا البلاد قهرًا ومزقوا العدو قسرًا، وكان على ساحل البحر حصن للبرتغال فزحف عليه فريق من الجيش بقيادة الدهامش، ورجل أخر يقال له خميس بن محزم فهجموا على الحصن نهارًا واختطفوه بأسرع ما يمكن واحتووا على ما فيه من العتاد والسلاح.

وبني المسلمون حصنًا جديدًا خوف المهاجمة الباغتة فقام بأسرع وقت، ونزل القائد بقواته وبذلك سقط في يد العدو، وطلب النصارى الصلح فصالحهم القائد وأخرجهم من البلد خزايًا وندامى يعضون على أصابعهم راغمين، وبعد ما استقر الأمن في المنطقة ولى القائد على الحصون واليًا يعرف من أين تؤكل الكتف، ورجع إلى نزوى فابتهج الإمام بهذا الفتح والعمل الطيب الثمين.

❋ ❋ ❋

الإمام والمسلمون يعالجون أمر صُحار

ولما يسر الله ﷻ بفتح جلفار، دار النظر حول صُحار، وقد رأى المسلمون أنهم سدوا ثغر جلفار، وأقفوا مجارى المياه إلى صُحار، أخذوا في أمرها وهى كما لا يخفى أمرها جوهرة العقد وكرسي الطرف الشمالي في ذلك العهد، ودارت أنظار المسلمين المبتلين بأمر هذه الديار، وبعد ذلك اتفقوا أن يأمر الإمام والى لوى أن يتقدم إلى صُحار، ويبنى بها حصنًا يكون ملجأً للمسلمين، ومعقلاً ينزلونه عند مصاولة الأعداء، وكان الوالي بلوى إذ ذاك حافظ بن سيف الذي أتفق هو ومداد بن هلوان سابقًا على قبض مانع بن سنان العميري، كما قدمنا قضيته.

وكان مع حافظ المذكور رجال العمور شراة متجردين؛ لمناصرة الحق، وتأييد العدل، وكان البرتغال بصُحار ضربوا أطنابهم، وخيموا في رحاب صُحار، عاضين عليها بالنواجذ، ولما تقرر عزم الوالي على تنفيذ أمر الإمام، وهو يعلم أن الشر غير بعيد عنه، أرسل إلى من بقربه من القرى من بني خالد وبني لام والعمور، وأجتمع معه كثير وعسكر غير هين، وكان بصُحار رجال يحبون الحق ويتعارفون مع الوالي المذكور في ملك.

وعلى كل حال إن المسلم لا يود أن يسيطر عليه عدو أجنبي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وإذ ذاك. خرج الوالي المؤيد بجيشه إلى صُحار لصدده وبات بعمق، وعميت الأخبار على أهل صُحار، حتى صبحها ضحوة النهار في آخر يوم من محرم الحرام عام ثلاثة وأربعين وألف سنة للهجرة، فنزل بموضع يقال له البدعة، وأظهر عزيمة الحرب للمشركين اللذين هم البرتغال، وزحف بجيشه الباسل حتى وصل إلى حصن ابن الأحمر، وهو من عتاة العجم وطغاة الفرس، وحالاً دارت رحى الحرب عند وصوله، واشتدت الأزمة، وكانت النصارى ترمي بنيران مدافعها من حصن صُحار، فقوى الله المسلمين وأيدهم بنصره فانتقل الوالي بجيشه متقدمًا إلى العدو، ووقع القتال.

وجاءت طلقة مدفع من مدافع البرتغال، فأصابت راشد بن عباد من أعيان رجال الوالي، وفي مجلسه، ومات شهيدًا رَحِمَهُ اللهُ، وهنالك تمركز الوالي وهم ببناء الحصن الذي أمره به الإمام، واجتهد في بناءه بأسرع ما يمكن والرجال إذا عزمت على شيء بنشاط وإخلاص، لا بد أن يفعل، فتم بناء هذا الحصن ونزله الوالي وعند ذلك توالت المناوشات بين الطرفين ليلاً ونهارًا، وقامت حرب متواصلة بقوى متفاعلة.

وكان من السياسة أن تقوم قوة من الإمام تقضي بمشاغلة البرتغال في مسقط حتى لا تكون لهم عزائم في الساحل الشمالي تؤيد حرب صُحار، فعقد الإمام لواءه لسرية خرج بها العلامة خميس بن سعيد الشقصي، حتى نزل قرية بوشر، ولما علم النصارى ذلك أرسلوا إليه يطلبون الصلح، فأجابهم وتقرر وصوله مسقط، وعند ذلك أرسل عيونه إليها خوف الغدر من أهل الكفر، ولما وصل مطرح واجهه أكابر البرتغال، وقرروا الصلح على شروط معروفة لهم وعليهم تكون صالحة للطرفين من نواح، هي أصلح للمسلمين.

كان منها فك الحصار عن النصارى، وفك المقابض المحيطة بهم، والترخيص للناس في السفر إليهم وكف الأيدي عن القتال على شرط أداء الجزية المفروضة عليهم وعدم تعرضهم للمسلمين بأي أذى، ورجع لهم المقابض التي أخذها منهم، ولعل القصد من هذا تبريد حركتهم وتوهين قوتهم ما دامت قوة غير كافية؛ لقلع شجرتهم، ولكل وقت سياسة، وبهذا يتأخر العدو عن الاستعداد، مع أن القوم كانوا أقوياء عدة وعددًا، ولهم دولة بالغة أوج عزها إذ ذاك، وخاف المسلمون من هياج الحرب أن يتقوى العدو في البلاد زيادة، وعلى شرط ألا يتعرضوا لحرب المسلمين في أي مكان من عُمَان، فقر البرتغال في مسقط وفي صُحار على ما هم عليه والمسلمون حولهم يراقبون الحركات والسكنات.

❊ ❊ ❊

فتح صور

لا يخفى أن صور من المدن المهمة في عُمَان لاسيما وهي على الساحل الشرقي، رأى الإمام أن صُحار بقيت على جناح الصراع، وقد سد الإمام عليها الثغر الغربي بحافظ بن سيف، وصالح البرتغال في مسقط، ولم يدخل صور في صلح مسقط، وإذ ذاك أرسل إليها الإمام جيشًا بقيادة ابن عمه سلطان بن سيف بن مالك، الذي كان في علم الله ﷻ أن يكون الخلف الصالح لناصر بن مرشد، والمصلح لعُمَان كما سوف نرى ذلك في محله إن شاء الله.

خرج هذا الهمام البطل يقود جيشًا عُمَانيًا؛ لتطهير البلاد من معرة الأجنبي، ولما وصل صور أحاط بالحصن، ولم يطل عهد حصاره فسلم الأمر وقبضه الجيش وأذعن البرتغال له إذعانًا كليًا وخضعوا له في صور تمامًا والحمد لله.

* * *

الزحف على قريات

إن قريات من الثغور البحرية المؤدية إلى الداخلية، وكم دخل العدو منها إلى عُمَان، فأرسل لها الإمام فرقة من الجيش الغازي لصور، وكان البرتغال قد قووا حامية قريات؛ لأجل مسقط، فنزل بها الجيش وشرع حالاً في بناء حصن؛ ليكون ملجأً لحصار البلاد، ورأي القابضون لها عدم إمكان استقرارهم، فاسلموا الأمر ولم تنفعهم حامية مسقط؛ لأنها خائفة على نفسها، وواقعة تحت نير الشروط التي صالحهم عليها القائد المحنك العلامة مسعود بن رمضان النبهاني، وباحتلال قريات لم يبق إلا صُحار ومسقط، بقي فيهما النصارى على ذلك الصلح الذي ذكرناه، واحتوى الإمام على جميع عُمَان ما عدا هاتين المدينتين المذكورتين إلى أن يوفقه الله للاستعداد لزوال هذه الآفة الكبرى.

فإن هؤلاء النصارى قد تغلغلوا فيهما فقبضوا عليهما بأياد من حديد لا تنفك بالسهل، وحال الإمام وأهل عُمَان كل يوم في صراع وعراك؛ لتعاظم البغي

في الرؤساء، وأهم هؤلاء البغاة في هذه الآونة هذا القرصان الطاغي ناصر بن قطن الهلالي الذي لا يزال يغزو عُمَان في كل سنة، يأتي من ناحية البريمي على طائرته، ويلتفت معه الغوغاء من كل صوب من هذه الناحية، ويسحب من عُمَان المواشي، وينهب من لقي ولا يبالى ويفعل في النّاس ما لا يرضاه الله، ثم يهرب إلى الأحساء؛ ولذلك بعد خروجه من حصن ينقل، فرأى الإمام أن يجعل الوالي محمد بن سيف عينًا لهذا القرصان الظالم.

* * *

حرب الطاغية ناصر بن قطن

لم يزل هذا الطاغية شرارة متقدمة وسهمًا حاميًا يوقد علية النار بغاة أهل عُمَان، وأيده أهل الضلال والعدوان، الذين يسوءهم الحق وهم موجودون في كل زمان، وقد ابتلى الله بهم أهل عُمَان، ولا ريب فإن الله ابتلى الأنبياء بشياطين الإنس والجن، وللمسلمين من ذلك حكمة بديعة يجهلها كثير من النّاس، وكان هذا القرصان العاتي يتحصن ببعد المسافة، ولا يعرف متى يكون وجوده بعُمَان فإذا خرج التف علية البغاة المفسدون، وعاثوا في الأرض ينهبون ويقتلون، وكل ما يلاقونه لا يتحرجون من شيء ما ولا يراعون شيئًا لصديق أو عدو، بل كل ما عندهم النهب والسلب والقتل في عُمَان.

ولم يزل يغزو بادية عُمَان واهتم الإمام بأمره وأمر محمد بن سيف الوالي للطرف الشمالي أن يلقى باله لهذا الطاغي، ويجعل له العيون الواعية، فإذا علم به التقاه رجال المسلمين فقام الوالي المذكور، وجمع عسكرًا جمًا ويبقى مراقبًا لهذا القرصان من أي جهة يخرج، ولما بلغه خروجه تلقاه الوالي فهرب منه ودخل الظفرة واحتصن بحصنها وتعصب له بنو يأس، فعاد منهم في منعة، وإذ ذاك وجه رسله إلى الوالي يطلب الصلح، وكان الوالي قل علية الزاد، وبعدت عليه الدار، واختل عزمه لهذا وتأثر به وخاف الفشل فصالحه على رد ما نهبوا، وغرم

ما أتلفوه مما كسبوا، ونبهوا من عُمَان واقتنع الوالي بذلك في هذا الحال، ورجع الوالي إلى مقره بمن معه من القوم، وبعد رجوع الوالي المذكور هم ناصر بن قطن، بالهجوم على حصن الجو، أي البريمي، فجمع البدو من الظفرة وغيرهم، وكان والي الجواذ ذاك أحمد بن خلف، وإذا بأهل الجو كلهم على الوالي مع ناصر بن قطن، ولعلهم تأثروا من وطأة العدل التي عليها الولاة، فإن الوالي والرعية غالبًا يكونون ضدين، فما شعر الوالي إلا والجنود محيطة به من كل جانب،وحوصر الوالي في حصنه.

ولما علم الولاة من الظاهرة والباطنة، جاءوه مناصرين، ولما بلغ ناصر بن قطن ذلك خرج من البريمي ومن معه منهزمين، ثم لحق بهم القائد الأكبر عبدالله بن محمد من نزوى، فأمر بهدم حصون الجو، فهدمت كلها إلا حصن الإمام كسرا لقوة أهل البغي وبذلك تفرق الأعداء، وكل اتخذ له وجهه يتحين فيها الفرص، فأما عمير بن محمد فالتجأ بالنصارى في صُحار، وأما بدو الحسا فتعلقوا بطريق جلفار، ويرون لهم هناك منعة وحمى، وضربوا معسكرهم على عقبة جلفار متحصين بها، وظلوا يقطعون الطرق من هناك، يغزون البلدان المجاورة حتى شاع خبرهم، ونمى إلى الولاة أمرهم، فقاموا عليهم ووقع قتل في الفريقين، وانهزم البغاة، وشردوا من هناك، وقبض الولاة على إبل ناصر بن قطن وتولوها؛ ليستعينوا بها على حربه فكانت في يد محمد بن سيف.

وعلى أثر هذه الحادثة هجم ناصر بن قطن ومن معه من البغاة على الباطنة من ناحية الشميلية، فأخذوا إبل بني خالد، وبني لام، وكل ما صادفوه انتهبوه وسلبوا من وجدوا نساء ورجال، ورحلوا إلى الأحساء مقرهم، وبعد عهد جاء ناصر بن قطن غازيًا، وكانت الباطنة أسهل شيء يراه البدوي، فإنها لا يشق عليها الكر والفر عندما يرون الغلبة عليهم، فإن البدوي يفر على طائرته التي هي ناقته وقد أعدها لذلك العمل، وهنا جهز الإمام جيشًا جعل قائدة علي بن أحمد، وعضده

بمحمد بن الصلت الريامي، وعلي بن محمد العبري، وأحمد بن بلحسن البوشري.

وهؤلاء رجال أبطال تجردوا للشهادة في دين الله، فأتى الجيش لوى وهنا هاجمهم ناصر بن قطن، فوقع بينهم القتال، ففر ناصر بن قطن مشرفا فأتى قرية مجيش من أعمال صُحار، فأتبعه الوالي بمن معه، ففر إلى الناحية الشمالية لعلمه أنه لا ناصر له هنا إن غلب، فتبعه الوالي بمن معه وكان أول من لحقه أحمد بن بلحسن البوشرى، ومعه مراد وراشد بن حسام، وبعض الشراة، وكان ذلك في موضع يقال له الخروس، فتلقاهم الطاغية بمن معه من رجاله ولعلهم استضعفوهم لقتلهم، ورأوا أن الجيش خلفهم وهؤلاء مقدمته فاقتتلوا هم وإياهم قبل أن يصل الجيش، فقضوا عليهم عن آخرهم، ولما وصل لجيش رأوا إخوانهم صرعى، ولم يروا أحدًا هناك من قوم ناصر ولا يعلمون أين توجهوا.

ورجع الجيش أدراجه بعد قتل هؤلاء، وعلى أثر ذلك قام محمد بن عثمان الخالدي المعروف بابن حميد، وكان من رجال ناصر بن قطن، فغزا بلاد السر، وكان فيها محمد بن سيف الحوقاني واليًا، وفيها سعيد بن خلفان أحد أنصار الإمام، فأناخ ابن حميد بقرب الغبى، فعلم سعيد بن خلفان وطلب من ابن حميد المواجهة للمفاهمة، فأجابه إلى ذلك من غير أن يأخذ لنفسه أمانًا، فتوجهوا في مسجد للشريعة من الغبى، فجرى بينهما كلام في التجرؤ على أموال النّاس، وقتلهم ونهبهم، ونهب أنعامهم ومواشيهم، فقال سعيد بن خلفان لابن حميد: أما ترد ما أخذت ونهبت من أموال العباد فأعرض ابن حميد عن كلام سعيد بن خلفان بوجهه، وتولى وحاش وكلا أي لا يرد ذلك. وأظهر عتوًا وعنادًا، ولعله كان مستخفًا بسعيد فأمر سعيد بأسره، فاسر وأمر به، فأدخل حصن الغبى، ثم أمر بقيده فقيد، ثم ركبوا به إلى الرستاق فأرسل سعيد إلى الإمام يخبره فأجابه أن يجعله في قلعة الرستاق، فحبس بها خمسة أشهر وقيل سبعة أشهر فمات في حبسه.

* * *

سرية يرأسها سعيد بن خلفان لقبض إبل ناصر بن قطن

كان ناصر بن قطن أعد أبلاً بخيبات؛ لغزوه ناحية عُمَان ويلحق عليها عندما المضيق يحيط به، وفي هذه الآونة أرسل الإمام سعيد بن خلفان؛ لقبض هذه الإبل التي جعلها ناصر قوته التي يصول عليها، وعضده جفير بن محمد بن جفير أو جيفر وأمره أن يسير إلى الإبل المذكور فيأخذها؛ لأنها قوة القرصان الباغي، فسار القائد المذكور، ولما قارب الظفرة التقاه بنو ياس واعترضوه في مراده، وعارضوه فيما قصد له قرب الشعيبة من ناحية الطفرة، فدارت المعركة بينهم وإياد واشتد الأمر بينهم بغيًا منهم وعدوان على رجال للحق.

وفي هذه الأثناء قتل زعيم بني يأس صقر بن عيسى، فثار أخوه محمد بن عيسى غضبًا لقتل أخيه وقال: لا خير في العيش بعده، ورأى الموت خيرًا من الحياة، فحمل على جيش المسلمين، فقاتل وقتل واندقت عصا بني يأس، ورأوا أنهم أصيبوا بقتل الأميرين، فطلبوا العفو من القائد فعفا عنهم، ورجع قبل الوصول إلى الهدف؛ ليفاهم الإمام، ورى الإمام ناصر بن قطن لا يمكن السكوت عنه فجمع جيشًا آخر من الباطنة، ومن داخلية عُمَان، ولعه من أكثرية الباطنة؛ لأنهم لا يزالون يصابون من بغاة الشمال ومن معهم، وجعل قيادته إلى سعيد بن خلفان المذكور، وعضده بعمير بن محمد بن جفير الجبري، وأمرهم أن يسيروا إلى ما يقال له، دعفس لا تزال إبل ناصر بن قطن عليه، فلم وصلوا وجدوا الإبل فأخذوها ورجعوا منتصرين، لم ينهلهم سوء، وسلموا الابل إلى عمير بن محمد بن جفير الجبري.

وكان لعمير المذكور راع للإبل ويعرف عند أهل عُمَان بطناف الإبل، أما الراعي فيحصونه برًا على الغنم والبقر عرفًا عامًا فجاء من جاء إلى الطناف وقال له: سر بهذه الإبل إلى ناصر بن قطن، وسلمها إليه فتكون لك معه يد، ولعلة خوفه بالقتل من ناصر بن قطن وهو الظاهر.

وهذه الحقيقة غلطة من قائد الجيش، حيث ترك الإبل بيد عمير بن محمد بن جفير الجبري في تلك الزاوية النائية، وناصر بن قطن وعمير بن عنصر واحد، وقد علمت الأحوال السابقة؛ ولكن البشر يخطئ ويصيب، والأمور تجري بمشيئة الله ﷻ.

* * *

سرية تقع في مثل ما وقعت فيه الأولى بموضع الخروس

لما رأى الإمام أن هذا القرصان لا يقف لعهد وميثاق، ولا يرتد عن عمله، وكان عاضده علي بن محمد المذكور آنفًا ظلا يكسبان وينبهان في أطراف عُمَان الغربية هم ومن معهم، ولا يزالون يقطعون الطرق، فتخوف النّاس منهم وفرت البادية من منازلها إلى البلدان والقرى، وإن رأوها عليهم ضيقة؛ ولكن ألجأتهم الضرورة إلى ذلك الحال، وعند ذلك جهز الإمام لهم جيشًا أخرج فيه بني عمه سيف بن مالك، وسيف بن أبي العرب وحزامًا وأخرج معهم رؤوس القبائل؛ لأن قوة الإمامة مستمدة من رجال عُمَان عادة.

فخرج هذا الجيش يطلب ناصر بن قطن ومن معه من أهل البغي بشمال عُمَان ووصل الجيش إلى هدفه، وكان من قضاء الله وقدره أن شرارة الجيش وأهل البسالة فيه أول من وصل إلى العدو، فتلقاهم الطاغية في رجاله، فدارت رحى الحرب بينهم وأحاطوا بهم من كل صوب حتى قضوا عليهم عن آخرهم، وهرب الباغي عجلاً إلى الأحساء لا يرى له ملجأ بعد هذه الكارثة إلا الفرار إلى الديار النائية، فإن غالب جيش المسلمين مشاة، والمشي شيء شاق لاسيما في حال البعد، أما ناصر إذ هم بغزو عُمَان، أهب الإبل البلغة للصدد، وخرج يركبه لا يريد وجهة خاصة ولا بلدًا خاصًا، وهكذا إذ لا ثأر له عند أحد أو عند قبيلة؛ لكنه فتاك نهاب لا يبالي بما يأتي وما يذر، وهذه القضية هي أخت وقعة الخروص بشمال عُمَان، والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء، وقد أثر قتل هؤلاء الرجال على المسلمين، وبعد هذه الحادثة لم يعد ذكر لناصر المذكور، ولعله مات أو سلط الله عليه أمرًا أعجزه.

وما زالت سرايا الإمام مشرقة ومغربة، لم يبرح طيلة أيامه في حرب وما زال معه أهل عُمَان طوع أمره، وتحت سلطانه، وانتشر عدله بين الخاص والعام، واستولى على عُمَان كلها ساحلها وداخلها، إلا مسقط بقيت فيها النصارى البرتغال، ويعرفون أيضًا بالبرتكس في عرف أهل عُمَان، وهم العتاة إذ ذاك، والقاهر ونعلى الممالك الشرقية، رغم أهلها الذين انحرفوا عن واجب الحق الذي شرعه الله لعباده، وكلفهم به وأمرهم أن يتعاملوا به فيما بينهم، فتركوه وعملوا بالأهواء، فسلط الله عليهم عدوًا من غيرهم، فتولى الأمر عليهم وسيطر على ممالكهم، وأصبحوا يرزحون تحت ثقل وطأة هذا العدو الداهم، وقد عاهدوا الإمام ونكثوا، ثم عاهدهم مرة أخرى ونكثوا اعتمادًا على قوتهم الكاملة في مسقط، وقد علموا أنهم إذا خرجوا من مسقط خرجوا من الخليج العربي كله؛ ولكن ولم يزل الإمام محيطًا بحركاتهم وسكناتهم، وقطع عنهم العرب المعاملة التجارية، وانقطع الساعي إلى مسقط من عُمَان وغيرهم، وبذلك سرى الضعيف وهذا هو الحصار بعينه.

قال الإمام في تحفته: ثم نصب لهم الحرب حتى وهنوا وضعفوا، ووهى سلطانهم، وتفرق أعوانهم، وكان الموت والقتل يأتي على أكثرهم.

ولا شك أن للأمور إقبالاً وإدبارًا وقد كان إقبالهم لما كان العُمَانيون يتهارشون فيما بينهم كما قدمنا، وهنا جاء الإدبار حين اجتمع العُمَانيون، والتقوا تحت واحدة، ولا ريب فإن الاجتماع له في الكون انفعال صحيح، وقد جربتهم الأمم.

ويقول الله في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، والله هو الولي على كل شيء قدير.

❋ ❋ ❋

وفاة الإمام ناصر بن مرشد

لما كان لكل نفس أجل محدود في هذا الوجود لا يزيد ولا ينقص، أمر محتوم على الكل لغاية لها ما بعدها، وبذلك قضى الله على عبده الصالح الذي شاع ذكره في الجزيرة العربية، وانتشر عدله في ربوعها، وازدهرت به البلاد، وسعد به العباد، وأذل الله به أهل العناد، فكان ذكره سلوة كل محزون، وبهجة كل مصدور، ومفتخر كل مسلم، ففي يوم الجمعة لعشر ليال خلون من ربيع الآخر سنة ١٠٥٠هـ خمسين وألف سنة توفي رضي الله عنه والمسلمون عنه راضون، ودفن بنزوى عند مساجد العباد.

وكان عمره رحمه الله ستًا وأربعين سنة، ولم يعقب إلا بنية واحدة، فعد ذلك الحال من كراماته إذا صار له ما صار للنبي ﷺ، إذ كان عقب بنتًا واحدة وهي الزهراء فاطمة رضي الله عنها.

وكانت للإمام المذكور رحمه الله كرامات عديدة طار لها ذكر في الأفق العُماني، وتداول حديثها الأكثرون، ودونها الكثيرون، وعقدت لها الأبواب، وطال بها الكلام عن الأئمة الأعلام، فنرى ذلك كافيًا عن إعادتها هنا، فإنا معنيون بالحوادث التاريخية، ولأئمة المسلمين بعُمَان كرامات خالدة خلود الجبال، وما أعلاها وما أكرمها في نظر أهل الحق، ربما سخر منها بعض المخالفين الذين لم يعرف لهم من نوعها شيء، ولم يذكر لهم عنها شيء فيما علمنا، ولم يحدثنا تاريخهم عن شيء منها أبدًا، فلذلك سخروا من كرامات أئمة الإباضية، والذين رأوا الأنوار بأعينهم، وأعياهم أمرها قالوا: لعل هناك شيئًا من الجن فرأوها تجوز للجن، ولم تجر للإباضية، مع علمهم بأن الأنوار تجوز للملائكة؛ لأنهم أنوار أي أجسام نورانية، بخلاف الجن، فإن الجن لم يعرف الأنوار لهم، وإن كان فيهم صلحاء.

ثم ماذا يفعلون بما بقي من كرامات الإمام الوارث بن كعب، التي مرت عليها

مئات السنين، وهي باقية حتى الآن كما هي، إن الذين لم يهتدوا بضياء الإيمان لا غرو إن أنكروا كرامات الإباضية حسدًا من عند أنفسهم، والحمد لله. رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا ﷺ وبالقرآن إمامًا.

❊ ❊ ❊

ثناء العلماء على الإمام الأرشد بن مرشد

لقد أثنا العلماء على الإمام ناصر رَحِمَهُ اللَّهُ ثناءً عظيمًا، إذ كاد أن يكون نبيًا أثنى عليه الكثيرون ثناء يسجل عند الله ذكرًا عاطرًا، فإن الخلق شهود الحق، ومن أثنى عليه أهل الحق كان أهلاً الثناء، والخلق شهود لكل محق، فمن أثنوا عليه خيرًا كان أهلاً للخير، ومن أثنوا عليه شرًا كان أهلاً للشر، وقد ذكر الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ طرفًا من ذلك الثناء الشاهد على تلك النفس الطاهرة، وذكر الشعراء عنه مالا مزيد عليه من الفضائل الباهرة، والمحاسن النادرة التي لم تذكر إلا للنبيين والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

عهود الإمام ناصر بن مرشد لولاته وعماله

ذكر العلماء عهود الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ دليلاً على طهارة نفسه الزكية ودليلاً على سيرته المرضية، فإنها تعبر عمًا في طوية ذلك السيد الزاكى، والإمام التقى الزاهد المجاهد، الذي لم يزل طيلة أيامه في قتال ونزال وصراع لأهل الباطل والضلال، وما زال رَحِمَهُ اللَّهُ ساحبًا جيشًا ومخرجًا كتيبة وعاقدًا لواء، وقائمًا بحرب، فلله تلك الأيام ما أعزها، ولله تلك الحياة ما أكرمها، ولله تلك الأفعال ما أعلى شأنها، ولم نذكر تلك العهود فنكتفي بالإشارة إليها إذ حفظها التاريخ بين طياته، فنراها مرجعًا لمن أرادها ومستندًا لمن رام السير على منهاجها، ولله في عباده أسرار، وفي خلقه عظيم الاعتبار، والله ولى المحسنين.

❊ ❊ ❊

خطبة الإمام ناصر بن مرشد في صلاة الجمعة

إن الإمام الأرشد ناصر بن مرشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان يخطب في صلاة الجمعة خطبة واحدة كما هي المذهب، ولم يصح عند المسلمين أن رسول الله ﷺ كان يخطب خطبتين، ولا يصح جلوسه في الخطبة أو بين الخطبتين كما يقولون، ولو صح ما تركه المسلمون مع شدة تمسكهم بأعماله، وتتبعهم لأفعاله، وأقواله، وأخذهم بما صح عنه، وإنما هي خطبة واحدة فقط خطبها النبي عليه الصلاة والسلام في بني سالم بن عوف حين صلى الجمعة أول جمعة في المدينة بمسجد الوادي، وحفظها النّاس عنه، ورواها المؤرخون.

وهى كلمات يسيرة ذكرها في تاريخ الخميس وغيره، ورواها أئمة السير، والذي ذكره رواة السنن لا عمل عليه عندنا فإنهم رووا كثيرًا ولم يصح عند أصحابنا، وهم أشد النّاس تتبعًا لما رواه الثقات عن النبي ﷺ، ولقد اجتمع في عصرنا هذا علماء فطاحل أخذوا من الفقه بحظ وافر، وفي مقدمتهم الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو الذي قام بإمامة الإمام سالم بن راشد الخروصي، وبعد فتح نزوى أقام الجمعة بها والكل حاضرون وهم كبكبة من أهل العلم اللذين لم تصغر منازلهم عن صحابة رسول الله ﷺ، لولا فضيلة الصحبة، ولا يسع ذكرهم، ولم نعلم عن أحد منهم قال في صلاة الجمعة بخطبتين، ومضى الإمام على ذلك حتى توفاه الله.

ثم قام عنه الإمام محمد بن عبدالله الخليلي، وكان جمهور أولئك العلماء باقين لم يتغير منهم ألا الإمام العلامة الكبير سيدهم عبدالله بن حميد السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، وعاش الإمام الخليلي قريبًا من أربعين سنة، وهو يخطب خطبة واحدة، وهو أعلم الجماعة الذين معه وهو أحد تلامذة العلامة السالمي أيضًا، وقد زاره علماء الآفاق، ولم نسمع من أحدهم إنكارًا لعملة بخطبة واحدة، والذي يرى غير هذا الحال اجتهادًا لا نوافقه عليه بعد مضى أربعة عشر قرنًا، يأتينا اليوم يرى أنه أهدى

من أولئك سبيلاً من أولئك العلماء الأجلاء، والأساطين المشار إليهم، فالحق ما مضى عليه علماؤنا وأئمتنا، ولا خلاف لمذهبهم.

وقد كتبت رسالة في الموضوع سميتها «الأصول المتبعة في أحكام صلاة الجمعة» وذكرت أمر الخطبة كما أشرت إليها هنا وبينت البعض من الأدلة المتبعة عند أهل العلم، وسكت عمّن روى عنه غير ما عليه الأصحاب رحمهم الله، وحسبنا إتباع آثارهم والاعتماد على أقوالهم، والحق أحق أن يتبع وإن قل أهلوه، والباطل أولى أن يترك وإن كثر ذووه.

وإليك عبارة السالمي رحمه الله في هذا المقام قال: «وهذه خطبة الجمعة في عصر الإمام ناصر بن مرشد بن مالك اليعربي أعزه الله ونصر على البغاة» وهذا التعبير دال بمفهومه ومنطوقه على أنها خطبة واحدة، وأنها أيضًا هي التي يخطب بها طياة حياة الإمام المذكور، لاشتمالها على المواعظ العظيمة المطلوبة لهذا المقام الحافل الجامع للمسلمين، الذين يهتموا بأمر دينهم وينظرون إلى الآخرة بستر رقيق، أسود النهار رهبان الليل، الذين شهد لهم الحق أنهم رجاله وأحبهم العدل إذ هم أبطاله، وعشقهم الايمان إذ قامت بهم أعماله، وابتهج بهم الدهر إذ هم جماله، حملت تلك الخطبة أعلام الهدى، وأعلنت للمؤمنين الابتعاد عن مسالك الردى، وحذرت المتدينين على اختلاف طبقاتهم من إتباع الهوى، وعظ خالص له في القلوب تأثيره، وتحذير عام له في النفوس تقريره، يكاد يقضي على العقول التي تخاف الله، كأنه يعبر عن مصارع الموت، ويدل على مراسم الحياة الأخرى، ويكثر الباكون إذا تلي عليهم، فيخضع العاتون إذا القي إليهم نسجته أيادي الهدى، على وتيرة البلاغة، ووضعته صاغة البيان بأكمل الصياغة، والله يزيد في الخلق ما يشاء.

❊ ❊ ❊

إمامة الإمام سلطان بن سيف

نسب الإمام سلطان بن سيف بن مالك وفية يلتقي بالإمام ناصر بن مرشد بن بلعرب بن سلطان بن مالك بن أبي العرب بن محمد بن يعرب بن سلطان بن حمير بن مزاحم بن يعرب بن مالك بن يعرب بن عمر بن نبهان، بويع الإمامة في اليوم الذي مات فيه الإمام ناصر رحمهما الله، وكان كما قدمنا أحد قواد لدولة الإمام ناصر، وهو الذي فتح مدينة صور، وطرد البرتغال منها في عهد الإمام ناصر.

قال شكيب أرسلان، وهو يذكر الإمام ناصر بن مرشد قال: وخلفه ابن عمه سلطان بن سيف، فنسخ على طرازه في الاشتغال بإجلاء البقية الباقية من حامية البرتغال في سواحل عُمَان، قال: وكانت له عيون على هؤلاء يقضون إليه بعوراتهم، فأرسل إليه سرًا رجل هندي كان وكيلاً لأمورهم وموضع ثقتهم، وقص قضية سكبيله و كبريتيا البرتغالي العنيد، واستطرد في القضية بتمامه كما قدمنا عن المورخين العُمَانيين، وذكر البارحتين اللتين تحاميان عن حصن المطرح، وتضربان البلاد مطرح ومسقط.

قال: فقصدهما العرب فذبحوا من فيهما أي وغنموهما، قال: ولم يكتف سلطان بالفتك بالبرتغال في بلاده، بل قصدهم إلى بلاد الهند فأرسل بوارج حربية تغزوهم في ساحل كوجرات في الهند، قال: اجتاحت عساكر «الديو» و«دامان» وقفلت بغنائم وافرة وانية كثيرة مما كان في الكنائس، قال: ووجه سلطان بن سيف معظم همته إلى ترويج تجارة وعمارة أسواق الأخذ والعطاء، واستجلاب الأسلحة والخيول؛ لتقوية جيشه، قال: أنفق في هذا السبيل أموال طائلة، قال: وجدد قلعة نزوى، وترك آثارًا صالحة، قال: وكان من أفراد الملوك في سيرته في الرعية، وسداد آرائه وصواب أنحائه.

قال: وتوافدت النّاس إلى داره مرضيه، وتسارعت إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه، قال: وكل ذلك بسايق المحبة والأمانة وجاذب الإخلاص والمناصحه،

قال: إذ كان يخرج كسائر النّاس ويغشى المجامع ويختلط بالعامة، وهو بدون خفير ولا قرين، بل خفارته من ثقة قومه وصحابته من معرفتهم؛ لفضله وإجلالهم لقدره.

هذه الأخلاق التي ذكرها شكيب أرسلان، هي أخلاق أهل الإيمان، وإنها لجمال لذلك الإمام السيد الكريم الذي عرفه التاريخ وأثنى عليه البعيد والقريب، بمثل هذا الثناء الفاضل، فإن هؤلاء الأئمة الخمسة الذين سوف يتلى عليك تاريخهم، هم جوهر اليعاربة، بل جوهر أهل عُمَان في ذلك العهد، كما تخبر عنهم أعمالهم، وكل أهل التاريخ في الأفق المشرقي يثنون عليهم ويأسفون على فقدهم، إلا أن الشريعة باقية، والسيرة التي سار عليها الصحابة معروفة لمن أرادها، ومن أراد غيرها تبعًا لهواه، ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الاحقاف: ١٩].

وعلى كل حال لا بقاء للدنيا وإن طال العهد، فهي سوق الآخرة وكل يأخذ منها ما يحلو له، وفي حديث ابن رزيق: لم يمكث الإمام سلطان بعد البيعة بعُمَان إلا أيامًا معدودة إلى أن أسرع الوثبة لحرب النصارى الذين بيدهم زمام بلدة مسقط ومطرح، وهم المسلمون البرتكيس.

قلت: هذا عرف أهل عُمَان فيهم، قال: وهم يومئذٍ أشد النصارى قوة في المملكة والسلطان.

قلت: اتفق المؤرخون على أن البرتغال في ذلك العهد هم أقوى دول النصارى، وبقية دولهم تخضع لأوامرهم. قال: وأما معسكر الإمام سلطان بن سيف بطوى الرولة من المطرح.

قلت: لم نعرف هذه الطوى بعينها إذ تبدلت الحال، وصارت الطويان في مطرح خصوصًا التي هي داخل السور، قال: كان جيش الإمام من طوي الرولة بمطرح إلى سد روي والسد المشار إليه هو الذي على ثغر وادي العدَيْ، الممتد

هذا السد من الجنوب إلى الشمال، وعليه قلاع باقية إلى عهدنا هذا، قال: ومعه من الجند خلق كثير.

قلت: الجند هم الجيش الذي وصفه الممتد من طوي الرولة بالمطرح إلى سد روي الآنف الذكر. قال: فطفق جنده يغزون البرتكيس صباحًا ورواحًا وهم أي البرتغال مستعدون لحربه لم يظهروا له الجبن ولا الإذعان.

قلت: الملك غال لا يباع رخيصًا، ولا يسلم بالهوينا. قال: وقد أفعموا حصني مسقط يعني الجلالى والميرانى وبرجها وسورها وجبالها برجالهم الشهيرة بالصبر على القتال. قال وحد غزوات عسكر الإمام سلطان بن سيف عليهم إلى بئر الراوية من مسقط، إذ هم قد بنوا على رؤوس جبال مسقط بروجًا وأكمنوا فيها رجالهم أهل التفق، أي البنادق، وقد نصبوا سلسلة في الهواء، فكل من اقترب منهم من عسكر الإمام رموه برصاص التفق، ومدوا سلسلة من حديد عليها سور من حديد من البرج المسمى الآن برج والي محمد بن رزيق إلى البرج المسمى الآن المربع، قال: فلم يزل من كمنوا في تلك السلسلة المذكورة يرمون من اقترب منهم من عسكر الإمام برصاص التفق.

قلت: لم أعرف معنى هذا السور الذي على السلسلة، فالسلسلة لا يمكن أن يبنى عليها سور، فلعل السلسلة على السور، فيكون في الكلام قلب في التعبير. قال: وقد قبضوا الجبل المسمى السعالي من أوله إلى آخره، وقبضوا على جبل الملا من أوله إلى آخرة، وصوت التفق من الكامنين في الجبال وسائر المقابض لا يفتر لا سيما إذا جن الليل.

قلت : ذلك ليهيبوا على أنفسهم خوفاً صولة العرب التى لابد منها. قال: وحراسهم وحواسيسهم يترددون عليهم بالليل والنهار ، وقد أخذوا من حزمهم الغاية.

قلت : لا يغني ذلك شيئاً عندما يأذن الله بجلأهم ، قال : وقد بلغوا من الحذر

النهاية ، وقد افعموا الصيرتين أى الحصنين الصغيرين ، أو القلعتين اللتين على ثغر الميناء بمسقط رجالهم المتقنين ضرب التفق والمدفع ، وما تركوا عليهم سبيلا ، فكانت الحرب بينهم سجالا.

قلت : ليست هذه الحرب الموصوفة بأنها سجالا ، ولكن ابن رزيق لا يتقن التعبير. قال : لا قدره للبرتكيس أن يخرجوا الإمام وعسكره من المطرح ، ولا قدرة للإمام وعسكره ان يدخلوا مسقط علي النصاري .

قلت: والتحقيق ان الإمام اقضي نظره حصرهم في مسقطهم وعلي كل حال ان كل محصور مغلوب ، وهذه قاعدة مطردة في قضايا الحرب وأمثلتها لا تحصي.

قال ابن رزيق : بل كانت عسكر الإمام تزحف عليهم فيقتلون من يرونه حذاء الرواية في الأرض ، ويقتلون من يرونه سائحا في المكان الذي يسمس حلة العجم والبحارية ونحوهم ، ويرفعون أصواتهم الي من بالسور من البرتغال ، ناجزونا بارزونا فإن الشجاع مع الحرب لا يتحصن بالقلاع والسيران ، ويعيرونهم طويلاً أي لقصد تهييجم للخروج من القلاع. قال : فلم يخرج منهم احد لعلمهم انهم ليسوا كفوءا لهم للمبارزة بالسيف والرمح الذي هو سلاح العرب إذ ذاك ، وسلاح العدو البنادق والمدافع التى تأخذ العدو من مسافة نائية ، وبقى المسلمون لا يقدرون على الاقتراب من القلاع والسيران ، لأنها ترسل صواعقها الى عدوها من بعيد فتدفعه عنها.

قال ابن رزيق: الحرب على ذلك بينهم على تلك الحال حتى كاد الإمام وحزبه أن يثنوا عزيمتهم عنهم؛ لعدم القدرة على الدخول عليهم.

قلت: حاش الإمام أن يثنى عزيمتهم عنهم، بل لعله يعالج القضية بسياسة أخرى وأكبر شيء عليهم حصارهم بين تلك الجبال الشاهقة، وقد قبض المسلمون البحر والبر، فمن أين يأتيهم المدد، وعندما يتحققون الضيق سيطلبون الخروج

بأنفسهم؛ لكن من قدر الله أن وقعت تلك القضية بين رئيس البرتغال المسمى فرفرة، ونورتم القائد الهندي وهو المعروف عند أهل عُمَان بالبانيان، وهم قوم يعبدون البقر لعنهم الله، ثم جاء ابن رزيق بقضية الزواج التي قدمنا ذكرها، فكانت السبب الفاتح للمسلمين، ولعل دعوات أهل الإيمان استجيب لهم، وأذن الله بزوال هؤلاء الكفرة الفجرة، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، وسرد ابن رزيق القضية كما هي عادته بكلام طويل يحصره يسير الكلام وربما أفاد في بعض المواضيع فلا نعيدها مرة ثانية.

ولما اقتحم المسلمون السور ودخلوا مسقط الداخلية، زحفوا على الحصنين فأحرقوا أبوابها بالنار، ولم يجد من فيها ما يدافع به فسلموا الأمر راغمين، وقضى عليهم طالع النحس بالزوال؛ ليسترد أهل الحق حقهم المغصوب، وكان الإمام سلطان هو قائد الجيش، ولما وصل بالجيش عقبه الوادي أحضر القوم وجدد البيعة معهم، وأخذ عليهم العهد والميثاق على الصبر على الموت، فبايعوه على ذلك ومضى بهم وشعارهم الله أكبر، اللهم أنصر المسلمين على عدوهم.

ولما دخلوا خذل الله المشركين، وأيد الله المسلمين، وقوى قلوبهم وشد عضدهم، فكانت الدائرة على أهل الكفر. فكان كما قيل إن الدماء سالت إلى البحر، ولم يبق إلا أمر البارجتين أراد المسلمون الزحف عليها فشاور الصارمي الصارم المغيوني البطل، فخرج إلى الداخلية وجاء برجال انتخبهم لمعرفته بهم، وأطعمهم بالمال الجزيل، فتقاحموا على البارجتين كالأسد على فريستها فاصطلموهما بأسرع وقت، وانتهت قضيتها إذ ذبحوهما، وقادوا البارجتين إلى الإمام، ولا تسل عن سرور الإمام والمسلمين ذلك اليوم الذي قلع الله تلك الشجرة الكافرة، ومحا فيه أرسم الباطل.

وأخذ الإمام رَحِمَهُ اللهُ في جلب المعدات الدولية، ومن جملتها الخليل، فجمع منها كثيرًا سيأتي ذكرها في إمامة ولده سيف، وفتح أبواب التجارات إلى العالم من كل

صوب، وجلب لعُمَان الخير من جميع النواحي، فأمنت الرعية، ودرت الأرزاق، وكثرت الأرباح، وعلا شأن العُمَانيين بين أمم العالم، فنظرت إليهم الأمم بأعين الإجلال والإكبار، إذ هم الذين قلعوا تلك الشجرة الملعونة في القرآن، وولى الإمام على مسقط سيف بن بلعرب اليعربي، وترك معه عساكر جمة، أمره بالحزم والأمر والنهى عن المنكر، ونزول الرعية إلى الحكم بالسوية، ورفع الجزية عن نورتم وأهل بيته جزاء إعانته.

ورجع الإمام إلى نزوى فاهتزت عُمَان له فرحًا، وعلت البشرى على أوجه أهلها، وأتاه أهل نزوى أكبرها وأصاغرها يهنئونه بالنصر والظفر والفتح الذي وفقه الله له، وأذل به المشركين، وعلى أثر ذلك أمر الإمام بمطاردة المشركين في سواحل عُمَان، فاستفتح «أهل الديو» ضربة أخرى لأهل الكفر، ودمر وكلابوه وعكة، فملأ العالم الشرقي في آسيا هيبة ورعبًا، واختفت بغاة أهل عُمَان الذين آذوا الإمام ناصر بن مرشد، وسقط في أيديهم، ورأوا أنهم رهن إشارته، وأنفق على بناء قلعة نزوى لكوكًا وملايين، وبهر بها أعداء الدين، وأصبحت حتى آلان مفخرة المسلمين، وأحدث فلج البركة الذي هو بين أزكي ونزوى، وهو إلى أزكي أقرب، وعامل في التجارات للدولة فربحت كثيرًا من الأموال التي قوم بها أود المسلمين، فإن الدول بالمال، ألا تسمع قول بني إسرائيل: ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فاستنكروا أن يكون ملك وليس عنده سعة مال.

❊ ❊ ❊

أخلاق الإمام سلطان

كانت للإمام سلطان أخلاق كريمة، وخصال حميدة، عرف بها في الأمة؛ لأنه تربى في أحضان إمامة معروفة بالتقوى، مشهورة بالورع ومجانبة الأهواء، كان رَحِمَهُ اللهُ لين الجانب لإخوانه،رؤوفًا بهم شفوقًا عليهم، خاليًا من الكبرياء، نزيهًا، مما تعاب به الرجال، يؤيد الحق على الباطل وإن كلفه فوق المنتظر.

وصفه الإمام السالمي رَحِمَهُ اللهُ قال: كان متواضعًا لرعيته، ولم يكن محتجبًا عنهم، وكان يخرج في الطريق بغير عسكر، ويجلس مع النّاس ويحدثهم ويسلم على الكبير والصغير والحر والعبد، ووصفه صاحب فواكة العلوم بصفات رائعة فقال: أضحى رَحِمَهُ اللهُ قوي الجنان باسط البنان، بنيانًا مرصوصًا في الهيجاء، سحابة وطفاء في العطاء، مرتديًا برداء العفاف والورع، ولا يهوله من عدوه فزع ولا تأخذه في دينه محاباة ولا طمع، عامرًا للديار وحافرًا للأنهار، غارسًا للأشجار؛ ليعيش فيها ضعفاء المسلمين الأتقياء الأبرار ابتغاء مرضاة الملك الجبار، متأسيًا بالرواية السالفة عن السلف الصالح: اعمل ما شئت كأنك تموت غدًا وأعمر ما شئت كأنك لا تموت أبدًا، وهذا من قوته وحذاقته، حوي على كلتا الحالتين سخيًا سمحًا بنوال المسألتين، سيدًا ووليًا من الصالحين، قال: وكثير من فضائله لم أحص عدها.

قلت: هذه لا تحتاج إلى زيادة وأخلاق، هي من مكارم القادة، وقد أثنى عليه بما لا مزيد عليه، والخلق شهود الله في أرضه، والحقيقة أن أخلاق الإنسان هي الشاهد الصحيح كيف كانت ومهما كانت، وإن قيل غير الواقع لا يثبت إلا الحق، وإذا أحب الله شخصًا هداه للحق بأذنه، وأرشده إلى المرضى عنده، والله في خلقه أسرار، وهذه الشجرة اليعربية أظلت أناسًا في هذا العالم من لفح سموم الجور والظلم، وأعزت رجالاً أصبحوا بها قادة الأمة ومن ثمارهم تعرفونهم.

* * *

أعمال الإمام سلطان في عُمَان

لقد قدمنا أن الإمام ناصر بن مرشد هو الذي أزال غثاء البغي من عُمَان، ووضع كرسي العدالة بين أهلها، وأنعش ميت الحق وأمات إحياء الباطل، وطهر عُمَان من معرة الفساد والضلال، حتى صار الورد صالحًا والماء صافيًا للوارد، وجبال السوء طرأ رثها فما عادت تصلح إلا للمزابل.

وعندما بويع الإمام سلطان، وجه عنايته إلى تقوية الهيئة الحكومية أولاً، وتأييد العدالة بالقوة الفعالة. قال صاحب كشف الغمة: فقام بالعدل وشمر، وجاهد في ذات الله وما قصر، ونصب الحرب لمن بقي من النصارى بمسقط، وسار عليهم بنفسه حتى نصره الله عليهم وفتحها بأذن الله، وقام يجاهدهم أين كانوا وأين وجدهم في بر وبحر، فاستفتح كثيرًا من بلدانهم، وخرب كثيرًا من مراكبهم، وغنم كثيرًا من أموالهم، فقيل إنما بنى القلعة التي بنزوى من غنيمة الديو من أرض للهند، وسيأتي الكلام على بنيانها في محله إن شاء الله.

وقام بنشر العلم فكثرت الفقهاء، واعتمرت عُمَان في دولته، واستراحت الرعية وازدهرت البلاد بحسن السيرة، ورخصت الأسعار وصلحت الأثمار، وكان خير خلف لخير سلف، هذا وصف أعماله عند هؤلاء، وذلك وصف إجمالي كما هو شأنهم.

والذي يعبر عن أعمال هذا الإمام العظيم تعبيرًا صحيحًا يضيق به المقام، فإنه لما تولى الأمر أول شيء، جعله نصب عينيه تطهير البلاد من كل رجس أجنبي، فساق جيشًا ضخمًا فيه أبطال الرجال الذين هيئتهم دولة الإمام الراحل، وعلمتهم العمل المطلوب منهم في المستقبل، نزل الجيش بسيح الحرمل الذي تقع عليه آلان مطرح الكبرى، فملأه حتى الوطية، وفي نفس الليلة لدغت ولده الإمام سيف بن سلطان حية في سيح الحرمل، إذ كان ارضاً خالية احتوت عليها الحشرات الأرضية، فقيل للإمام في ذلك إنا نرى فألاً غير صالح، فقال ما جئنا إلا لإحدى

الحسنيين، جئنا للموت لا للحياة إلا إذا يسرها الله لنا، وما أحب اسمع مثل هذا الحديث أو كلامًا هذا معناه، وبعد صلاة الفجر زحف الجيش على مسقط فكاد يطير إليها شوقًا.

* * *

مسقط في العهد البرتغالي

لا يخفى أن البرتغال ما زالوا يتوقعون زحف العُمَانيين عليهم ما دام علم إمامتهم يرف على رؤوسهم، ولذلك قاموا بتحصين مسقط تحصينًا كاملاً، ووضعوا قواتهم الهائلة بها، وحصونها كما قال ابن رزيق وغيره من المؤرخين عربًا وإفرنجًا. قال: فسورتها النصارى من حد جبل المكلا إلى جبل السعالي.

قال: وأحدثت فيها حصنين كبيرين شرقيًا سموه الجلالي باسم بانيه، جلال خان، وغربيًا وسموه الميراني باسم بانيه، وهو ميران ولعله ميران خان. قال: وأحدثوا فيها صيرتين أي قلعتين صغيرتين مانعتين من دخول العدو للميناء؛ لأنها تطلان عليه وبنوا عليها سورًا ضخمًا لا يزال أثرة باقيًا حتى الآن يفصل البلد نصفين، نصفه الداخلي لهم، والنصف الذي خرج عنه للأهالي، وجعلوا نفس القسم الداخلي حصنًا حصينًا، إذا جعلوا على نفس السور بروجًا ضخمة وقلعة ضخمة، سموها قلعة كبريتة، وهو قائد هندي معهم، وسيأتي ذكره بعد هذا المقام، وأقاموا أبنية ضخمة على جبال مسقط ومطرح وجعلوا للطريق خمس عقبات، كل عقبة عبارة عن قلعة من حد المطرح إلى مسقط، وآخر هذه العقبات من ناحية مسقط عقبة ريام، وأولى العقبات من أول المطرح إلى أول ريام، وتعرف بعقبة الخيل، والثانية التي إليها آنفًا المطلة من الجانب الشرقي على مسقط ومن الجانب الغربي على ريام، والثالثة من محلة كلبوه إلى مسقط، والرابعة من آخر مسقط على جهة سداب وتعرف بعقبة سداب، والخامسة من آخر مسقط إلى الوادي الكبير المفضي إلى روي، وجعلوا على هذه العقاب السلاح المناسب لذلك الوقت.

وهذه العقاب في غاية الصعوبة، وقد كسرت هذه العقاب مرات عديدة لاقتضاء الوقت ذلك، وعادت الآن بالأرض لا يعرف الجيل الحاضر عنها شيئًا إلا أسماؤها، وملئوا مسقط من رجالهم الأقوياء، وكما أنهم ما زالوا يعاهدون الإمام ناصر ثم يخونون لما مات الإمام ناصر نكثوا العهد الذي وقع أخيرًا، ورأوا أن قوة العُمَانيين سيؤثر عليها موت الإمام الذكور، وبذلك قطعوا أولاً الجزية التي كانوا يؤدونها للإمام ناصر، ومنعوا المسلمين من دخول مسقط، وأظهروا عتوا وعناد وتكبرًا، وضاعفوا قواتهم على جبال مسقط، وجعلوا أشد رجالهم عليها، ومدوا سلسلة حديد في رأس الجبل المشرف على محلة ميابين، وعلى الوادي الذي يمر على محلة برزنجي إلى الجبل الذي به الآن البرج المربع، وهو الجبل المشرف على حلة الأفغان، وجعلوا على هذه السلسلة سورًا من حديد، وأكمنوا فيه رجالاً من قومهم؛ ليصدوا المسلمين عن الوثبة عليهم من نفس السور، وكانوا حفروا خندقًا يحيط بالسور من خارجه، وأطلقوا عليه البحر الصغير الذي هو شرقي الباب الصغير، وهذا يدل أن البحر كان يخترق الرقعة الداخلية من مسقط، وإنما خفي الآن وجوده؛ لتبدل المكان بما طرأ عليه من بناء جديد، ومن كبس ومن تبديل.

قال: وجعلوا على السور عساكر جمة، قال: وكان للنصارى وكيلان من البانيان أي الهندوس، يسمى أحدهما سكبيلة والثاني نورتم، أي هما قائدان عنيدان يقومان بتأبيد الحامية، وينظمان الأمور، وقد تمرسها بأحوال أهل عُمَان وعرفًا حرب عُمَان وعرفًا حرب العُمَانيين؛ ولذلك كانا هما اللذان يرشدان النصارى إلى الأحوال الحربية التي يستدعيها الوقت. ومسقط ذلك العهد ليست هي مسقط عهدنا الحالي، فإنها كانت الجبال الشاهقة محيطة بها، ولا يصار إليها إلا بجهد جهيد، ولا مدخل إلا من طريق.

البحر، فيجر القوارب الصغار جرادون، ويسيرون وهم رهن الخطر هذا في حال السلم، فكيف بحال الحرب أما الطرق التي هي لها الآن ما كانت

في الحسبان، ولا يأتيها إلا القوي الشديد، ويصلها باك تعب، وبغاية النصب، والأموال تخرج منها بطريق البحر فقط، أما مساجد السنية فيها فحديث من عهد جديد، وأولها مسجد الزواوي يوسف بن أحمد، ففي عهد السلطان فيصل، ومسجد علي بن موسى كذلك، ومسجد نصيب في عهد السلطان تيمور.

* * *

الضغط يسبب الانفجار

كان من القضاء والقدر الذي يمهد السبب لتأييد المسلمين على عدوهم، هو أن لسكبيلة اللعين بنتًا جميلة رآها أمير الحصن الشرقي فعشقها، فأرسل إلى سكبيلة يخطبها، وبذل في زواجها مالاً كثيرًا ذهبًا وفضة وجواهر ثمينة، فشق هذا الطلب على سكبيلة وعظم في عينه؛ لأنه غير مألوف بينهم وفي طبيعة النفس النفور من غير المألوف؛ ولذلك نفر النعُمَان بن المنذر من ترويج كسرى أنو شروان، حتى عظم الخطب، وأدى إلى ما أدى إليه مما يعرفه كل أحد، وأصر سكبيلة على عدم ترويج البرتغالي حتى جابهه قائلاً له: ما كان في القديم ولا في الحديث التراوج بيننا، وهذا شيء لا يمكن أن يكون بيننا الآن، فغضب البرتغالي وهو يرى أن سكيبلة مأموره ولا يمكن أن يخالفه؛ لأنه هو الذي ولاه أمر الحصن الكبير، وجعل إليه الزعامة في أوامره، فهدده إن لم يمتثل، فتحقق سكيبلة أن من وراء امتناع الهلاك والدمار، ويستولي النصراني على المرأة غصبًا، فبلغ الضيق منه مبلغه، فأراد أن يرميه بداهية تقضي عليه وتسحقه، وعند ذلك تلاين سكيبلة لرئيسه في أمر المرأة، وقال له: إن كنت معولاً على هذا الحال وراغبًا فيه فالأمر سهل لا تعز عليك بنت؛ ولكن أمهلني إلى كذا وكذا من المدة، وفي رواية أمهلني سنة حتى أتمكن من صوغ ما يلزم لبناتنا الأبكار في أغراسنا، فإذا تم الصوغ المطلوب ووصلني دفعت إليك المرأة فأمهلني لهذا الصدد فسر النصراني بذلك وابتهج ورفع منزلة سكيبلة، فكان لا يحل ولا يعقد إلا بمشورته واصطفاه تمامًا.

ولما رأى سكيبلة التمكن من القائد، قام للعملية التي هيأها في نفسه للانتقام من هذا الطاغية العنيد، فقال له: إن الماء الذي في الحصنين قديم فيه دود، وأخشى أن يطول الحصار علينا من المسلمين، فالرأي تجديد الماء وكذا البارود، فإنه فاسد والرأي تجديده، وهذا البارود الخاص بالمدافع إذ كانت في العهد يلقي في بطونها البارود لكل طلقة، ثم تلقى الرصاصة عليه ثم تضغط بالدك وهكذا. قال والرأي تجديده بالدق أيضًا، فأجابه إلى ذلك وتخليه ناصحًا له في ذلك، وهو وإن كان الواقع كذلك، إلا أن سكبيلة كان له غرض الانتقام من النصراني الذي أراد أن يرغمه بزواج ابنته، فنسج حيلة يسلم لها القائد، ولا يجد فيها إلا ظاهرة النصح، فأخلى سكبيلة الحصنين من الماء، وأخرج البارود للدق مرة ثانية، وإذ ذاك كتب للإمام عن الواقع وأخبره عمَّا جرى له من النصراني العنيد، وأرشده على الوثبة على السور، وبين له الوقت المناسب لذلك، وهو يوم الأحد عند طلوع الشمس، ذلك اليوم هو يوم عيد النصارى، فكانوا يشربون الخمور، ويدقون الزمور، ويضعون السلاح، ويشتغلون بالأفراح طربًا ولهوًا فاغتنم المسلمون الفرصة، وتوجهوا إلى العدو بقلوب متحمسة، صالوا صولة الأسد الهائجة على فريستها.

وكان الإمام البطل في المقدمة، فاقتحموا السور وتهاووا على الحصون، كالعقبان المنقضة من السماء، فاختلفوا هما في الحال، وقتلوا من كان فيها من النصارى، وفي نفس الواقعة يقول ابن رزيق: أخبرني غير واحد أن الإمام سلطان ضرب واحدًا من النصارى في الجزيرة، وهي قلب رقعة مسقط الداخلية، وكان النصراني لائذ على مدفع هناك كبير، فالتف بعصفور المدفع وهي الجديدة الناتئة فيه لسحبه، فقطع السيف عصفور المدفع، وفخذي اللعين فجل الخبيث يقول: لكل من مر به من المسلمين: ما هي ضربة واحدة قطعت العصفور وفخذي، ولم يفتر عن ذلك حتى مات، وتولى الإمام وجنوده مسقط، ولم يبق له محارب إلا كبريته، وكان شجاعًا مقدامًا عنيدًا، وكان بيده القلعة التي على السور المعروفة

بقلعة كبريتة، فكان يهاجم المسلمين ببسالة فائقة، واستمرت المعارك بينه وإياهم أيامًا حتى حان حينه في سوق البز في مسقط، فحصره رجال الإمام المصاليت، حتى قضوا عليه هناك هو ومن معه من الجنود، وطهر الله الأرض منهم، وانتهى أمر مسقط وبقيت حامية المطرح، فاستول عليها الرعب وكادت تضيق بها الأرض، وهناك بارجتان من بوارجهم في المرسى تحاميان على الحصن، فتجرد العرب العُمَانيون لهم بعزم أقوى من الحديد وأدهى من الموت.

فزحفوا عليهم في سفن صغار فهاجموهم في البحر، فقتل في أثناء الهجوم أكثر الجنود البرتغال، ولم ينج منهم إلا من حبسه الأجل، ولما رأوا لابد من الاستسلام سلموا الحصن للإمام وطلبوا من الإمام أن يعبرهم إلى جوه فعبرهم، وتولى الإمام كلها، واحترم الإمام سبيلكة ونورتم، وعفاهم من الجزية عنهم وذراريهم ومن كان من أقاربهم؛ لمناصحتهم للمسلمين في هذه البادرة وتحقق قولهم الضغط يسبب الانفجار، ولى هذه الحرب يشير الشيخ خلف بن سنان الغافري في قوله:

ثم أورى لمسقط سقط عزم أسقط الظالمين منه ضرام

فطار طائر البرتغال من الأوكار العُمَانية، وتركها لأهلها راغمًا، فعاد الحق لأهله.

وفي القضية وأمثالها معتبر رائع يفهم منه الإنسان الكونية التي تخرجها الأيام، فكانت أيام الباطل قائدة للأجنبي ليحتل بيضة المسلمين، ويتمركز في أركانها، وعادت أيام الحق تمحو ذلك الباطل البغيض، وهكذا الأيام تبرهن للعاقل عن الغراس الصالح، وعن المزارع الوبائية التي يزرعها الظالمون.

وكان احتلال المسلمين لمدينة مسقط في يوم عاشر من شهر رجب سنة ١٠٥٩هـ، وتتابعت الفتوح بعد ذلك والحمد لله.

❊ ❊ ❊

الحق تحت ظلال السيوف

لما انتهى إجلاء النصارى البرتغال، الذين يسميهم أهل عُمَان البر تكيس، من عُمَان تمامًا نظر الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ أن العدو خرج ولا بد إن استطاع أن يحيك المؤامرات العدوانية مهما كانت، وأيا كانت، وما ينبغي لنا أن نقبع في مخدعنا نترجى نزول العدو علينا مباغتًا لنا، ولا ندري ماذا مبلغ فعله فينا، وقد ثبت عن نبينا عليه الصلاة والسلام قوله: (ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا).

فينبغي أن نتقدم للعدو، ليكون الرعب ملازمًا له، والخوف محيطًا به، وهكذا.

ولما كان مقر العدو الهند وجه الجيش إليهم بها فتغلغل في الهند حتى اجتاح ساحلها، وقبض على طرقها البحرية، فهاجم الديو وهي أقوى بلاد الهند إذ ذاك، فافتضها وغنم منها أموالاً طائلةً، وساق ستة آلاف أسير دخلوا عُمَان واندمجوا في أهلها، وبني من غنيمتها قلعة نزوى التي لبث بناؤها اثنتي عشرة سنة، فكانت المثال الرائع

* * *

ظفار قطعة عُمَان

لما كانت ظفار كالجزء من عُمَان، أو كالجارحة من الجسد العُمَاني، تولاها الإمام سلطان، وجعل فيها حامية عُمَانية؛ لئلا يتطرق عليها العدو إذ ذاك، فيتمركز فيها ويكون شره لعُمَان من الجسم العُمَاني.

ولما انتقل الحفاظ على عُمَان إلى البحر الأحمر، وكانت ظفار من ضمن قلب المملكة العُمَانية، تركها الجيش العُمَاني إذ لا محذور هنا والجيش قد ضرب أطنابه في البحر الأحمر مطاردًا لأكبر دولة استعمارية كافرة بالله عَزَّ وَجَلَّ، ثم أقبل عزم الإمام على المحيط العُمَاني؛ ليحفظ القطر من جميع جهاته، خرج الجيش الذي كان في ظفار وخلف بها مدافع وآلة حرب، وعند ذلك ظن ملك اليمن أن إمام عُمَان وقع عنده ضعف وخلل، وسرعان ما سحب إلى ظفار واستولى على المدافع وقبض البلد.

ولعل بعض أهلها دعاة إلى ذلك، فلما علم الإمام بالواقع وكان في أول نشاط دولته لم ينزل الضعف منه منزلاً ما؛ ولكنه لم يشمئز من نزول الملك المذكور، وهو إسماعيل بن القاسم من ذرية علي بن أبي طالب، وإنما اشمأز من أخذ المدافع، وتجاسر الملك عليها مع علمه بأن وراءها سائلاً عنها وغيورًا عليها، ولعله تصور له ضعف إمام عُمَان أو بعده عن البلاد، مع أن البلاد شافعية المذهب، وأهلها بدو أشبه بالرحل إن لم يكونوا رحلاً، وأن إمام عُمَان ما سحب جيشه إلا لداع دعاه إلى ذلك، فكتب له الإمام في ذلك كتابًا جميلاً لا يطلب منه إلا رد المدافع، وسكت عن البلاد استبقاء له، وإبقاء للصحبة التي يستدعيها الوقت بالنظر إلى العدو الذي يطارده الإمام حتى يرى منتهى الأمر، وما كان كتاب الإمام إلا كتاب أخ لأخيه، أو كتاب صديق لمصادق.

ولما وصل الكتاب إلى إسماعيل بن القاسم، شخر ونخر وأرعد وأبرق ووعد وتوعد، وصال وهدد، وجاء كتابه مشحونًا بالصواعق التي يكاد فحواها، يمحو الإمامة العُمَانية من عقر دارها، فاستغرب الإمام ذلك الطيش والنزق الذي سمعه من هذا الإنسان الذي ينتسب إلى سلالة علي بن أبي طالب، وما كان يحمل به ذلك ولا يليق الطيش والنزق بأهل المناصب، وليته ترك الجفا، وعدل إلى نهج الصفا، ولو لم يكن فيه وفا، فلم يجبه الإمام عليه وإنما أجابه بأساطيل تمحو الأباطيل وبرجال تزيل الضلال، وقد أخبره في كتابه حيث يقول:

ثم لتعلم أيها الملك أنه وصل إلينا في مدة أيام قد تصرمت، وشهور قد تخرمت، رجل من جنابكم يزعم أنكم أرسلتم بيده طروسا بها درر من رائق لفظكم، وخطابكم، غير أنه يقول إن المركب الذي أقبل فيه عابة الإنكسار، فغرق في اليم، فأدرك الطروس المسطرة حكم التلف، ثم بيد أنه قد أفاه إلينا من نتائج لسانه، واتضح لنا من واضح نطقه وبيانه، أنكم علينا عاتبون، ومنا واجدون؛ لأجل خدامنا في العام الماضي مراكب رقاب المشركين على بابكم، وأخذهم لسفنهم

الواردة لجنابكم، ولعمري إنا لندري أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفا، وزايد محض المودة الصادقة والوفا، غير أنه يجب عند اقتراف الجرائم، وانتهاك المحارم، فإنا نحن لم نقصد إلى انتهاك ذلك سبيلاً، ولا نجد لك على إلزام فعل ذلك دليلاً، إذ كنا لم نجهز مراكبنا، ونتخذ مخالبنا ليساره رعيتك، ولا استباحة دم أهل حكمك وقضيتك؛ ولكن جهزنا الجيوش والعساكر، وأعددنا اللهازم والبواتر؛ لتدمير عبده الأوثان، وأعداء الملك الديان، تعرضًا رضا لرب العالمين، وإحياء لسنة نبيه الأمين، ورغبة في إدراك أجر الصابرين الجاهدين، وحاشا لمثلك أن يغضب لقتلل عبده الأوثان والأصنام، وأعداء الله والإسلام، ألست من سلالة علي بن أبي طالب، الساقي المشركين ربي المشارب، وأنت تدرى بما جرى بيننا وإياهم من قبل في سواحل عُمَان وفي سائر الأماكن والبلدان، من سفك الدماء،وكثرة الصيال، وتناهب الأملاك والأموال، وإنا لنأخذهم في كل موضع تحل به مراكبهم، وتغشاه سفنهم، حتى من كنج وجيرون بندري الشاه، ولم يظهر لنا من أجل ذلك عتابًا ولا نكيرًا، وإن كنت في شك فاسأل به خبيرًا. أولا نذكرك أيها الملك والذكرى تنفع المؤمنين، وإنا لك من المنذرين، وعليك من المحذرين، إنا لما ملكنا تلك الأيام بلدة ظفار، وهي عنا نازحة الفيافي والقفار، ولم تر في ملكها صلاحًا لشيء أوجبه منا النظر، وحاكته الأذهان والفكر، فتركها لا من خوف قوة قاهرة، ولا كلمة علينا ظاهرة، ولا بد غالبة، ولا كف سالبة، وحينما خرج عنها عاملنا خلف بها شيئًا من مدافع المسلمين، لغفلة جرت عن حملها في ذلك الحين، ولما ملكتم أنتم زمام عيسها، واجتليتم ضوء بدرها وشمسها، لم تدفعوا لنا تلك المدافع، كأن لم يكن وراءها ذائد ولا دافع، فاعلم أيها الملك أن البعل غيور، والليث هصور، والحر على غير الإهانة صبور، ومن أنذر فقد أعذر، وما غدر من حذر.

على أننا في إصلاح ذات بيننا وبينكم راغبون، ولإطفاء الفتن وإخماد المحن

بيننا وإياك مؤثرون، فإن كنت راغبًا في الذي فيه رغبنا، وطالبا لما آه طلبنا، فادفع لنا إياها، ولا تحتس بسرعة الاعتداء حمياها، وإن أبيت إلا الميل إلى أغتنامها، والجزم على خبط ظلامها، ففي الاستعانة بالله على من اعتدى سعة، ومن كان مع الله كان الله معه، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والسلام عليك ورحمة الله.

فالإمام سلطان رحمة الله يذكر ملك اليمن بحال الكفرة وأفعالهم، وما دار بينه وإياهم في سواحل عُمَان، وأن رجاله يحتلون الأعداء حتى في كنج وجيرون اللذين هما من أكبر بلاد إيران، ولم ينكر عليهم الملك الفارسي الذي هو أعظم من إسماعيل بن القاسم ملكًا وأكثر قوة وأنصارًا ولم يطلب الإمام من إسماعيل إلا المدافع فقط، وجعل المسلم أخا للمسلم، فنحن تركناها وهذا مسلم تولاها، وأن المحذور أن يتولاها الكافر عدو الكل، ثم إنها أي المدفع مال مسلمين، ولا يحل مال المسلم بحال من الحال.

والإمام يذكره الصحبة، ويحيله إلى إبقائها وإلى عدم الشقاق والفتنة؛ ولكن الرجل غلب عليه الطيش،ولم يتحاش عنه، ولذلك يؤسف عليه، والواضح من خطابه أنه متهور، حيث قال: إنها أي المدافع أول غنيمة من قطرك الشاسع، كيف يجعل مال المسلم غنيمة، وهذا شيء حرمه الشرع إلى آخر ما جاء في كتابة.

ولم نذكر الكتابين معًا؛ لأنهما موجدان في سير المسلمين: محفوظان فلا نطيل بذكرهما، وإنما أشرنا إليهما وذكرنا فقرات من كتاب الإمام؛ لندل بها على الصدى المطلوب.

وقال الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكرهما: وبكل أسف لم نعثر على جواب الإمام على هذا الكتاب. قلت: المفهوم إن هذا الكتاب لا جواب له عند الإمام إلا أحد شيئين، إما السكوت والاعضاء عنه وعن المدافع إبقاء للسلام، وإنما أن نوجه إليه مدافع أخرى تسترد تلك الدافع.

قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: وما أظنه إلا كما قال الشاعر:

وهـل تغنـي الرسـائل في عـدو إذا مـا لم تـكـن بـيـضـاً رقـاقـا

قال: وأئمتنا بحمد الله تعالى ممن ذكرهم الله في كتابه بقوله:

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٦٤] إلى قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٣] فهم الأئمة الفعالة، وغيرهم الأئمة القوالة، وكأن هذا الرجل زيدي المذهب، وكأنه يثبت الوصايا لعلي:

قال. ودلائل الحال تقتضي إن بينهما وقائع؛ ولكن لم نطلع على ذكر شيء من ذلك، ومكن هذا الإمام من اليمن والهند وغيرهما يقتضي أن الأمر صار على خلاف ما يزعمه ملك صنعاء، وكذلك تمكن الأئمة من بعده فإنه ذكروا لهم من القوة والسلطان، والتمكن من البلدان النائية والأقطار القاصية، على ما سيأتي ذكر بعضه، وذلك يقتضي أن الإمام ومن بعده من الأئمة تمكنوا من اليمن وغيرها ما خلا صنعاء، فإنا لم نجد تاريخًا في التمكن منها نفسها، وإما آثارهم فظاهرة في أطراف اليمن، والله أعلم بما وقع بعد تلك المخاطبة إلى آخره.

* * *

معارك الجيوش العُمَانية للإفرنج

إن معارك الإمام سلطان للإفرنج بواسطة قادة جيوشه عديدة، لا يسع المقام ذكرها تفصيلاً، فإنها تستدعي مؤلفًا مستقلاً، ذكرها المؤرخون وذكره الشعراء العُمَانيون في مدائحهم، وأولها مسقط، وقد ذكرناها؛ لأن ذكرها ضروري، إذ هي المفتاح الذي للقفل البرتغالي، ومنها وقعت كنج أكبر وقعة بين العُمَانيين والبرتغال، بلغ صداها أقصى بلاد الشرق وأهتز لها العالم وسباهما الجيش، سفنهم إلى عُمَان، وساق الغنائم وإليها يشير الشيخ خلف بن سنان، حيث يقول:

ولـدى كـنـج كـان منـهـم لـهـم ما كـاد منـه تـدكـدك الآكـام

أي كاد الجبال تندك منه، وجاء البرتغال في غزوة من غزواتهم، فأحرقوا

الدوحة من ضواحي مسقط، وذلك بعد»غزوة الديو» وكان قائد الجيش إلى الهند راشد بن علي، الذي مدحه الشيخ خلف ابن سنان في قصيدته الميمية، وكان السبي ألفى أسير، وفي بعض النقل ستة آلاف أسير، أشرنا إليهم في»العنوان»»، وغنم منهم كنوزاً عظيمة، ووقعة ممباسا التي هي مضرب المثل في الوقائع، كما ذكرها المؤرخون، واصطلمها منهم ورفع العلم العُمَاني عليها عهدًا.

ومنها وقعة كلوه وهي وقعة قادت ذلك الصقع معها راغمًا، وقادها العُمَانيون من أنفها صاغرة، وزاد نشاط العُمَانيون، وظلوا يتقاحمون على تلك القرى تقاحم الأسود الصائلة

ومنها وقعة زنجبار، ولا تسل عن استبسال العُمَانيين فيها. ومنها وقعة بمبى خاصة، فكان الأهالي يفرون منها إلى براري الهند النائية خوفًا، ووقعة مخا، ووقعة باب المندب في البحر الأحمر، وقعتان اصطلم العُمَانيون فيهما جنود الكفر، وقادوا البواخر بما فيها غنيمة أصبحت ترفع العلم العُمَاني في البحر الأحمر، وهو يهتز لها هيبة، ويقلق لها رعبًا، واستفاد الشراة الذين احتلوا هذه الوقائع آلافًا طائلة.

ومنها وقعة مسبيج التي قهر فيها الأعداء، وقطعت رؤوسهم إلا ما شاء الله، ولم يحصنها من الاحتلال حصن ولا قلعة.

ومنها غزوة(بتة) وقائد الجيش الشيخ الصارمى محمد بن مسعود صاحب عين السواد في أمطى، فاحتلها بعد قتل ذريع وقهر سريع، وفيها قال قصيدته الحائية، وفيها قال الشيخ خلف بن سنان قصيدته الرائية، ومطلعها:

هو السيف مقرون به العز والنصر

وكانوا فقط مائة وعشرين رجلاً يتغلغلون في الهند لا يبالون بما يلاقون أن أيام الإقبال زهراء ذات بهجة تكاد بطبيعة الحال تتصرف في صالح الأمة.

وتوفى الإمام سلطان رَحِمَهُ الله يوم الجمعة الذي توفي فيه الإمام ناصر بن مرشد رَحِمَهُ الله

، وكلاهما توفى وقت الضحى؛ لكن الإمام ناصر توفى في يوم عاشر من ربيع الآخر ١٠٥٩هـ سنة وهذا توفى يوم سادس عشر من ذي القعدة ١٠٧٩هـ سنة.

* * *

الإمام بلعرب بن سلطان

لا يخفى أن بلعرب بن سلطان بن سيف بن مالك بن بلعرب ابن سلطان اليعربي، وبقية النسب قد مضت، لما مات الإمام سلطان خلف ولدين هما بلعرب وهو الاكبر وسلطان وهو الاصغر وأختاً لهما وكان بلعرب متوجًا بالشيم الطيبة والفضائل الجميلة، والأعمال الحسنة، رأى أن الدولة كاملة في جميع أحوالها لا غضاضة عليها في شيء ما أبدًا، إلا أن ناحية العلم محتاجة إلى همم تستشيرها، وأعمال تقوم بها، ورعاية تحددها، وكان بني قصر جبرين قبل إمامته، ويقال إنه بناه من صلب ماله، فتم بناؤه قبل وفاة والده بسنتين، إنه ليعبر عن غنى مائل في عُمَان في ذلك الوقت، إذ بناه بملايين الملايين كما قيل، وخزن فيه لطوارئ الدهر مثل ما بناه به، وكان آية في روعة الصنعة، بحيث أصبح يضرب به المثل.

قال شكيب أرسلان، المعروف بأمير البيان، وهو من أكبر المؤرخين ومن المطلعين على أحوال الأمم قال، وهو يذكر الإمام سلطان: قد خلفه (ولده بلعرب)، وكان هذا محبًا للعلم والعلماء، بنى مدرسة في يبرين، وجعل إقامته فيها، بل بنى، القصر المعروف الذي سبق كلامنا عنه، وكانت المدرسة في القصر، قال: وثار على بلعرب أخوة سيف بن سلطان، قال: وعضد هؤلاء الفقهاء، أي انقسم الفقهاء بعضهم مع بلعرب يؤيده في أعماله، وبعضهم مع سيف يؤيده على أخيه، وقد أشرنا إلى هذا الحال، وأسبابه في كتابنا «العنوان»، قال شكيب: فانقسمت الرعية إلى قسمين متساويين، أولاً ثم جعل حزب سيف يتقوى على حزب بلعرب، وكان هذا أي بلعرب سخيًا جوادًا مواسيًا للفقراء، فلقبوه أبا العرب لكرمه، فلما طالت الفتنة بينه وبين أخيه، واضطرب حبله صاروا يلقبونه بلاء العرب.

قلت: هذا لم نجده إلا عن أبي رزيق، ولعل شكيبًا تلقاه عنه، وحاش أهل عُمَان أن يقولوا ذلك، اللهم إلا إن كان عن الجهال الذين لا يهتدون للحق، قال شكيب متمثلاً بقول القائل:

والنّـاس مـن يلق خـيرًا قائلون له   مـا يشتهي ولام المخطئ الهبل

أي من ساعدته الأقدار، فالنّاس معه على ما هو عليه، وإذا انقلب الزمان عليه كانوا أيضًا كما قال النبهاني:

والنّـاس أعـوان الكـريم لذاته   وهـم عـليه إذا هـوى أعـوان

قال شكيب: وأخيرًا استصفى سيف أكثر البلاد، ولم يبق لبلعرب إلا يبرين، وبينما أخوة إذ قبض فاستراح، واستراح بموته أخوة، وصفا الوقت لسيف.

وقال ابن رزيق وغيره من مؤرخي عُمَان، كصاحب كشف الغمة وغيره: وقعت بين الإمام بلعرب وأخيه سيف فتن عظيمة، وأصاب كثيرًا من أهل عُمَان من فقائهم ومشايخهم أهل الورع والزهد والعلم عقوبات شديدة، إلى أن كادت تنفر نفوسهم قبل الحمام من أتباعهم السفهاء، واقتفاء آرائهم وقبولاً كلمتهم، هذا أورده ابن رزيق وأخذه عنه الإمام السالمي رحمه الله، ولم يذكروا تلك الفتن التي يشيرون إليها ولا أسبابها، وهذا الكلام الذي ذكره ابن رزيق يحتاج إلى تحليل، فإنه ذكر أن تلك الفتن أصابت الفقهاء والعلماء وأهل الزهد والورع، وإن عقوبات كأنها جاءتهم من سيف بن سلطان، ولم يذكروا لنا شيئًا منه مما يحسن السكوت عليه، وهذا من المشاكل. وأقول لولا قيام الإمام سلطان على أخيه، واستيلاء الحصون عنه وحصاره إياه في جبرين، حتى مات الإمام بلعرب في الحصار، لقلت هذا كذب لا أصل له؛ لأن أهل الفضل لا يفعلون ذلك؛ ولكن القيام على الإمام العادل المجمع على يصح ما لم يقترف ذنبًا فيتوب منه، فإن تاب بقي في إمامته، وإن لم يتب وجب خلعه، ووجب الانتصاف منه إن ظلم مالا لأحد، وإن أصر على ما هو عليه وجب قتاله، ولم يذكروا في تاريخ الرجلين شيئًا من ذلك، وربما

كان احتمال الذي ذكرته في «العنوان» يليق بمقامهما والله أعلم.

وإنها لمصيبة كبرى لا بد لها من أثر يومًا ما، فكان غير بعيد عنهما، وبذر الشر كالبذر يختفي في الأرض حتى اتبله المطر نبت فكذلك بذر الشر يختفي ثم يظهر بعد حين.

ولما رأى الإمام بلعرب هذه الأحوال التي تحيط به غير مراعية في حقه إلا ولا ذمة، خرج من نزوى كالمختبر للحال ماذا وراء ذلك، خرج من نزوى وتوجه ناحية الشمال متفقدًا للأحوال، فلما رجع إلى نزوى منعه أهلها دخولها، وأظن أن المنع قرره أخوه سيف فلم يقدروا على خلافه، وإلا فما الموجب لمنعه ما كان جبارًا ولا ظالمًا ولا فاسقًا كان إمامًا رحيمًا بالمؤمنين سخيًا بما لديه يقرب أهل العلم، ويحب أهل الخير أبهذا يمنع من دخول البلد، ولا موجب أن هذا الداء الدفين في الروح العُمَانية طرأ عليها؛ ليقضي على إمامتها، إن لله وإنا إليه راجعون، بعد الإياس توجه إلى جبرين مقره ووطنه وبيته الذي بناه من ماله كما قيل، وبعد استقرار بيبرين اجتمع أهل هؤلاء على البيعة لأخيه، وهو حي موجود، ولا يحتج عليه بشيء إنها لمن المصائب الفادحة.

قال ابن رزيق: «وكان كل واحد رضاه تقية».

قلت: هذا يدل أن البيعة كانت إجبارًا وقهرًا وهذا حرام في الدين، قال: فعاقب بعضهم على عدم الدخول في العقد، قال: وخرج سيف على أخيه عليه كافة حصون عُمَان، وخاصم كل من كان لأخيه محبًا ومساعدًا.

قلت: وهذا أعظم قال: ولم يبق بيده إلا حصن يبرين قال: ووقعت بينهما حروب كثيرة، حتى قال بعض النّاس لبلعرب هو بلاء العرب.

قلت: الذي قال شكيب أرسلان في تعليقه، قال وقال: بعضهم سيف جلاب، وبلعرب فصاب؛ لكثرة سفك الدماء التي كان سببها منهما.

قلت: لم أفهم معنى ذلك الكلام، وهو لا شك يرمز إلى شيء خفي، قال:

وافترق النّاس فيهما، فمنهم من يصوب بلعرب، ويقول سيف باغٍ على أخيه في خروجه عليه، ومنهم من يقول: إن سيف هو المحق والبطل.

قلت: عرفنا قول القائلين أن سيفًا باغٍ على أخيه، وهو الظاهر؛ لأنه لم تقم على بلعرب حجة توجب عزله أو الخروج عليه، ولم نعرف ما يحتجون به لسيف، وهذا عين الإشكال.

قال ابن رزيق: ثم إن سيفًا جمع جيشًا عظيمًا وبلعرب يومئذٍ بحصن بيرين، قال: فحصره حصرًا شديدًا حتى مات بلعرب في الحصار، وقيل إنه اشتد على بلعرب الحصار، وتعذر عليه الانتصار، توضأ وصلى ركعتين، وسأل الله ربه أن يميته وهو راض عنه، فاستجاب له دعاءه، فمات من ساعته.

قلت: هذا من الممكن؛ ولكن من ذا الذي يطلع على ما بين بلعرب وربه اللهم إلا أن يكون عبيده وكان جاهرًا بالدعاء، وأظن أن هذا أمر مظنون غير محقق، وإن تداوله المؤرخون، ولعلهم رأوا ميتًا في مصلاه، وظنوا أنه قد دفن في نفس المكان الذي قبض فيه في مصلى أعده لخلوته في نفس القصر على وجبن الفلج، فإنه الفلج في نفس القصر، وقد زرناه هناك رحمه الله ورضي عنه، لقد أدى واجبًا كبيرًا في الإسلام، حيث أحيا العلم وأكرم العلماء، وسوف يأتي الكلام على المدرسة المشار إليها إن شاء الله.

وكان الإمام السالمي رحمه الله يثبت خروج سيف بن سلطان على أخيه، إذ قال في تحفة الأعيان: ذكر خروج سيف بن سلطان على الإمام وحصاره له بيبرين، قال حميد بن محمد بن رزيق الشاعر المتأخر: لم يزل الإمام بلعرب تضرب به الأمثال في العدل والجود، حتى وقعت بينه وبين أخيه سيف فتن كثيرة، قال: وأصاب كثيرًا من فقهاء أهل عُمَان، وأكابرها وأهل الورع والزهد عقوبات من سيف، وشد سيف على أخيه بلعرب الحرب، فخرج بلعرب من نزوى، وذكر القضية التي قدمناها بالحرف الواحد، إلى أن قال: وهو يذكر حصار سيف لأخيه

بلعرب في حصن جبرين، قال فلما عجز عن ملاحمته أي عجز بلعرب على مقابلة سيف، اجتمع أكابر أهل عُمَان، فعقدوا الإمامة لأخيه سيف، قال: وكثير من أهل عُمَان دخل في البيعة تقية؛ لأن سيفًا عاقبهم على عدم الرضى بإمامته، وخرج فأخذ حصون عُمَان كافة إلا حصن بيرين.

قلت: هذه إمامة قهرية ليست على أصول المسلمين ولا على نهجهم، إنما هي الغضب أشبه بإمامة معاوية ومن بعده. قال: فحصره أي في جبرين، وجعل يضرب الحصن بالمدافع، وكان عند بلعرب رجال مشهورون بالشجاعة، فكلما دنا جيش سيف بن سلطان من الحصن خرجوا له فكشفوه، وقتل في تلك الحرب من قوم سيف كثير، قال: ثم إن أكابر هؤلاء وهؤلاء اتفقوا على الكفاف عن الحرب، وقالا: الرأي أن نغمد السيف عن بعضنا بعضًا فإذا اقتتل سيف وأخوه بلعرب، وقتل أحدهما صاحبة صرنا رعية الباقي منهما وتبعًا، والمعنى ما في استطاعتنا إلا ذلك، فإن الأمور مقهور بالقوة كأن الجو ليس لأهل العلم نظر أبدًا إنما هي أشياء قهرية، سبحان الله المدبر المكون بحكمته.

قال: فإن أبيا عن المبارزة مكثت كل واحد منا في العسكر، فإذا طالت المدة على ذلك رجع كل واحد منا إلى وطنه، والظاهر ليس هذا في وسعهم بل تحت القهر من سيف بن سلطان، والقتال ليس لله، إنما هو لأجل الدنيا إنا إليه راجعون.

قال: فلما بلغ بلعرب خبر القوم، توضأ وصلى ركعتين لله، وسأل الله أن يميته، فلما فرغ من صلاته إلا وقد خر على البساط الذي صلى فيه ميتًا، قال: فعند ذلك خرج بعض خدامه من الحصن، فأخبروا أخاه سيفًا بوفاته، فاتهمهم وقال: قتلتموه قاتلكم الله، فحلفوا له أنه قد مات حتفت أنفة، ثم خرج أصحابه من الحصن كافة ومضوا إلى أخيه بلعرب كما أخبرته عبيده عن خبر وفاته، قال: فمضى سيف إلى الحصن وغسل أخاه وكفنه وصلى عليه ودفنه الخ.

هذه قضية سيف بن سلطان وإنها لمن سيئات القضايا وإنها لتنذر بزوال هذا الملك من أيديهم عن قريب، فإن بذر الشر وحب الذات داء دفين يسلب الخير من أهله، ويبث الشر بينهم، ولذلك كان العهد غير بعيد المدى والله المستعان.

* * *

العلم حياة الأمة

كان الإمام بلعرب بن سلطان رحمه الله رأى أن العُمَانيين قد بلغوا شأوًا بعيدًا في الزعامة، وأضافوا إلى عُمَان ممالك عديدة، أصبحت تلبي دعوتهم وتجيب نداءهم، ولهم صوت عالٍ في العلم يتقدم يومًا فيوما إلا أن العلم قليل بالنسبة إلى اتساع الدولة، وعلو شأنها واتساع رقعتها، والأمل في المقبل سيرها قدمًا، فإن جيوشها عبر الأقاليم في آسيا شرقًا وغربًا، ولها نشاط محسوس، فمالت نفسه إلى نشر العلم في عُمَان كما ينبغي تبعًا لقوله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وكان من قدر الله أن زار عُمَان في هذه الأثناء أحد علماء الإباضية أهل المغرب، يقال له الشيخ عمر بن سعيد بن محمد بن زكريا الجربي من أهل جربه خاصة، فرأى أحوال عُمَان وتقدمها في العدة والعدد، واتصالها بالعالم الخارجي، ورأى جيوشها الضخمة، وجنودها الفخمة، وعساكرها المتحمسة، فسره ما رآه وابتهج بما رأى وسمع، وعلى كل حال إن المحب يسره تقدم أحبابه في الخير؛ ولكنه لاحظ معاهد العلم لا تقدم لها ولا نشاط فيها بالنسبة إلى نشاط الدولة، فكتب بلعرب كتابًا يدعوه فيه إلى الالتفات نحو الناحية العلمية، والحقيقة كل يدعو إلى ما يجب، والعلم هو الحياة رغم كل شيء ولا عز ولا شرف إلا بالعلم، ولا ترتقب إلا به.

وهذا أمر مجرب معقول في كل جيل، فكان الشيخ الجربى جاء في نصيحته بتحقيق لا ينكر، ومقال لا يستنكر، بل بين كل شيء يلزم في هذا المقام، وتحدث

في كتابه عن كل لزام ونبه وأيقظ وبين وحرض، وما قصر في سبيل ما هو بصدده، وعلى كل حال إنما تنجح المقالة في المرء إذا صادفت هوى في الفؤاد.

كانت رغبة الإمام مائلة إلى نشر العلم والاعتناء به، فجاء الشيخ الجربي فقدح الزناد وحرك الفؤاد، وأبان المراد ووضع الصلاح والسداد، واستفرغ الوسع في النصح والإرشاد، فكانت دعوته في هذه مستجابة ونصيحته بالغة مبلغها من الإمام رحمه الله، فقام بواجبه واجتهد مبلغ طاقته، وأمر بالتعليم في جميع نواحي عُمَان، وخصص مدرسة جبرين بالرعاية، فدعا العلماء والمبتدئين والطلبة من العُمَانيين فقابلهم بالإكرام التام، ورعاهم بالإحسان والإنعام، وغذاهم بأطيب الطعام؛ لتطيب نفوسهم وتنشط الأفهام، وتنتبه القلوب وتتسابق الطلبة، وتتقدم في ميدان الجد والاجتهاد فكان لهم أبًا رحيمًا وسيدًا كريمًا. قال الإمام السالمي رحمه الله.

* * *

مدرسة جبرين وذكر بعض المتخرجين

كان الإمام بلعرب رحمه الله المحب للعلم بطبيعة الحال، ومن أحب شيئاً دعا إليه شيئاً أكثر من ذكره، ولما جاء الشيخ المغربي الجربي رحمه الله وكتب للإمام المرضى رحمه الله تلك النصيحة الصادقة التي أثارت حفيظة الإمام ونشطته، فأقام المدرسة بالقصر خاصة، وعين الغرف العالية من القصر لها، وهي غرف فاخرة جميلة، ذات رونق بديع لها اتصال بالفلج الذي في بطن القصر، ولا يرى من فيها في حال دخوله وخروجه أحدًا من عوائل القصر وخدمه، للهندسة التي يسرها الله لهذا الإمام الجليل في هذا القصر العظيم، فإنه من بدائع البناء الذي يحتار فيه الواصف، فكان الإمام معهم ليلاً ونهارًا، وكان له اعتناء عظيم بهم، فكانوا إليه من شتى النواحي كما يقل القائل:

فكانوا يقبلون على حماه كأسراب الظباء رأت معينا

فقامت لهذه المدرسة كبكبة من رجال العلم والأدب، وشاع لها ذكر، وابتهج

بها العُمَانيون غاية الابتهاج، فأثمر غراسها الثمر الحلو الذي تحيا به البلاد والعباد.

قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيقال إنه خرج من هذه المدرسة التي في حصن جبرين خمسون عالمًا كلهم أهل اجتهاد. قال: وقد أكثر الناس الثناء على هذا الإمام. قلت: إن الذين تخرجوا من هذه المدرسة أكثر من خمسين عالمًا بلغوا درجة الاجتهاد، فما ظنك بغيرهم ممن هم دونهم، وما ظنك بالأدباء والشعراء الذين استنار قرائحهم بنور العلم، واتسعت مداركهم بقوة الفهم، وكيف لا يكونون كذلك وعواطف الإمام تربيتهم، ومراحمة حافة بهم، وعنايتهم شاملة لهم، والشجر إذا سقى طال واتسق وأثمر.

قال الإمام رحمة الله: فقيل أنه كان يخدمهم بنفسه هنالك، وكان يختار لهم العطورات المقوية للأذهان والأطعمة المولدة للحفظ اهتمامًا كليًا من صميم القلب، قال ابن رزيق، وهو يذكر حين جبرين، قال: ونصب فيه مدرسة للعلماء والمتعلمين، قال: رغبهم يبذل المال وأكل الفواكه، فنالت العلم بكرمه الطلبة، فغدا من كان متعلمًا أي معه مبادئ علمية، فقيها أي اتسع أفق علمه، فصار في صف أهل العلم المنظور إليهم بأعين التوقير، وصار الطالب عالمًا.

قال: ومن كان أديبًا أي له في الأدب صار شاعرًا فحلاً متصرفًا في العربية له فيها يد، فمن المتعلمين الذين صاروا بعد ذلك علماء جهابذة مثل الشيخ خلف بن سنان الغافري، والشيخ سعيد بن محمد بن عبيدان وغيرهما كثير، قال: ومن جملة الذين تربوا بكرمه الشيخ راشد بن خميس الحبسي الضرير، وغيره. قلت: لم يذكر منهم الذين يستحقون الذكر علماء وأدبًا وعبادًا وزهادًا وغيرهم وهذا من قصور التاريخ.

وتوفي الإمام بلعرب بن سلطان سنة ١١٠٤هـ أربع ومائة وألف أي في أول القرن الثاني عشر للهجرة.

قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يذكر الإمام بلعرب قال: وقد أكثر الناس في الثناء على

هذا الإمام، قال ورأيت في مدحه ديوانًا حافلاً محتويًا على قصائد طنانة بلغت من فنون البلاغة مبلغًا عظيمًا، وعلى هوامشها تنبيهات على أنواع البديع في الأبيات، قال: وقد غاب عني هذا الديون فلم أره منذ زمان، وإنما رأيته أيام الصغر: وأحفظ من أوائل بعض القصائد أبياتًا يسيرة، قال في أول قصيدة لامية:

لمى بوادي الدوح دور أطلال   سقتها غواد من ملث وآصال
وهمهم في آرجائها الرعد برهة   إذا ما انقضى وبل تعرض هطال

قال: وقال آخر في أول قصيدة لامية أيضًا:

زم المطى فعقد الدمع محلول

وقال آخر:

الله أكبر جاء الفتح والظفر   وأشرقت في الدياجي الأنجم الزهر
وأصبحت سبل الإسلام واضحة   أعلامها واستقام السمع والبصر

قال: وغير ما أشرت إليه كثير وكلها مدائح في الإمام، قال: وللخلق شهود الله في أرضه، فمن أثنوا عليه خيرًا كان أهلاً للخير، ومن أثنوا عليه شرًا كان أهلاً للشر، الخ وذكر الإمام رحمه الله على أثر ذلك الشاعر الخاص الذي أخرجته تلك المدرسة، وهو راشد بن خميس بن جمعة بن أحمد الحبسي النزوي من جملة من تعلم في ظل هذا الإمام وصار من جملة من مدحه وأثنى عليه.

* * *

ذكر قصر جبرين

كان الإمام بلعرب بن سلطان قد بني فصر جبرين على ما قيل من صلب ماله في حياة والده، وتم بناؤه قبل موت والده بسنتين، هنا يعجب الإنسان وتأخذ الحيرة، بالمال الذي بنى به هذا القصر، أما لو كان بناء في حال إمامته لكان من المعقول أنه بناه بأموال الدولة، وذلك العهد الدولة نشيطة بالخراج الذي يأتيها من الممالك العديدة، حيث توسع نطاقها كما يعلم ذلك المؤرخون، أما كونه من

ماله الخاص فمن أين هذا المال وأبوه حي ولم تعرف له تجارة؟ وأموال والده أموال الدولة، هذا من الإشكال الواضح الذي لا يستطاع إيضاحه، وكان هذا القصر كما موجود في غاية الروعة صنعة وضخامة وإبداعًا، فإذا ألقى العاقل إليه نظرة يبقى حائرًا في تصويره، والحال أنه من بدائع البناء، ومن مدهشات الأفكار في النظر الصحيح، فكان الإمام رحمه الله موضعًا لجثته بعد مماته، إذ دفن فيه قرب النهر في مكان اتخذه الإمام مصلاه في خلوته، ولقد أطال الواصفون في وصفه، وأكثر الكاتبون القول فيه نظمًا ونثرًا، وهو فوق الوصف.

وبالجملة هو دليل على عظة تلك الدولة وأشاع أيديها بالمال، ومعتبر لمن يأتي من نواح عديدة، وكم لآل يعرب في أيامهم تلك من عجائب، وإذا ذكرنا قلعة نزوى أو قصر الحزم أو الجيوش التي يخوض العالم في ستة وتسعين ألف عنان من الخيل، أو نظرنا إلى المدافع التي خلفتها تلك الدولة الطائرة الصيت، أو الأفلاج التي أجرتها بعُمَان، حتى هم صاحب الحزم أن يجعل عُمَان كجنتي مأرب، وأن يذهب الحاج من عُمَان بلا زاد إنها أحوال تسجل لعُمَان الشرف الباذخ، ولآل يعرب الهمم التي تبهر عباقرة الرجال، وليتها طال عهدها على ذلك الوضع؛ لكن الدهر يأبى إلا التقلب.

ولقد ضرب باليعاربة المثل لمن يأتي بعدهم، ولقد صدق القائل:

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

والله يؤتي ملكه من يشاء.

* * *

تقلب الأحوال بجبرين

اعلم أن جبرين بعد موت الإمام بلعرب تقلبت به الأحوال، وتوالت عليه من الدهر أعمال، ولعبت فيه أيام الدولة اليعربية نفسها رجال لترى الأيام الناس في تبادلها بينهم أعمالاً يعتبر بها العاقل، لقد تعب فيه الإمام بلعرب رحمه الله فأنفق في بنائه ثلاثًا وعشرين كرًا، وخزن فيه لحوادث الدهر مثلها، وبعد موت بلعرب تولاه أخوه سيف بن سلطان، وبقى في يده عهدًا ثم عاد عليه ولده أي ولد الإمام بلعرب، وهو يعرب بن بلعرب، فوجد في الحصن تخريبًا فأصلحه، فبلغ إصلاحه أربعين ألفا، وسبب التخريب الحرب التي دارت بين سيف وبلعرب.

وبعد ذلك افترق آل يعرب وتخاصموا فيما بينهم، وقام كل واحد يدعي الزعامة له، واستنصر بعضهم بخلف بن مبارك المعروف بالقصير بصيغة التصغير، بعد ما كانوا يريدون عُمَان، وهم أهل الحل والعقد، وتعلق بعضهم بمحمد بن ناصر الغافري بعد ما كانوا مرجع الغافري والهنائي، قال أمر حصن جبرين أن يقتعده محمد بن ناصر؛ ليجعله ملجأه الذي يلجأ إليه، ومأواه الذي يأوي فيه.

وكان العقد في كل شهر بثلاثمائة محمدية، ولعله حيلة مدبرة، فكان من قدر الله أن قتل محمد بن ناصر في حيلة بصحار في حال خصامه لخلف بن محمد، فقبض ناصر بن محمد بن ناصر على حصن جبرين، وبقى في يده عهدًا ثم تآمر عليه اليعاربة فقبضوا عليه أي ناصر بن محمد عند باب بادي في بلد بهلى، فلم يقتلوه إلا بتسليم الحصن، فرأى الموت بين عينيه، ففدى نفسه بتسليم الحصن لهم، وبقي في أيديهم.

وكان بنو غافر يضمرون لهم العداوة فكان بجاد بن سالم يتحين غفلة اليعاربة حتى أمكنته الفرصة فقبض هذا الحصن في حال غفلة اليعاربة، وعلى كل حال إن المأخوذ غافل والمطلوب مقهور يومًا ما، ولما قبضة بجاد سلمه إلى ناصر بن محمد

وعض عليه بالنواجذ، ثم إن بلعرب بن حمير بن سلطان وهو ابن أخي الإمام الباني مكنه الله من بجاد المذكور فقبض عليه.

وكان المذكور قاهرًا لنزوى، فأودع بجاد السجن، ثم قتله في السجن بحصن نزوى، وعاد الحصن لآل يعرب وتمركزوا فيه، حتى عادت الأقدار لتنزعه منهم وتريهم ما يسوءهم فأخذ هذا الحصن بنو غافر سنة ست وثلاثين ومائة وألف بعد موت الإمام سيف بن سلطان قيد. الأرض بثلاث عشر سنة، ولم يزل الحصن في يد بني غافر إلى سنة سبع وخمسين ومائة وألف، أي واحد وعشرين سنة، وهم يديرون الحيل لاسترداد إليهم فدخلوا في خادم لراشد بن حميد الغافري، وأدخلهم الحصن فتولوه، وبقي الخادم عند اليعاربة محترمًا؛ ولكن ماذا يكون من هذا الخادم الذي خان لآل يعرب، لابد يخون لغيرهم، ولا يطمئن إلى خائن إلا جاهل.

فبعد مضي ستة أشهر دخل الخادم الحصن بحيلة من العسكر القابضين له، وهم مطمئنون من الخادم؛ لأنه كان معهم باطنًا وظاهرًا، فلما دخل أغلق الباب وأطلق الرصاص على العسكر فقتل منهم سبعة رجال، فاجتمعوا عليه وحصروه، وما يريد الخبيث؟ أيريد أن يكون سيد الحصن؟ فلم يقدروا عليه؛ لأنهم لا يدرون أين هو، وإذا رأى أحدًا منهم رماه؛ ولكنهم أحرقوا الباب، وهجموا عليه بغير مبالاة، فلما أحس أنه مقتول أطلق النار على مخزون البارود، وكان مخزنًا كبيرًا يجمع أبهرًا عديدة من البارود، فقام البارود كالرعد واشتعلت فيه نار عظيمة، فاحترق غالب الحصن، إذ ظلت النار تموج فيه كالبحر وطير قطعًا كالسحاب.

وأخيرًا تولاه آل يعرب وكان زعيمه محمد بن سليمان اليعربي، فقام عليه راشد بن حميد بن راشد بن ناصر بن محمد بن ناصر، وأحاط به هو وجماعته، وكانوا رهطًا وكان زعيمًا مطاعًا، فخرج منه محمد بن سليمان يوم سابع من شهر شعبان سنة تسع وخمسين ومائة ألف، وبقي آل يعرب في بهلى، فقام عليهم

فيها فطردهم منها، وبقيت بهلى وجبرين في أيدي أولاد راشد بن حميد إلى أن أخرجهم منها الإمام عزان بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثم عاد إليهم عاد إليهم بعد انتهاء دولة الإمام المذكور، ثم أخرجهم منها الإمام سالم بن راشد الخروصي رَحِمَهُ اللَّهُ في عهده ولم تعد إليهم إلى اليوم، هذه أحوال جبرين التي تقلبت به أوردناها وإن خالفت أسلوب التاريخ للإفادة.

* * *

الحكم على جبرين البلد المعروف

لما تم الكلام على حصن جبرين لقصد البيان والتبيين، وجب الكلام على نفس البلد لما لها من التعلق بالمقام، قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ، قال ذو الغبرا وهو الشيخ خميس بن راشد، والد الشيخ ماجد العبري في حصن جبرين: إنه يحتاج إلى حكم من أهل العلم؛ لأن أربابه تفرقوا، وقد خلت أمة بعد أمة، قال: وأما أموال يبرين فقد سمعت عن كثير من الناس أنهم لم يأكلوا منها، وقالوا: إنها حرام. قال: وينبغي لمن حرم شيئًا أن يأتي فيه بحجة صحيحة، وكل آية لها تفسير، وكل مسألة لها جواب.

وقال في كلام قبل هذا قلت لصاحبي: هل عندك صحة في جبرين وما قالوا فيه؟ فقال أما الماء والأموال والمراد بالماء هو ما تسقي به النخل والشجر والحروث من زرع وغيره، والمراد بالمال هو الحدائق ذات النخل والشجر عرفًا عُمَانيًا عامًا شائعًا إطلاقًا قال: فالأكثر آل إلى الشيخ ناصر بن محمد الغافري، وشيء منها آل إليه بالإرث.

قال: وسمعت هذا من محمد بن عدي بن محمد العبري وسعيد بن سليمان الزرعي، قال: وقد رفعا عن اللذين يثقون بهم في زمانهم الذين أكبر منهم سنًا وأرجح عقلاً، وقالوا: إن الشيخ ناصر بن محمد أشهدهم وأمرهم بالكتابة بالكثير من الأموال في وصيته، وطلق نساءه بحضرتهم، وأشهدهم بذلك، وأمرهم أن

يكتبوا الماء والمال الذي آل إليه بالإرث والشراء من آل يعرب من يبرين لبيت المال، فلما مات الشيخ ناصر بن محمد شهد هؤلاء بذلك قام: والمال الذي خلفه ناصر لم يقسم على ورثته، قال: وأما حصن يبرين فلم يصح فيه بيع ولا هبة من آل يعرب إلى يومنا .أهـ كلام ذي الغبرا والله أعلم.

قلت: أما اليوم وقد انقرض آل يعرب ولم يعد فيه مطالب بحق فقد صار مجهول الأرباب، وكل مجهول الأرباب يرجع أمره إلى الإمام عند وجوده، وقد قبض الإمام الخليلي رَحِمَهُ اللهُ في زماننا هذا بواسطة عاملة على بهلى، وهو الشيخ عبدالله بن محمد الريامي المعروف بأبي زيد، وأخرج منه قاضية وهم عائلة الشيخ ناصر بن حميد العطابي، لكنا لا ندري على أي طريق كان قبضه، هل هو خوف الافتتان عليه؟ أم خوف باغ يتمركز فيه؟ وقد بلغنا أن الشيخ أبا زيد أصلح فيه كثيرًا من التخريب من بيت المسلمين، وهو علامة جليل من خيار المسلمين أهـ والأمر لله عَزَّ وَجَلَّ.

❋ ❋ ❋

أدب الإمام بلعرب بن سلطان

كان الإمام بلعرب من الأدباء الذين يقولون الشعر، ومن شعره المعروف يقول:

إذا ما دعتك النفس يومًا لريبة	فعاص على حال هواها وخالف
ولا تتبعها مدة العمر إنما	أتباع هواها قائد للمتالف
وجانب هواها ما استطعت فإنما	مجانبة الأهواء حرفة عارف
وخف من إله العرش شدة بطشه	لعلك تنجو يوم نشر المصاحف

وله أيضًا رَحِمَهُ اللهُ:

ولما بلوت الناس لم أر صاحبا	أخا ثقة في النائبات العظائم
وأبصرت فيهم في رخاء وشدة	فلم أر منهم غير كسب الدراهم

فإن كنت ذا يسر فحولك أنهم ... مماليك أو عسر كأضغاث حالم
وثقت بمن أحيا العظام رميمة ... وأنشأها خلقا لطيفا المناسم

* * *

إمامة الإمام سيف بن سلطان قيد الأرض

لا يخفى أن سيف بن سلطان تولى الأمر على أخيه الإمام بلعرب بن سلطان، وقهر أكثرية أهل عُمَان بالعنف، وإطاعة أكثر الناس تقية كما علمت ذلك مما سبق من الحديث الذي قدمناه في الكلام على الإمام بلعرب، وقد احتملنا في «العنوان» والغيب لله ﷻ.

قال الإمام السالمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واجتمع أكثر أهل عُمَان وعقدوا الإمامة لأخيه سيف، قال: وأحسب بعضهم دخل في الأمر تقية، وأحسب أن بعضًا عوقب بتركه الدخول في العقد، قال: خرج سيف على أخيه وأخذ كافة حصون عُمَان، ولم يبق إلا حصن جبرين، قال فسار إليه سيف بنفسه وحاصره فوقع بينهم الحرب حتى مات بلعرب في الحصار، فطلب أصحابه الأمان؛ ليخرجوا من الحصن، فأمنهم سيف فخرجوا من الحصن.

قال: وأحسب أن بعضًا من أهل العلم لم يزالوا متمسكين بإمامة بلعرب حتى مات، ويرون أن سيف بن سلطان باغٍ على أخيه، قال: واستولى على حصون عُمَان وضبط الممالك وأحسن السيرة وأنصف الرعية، وهابته القبائل، قال: وتسمى بالإمامة.

قلت: كيف لا يتسمى وقد تقدم أن أكثر أهل عُمَان اجتمعوا وعقدوا عليه بها، فهو بهذا إمام، وقولهم أن بعضًا دخل في الأمر تقية لا يخل بعقد الإمامة إذا كان أهل الحل والعقد هم الذين عقدوا، فمن حاول لشغب وجب عقابه، وقولهم خرج على أخيه باغيًا لا نعلم عذره في ذلك، فيجب السكوت فإنه سيأتي أنهم اجتمعوا للنظر في إمامته واتفقوا أنه صحيح الإمامة.

قال الإمام: ولقب بقيد الأرض لضبطه الممالك وتقيده البلاد بعدله، ولم يعب عليه أحد من سيرته شيء إلا ما كان منه في أول أمره من خروجه على أخيه الأمام العادل.

قال الإمام: وسمعت شيخنا محمد بن مسعود يذكر أنه وجد أن العلماء جلسوا يوما في مجلس يتذاكرون إمامة قيد الأرض، فقاموا على أنه صحيح الإمامة، قال: ولعل ذلك بعد تتوية من خروجه على أخيه وتجديد العقد عليه بعد موت أخيه، وإلا فالعقد الأول غير صحيح.

قلت: لم يبينوا العلماء الذين عقدوا عليه الإمامة، ولم يعينوا الذين اجتمعوا للنظر في إمامته، ولم يوضحوا وجه صحة إمامته.

وخلاصة الأمر هم المبتلون بما هنالك والله المعين، قال: والخروج أي على الإمام العدل غير جائز.

قلت: ومن ذا الذي يقدر على تتويب قيد الأرض، وقد دخل الأكثر في إمامته تقية.

قال الإمام: وباب التوبة مفتوح، قال: ولم يزل على حسن السيرة وسياسة المملكة. لقد رفع سيف بن سلطان رأسه ينظر إلى العالم الخارجي ليمد سلطان المسلمين فيه، وينشر العدل في نواحيه، وكان توفيق الله حليفه، وكانت له همة عالية كما يقول القائل:

ألا يا شيخنا الكندي أعندك مثل ما عندي
فعندي للعلى همم تفوق النجم في البعد

والحقيقة الرجال بهممها وعلى قدر همة الإنسان تكون أعماله، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «الأرزاق على قدر الهمم». وناهيك «بقيد الأرض» لم يضعوا له هذا اللقب عبثا، إنه لقب كبير يدل على أمر خطير تجلى ذلك الأمر في أعمال هذا الشخص الفذ الذي هز الأفق الشرقي من أفريقيا الشرقية، كما سوف تقف على شيء منه إن شاء الله.

قال شكيب أرسلان في التعليق على حاضر العالم الإسلامي. واجتاح أسطول سيف جزيرة سلريت بقرب بنباي الهند، وكذلك « مدينتا بارسالور ومانغالور»

، قال: ولم يقدر راجاكارناتيك في داخلية الهند، قال: وكان سيف حكيما مدبرا محبا للعمران، بصيرا بالإصلاح، فانتظم بإدارته جمهور المرافق المصالح، والتأم بنفاذه شمل المعاون والمناصح.

قلت: نعم لأن دين الرعية من دين ملوكها، وإذا كان الملك صالحا كانت الأمة كلها صالحة، قال: وهو الذي شرع في بلاده بحفر قنى المياه تحت الأرض.

قلت: هذا غلطة به ذلك للعُمَانيين من قديم، وإنما قام هو بنوع من مثله. قال: ويسمون ذلك في عُمَان فلجا. قال: والفلج بفتحتين النهر الصغير، وأما بضمتين الساقية التي تجري إلى البستان. قال: ففاضت الخيرات بهذه القنى، وترقت الزراعة ترقيا بالغا. قال: واعتفى سيف بمدينة الرستاق، واعتنى أيضًا بغراس النخيل، واستجاب أصنافه وبلغ في ذلك غاية الاعتزام والالتزام، وصار ذا ثروة طائلة ونعمة لا تحصى، قيل إنه كان يملك ثلث نخيل عُمَان، قال: وكانت حاضرته الرستاق.

وتوفي بها يوم ثالث رمضان سنة ١١٢٣هـ هذا كلام رجل أجنبي بعيد عن عُمَان، يتحدث عن عُمَان بصفتها بلاد عربية فهو يفتخر بها ويعتز بالحديث عنها.

* * *

الجزء الرابع

الإمام سيف بن سلطان ينظم الجيوش

كانت للإمام سيف بن سلطان همم عالية، وكان له نشاط ملموس، رأى أن الجهاد يحتاج إلى استعداد بسلاح الوقت، وكانت الخيل كما وصفها الله عزوجل قوة المسلمين، وعدة الأئمة فأقبل سيف بن سلطان على جلبها من جميع النواحي، وأنفق عليها الأموال الطائلة، فاجتمع له أمر ليس بهين، فكان جملة الفحول منها ستة وتسعون ألف حصان، دخل بها أرض الهند، فاجتاح ساحلها.

وإن جيشًا يكون جملة الخيل فيه هذا العدد إنه لعظيم لم يبلغنا في تاريخ الدول التي قرأنا تواريخها، حتى لم يجتمع هذا المبلغ لنبي الله سليمان بن داود عليه السلام، فكم يتصور العاقل طعام هذه الخيل كل يوم، وقد سلح هذا الجيش العُمَاني برجاله الأبطال، وصناديده الأقيال، حتى لم يقف إلا في أفريقيا كما ذكره المؤرخون إلا الإفرنج المطلعون، الذين لا يحبون إشاعة هذه الأشياء للعرب على الخصوص، وللمسلمين على العموم، بل شأنهم يصغرون أهمية غيرهم من المسلمين وبالخصوص العرب.

* * *

الجيش البري بعُمَان

يحتار العاقل إذا نظره على الأحوال اليعربية، ولا يقدر أن يتصور الحقائق كما هي، فإن اليعاربة بعد استقرار أمر عُمَان في داخليتها، اندفع اليعاربة على العالم الخارجي كالبحر يطمو على كل جهة، لقد ملأ الإمام سيف بن سلطان مراكز عُمَان رجالاً من صناديد الرجال، وأبطالاً أقامهم على بقية الأعمال، ويفتكر الإنسان من أين هؤلاء الرجال، وأين تربوا وهم بين الشيخ والقيصوم والضال، أصبحوا يديرون أمور الأمة على أحسن نظام، فهم في عُمَان في أعمالها عالمون، وهم للجيوش في الخارج قائدون، وهم لفل الكفر مطاردون، وفي أسرع وقت هم للمجد بانون، فالقلاع برجال عُمَان مملوءة: الثغور بهم من العدو محفوظة،

والممالك الأخرى من رجال الأساطيل مرتاعة.

والعلم اليعربي العُمَاني على الكل خفاق، واسم عُمَان جمال القرى والبلدان أيام عُمَان زهراء نيرة، وطالع العدل والإنصاف على ربوعها مشرق وقاده حيث البحر إذا زمجر وهاج، رأى على هامته علم عُمَان كالتاج، وإذا زخر وماج، سال على ظهره الذهب الوهاج، وإذا تلاطم وزمجر لأي بسيل على متنه الدم الأحمر، هي عُمَان الحرة التي عرفها التاريخ منذ عهدها الأول، الذي لم يزده الإسلام إلا إكبارًا، لو أهل عُمَان أتيت ما سبوك ولا ضربوك، إنها القلعة الكبرى التي تنظر إلها الأعين بالإعجاب، وإنها نجمة الفجر في الندى، والشهاب الثاقب في أيام العدل بين الشعوب.

❋ ❋ ❋

الجيش البحري العُمَاني

لقد جارى الإمام سيف بن سلطان العصر، فنظم جيشًا بحريًا لا تزال بوارجه تمخر عباب البحر، وتخوض مياهه يرف عليها العلم العُمَاني الأبيض، الذي تحسبه قمر السماء يخفق على الخليج العربي، وعلى البحر العربي حتى ينتهي برأس الرجاء الصالح في عهد الإمام سلطان بن سيف، قيد الأرض رحمهما الله.

وكانت مشاهير الأساطيل في هذا العهد أولها كعب رأس أضخمها حجمًا، وثانيها الفلك، وثلثها المُلْك بسكون اللام، وكان المُلْك مسلحًا بثمانين مدفعًا، ومن هذه المدافع ومن عددها يتصور العاقل عظم هذه البارجة الحربية، ورابعها الناصري، وخامسها الوافي، وسادسها نزوى، وسابعها منح، وثامنها بهلى، وتاسعها سمائل، وعاشرها الرستاق، وبعضها لها أسماء أخرى وألقاب فخمة، ذكرها صاحب حياة الشرق.

فهذه البوارج بعضها كان غنمه العُمَانيون من البرتغال، وبعضها من الأمم التي اصطلمها العُمَانيون، وبعضها أهدتها الدول للإمام تحببًا إليه وخوفًا منه، وجلباً

لصداقته، وفي التاريخ العُمَاني: كانت ثمانية وعشرين مركبًا حربيًا، أي هذه التي تمخر عباب البحر، عليها الرجال، والمدافع لا غير.

أما السفن فأكثر من مائة سفينة، قال: في حياة الشرق، فعدت دولة عُمَان في هذا العهد الدولة الرابعة من دول البحار بعد صلاح الدين الأيوبي، فكان العلم العُمَاني هو النجم الشرقي الذي يسير عليه الناس في هذه الآونة، فانظر أيها العاقل في عُمَان بعهدها النبهاني، وقابله بعهدها اليعربي، وعُمَان هي لا غير، وهكذا ومازال يخطب ود الإمام القريب قبل البعيد خوفًا ورهبًا، وفي قصيدة الشاعر المتفقي محمد بن صالح البصري يقول مشيرًا إلى الأساطيل التي ذكرها:

وانشد مراكبه التي صدمت مرا ... كبهم وأهدتها بنادق حاميه
الملك ثم الفلك ثم الناصري ... مع كعب رأس كالجبال الراسيه
كم أخرقت كم أغرقت كم أحرقت ... من برشة حزبية أو باغيه
كم غادرت جثث الكلاب مجاقة ... أو جيفة في البحر تذهب طافيه
الفرس سلهم حين فروا بعد ما ... نظروا فوارسهم أتتهم عانيه

إلى أن قال:

آها على تلك الرئاسة والسيا ... سة والفراسة والخصال الزاكيه

ومنها:

فسل النصارى ما رأوا في بحرهم ... والبر من تلك الجنود الغاشيه

لقد رأى النصارى من الإمام سيف بن سلطان ما ساءهم، وللرحماني ما ليس لغيره من القوة، وهو الذي بقى في يد أحمد بن سعيد البوسعيدي وارث العرش اليعربي، وهو الذي دخل به الجيش العُمَاني البصرة في أيام الإمام أحمد بن سعيد، إذ كان مسلحًا بالألماس الثمين، فقطع السلاسل التي أغلق بها مدخل البصرة وكذلك الصالحي غير بعيد عنه.

* * *

الإمام سيف بن سلطان يقبل على عمران عُمَان

لا يخفى أن صدر الإمام سيف بن سلطان كان واسع النطاق إلى حد بعيد، فإنه والحال كما عرفت عنه أقبل على عمران عُمَان من نواحٍ عديدة.

منها أنه أقبل على خدمة أفلاج بعُمَان ما كان لها وجود، أو كان لها شبه وجود، فخدمها فأصبحت قرى طيبة يعيش فيها مئات من الناس، بل آلاف كفلج البركة الذي بين نزوى و أزكى، فصارت البركة من أبهج بلاد عُمَان.

ومنها فلج الصائغي الذي بالرستاق، فأدخله في حوش الحصن كما هو الواقع الحالي، ومنها فلج البزيلي بالظاهرة من أعظم أفلاجها، ومنها فلج الكوثر الذي هو فلج الحزم من ناحية الرستاق الموجود حاليًا، ومنها فلج برزمان من ناحية البدو من داخلية عُمَان، ومنها فلج مسفاة وادي السحتن، ومنها فلج مسفاة وادي الرستاق.

ومنها فلج الهوب، ومنها أفلاج جعلان بني بو حسن، والفلج المعروف حتى الآن بفلج سوق الإمام بقى أطلال البناء حتى الآن، ويقال إن جملة الأفلاج التي أجراها هذا الإمام المذكور بعُمَان سبعة عشر فلجًا هذه التي ذكرناها وغيرها.

قال الإمام رحمه الله، نقلاً عن ابن رزيق وغيره، إنه غرس في عُمَان أي في الداخلية، وفي ناحية بركاء من الباطنة من المبسلي وهو نوع خاص من نخل عُمَان، يطبخ بسره في حال عقاد قبل أن يصير رطبًا يطبخ، بالنار في مراجل معدودة، ثم يجفف في الشمس قدر أسبوع، ثم يساق إلى الهند فيباع بأثمان وافرة.

غرس الإمام سيف من هذا النوع في بركاء ثلاثين ألف نخلة، ومن النارجيل وهو المعروف بالجوز الهندي ستة آلاف نارجيله. قال: وله غير ذلك أموال في المصنعة من الباطنة لا تحصى قال: وعمر عُمَان كثيرًا، أي ساعد الأهالي وفي بعضها اشترك معهم، ومن هذا النوع «حمراء» العبريين ومنه السليف وأمكنة أخرى.

قال الإمام: وأجرى فيها الأنهار وغرس فيها الأشجار، قال: وجمع مالاً جمًا، وملك إماء عبيدًا. قال: وقويت عُمَان وصارت خير دار. قال الإمام: قيل وكان شديد الحرص على جمع المال، وقال: في موضع آخر: وملك من الإماء والعبيد سبعمائة وألفا.

قال: وغرس بالجبل الأخضر أشجارًا من الورس والزعفران، وجلب من سواحل أفريقيا ذباب النحل، ولا يزال منذ ذلك العهد موجودًا بالجبل الأخضر.

قال ابن رزيق بعد أن ذكر أعمال الإمام سيف بن سلطان قال: وغرس ببئر النشاوة والروصة والمنذرية نخلاً كثيرًا وهذه آبار معروفة عندهم، قال: واشترى أموال بني لملك، وأموال بني عدي من وادي السحتن وقول أمير البيان: كان يملك ثلث نخل عُمَان، غير بعيد بالنظر إلى بيت المال الذي تحت يد الإمام، فإنه ما كان يملك شيئاً لنفسه، فجمع ما اشتراه وما غرسه وما اجتلبه لبيت المال، فإن نزوى ثلثها بيت مال، وثلثها أوقاف، وكذلك بهلى و أزكى وسمائل، ونخل والرستاق والعوابي وبلدان الظاهرة أغلبها بيت مال الإمامة إلا ما شاء الله.

والأفلاج التي أحدثها الإمام كالبركة وكذلك بدبد كلها بيت مال، فالبنظر إلى هذه الأحوال لا يعد ما يقال، وكان المال مع الإمام محظوظًا مصونًا غير مضاع، فقد روى أن بدويًا جاء يسأل الإمام شيئًا من المال فلم يلتفت إليه أو لم يعطه، فقال البدوي: كنا نأتي والدك ونسأله فيعطينا، فقال: «أبي سلطان وأما أنا سيف».

والمعنى الظاهر أن أبي سلطان والسلاطين من صفاتها العطاء، وأما أنا سيف وصفات السيوف قطع الرقاب، وكأن الإمام لم يرد أن يعطيه فيتخذها عادة، وهو سوي قوي، بل أراده أن يحترف لنفسه ويترك السؤال والطلب، مع ما فيهما من مهانة وذل، ثم إنه لا يروي غليلاً، ومن عاش على السؤال عاش جائعًا، وبحفظ الإمام للأموال ألبس الدولة قوة، ووضع لها في قلوب الناس هيبة، وكيف لا

وتلك الجيوش الجرارة التي عرفت لها ودوخت العالم في أيامها، وقضت على المزاعم مطلقًا ومحت رسوم الاختصاصات وقطعت شأفة الفساد.

* * *

سلاح الدولة اليعربية

لما كان عهد الإمام سيف بن سلطان، وعهد أبيه من قبله وولده سلطان الثاني، كان سلاح الدول الأخرى له الشأن في الوقت الحالي المدافع التي ترسل إليها الطلقة من فوهتها، فتلقى فيها أكياس البارود، ثم يلقى الرصاص المصبوب من الحديد، ثم ترسل النار على البارود من ثقب يكون له اتصال عاجل به، فتثور ناره المزعجة،وهكذا.

فجلب الأئمة اليعاربة من هذا السلاح شيئًا كثيرًا زودوا منه الحصون والقلاع والبروج ومرصد القتال، وجعلوا أهمه على حصون البحر وهي البوارج المحيطة بالجزيرة من شتى الجهات، ويكفي برهانان على ما قلنا ما بقي من ذلك السلاح على عهدنا منه ما دفن تحت الأنقاض بعد ما تبدل الوضع، منه ما انفتق عند إطلاقه حين يخالف القياس، ومنه ما بقي في القلاع حتى الآن تذكارًا لذلك العهد، ومنه ما هو مكتوب عليه سيف بن سلطان، ومنه ما هو مكتوب عليه قيد الأرض، ومنه ما هو مكتوب عليه أسماء ملوك آخرين كعباس خديوي مصر، وهذا يوجد في حصن بدبد، ولعله أهدي للإمام من ملك مصر المذكور.

ويكفي تذكارًا من هذا النوع ما بقي في حصن الحزم، وقلعة الرستاق، وهذه الأسلحة كانت موجودة بعُمَان بكثرة، وهي أكبر دليل على القوة العُمَانية، وقد علمت أن الملك كان يحمل ثمانين مدفعًا فما ظنك بغيره. إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء، والحمد لله.

* * *

الإمام سلطان بن سيف بن سلطان

وهو المعروف بسلطان الثاني، قال أمير البيان في تعليقه: نقل هذا كرسي المملكة إلى مدينة الحزم، أي جعل الحزم عاصمته، قال ابن رزيق: بنى حصن الحزم وانتقل من الرستاق إليه أهـ.

ولما كان لكل نفس أمل، ولكل إنسان عمل، ولكل قلب هوى، وقد علمت ما كان لآبائه وأعمالهم، وهواية كل واحد منهم، أما سلطان الأول فهوايته رفع شأن نزوى وإعلاء قدرها، وكانت رغبة بلعرب ابن سلطان التوسع في واحة جبرين حين توسع نطاق الدولة، ورآها تزدلف إليه لا محالة، وان جبرين أوسع من نزوى لا سيما لمثل تلك الأيام الزهراء المشرقة، وكانت همة أخيه سيف بن سلطان في تنظيم الجيوش برية وبحرية، كما مر عليك ذلك أيها القارئ الكريم.

وكانت رغبة ولده سلطان في موقع واحة الحزم، إذ رأى أن الرستاق لا تصلح أن تجعل عاصمة، إذ هي مكتظة بالجبال ومزدحمة بالسكان، ورأى الحوم أرضًا مكشوفة تتصل بسهل الباطنة، فتتسع لكل ما يرام فيها من مناخ ومساكن وغيرها مما يقتضيه الوقت، فقام ببناء الحصن فيها، وأنفق فيه أموالاً طائلة، وجعله آية الدهر وروعة الفكر في ضخامة أركانه، ومتانة جدرانه، وقوة حيطانه، من رآه من خارج لا يستكبره، ومن رآه من داخل يحتار فيه فكره، ويندهش في صفته وتصوره، وإذا أراد الواصف أن يصفه أذهلته عظمته، ولن يهتدي لدخوله غريب أبدًا، ولو أخذ مدة فإن فيه آبار تعلن خطر الداخل بغير دليل.

قال الإمام السالمي رحمه الله: وبنى حصن الحزم بالجص والحجر، قال: وانتقل لبنائه من الرستاق، وأنفق فيه أي في بنائه مما ورثه من المال من أبيه، وقد علمت الأموال التي جمعها أبوه، قال: واقترض كثيرًا من أموال المساجد والوقوفات ألوفًا ولكوكًا، قال: ووجدت أن جملة ما اقترض من أموال الوقف خمسمائة فراسلة فضة.

قلت: هذا أمر عظيم يدل على يسر عظيم، فإن خمسمائة فراسة فضة بعرفنا الحالي عن خمسة وعشرين بهارًا فضة من خصوص الأوقاف وهذا يفوق المليارات، فما ظنك ببقية الأموال.

ودخله الشيخ سليمان باشا الباروني رحمه الله، فقال: ما كنت أظن تبنيه أو قال تبني

مثله إلا ملوك أوروبا، ويحتار العاقل في إدخال تلك المدافع التي فيه بأي وسيلة أدخلت فيه، مع أن ناقلات العصر لا توجد في ذلك العصر.

❊ ❊ ❊

عقد البيعة للإمام سلطان بن سيف

لا يخفى أن إمامة سلطان بن سيف كما هي بطبيعة الحال تبع لإمامة أبيه سيف، ولما مات الإمام سيف لم تبعد أهلية الإمامة عن ولده لوفور متطلبات الإمامة في هذه الذرية التي بارك الله فيها، وجعلها حجة في عباده، وهدى ورشادًا في بلاده، لما قضى الله على الإمام سيف، وأعلام الإمامة ترف على الأصقاع النائية عن عُمَان، وجيوش الدولة سائحة في البلاد، اجتمع العلماء الأجلاء في ذلك العهد، وهم المشايخ: عدي بن سليمان، والشيخ خلف بن محمد بن خميس، والشيخ سليمان ابن محمد بن ربيعة المربوعي، والشيخ سعيد بن علي الذي أطلق عليه اسم الوالي، والشيخ ناصر بن خميس، والشيخ خلف بن سنان، والشيخ ناصر بن سليمان بن مداد، ومعهم بقايا من أهل العلم والفضل؛ لأن أمر الإمامة كبير، ومنصبها خطير في جميع الأمور.

قال الإمام: وكلهم ثقات فقهاء في هذا الزمان فيما قيل، وكان الإمام يحكي هذا الكلام عن الناقل، قال: وأناس من أهل الغشب أي مع المذكورين أناس من أخيار الغشب بلدة الرستاق، مسمون وغير مسمين، أي منهم مذكور باسمه ومنهم غير مذكور، قال: وكذا أهل الرستاق مع كثير من المشايخ اليعاربة، قال: وبلغني أنهم استتابوه أي استتابوا سلطان المذكور؛ لأنهم يعدون عليه أشياء من أعمال أبيه قيد الأرض الذي دخل في الأمر من غير وجهه، قال: وهو يحكي القضية نقلاً عن غيره، قال: وفي هذا الكتاب الذي أرسل إلينا أن المسلمين رضوا به وأذعنوا له بالسمع والطاعة على شروط شرطوها، وعهود عليه أخذوها منه ألا يتقدم على أمر قليل ولا جليل، إلا برأي المسلمين مع أشياء يطول ذكرها.

قلت: ليتهم ذكروها؛ لأن التاريخ يطلبها. وقال العبد الفقير سعيد بن بشير الصبحي قد ألزمت نفسي ولاية هذا الإمام، وطاعته مع ما صح معي وصحت حجته على يد المسلمين، وصحت عقدته وهو سلطان بن سيف بن سلطان، قال: وعندي- والله أعلم- أن إمامته في ظاهر الأمر أوجب من إمامة أبيه؛ لأن المسلمين دخلوها. قال: وحكم التقية زال عنهم فيما بلغني. قال: وعندي أن طاعته واجبة على جميع الرعية، وولايته لازمة جميع من صح معه صحة إمامته، كان من رعيته أو من غيرها. وقد قيل لي في حصن المسلمين بنزوى، بحضرة المشايخ ناصر بن خميس، وناصر بن سليمان، وسليمان بن محمد، ودرويش بن جمعة وغيرهم من المسلمين، ما تقول في الأمر؟ فكان جوابي: إني قد ألزمت نفسي ولايته وطاعته، ودعوت إليها من أجابني، قال: وقد افترقنا على أمر واضح نهار سابع، عشية تاسع، وبكرة اثني عشر من شهر رمضان.

قال الإمام: يعني أنه حصل لهم النظر في هذا الأمر ثلاثة مجالس، قال: وقد اتفقنا على إمامته بلا كراهية ولا تقية من الجميع، قال: وهذا يقتضي جواز الدخول، وتنفيذ الأحكام مع الأخذ والعطا، وجميع أمور المسلمين بعد التحديد منه وفيه وقبله فيه اختلاف لمن جاز له الدخول، قبل، قال: وكتب سالم بن عبدالله من إملاء الشيخ سعيد بن بشير الصبحي.

قلت: كان الشيخ من رجال العلم إذ ذاك، وفي مقدمتهم، وكان أول الكلام عنه يقول الإمام، وكتب العلامة الصبحي لبعض إخوانه إن سيف بن سلطان صح معنا موته، ثم صح معنا تقديم المسلمين ابنه سلطان إمامًا لكافة المسلمين، تلقفت صحة ذلك من الفقيه ناصر بن خميس، وخلف بن سنان رحمهما الله، وكأن هذا الشيخ لم يكن مع الحاضرين للعقد، وإنما كان يسكن قرية بني صبح التي هي الآن من أعمال الحمراء؛ ولكن بعد ذلك دخل في الأمر، وتحقق الحق، وما كان يعد على هذا الإمام من أول الأمر، إلا دخوله فيما دخل فيه أبوه، وأمر أبيه كان

فيه ما فيه مما ذكره المسلمون، ولما أرادوا منه توبته تاب وقبلوا منه ذلك، ولم يعدوا عليه شيئًا فيما بعد، والله يعلم المصلح من المفسد، والله يتولى من عباده الصالحين.

* * *

الإمام سلطان يتحفز لجهاد الأعداء

لما رأى العجم تقلص ظل البرتغال من الخليج، تحركوا للبحرين، فاحتلوها، ولما رأى الإمام العجم يرومون أن يحلوا محل البرتغال في بلاد العرب، وهم لهم بعُمَان سوابق شر، جهز لهم الإمام جيشًا بقيادة الشيخ حمير بن سيف بن ماجد، وعضده برجال من أهل عُمَان الذين تعودوا الحروب، فزحف الجيش على البحرين، ودارت رحى الحرب بين الفريقين، فاندفعت العصا الفارسية بالصخر العُمَاني فكسرها، وفر العجم من البحرين، وتوالت عليها الولاة العُمَانيون إلى أن كان آخرهم سيف بن ناصر بن محمد الغافري الذي بنى حصن العينين من خراج البحرين كما سوف ترى ذلك في محله إن شاء الله.

وقد أشار الإمام السالمي رَحِمَهُ اللهُ إلى ذلك بقوله، نقلاً عن ابن رزيق وسرحان بن سعيد قال: ثم إن الإمام قام واستقام وجاهد الأعداء في البر والبحر، وحارب العجم في مواضع شتى، وأخرجهم من بلدانهم ودمرهم في أوطانهم، وأخذ البحرين والقسم ولاك وهرموز، أي اجتاح هذه الأماكن، حيث هي على خط الساحل في الخليج العربي، وكانت هرموز فتحها الشاه عباس وطرد البرتغاليين منها فاستلمها الإمام منهم، ثم سحب على الباقي واجتاحه، ولم يقف له معارض أبدا، ومازال الساحل الإيراني على الخليج العربي بأيدي العُمَانيين على عهد قريب، سوف نذكره إن شاء الله.

وإلى قضية البحرين التي يترنم بها شاعرنا الحبسي في قوله:

ألا فانظروا كيف الأعاجم صاروا ... غدوا شجرات ما لهن قرار
طغوا وبغوا في الأرض حتى أصابهم ... عقاب أليم مهلك ودمار

ومشى فيها الحبسي المذكور على أن قال في آخرها:

وقد صارت البحرين في ملك سيد كـــريم زكـــي فـــرع لـــه ونجـــار
سلالة سيف نجل سلطاننا الذي لـنـا أمـنـت سـوج بـه وقـفـار

وقد قتل في وقعتها قائد السرية المذكور، وراشد بن عزيز، ومبارك بن غريب، ومحمد العضد الحضرمي الذين هم أركان الجيش العُمَاني في هذه الحرب البحرينية الفارسية، فرف العلم العُمَاني الأبيض البراق، الذي يضاحك السلاح الأبيض، والوجوه البيض، والعمائم البيضاء، وكان البطل الحضرمي ممن يقدم على العدد الوفير في الجيش، وإلى هؤلاء يشير الشاعر بقوله:

ومـا ضرنـا مـن غـير مـوت كرامنا لأنـــهـــم عـــدل بـــهـــا وخـــيـــار
كحمير الزاكي بن سيف بن ماجد في بـعـده الـنـوم الـلـذيـذ مـطـار
ونجـــل عـــزيـــز راشـــد ومـــبـــارك سـلـيـل غـريـب هـم هـديـت ذمـار
ولم أنـس ذاك الحـضـرمـي محـمـدًا فـمـوتـه لـلـمـسـلـمـين خـسـار
شـجـاع كـفـاح لم يـقـاومـه ضيغم وعـضـب وغـى لم يـنـب مـنـه غـرار

ومن هنا تعلم مقام الدولة اليعربية وقوتها، حيث أصبحت بلاد العرب على البحر الأحمر تحت رايتها، والخليج العربي كذلك، والساحل الهندي كذلك، والجزائر الأفريقية أكثرها. فأكبر بعُمَان في ذلك العهد وأعظم بتلك الدولة اليعربية.

وقد أقبل سلطان الإمام على عمران عُمَان مطلقًا، وحسبنا هنا ما قوله فيه الإمام السالمي رَحِمَهُ اللهُ، حيث يقول: وهم أن يجعل عُمَان كجنتي مأرب، وهو الذي يقول: «لأن أعاشني الله لأجعلن المسافر للحج يخرج من عُمَان بلا زاد»، يعني سيعمر البلاد العربية التي يمر فيها الحاج من عُمَان إلى مكة؛ لأن البحر الأحمر معهم وإلى البحرين كذلك، ولم يبق إلا اليسير في ذلك العهد، وهذه كانت نيته لو أراد الله لأهل عُمَان خيرًا لطال عمر تلك الدولة؛ ولكن أمر الله محتوم من الأزل،

ولله أمر هو بالغه وحكم هو نافذه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وتوفي بحصن الحزم الذي بناه للعزة والمنعة، فكان من قدر الله أن صار موضعًا لوفاته، ومحلاً لجثته بعد مماته، قال فدفن فيه في البرج الغربي النعشي، قال: وهذا الحصن غاية في التشييد، وهو من عجائب الدنيا، قال: ذكر لي بعض الأصحاب أنه ألف فيه أي في وصفه وفي بنائه كتاب نظمًا ونثرًا، فالنظم قصيدة ميمية، والنثر شرحها، ولم أقف على هذا الكتاب.

قلت: وقفت عليه أنا أيام الصغر عند مشايخ بني خروص أهل سمائل، وقرأت بعضًا منه، ولم يتح لي القدر نسخه ونسخت منه القصيدة بطولها لتبقى عندي تذكارًا، وعندما حاولت كتابة هذا التاريخ لم يساعد الحظ على الوقوف على هذا الكتاب، وكان فيه تاريخ هذا الإمام العادل البطل وهذا مطلع القصيدة المشار إليها:

لقصر بكر العلى والمجد والكرم قصر نشا في مقر العز بالحزم

هذا البيت الوحيد في ذاكرتي منذ أكثر من خمسين سنة، وبهذا يضيع التراث العُمَاني ويتلاشى التاريخ، وكان في هذا الكتاب من أعمال اليعاربة شيء غير هين؛ ولكن ماذا نقول، ولا حول ولا قوة إلا بالله أن عدم نشر الكتب بالطبع يمحق المآثر، ويدمر العمال ويخفي أفعال الرجال، وأقول بحق إن كل واحد من أئمة اليعاربة له تاريخ مستقل، إلا أن عدم الاهتمام بذلك أضاع الحقائق، والذي كتبه عنهم المتأخرون هو لقط ما تبعثر هنا وهناك، وبعضه تلاعب به النساخ، وبعضه قضى عليه الأعداء والأمر لله.

قال الإمام: وتوفي أي الإمام سلطان بحصن الحزم الذي بناه للعزة والمنعة، فكان من قدر الله أن صار موضعًا لوفاته ومحلاً لجثته بعد مماته فدفن فيه في البرج الغربي النعشي. قال: وهذا الحصن غاية في التشييد إلى آخر ما سبق من الكلام فيه، قال: وكانت وفاة الإمام سلطان يوم الأربعاء لخمس ليال خلون من جمادي

الآخرة سنة ١١٣١هـ إحدى وثلاثين ومائة وألف، قال: وكانت إمامته سبع سنين وتسعة أشهر، قال: وبموته انتقص الشر بعُمَان، وجرت فيهم العصبية والحمية، قال: وأرادت الرؤساء أن تجعل الدولة ميراثًا.

قلت: هذا هو غالب أحوال الأمة جاهلية وإسلاميًا، إذا استمر الأمر في قوم عضوا عليه بالنواجذ، ورأوا أنهم أحق بالأمر من غيرهم، ولم ينظروا إلى أصل الأمر، وأنه الصلاح والعدل وهكذا، ويرى أن الذي كان المر إلى أبيه أو إلى قريبه، كان أسرع انقيادًا إليه ولذلك يميلون إليه، وإن كان مفضولاً من الناحية الدينية، إلا أن انقياد الناس إليه أسرع ولقبول أمره أطوع.

* * *

إمامة الإمام مهنا بن سلطان

ابن ماجد بن مبارك بن بلعرب اليعربي كان هذا الإمام المهنا بن سلطان عالي المنزلة في العائلة اليعربية، مرقوق في الأمة العُمَانية، ولذلك تزوج بنت الإمام سيف أخت الإمام سلطان الراحل، قال أمير البيان: مات سلطان تاركًا ولدين، أحدهما اسمه سيف وكان يافعًا والآخر، مهنا وكان بالغا رشيدًا، فانقسم الناس في أمر الخلف، إذ بعضهم أرادوا سيف إمامًا والآخرون اعترضوا من جهة حداثة سنه، وأرادوا مهنا، وكان هوى العمة مع سيف، وهوى الخاصة والعلماء مع المهنا، وكان لذلك العهد رجل عظيم الوجاهة نافذ القول اسمه الشيخ عدي بن سليمان الذهلي، فتدخل في الأمر في أثناء الفتنة، فنادى بسيف إمامًا؛ ولكنه كان بفتح الهمزة أي أمامكم بمعنى قدامكم، والعامة لا تفرق بين معنيي الفتح والكسر.

قال: وسكن بذلك العامة ريثما انقطعت تلك الهيعة فأدخلوا مهنا القلعة سرًا، وجعلوه إمامًا سنة ١١٣١هـ الموافق سنة ١٧١٨م والمعنى أن العامة وهم طغام الناس وغوغائهم، وهم البلاء العام في الإسلام، وكانت سياسة الشيخ الفقيه

عدي بن سليمان، وهو الركن الأكبر في هذه الحركة السيئة ولو أنه تناول الأكابر وفاكرهم في هدوء واطمئنان، وبين لهم الحقائق وأرضاهم من ناحية الدنيا التي يطلبونها حتى تستقر قواعد الأمن على قرارها، وبعد ما يرى اليد قد قويت يستدرج القوم زرافات ووحدانا؛ ولكن ما قدر لابد من كونه، ولقد انتفخ أهل الكبر والبطر فركبوا ظهر الشقاق غير مبالين، وكل غرضهم من هذا أن تكون لهم بذلك عند سيف بن سلطان يد يتسلطون بها على عباد الله، وإلا فما بالهم يعارضون العلماء، وقد علموا أن الإمامة لا تقوم إلا على محور العلماء، ومن هنا ينبعث الشر، ويقوم في الأمة الأمر المضر، ولقد أراد الله أن يمحص المؤمنين الذين ابتلاهم بأمر الدين.

قال أمير البيان: وكان مهنا على جانب عظيم من الحذق والمهارة وطول الباع في الإدارة، فإنه بدأ يجعل مسقط مرفأ حرًا بأن أسقط المكوس وسائر ما يؤخذ على البضائع مما زاد حركة الأخذ والعطا، قال: وبشر بمستقبل عظيم إلا أنه افتلت بأمر لم يكن يفطن لهن وهو أن أهالي الرستاق ونفس عشيرته قاموا يطلبون الإمامة ليعرب بن بلعرب، ورفعوا لواء العصيان، وزحفوا إلى مسقط ودخلوها، وقعد الآخرون عن نصرة مهنا قال: فاعتصم بقلعة الرستاق، ومعنى هذا أنهم احتلوا مسقط وتولوا أمرها، وهو بالرستاق لم يجد من يناصره فيقوم معه، وبعد ذلك زحفوا على الرستاق مصممين على قهره وانتزاع البلاد من يده راضيًا أو كارهًا، وماذا كان جرمه أظن كونهم أدخلوه قلعة نزوى على حين غفلة من الناس، وبايعوه وأعلنوا إمامته، وكان الرؤساء وأتباعهم يعهدون الإمام سيف بن سلطان الذي يريدون أن يتلاعبوا بدولته.

فتآمروا عليه هم والمتنطعون من بقية اليعاربة، وبذلك أصبح السواد الأعظم عليه، والأقلون معه قال: ثم داخلوه في الأمان فأمنوه وسلم لهم القلعة، فلما صار في أيديهم ورأوا أنهم الغالبون عليه بالقوة وقتلوه سنة ١١٣٣هـ.

قلت: هنا ارتكبوا أمرين عظيمين، أولاً: أمنوه على العهد والميثاق، ثم قتلوه بعد الأمان، أمران أسهلهما عظيم عند الله، بل أصل قيامهم عليه مصيبة كبرى، ولابد أن تكون الثمرة لهذه الأعمال كبيرة تمحق الدين وتهدم الشرف وتقطع أعضاء دولة المسلمين التي بناها أولئك الأئمة الغر الميامين.

قال الإمام السالمي وكذلك سرحان بن سعيد وابن رزيق: أن مهنا بن سلطان بن ماجد بن مبارك بن بلعرب. وهو الذي تزوج بنت الإمام سيف أخت الإمام سلطان، بايعوه بعد موت الإمام سلطان في ذلك الشهر بعينه. قال: رأوه أهلاً للإمامة لكونه ذا قوة عليها، أي والحال في مثل ذلك الوقت يستدعي القوى لحمل الأمانة الكبرى. قال: ولم يكن كثير علم؛ لكنه يتعلم ويسأل ولا يقدم على أمر إلا بمشورة العلماء، قال: وسبب بيعته أنه لما مات الإمام سلطان أرادت اليعاربة، ورؤوس القبائل أن يكون الإمام ولده سيف بن سلطان، وكان صبيًا لم يراهق، وأراد أهل العلم وبنت الإمام سيف بن سلطان أن تكون الإمامة لمهنا بن سلطان ، وهو ابن عمهم لأهليته، وقال أهل العلم للناس: إن إمامة الصبي لا تجوز على حال، ومن لا يجوز أن يكون إمامًا في الصلاة، فكيف يجوز أن يكون إمامًا على المسلمين يتولى أحكامهم ويلي أمورهم في الدماء والفروج، والتولية للولاة والقضاة والعزل والولاية والبراءة، وهذه أمور تستدعيها الإمامة الكبرى، والصبي لا يجوز أن يقبض مال يتيم، بل لا يجوز أن يقبض مال نفسه فكيف يجوز أن يقبض مال الله ومال الأيتام والأغياب ومن لا يملك أمره، فكيف يملك أمر غيره.

قال: فأبت العامة إلا إمامة الصبي، وأعادوا العلماء أذنًا صماء، وتجمعوا واجتمعوا بالسلاح، وربما أشهروا سلاحًا ووقع بعض الجراح، وعند ذلك خاف العلماء الفتنة وشق عصا المسلمين كبير في الدين، وإذا بالبلية الدهياء لتبرز في الميدان لتأخذ دورًا فعالاً. قال: فخاف العلماء الفتنة وانتشار الشر، فقال القاضي

عدي بن سليمان الذهلي، وهو العنصر الكبر إذ ذاك في الإمامة، إذ هو القدوة الصالحة، قال: أمامكم سيف بن سلطان بفتح الهمزة أي قدامكم، وأراد بذلك تفريقهم وإطفاء الفتنة فعند ذلك نادت العامة بإمامة سيف بن سلطان، وضربت المدافع أي أطلقت اظهاراً للأمر وإشهارا للإمامة، وانتشر الخبر الكاذب في البلدان أن الإمام سيف بن سلطان، قال: فلما سكنت الحركات وهدأت الناس أدخلوا الشيخ مهنا الحصن خفية، وعقدوا له الإمامة فقام بالأمر واستراحت الرعية في زمنه وحط عنهم المعشرات في مسقط، لأنها الميناء الوحيد لعُمَان، قال: ولم يجعل بها وكيلا لهذا الصدد، قال: وربحت الرعية وراجت التجارة، ورخصت الأسعار، وبورك في الثمار ولم ينكر عليه أحد من العلماء في شيء من سيرته.

قال: لبث على ذلك سنة، ثم خرج عليه يعرب بن بلعرب بن سلطان ولد الإمام المحصور في جبرين، قال: وسبب ذلك أن اليعاربة وأهل الرستاق أضمروا العداوة للإمام مهنا وللقاضي عدي بن سليمان ومن معهما من المسلمين؛ بسبب ما وقع عند بيعة مهنا، أي جعلوا ذلك ضغنًا وحقدًا في قلوبهم، وظلوا يتحينون الفرصة لهذا الصدد، وهنا فتح لهم الشيطان الباب الذي يدخلون منه على الإمام.

قلت: وأنا أعتقد أن ذلك لسوء سياسة عدي بن سليمان ومن معه، حيث رأوا تعصب السواد الأعظم لسيف بن سلطان، ونادوا به إمامًا وأطلقوا المدافع، وجاءت القبائل تلقى إليهم إذعانها، وبعد ذلك ما شعروا وهم على ما هم عليه، وإذا بمدافع القلعة تطلق معلنةً إمامة مهنا، وهذا مما يدعو إلى التحاقد والتغاضن والتنافر، وعلى كل حال إن السواد الأعظم هو البلاء الأكبر على المسلمين، ولذلك ترى الأمر كما أشرنا إليه.

قال: فلم يزالوا يكاتبون يعرب بن بلعرب، ويحرضونه على القيام بأمر سيف المخذول بحسب ما في نفوسهم، وعلى الخروج على مهنا حتى خرج المذكور،

فسار مختفيًا إلى مسقط، فدخل الكوت الشرقي أي الحصن الجلالي، قال: ووالي مسقط يومئذ الشيخ محمد بن مسعود الصارمي المقدم ذكره في حروب الإمام سلطان، قال فلم يشعر إلا ويعرب قد دخل الحصن قال: ولعل أهلها لم يخلوا من خيانة.

قلت: لو لم تكن خيانة كيف يدخل، وإذا دخل كيف يستقر قراره والحال أنه معتدي.

قال: وكان الإمام خارجًا إلى فلج البزيلي من أرض الجو، فبلغه الخبر فرجع إلى الرستاق، وقام وشمر عن ساق الجد، ورام النهوض على هذا الثائر الذي لم يدخل الأمر من بابه، وطلب من أهل الرستاق النصرة فخذلوه، وهذه الداء العقيم في الأمة تراهم يقومون به مع من يهوون بالمال والرجال في رغبة ونشاط، وحينا تراهم يخلدون إلى الأرض، ولم يكف أهل الرستاق أنهم خذلوه فقط، بل ناصبوه الحرب حتى ضاق ذرعه، ولم يكن بالقلعة استعداد كاف، فطلب الأمان على العهد والميثاق أن ينزل من القلعة فأعطوه عهد الله وميثاقه على نفسه وماله ومن معه، ففكر في أمره، فرأى أنه مخذول إذ لم يقم له مناصر ومسقط قد خرجت عنه وهو بقلعة الرستاق محصور، ولم يكن له مناصر يدافع عنه المحيطين به فتبين له الخذلان من أهل عُمَان، فأجابهم إلى ما أعطوه من الأمان فنزل من القلعة فزالت بذلك إمامته. قال: فأخذوه وحبسوه هو وواحد من عمومته وبعض أصحابه، وبعد ذلك خشبوه في قيد وخشبة هو ومن معه وأذلوه ذلاً لا مزيد عليه، ثم لم يكتفوا بذلك بل جاء خدامهم فذبحوه في خشبته هو وأصحابه كما يذبح الخروف، لا حيلة لهم ولا أي حركة يستطيعون.

قال: واستقام الأمر ليعرب بن بلعرب بن سلطان، قال: ولم يكن يدعي الإمامة لنفسه، وإنما يدعيها لسيف بن سلطان الصغير الذي نادوا بإمامته أولاً، وكأن يعرب المذكور قائم بأمره، وشاد لأزره وسلمت لهم جميع حصون عُمَان

وقبائلها، قال: كان هذا في سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف فلبث على ذلك حولاً، ثم انقلبوا إليه وبايعوه إمامًا بعد ما كان محافظًا لأمر سيف بن سلطان، فهاتان اثنتان كل واحدة أكبر من أختها الأولى خروج سيف بن سلطان على بلعرب وحصره له في حصن جبرين حتى مات غمًا.

والثانية هذه التي فعلوها في مهنا وأصحابه وإنها لفعلة منكرة لا يرضى بها من له أدنى مروءة في عدوه فضلاً عن أخيه وابن عمه، هنا بدأ الملك العضوض لهذه الدولة العلية التي تحدثنا عنها، وكان كما علمت خرج على الإمام مهنا باغيًا. قال: فتاب من بغيه ورد الأمر إلى القاضي عدي بن سليمان الذهلي زعيم العلماء إذ ذاك، قال: فاستتابه من جميع أفعاله ومن بغيه على المسلمين، وتعديه على مهنا بن سلطان واغتصابه لدولة المسلمين.

قال الإمام السالمي رحمه الله: قالوا: وكان يعرب مستحلاً في خروجه هذا؛ لأنه يظن أن الإمامة لسيف، وأنها قد غصبت منه. قال: فلم ير الشيخ عدي عليه ضمان ما تلف لشبهة الاستحلال والمستحل لا يلزمه غرم ما أتلف فقبلوا توبته من غير غرم، هذا ما أورده المؤرخون العُمَانيون ونقله الإمام عنهم في هذا المقام.

❊ ❊ ❊

إمامة يعرب بن بلعرب بن سلطان بن سيف

قال أمير البيان: وتولى يعرب في البداية باسم سيف بن سلطان الصغير، قال: ثم جعل نفسه إمامًا أصيلاً، قال: وأخذ حكمًا شرعيًا من قاضي ذلك الوقت بأنه أحرز الإمامة بحق، وأنه ليس بعاص ولا خارج ولا غاصب، حتى إن الأموال التي اغتصبها هي حل له، بحجة أن التوبة تكفي عن الذنب، وكانت البيعة سنة أربع وثلاثين ومائة وألف، فاستقام له الأمر وسلمت له حصون عُمَان، ولبث في الرستاق أيامًا يسيرة، ثم سار إلى نزوى فدخلها يوم تسعة وعشرين من شعبان من هذه السنة.

قال الإمام: فلم يرضِ إمامته أهل الرستاق فتعصبوا لسيف بن سلطان الصغير، فكاتبوا يعرب بن ناصر اليعربي وهو خال سيف بن سلطان، وكان بنزوى مع سيف المذكور، قال: فما زالوا به حتى خرج بعد ما نفخوا في دماغه، فخرج من نزوى متكتمًا عن الإمام سيف الذي هو منه بتلك الحال، وكان خروجه من نزوى لست ليال مضت من شوال من نفس السنة، قال: وقصد بلاد سيت فحالف بني هناءة على القيام معه طمعًا في الرئاسة وتلاعبًا بالأمر، وطمعًا في الدنيا، وتعهد لبني هناءة أن يطلق لهم ما حجره عليهم الإمام الولي ناصر بن مرشد، وكان الإمام المذكور رَحَمَهُ اللَّهُ حجر على بني هناءة حمل السلاح، ومنعهم من المباني المخوفة وأشياء أخرى منعهم منها نظرًا منه ﷺ، فما تجاسر أحد أن يفك ما حجره ذلك الإمام، ولم يقدر بنو هناءة أن يحلوا شيئًا منه وأعطاهم يعرب بن ناصر عطايا ضخمة، فقاموا معه إلى الرستاق، فهذا تراه طامعًا في الأمر.

ومن هنا بدأ بالاستجاشة على رأي الداعين له، ولما وصلوا الرستاق أعلنوا الحرب وأحاطوا بالحصن، وشدوا عليه من كل جانب حتى أحرقوا باب الحصن بالنار، فخرج الوالي منها راغمًا؛ وبسبب ذلك الحريق احترق وجه الحصن والباب وتصدع جداره، فظهر بالحريق المذكور مال عظيم مخزون فيه، إذ كان الحريق عظيمًا مخطرًا، واحترق فيه رؤساء بني هناءة ورؤساء بني عدي المجتهدون في الأمر، وكثير من الناس، فقيل: إن جملة المحترقين خمسون ومائة رجل، فكانوا طعمة الفتح المشار إليه، واتصل الحريق بداخل الحصن واحترقت منه مكتبة الحصن، وذهبت بذلك الحريق كتب جليلة فقهية وغير فقهية من أمثال بيان الشرع والمصنف وغيرها من الكتب القيمة الثمينة، ومنها كتاب الاستقامة.

قال الإمام: واحترقت كتب كثيرة لم يكن لها نظير بعُمَان، وأسفرت القضية عن خسائر كبيرة يرثى لها في عُمَان، وقام أمر يعرب بن ناصر، فلما بلغ الأمر الإمام وعلم ما صنع أهل الرستاق مع الخارجين عليه، جهز سرية أمر عليها صالح

بن محمد بن خلف السليمي وأمره بالمسير إلى الرستاق، فسار حتى وصل العوابي فرأى أن لا قدرة له على دخول الرستاق، لما بلغه من احتدام الأمر وشدة الزيغ عن الحق، فرجع صالح بن محمد بمن معه إلى نزوى، وإذ ذاك قام يعرب بن ناصر، وكتب إلى والي مسقط أن يسلم البلاد لهم وكان الوالي بها الشيخ حمير بن منير بن سليمان الريامي الأزكوي من أهل حارة الرحى فسلمها إلى يعرب عُمَان.

وفي هذه الأثناء سلمت نخل لرجل يعرب بغير حرب، ثم قام المذكور وأخرج سرية ولى عليها مالك بن سيف بن ماجد اليعربي، فوصلت السرية على هدفها وهو سمائل، فسلمت لهم سمائل بغير حرب، وتوجهت السرية في صددها وخرج معها بنو رواحة وجاءت على أزكى، فأذعنت لهم تباعًا لمن قبلها وخرج الوالي منها في شهر ذي القعدة من هذه السنة.

* * *

الإمام يعرب يخرج الى جرنان

لما كانت أزكى تعد من أبواب نزوى في الجانب الشرقي، وهي كما عرفها التاريخ، اهتم الإمام بالخروج؛ ليتأكد من أمرها، هل هي معه أم عليه؟ فإن أمر اليعاربة الآن تتقاذفه الأمواج ولا يدري أين ترمي به، خرج الإمام يعرب بمن معه من الرجال خصوصًا أهل نزوى وبني ريام، والشيخ عدي بن سليمان الذهلي، ووصل إلى أزكى وخرج إليه مشايخ أهل أزكى يتلقونه بالكرامة، وقدموا له الضيافة والطعام له ولدوابه، وقد رأى منهم حالاً حسنًا، وتفاهم معهم في الأمر، فقالوا له: نحن معك فمكث بها يكاتب مالك بن سيف؛ ليخرج من الحصن، فلم يخرج فنصب له الإمام الحرب. وأطلق عليه طلقتي مدفع فلم يصغ ولعله كانت بينه وبين بني هناءة مفاهمات سرية.

فإنه في هذه الأثناء وصلت كتيبة من بني هناءة مناصرة لمالك بن سيف يقدمهم علي بن محمد العنبوري من فرق بني هناءة، ولما وصل المذكور فر عن الإمام

جنوده، وتفرق رجاله وركبهم بنو هناءة بالسيف يقتلونهم حتى قتل منهم خلق كثير، وكان من الصدف الغريبة أن رصاصة مدفع أطلقت من جانب خصوم الإمام، فدخلت في فم مدفع الإمام وألجمته فاخترب، فكان دليلاً على سوء حظ المذكور، ولما رأى الفشل ينزل عليه كر راجعًا إلى نزوى، وأما القاضي الشيخ الذهلي توجه إلى الرستاق فقبض عليه قوم يعرب بن ناصر، ومعه سليمان بن خلفان، ولم أعرفه من أي القبائل فصلبوهما، وجاء أعوان يعرب بن ناصر، ولعله عن أمره فقتل القاضي وهو في القيد والصلب، وقتل سليمان بن خلفان، وعاملوهما معاملة لم يعهد أن عامل بها جبابرة عُمَان أحدًا من أهل عُمَان أو من غيرهم، فإنهم أمروا بسحبهما في الطرق كما تسحب الفرائس، وذلك في يوم الحج الأكبر من هذه السنة، ولم يحترموا على الأقل العلم، وقد قتلوهما فما الداعي على سحبهما، ولو كانا مجرمين فإن قطع رؤوسهما أهون من سحبهما في سلك الرستاق؛ ولكن أسباب الانحطاط هذا من أعمالها، فإن الدور اليعربي يمشي في هذه الآونة في الهبوط وقد اشتغل أهل عُمَان بأهل عُمَان فتقلص ظل الدولة وسار يتبع غروب شمسهم ولله الأمر.

قال أمير البيان وهو ينقل التاريخ العُمَاني عن الأجانب: كان لسيف أشياع وأنصار لم يخضعوا لهذه الثورة، وهو يشير إلى ثورة يعرب بن بلعرب. قال: فقام بلعرب بن ناصر بأمر سيف الصغير، وزحف إلى الرستاق ففر يعرب، أي الإمام، إلى نزوى وقتل القاضي عدي بن سليمان، وطيف بجثته في الأسواق، قال: وتفاقمت الفتنة فتوسط أناس في الأمر، قال: فتحول يعرب أي الإمام إلى يبرين وأقام بقلعتها، وأقيم سيف بن سلطان إمامًا بكفالة عمه بلعرب، والصواب هو خاله. قال أمير البيان: وقيل إنه لما جاءت وفود القبائل تهنئ الإمام الجديد بالملك أساء بلعرب هذا مقابلة محمد بن ناصر زعيم بني غافر، وقيل: إنه توعده فانصرف هذا مغاضبًا وداخل يعرب في الاتفاق على سيف وعمه بلعرب، ثم انتقص محمد

بن ناصر على الإمام ظاهرًا أي تظاهر بالخلاف، واستولى على الرستاق، ثم أسر الإمام واستبقاه رهنًا في قبضته، ومازال أمره يقوىَ حتى دخلت جميع عُمَان في حوزته ما عدا مسقط وقلعة برقة، أي «بركا».

قال: ومات في أثناء ذلك يعرب الذي كان محمد بن ناصر يحارب من أجله ويقاتل باسمه، فلم يبق رئيس في وجه محمد بن ناصر إلا خلف بن مبارك المسمى بالقصير بالتصغير المشدد، فوقعت الحرب بينهما والتجأ القصير إلى حصن برقة أي بركا، فحاصره محمد بن ناصر فلم يقدر عليه وفي كشف الغمة مضى العنبوري إلى نزوى، وجعل يكاتب الإمام وهو في قلعة نزوى، ودخل عليه أناس من أهل نزوى فسألوه الخروج منها حقنًا للدماء، فلم يزالوا به حتى أعطاهم ذلك على أن يتركوه في حصن يبرين، ولا يتعرضوا له بسوء فأعطوه العهد على ذلك، وخرج من نزوى فزالت إمامته بذلك، ومضى إلى جبرين، ودخل العنبوري قلعة نزوى وضرب جميع مدافعها، ونادى بالإمامة لسيف بن سلطان فخلصت له جميع حصون عُمَان وسلمت لهم كافة القبائل والبلدان.

* * *

محمد بن ناصر الغافري يعيد الحرب سيرتها الأولى

لما كان محمد بن ناصر من الرؤساء المتبوعين، ومن أهل الأرهاط الناشطة يرى له بذلك المقام الموقر والمحل المحترم، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ [هود: ٩١]، فقد تأثر محمد بن ناصر من تهديد يعرب بن ناصر الذي جاء مهنئًا كغيره للإمام، فرجع محمد بن ناصر ونار حقده تتقد: ومرجل وعيه يغلي كغلي الحميم، وشاء القدر أن يتسع خرق الشقاق على الراقع، ويطول مدى الشر لتنهار المملكة العُمَانية من أساسها، ويستقل الولاة في الخارج مستغلين ولاياتهم، جعل محمد بن ناصر يكاتب يعرب بن بلعرب المخذول آنفًا الذي أخرجه خلف بن مبارك العنبوري من قلعة نزوى، ويكاتب أهل بهلى، فإنهم من جملة من هددهم يعرب بن ناصر

ليقوموا بالحرب التي سيقوم بها فهيأهم.

ثم ركب على البدو العُمَانيين بالظفرة وبني نعيم وبني قتب، وغيرهم من طغام الناس، وهم بحرب المهددين له حتى يتشفى منهم عما صار عليه، ويعلو أفق الزعامة التي يتزعمها، وعند ذلك علم يعرب بن ناصر بنوايا محمد بن ناصر الغافري، فكاتب أهل نزوى أن يصلوا إليه فجاؤوه فتظاهر لهم بكرامة بارزة، ورأوا منه التفاتًا، وأمرهم بالبيعة لسيف بن سلطان وقصده التفاف (أهل نزوى) المشار إليهم تحت رايته ليتوصل بهم للدفاع عندما يصبح محمد بن ناصر مناوءًا له، وكان متمركزًا بقلعة الرستاق، وإذ ذاك سرى سرية إلى يعرب بن بلعرب لتأتيه به إلى الرستاق، وجعل أخاه سليمان بن ناصر قائدها، فخرجت السرية على طريق وادي سمائل.

وقعد أهل نزوى عنده بعد ما طلب منهم الخروج مع السرية، فظلوا يتعللون له بعلات، وأخيرًا تشفعوا بأعيان أهل الرستاق فتركهم، ولما نزلت بلدة فرق للمبيت، بعث لهم أهل نزوى طعامًا لدوابهم وعشاء لهم، فبينما هم كذلك قبل أن يناموا في مناخهم، سمعوا ضرب المدافع في قلعة نزوى، فسألوا عن الخبر فقيل لهم إن يعرب بن بلعرب، دخل القلعة، ومعنى دخول القلعة ملك نزوى؛ لأن العادة عند العُمَانيين مألوفة بأن قابض حصن البلد هو المالك مهما كان، وكيف كان فلما تحققوا سقط في أيديهم ورأوا الرجوع إلى الرستاق أولى، فأشار من أشار على سليمان بن ناصر بقبض حصن أزكى، فقبضه بعد رجوعه من فرق وتمركز فيه بقواته، ومكث ب أزكى.

وكان يعرب بن ناصر الرئيس سرى أيضًا سرية أخرى إلى يعرب بن بلعرب، ووجههم إليه من جهة الظاهرة، ولعله كان أراد أن تلتقي عليه السريتان كل واحدة من جهة، فلما وصلت هذه السرية المشار إليها بهلى، تصارخ عليهم أهل بهلى من كل جهة، وتمكنوا منهم فقضوا عليهم وأودعوهم السجن.

وكان أيضًا بعث سرية أخرى إلى وادي بني غافر غازية، فأصيبت ثم رجعت إلى الرستاق، وأما يعرب بن بلعرب الإمام الحالي، فإنه بعث سرية إلى أزكى هاجموا حالاً الحصن، ودارت رحى الحرب بينهم فانهزموا، وقتل منهم ناس ورجعوا إلى نزوى، ثم سرى سرية أخرى إلى أزكى فتمركزوا بالجنى الغربيات، ولم يستطيعوا الدخول، ورجعوا من ليلتهم إذ رأوا أن البلاد محصنة تمامًا ولم يجدوا مستطاعًا لإعلان الحرب، ثم جهز الإمام سرية أخرى، ووصلت أزكى أي نفس المكان الذي وصله من قبلهم، ولم يستطيعوا الدخول، بل ظلوا يطلقون مدافعهم على الحصن من هناك، وبقوا في ذلك المحل قدر خمسة عشر يومًا على ذلك الحال.

وفي هذه الأثناء وصل أزكى مالك بن ناصر من الرستاق مددًا لسليمان بن ناصر، ولما قر قراره بالحصن قرر الهجوم على قوم يعرب بن بلعرب في مركزهم المعروف، فانهزموا ورجعوا على الحصن وعند ذلك أغارت البدو من قوم يعرب بن بلعرب على سدى، وحارة الرحى من أزكى، ولعلهم رأوا أنهم أنصار سليمان ومن معه، فعاث البدو في ضواحي أزكى، ونبهوا من لقوا وأحرقوا منازل عديدة من بينها منزل الشيخ حمير بن منير الريامي خارج حارة الرحى، ثم جاءت فرقة أخرى فهاجمت اليمن من أزكى ولم يتمكنوا، وقتل منهم ناس من بينهم أمير السرية محمد بن سعيد بن زياد البهلوي، ولما بلغ مالك بن ناصر أن أهل النزار خرجوا مع سرية يعرب بن بلعرب، وركضوا على اليمن، أرسل إلى مشايخ النزار وقيدهم بالجامع من أزكى.

ثم استجاش أهل الشرقية فجاءته منهم رجال كثيرون، وجاءه أيضًا بنو هناءة ومعهم جمع كبير من رجال الغربية، واجتمع الكل ب أزكى، وتزاحمت الكتائب ليكبر الضغن بين أهل عُمَان من بعضهم على بعضهم؛ لتنهار صروح الزعامة العُمَانية وتندك مباني الدولة اليعربية، إذ خرجت كل سرية مع زعيمها، وكل فرقة

خرجت من جهة، ودقت الطبول، ونفخ الشيطان بينهم في أبواق الكل منهم من جاء من جهة المنزلية، ومنهم من جاء من ناحية العتب يوم الجمعة عند زوال الشمس، والتقى الكل على غير هدى من الله، بل على نزعات الشيطان، فتواقعوا ذلك الوقت، ودارت رحى المعركة، واشتد القتال.

وظل الحال إذ ذاك لا تسمع إلا البنادق كالرعد، ولا ترى إلا السيوف كبروق الصيف فانكشفت الوقعة فانكشفت الوقعة عن انهزام جمع الإمام، وقد وقع فيهم قتل كثير، وصار جملة القتلى من الفريقين قد ثلاثمائة رجل.

* * *

مالك بن ناصر يثير حربًا بغير هدى من الله

لما رأى مالك بن ناصر اليعربي أن بيده سلطة من الزعامة اليعربية، وأنه أحد الرجال الذين تقف العيون دونهم، خرج بمن معه ممن أطاعه من الطغام الذين معه؛ ليفسدوا في الأرض، ويعيثوا في الأمة، خرج إلى بلدة منح بقومه، وانتشروا في البلاد ينهبون ويسلبون، وأغارت شرذمة على وادي الحجر الذين هم لا في العير ولا في النفير، فقتلوا من وجدوا على حين غفلة منهم، ونهبوا ما وجدوه في تلك البلدة الحقيرة، وأفسدوا الزروع وأحرقوا السكاكر، وخرجوا مخرجهم ذلك إلى نزوى، وظلوا محاصرين لها، وضربوا معسكرهم في بلدة فرق عند مسجد المخاض منها، وأحرقوا المقامات التي فيها وهي منازل الأهالي وقت القيظ، وعاثوا في الأرض فسادًا، وتبدل الوضع من حرب دولية إلى قبائلية بغير حق، ولما رأى أهل نزوى ما هم عليه تآمروا فيما بينهم، ورأوا أن الشر أحاط بهم فخرجوا بمن معهم من عساكر يعرب بن بلعرب، والتقوا في أطراف نزوى فوقعت الحرب، وقتل من قتل.

ثم رجع كل إلى مكانه وبقوا على هذه الحال بينهم الغارات والغزوات، حتى كثر القتل والجراح، واشتد على أهل نزوى البلاء، وبقوا في خوف محدق بهم

لا كاشف له إلا السيف، فتجمعوا وزحفوا على عدوهم في أطراف نزوى، فوقعت بينهم معركة حامية، وقضى الله فيها على رجال عدة، وكاد أهل نزوى أن ينتصروا على عدوهم، وكاد جند مالك بن ناصر أن ينهزموا، إلا أنهم رأوا أن الرجال أحاطت بهم من كل جانب وأنهم لا مناصر لهم من القتل ولا مخلص لهم من العدو، وراموا للهرب إلا أنهم لم يجدوا له سبيلاً، فصبروا صبر المستميت بعد ما فر منهم من وجد للفرار سبيلا، وبقي القتل بين الطرفين مستمرًا. الحرب ما زالت رحاها دائرة، فصبروا رغم الأنوف.

ولما رأى أهل نزوى أن القوم في ضعف، وقد أحيط بهم اشتغلوا بالنهب والسلب، وراحوا يلتقطون سلاح الهاربين وأثاثهم، وهم مستوثقون من عدوهم أنه هالك لإحاطتهم به، وعند ذلك صال عليهم عدوهم ومالوا عليهم بالسلاح الأبيض والأسود، فهزموهم وأكثروا القتل فيهم، وأثخنوا الجراح وطردوهم على جنور الخوصة من نزوى قريبًا من جناة العقر، وانكشفت حربهم هذه عن قتلى كثيرة.

ورجع قوم مالك بن ناصر إلى معسكرهم، ولم تزل الحرب بينهم قائمة كل يوم على البغي والظلم، وفي هذه الأثناء زحف مالك بن ناصر بقومه، وساق كافة أصحابه معه إلاَّ قليلاً منهم تركهم حفاظًا لمعسكرهم وهاجم نزوى حتى وصل جناة العقر، وأراد أن يحاصر أهل نزوى في بستان مويخ، وقام بثقب جدرانها لمرامي البنادق فيرمي منها العدو، فثار عليه أهل نزوى، ودارت رحى الحرب ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

فقتل فيها مالك بن ناصر وانهزم قومه، فرجعوا إلى معسكرهم وأقاموا هناك يديرون الآراء ويكاتبون من يلمعون أنه من أنصارهم؛ ولكن بطبيعة الحال إذا قتل الزعيم هوت الرايات، وتأخرت الجماعات، وضعفت القوات؛ ولكن لم يزالوا حربًا لنزوى ورماة لها يقتلون من يجدون، وبقيت الغزوات مستمرة والحرب

بينهم قائمة حتى وصل الصنديد الكبير محمد بن ناصر الغافري بجيش سحبه من الغربية، فتلقته أعداؤه في عدة مكانات كلما جاء إلى بلد لها شف في عدوه اعترضه رجالها وتواقعوا عدة وقعات.

قال المؤرخون العُمَانيون وغيرهم: جاء محمد بن ناصر بجيش من الغربية بعد حروب كثيرة، وكانت بها وقعات عظيمة منها بوادي ضنك، ومنها بوادي الصقل، ومنها بالجو ومنها بالغبي، قالوا فلما وصل محمد بن ناصر أمر بحرب الباقين، من قوم مالك بن ناصر المحاصرين لنزوى، وحالاً أحاطوا بهم إحاطة السوار بالزند، والخاتم بالأصبع وما زالوا طول ليلتهم في قتال، وتزاحف من بعضهم حتى استشعر أولئك المذكورون العجز، وكان قد علم محمد بن ناصر أنهم يرومون الفرار والنجاة، فأمر أن يترك لهم الجانب الشرقي، فرأوا ارتحال عدوهم من ذلك الجانب فاغتنموها فرصة للهرب، فأصبحوا ولم يبق بمعسكرهم أحد، وذهبوا على غير وجه، وانحلت أزمتهم وانكشف جانبهم، فدخل محمد بن ناصر نزوى، وكان يعرب بن بلعرب الإمام مريضًا في هذه الأثناء في قلعة نزوى، فأقام محمد بن ناصر بنزوى أيامًا قلائل.

وكان الحصار الذي وقعه مالك بن ناصر على نزوى قدر شهرين إلا ستة أيام، وفي هذه الأثناء توجه محمد بن ناصر إلى الرستاق بجيش جرار وجحفل ضخم، فدخلها ونزل بفلج الشراة وأراد أن يهاجم البومة التي فيها علي بن محمد العنبوري، وهي المرصد المحكم في عرف أهل عُمَان، قالوا: وسرعان ما جاءهم العنبوري كالأسد الصائل، فتلقاه قوم محمد بن ناصر، فدارت رحى الحرب فكان العنبوري وسط المعمعة قتيلاً، وقتل من قومه الكثير وانهزم الباقون، ورجع محمد بن ناصر إلى معسكره بفلج الشراة.

وفي اليوم الثاني انتقل على فلج المدري، فجاءه يعرب بن ناصر مذعنًا منقادًا ناسجاً حيلةً له أن توفق لتنفيذها، ذلك أنه صالح محمد بن ناصر على تسليم قلعة

الرستاق، ويكون منه في أمان، فوافقه على ذلك، وكان قصد يعرب بن ناصر أن يدخل محمد بن ناصر القلعة فيقبض عليه ويقضي على حياته؛ لكن الرجل أحذر من غراب، لاسيما إذا كان الأجل نائيًا، أما إذا دنى الأجل فلا تنفع الحيلة كيف كانت، فدخل محمد بن ناصر قلعة الرستاق بقومه، وقبضها بيد من حديد، ولما قبض محمد بن ناصر القلعة انطلق قومه في البلد ينهبون ويسلبون بدعوى أنهم أنصار يعرب بن ناصر، الذي أثار هذه الحرب، ولاسيما أن القوم الذين عند محمد بن ناصر كلهم شلاعة نهابة ما جاءوا إلا ليحتطبوا لأنفسهم من يابس العُمَانيين ورطبهم، وقد مروا على ديار الغربية من عُمَان، فأكلوا ما لاقوا.

قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ: وسبوا الذراري ونهبوا الأموال، قال: حتى بيعت أي ذراري أهل عُمَان في الأسواق خارج عُمَان، وذلك بما كسبت أيديهم جزاء بما كانوا يعلمون، وبما فعلوا في الشيخ العالم عدي بن سليمان، والقاضي سليمان بن خلف، وبما فعلوا في إمامهم مهنا، وبما فعلوا في أفاضل المسلمين والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، عاهدوا إمامهم على النزول من القلعة، فنزل على العهد والميثاق فقيدوه وذبحوه في قيده وخشبته، وطافوا بجثة عالمهم في الأسواق والسلك، وهذه أفعال تؤذن بالنقمة التي تعم وتمحق الأمن والشرف وتسحق الدين والمروءة.

وفي هذه الأثناء مات الإمام يعرب بن بلعرب بنزوى، ومحمد بن ناصر في الرستاق، وذلك لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة من سنة خمس وثلاثين ومائة وألف، قال: وكتم أهل نزوى موته خيفة أن يقوى عليهم عدوهم نحوا من خمسين يومًا؛ لأن محمد بن ناصر لا يزال بالرستاق.

ولما قبض محمد بن ناصر على يعرب بن ناصر أودعه القيد، وقبض منه الأمر بتخليص حصون عُمَان التي يرجع أمرها إليه، ولم يبق إلا مسقط وبركا في أيدي بني هناءة، وفي كوت مسقط جاعد بن مرشد بن عدي اليعربي بصفته واليًا

لها، فاحتالوه وأخرجوه من مسقط على أن يولوه نخل، وأقام محمد بن ناصر بالرستاق، وأشاع أن الإمام سيف بن سلطان، وهو مع ذلك كله غير بالغ الحلم.

قال الإمام: وتفرق أهل الرستاق في الجبال والأودية، فقيل أنه وجد في كهف كلاة بلدة المهاليل مائة نفس من صبيان ونساء ميتين من العطش، خافوا القرار بالرستاق، ثم خافوا الرجوع إليها فيحملهم البدو فيبيعونهم، وهذه مأساة عظيمة أرسلها الله عليهم، وفي هذه الأثناء ومحمد بن ناصر مخيم على عرش قلعة الرستاق، جاءته كتيبة من بدو الغربية بعد قبضه الرستاق بثلاثة أيام خمسمائة رجل وألف رجل من بني قليب وبني كعب وأصحابهم، يحملون السلاح الأسود والأبيض، ثم لحقهم بعد ذلك رحمة بن مطر بن رحمة الهولي، ومعه قدر خمسة آلاف رجل من بدو وحضر

قلت: بل كلهم بدو لا حضر فيهم. قال الإمام: وفيهم من لا يعرف العربية ولا يعرف صديقًا من عدو.

قلت: نعم جاءوا لإشعال الشر الذي يتقد هنا وليأخذوا نصيبهم منه وليفعلوا .بما يقابلهم في عدوهم.

محمد بن ناصر وخلف بن مبارك يقتتلان في عُمَان بأهل عُمَان

لما رأى محمد بن ناصر أنه له السلطة الكبيرة، وله النفوذ الفعال في عُمَان، ورأى جيوشه تترى في البلاد، وعلم أنه السيد المطاع أرسل إلى حصون مسقط يطلب تسليمها له؛ لأن حصون عُمَان كلها سلمت له وبقيت مسقط وبركا في أيدي بني هناءة، أرسل إليهم محمد بن علي الخروصي وجماعته، ليكون واليًا لحصن بركا، فتناوله بنو هناءة فقتلوه هو ومن معه إلا من تمكن من الفرار إلى محمد بن ناصر، فأخبروه بالواقع فأمر محمد بن ناصر على الجيش بالمسير إلى بركا، فخرج القائد الأكبر رحمة بن مطر بن رحمة بقومه، وخرج القائد الثاني حمزة بن حماد القليبي بقومه، والقائد الثالث أحمد بن علي الغافري بقومه في عسكر

ضخم، والقائد الرابع محمد بن عدي بن سليمان الذهلي ولد الشيخ المقتول، الذي طيف بجثته في سلك الرستاق بقوم جاء بهم من الصير؛ لأخذ ثار أبيه، والقائد الخامس محمد بن ناصر الحراصي بجماعته، سار هؤلاء الأبطال كل واحد منهم قائدًا لرهطه إلا الذهلي، فإنهم ليسوا رهطه؛ لكنهم ملبين دعوة الزعيم الأكبر محمد بن ناصر، نزل الجيش المصنعة غربي بركا.

ولا شك أن بني هناءة يتوقعون الزحف عليهم لما فعلوه ولما تأصل من العداوة بينهم وخصمهم، ونزل الكل المصنعة كما ذكرنا؛ لتكون لهم منطلقًا لحصار بركا، وبعد جاءهم كتاب من قرع الدرمكي من بني هناءة وكان قرع أحد القواد لبني هناءة ومن صناديدهم، يقول فيه لرحمة بن مطر: لا تصلنا نحن نصلكم تهديدًا لهم، فلما قرأه رحمة أمر بالمسير لملاقاة قرع الدرمكي، وقد مر أمامه عيونًا يكشفون الحقائق، وإذ بقرع المذكور مقبل بقومه عليهم، فالتقاهم أولاً رحمة المذكور بموضع وادي القاسم من بركا، وانطلق في أوجههم من قومه قضيب الهولى على فرس، والقوم يتخابون وراءه، فقتل رحمة عشرة رجال وانهزم قرع بقومه، وجرح قضيب المذكور جرحًا غير كبير، وسار رحمة مشرقًا في أثر المنهزمين حتى نزل بالحفري التي للجبور في بركا؛ لكي يستريحوا ويأكلوا وقد قدم العيون أمامه؛ ليعلم ما وراءه القوم، ورجع العيون مخبرين عن خلف بن مبارك القصير مقبلاً بجنوده؛ ليناصر قومه الذين ببركا.

وكان خلف جاء بجيش بحري وجيش بري فوق الكثرة، جمعهم من عدة قبائل ومن أجناس مختلفة، وكان عدد جيش محمد بن ناصر يبلغ خمسة عشر ألفًا من بدو وحضر من سائر القبائل الذين سبق ذكرهم، فالتقوا غربي بركا إذ جاء المذكور ليحيط بجيش محمد بن ناصر من جهاته؛ ولكن النصر حليفه، فدارت رحى الحرب بينهم، ونادى منادي الطعن والضرب.

وكان عند أصحاب رحمة مدافع يسحبونها ليضربوا بها حصن بركا، فضربوا

بها السفن التي في البحر، فأغرزت ونجت بمن فيها، وانهزم خلف بن مبارك وركب ناقته وفر وخلف المعركة ونارها تشتعل، وانهزم قومه وراءه فتبعهم أصحاب محمد بن ناصر، يقتلون ويأسرون، ووجدوا جيش محمد بن ناصر محيطًا بهم، فتهافتوا إلى السفن وهي قد فرت من ضرب المدافع فلم يجدوا ملجأً من القتل، وكانوا يدخلون البحر؛ ليتخلصوا من المراكب، فأغرزت بحرًا فلم ينالوها، والقوم من البر تطلق عليهم النار فهلكوا جميعًا، وأخذ أصحاب محمد بن ناصر بسلبهم ومواد حربهم وجميع ما معهم.

قال الإمام السالمي ﷺ، نقلاً عن ابن رزيق عن القتلى الذين لفظهم البحر اثنا عشر ألفًا واثنا عشر رجلاً، قال: ولم يزلوا يتبعونهم حتى دخلوا حصن بركا، أي باقيهم التجأ بالحصن، وانتقل محمد بن ناصر بجيشه؛ لضرب معسكره ناحية السوادي قرب الجبل، وحاصروا الحصن، فأقام على ذلك أربعة أيام، ثم إن أهل الحصن خرجوا منه في المواكب المذكورة الواقعة في البحر، ولعل خروجهم كان ليلاً، وراحوا على مسقط ولم يبق في الحصن إلا القليل، ولم يبق في البلد أحد منهم ولا من غيرهم خوفًا من معرة الجيش، إذ قد علموا ما صار في الرستاق وإذ ذاك أرخص محمد بن ناصر لقومه بالعودة على الرستاق، ورخص لرحمة بن مطر بالعودة على وطنه، ورجع محمد بن ناصر أيضًا إلى الرستاق.

وفي هذه الأثناء أصيب بمرض الجدري واشتد عليه حتى أشرف على الموت، ثم عوفي منه وأمر بالمسير إلى ينقل، وجعل في الرستاق واليًا محمد بن ناصر الحراصي، وعنده أصحاب بهلى وزعيمهم سنان بن محمد بن سنان المحذور الغافري في قلعة الرستاق كعقيد للعسكر، وخرج محمد بن ناصر واصطحب معه سيف بن سلطان، وحمل معه كافة اليعاربة وهم ذرية غير كثيرة، وترك يعرب بن ناصر مقيدًا وكانت إقامته بالرستاق بعد الرجوع من حرب بركا قدر شهرين، ونزل مقنيات وأرسل إلى قبائل الظاهرة وعُمَان يستمدهم، وإلى بني ياس أيضًا

فجاءه قوم يبلغون اثني عشر ألف رجل، وكان معسكره بفلج المناذرة من ينقل، وإذ ذاك أرسل إلى أهل البلد أن يدخلوا في طاعته ويسلموا له الأمر ويتخلوا عن الحصن، فأبوا بل لم يردوا له جوابًا وصباح يومه تحرك يريد الانتقال إلى الجانب الأعلى على شريعة فلج المحيدث من البطحاء، فالتقاه بنو علي بمن معهم من أهل ينقل، فدارت رحى الحرب تطحن الرجال، وقتل من بني علي قوم كثيرون، ومن بينهم ابن شيخهم سليمان بن سالم، وقتل من أصحاب محمد بن ناصر سالم بن زياد الغافري، وسيف بن ناصر الشكيلي، وأحد من الجرحى، ثم إنه نزل شريعة المحيدث وهو المحل الذي أراد النزول فيه من الجانب الأعلى، وحصر ينقل وضربها بالبنادق، وأطلق عليها مدفعًا، وتلاقى الطرفان على الأبيض، فانكشفت الحرب عن قتلى كثيرة وقتل من أصحاب محمد بن ناصر الوالي محمد بن خلف القيوضي وواحد من بني عمه، ثم إنهم كسروا عنهم الفلج فلم يبق معهم ماء يشربونه، وإذ ذاك أذعنوا بتسليم الحصن راغمين، وتولاه محمد بن ناصر.

وفي هذه الحال جاء إلى محمد بن ناصر الخبر أن سعيد بن جويد دخل حلة السليف مع الصواوفة من بني هناءة بقومه، فأمر محمد بن ناصر الجيش بالمسير إلى السليف، فتوجه ذلك الجحفل الجرار، ولما وصلها حالاً أرسل إلى سعيد بن جويد وأهل السليف أن يؤيدوا له الطاعة، فأبوا ووصل إليه الصواوفة من أهل تنعم مؤدين له الطاعة خوفًا أن ينحال عليهم، ولما رأى إصرار القوم وجه الجيش بالزحف على حصن المراشيد من السليف، فاختطفه الجيش فهدمه على من فيه من رجال ونساء وأولاد، وسقط في يد سعيد بن جويد، ورأى أنه رهن إشارة محمد بن ناصر، فطلب منه التسيار إلى بلده هو وأصحابه فسيرهم محمد بن ناصر كما زودهم بما يحتاجون، وبقي بالسليف حصن الصواوفة وحصن المناذرة، ووقع في أفكار المناذرة مما رأوا مما حل بحصن المراشيد، وما وقع فيه سعيد بن جويد رأوا أن لا محالة من الخضوع لمحمد بن ناصر والإذعان له، وقد أخذوا

الدرس من أصحابهم، وذكروا ينظروا بعقله لا بعينه، فأدوا الطاعة لمحمد بن ناصر وسلموا الأمر إليه، فسلموا أنفسهم وساسوا الحاضر، ولم يصروا إصرارا يردهم على ورائهم ويقضي عليهم، فلم يصبهم بأس وأقرهم مكانهم.

وأما الصواوفة لم يخضعوا لمحمد بن ناصر حتى تدور رحى الحرب وتأخذ حظها، فأقام محمد بن ناصر يقطع نخل الصواوفة، وسرى القتل فيهم كل يوم.

قال الإمام نقلاً عن التاريخ العُمَاني: وفسح محمد بن ناصر للبدو من أصحابه إلا بني ياس وقبائل الحضر، ودام الحصار شهرين، ولما رأى الصواوفة العجز صالحوا محمد بن ناصر على هدم حصنهم بأيديهم فهدموه، وهذا من سوء السياسة، ومحمد بن ناصر تعود لا يهزم له جيش، ولا تنتكس له راية، ولا يفل له سيف كما سمعت وكما ستسمع فيما أقبل من حروبه حتى آخر ذرة من حياته.

* * *

خلف بن مبارك يحاصر الرستاق

لما رأى خلف بن مبارك أن محمد بن ناصر مشتغل بحرب السليف زحف على الرستاق، أحاط بحصنها وحاصرها، ولم يكفه ليعتبر بمن قتل من قومه ببركا، والغريب من القوم الذين يتبعونه وهو على هزيمة تلو هزيمة، ولا يثبت لمواقعة محمد بن ناصر، قام خلف بن مبارك لحصار الرستاق، وقتل الزعيم الذي ولاه محمد بن ناصر قلعة الرستاق، وهو سنان بن محمد بن سنان الغافري، وأخرج الوالي محمد بن ناصر الحراصي من الحصن، فدخل خلف بن مبارك الحصن وخلصت له الرستاق، وكان سباع العنبوري قد أخذ صحار، وبلغت الأخبار إلى محمد بن ناصر ولم يلتفت إلى شيء منها حتى انتهى أمر السليف حتى لا يقوى عليه أمر عدوه.

وكانت سياسته مبنية على القوة، وأنه يرى لو ترك السليف قبل النهاية، وذهب إلى الرستاق فكأنه لم يعمل شيئًا، وإذ ذاك وخلف بن مبارك يزحف على حصن الحزم ليضيفه إلى حصن الرستاق، وكان الوالي فيه عمر بن صالح بن محمد

الغافري، فحاصره خلف وأحال الفلج عنه وأرسل إلى الوالي المذكور أن يخرج من الحصن هو وأصحابه بأمان، فأبى وكتب إلى محمد بن ناصر يخبره بالحال، وأنهم لم يبق معهم ماء إلا بركة قليلة، فتوجه محمد بن ناصر إلى الحزم بعدما صالح أهل السليف، وهدم حصونهم بجيش عظيم لا يعلم عدده إلا الله.

فلما وصل الحزم صال على أصحاب خلف فقتل من قتل منهم وولوا هاربين وتركوا آلة حربهم من مواد عديدة بارودًا ورصاصًا وطعامًا، وهذا حال خلف بن مبارك في حروبه مع محمد بن ناصر، وهذه أحدوثة غير لائقة بالحر في كل مرة ينهزم ويفر بل الموت أولى من أحدوثة كهذه.

* * *

محمد بن ناصر يزحف على بلادسيت

لما رأى محمد بن ناصر أن خصمه الألد خلف بن مبارك، وأنه لا يزال يجاذبه الحبل وغير تاركه على حال، وكانت بلادسيت بلاد بني هناءة بل هي عاصمتهم، وديوان أمرهم، ومركز ندوتهم، كان محمد بن ناصر أراد أن يوقع بها كسرًا لقوته وانتقاماً منهم، فإنه لما فرغ من أمر الحزم توجه إلى الظاهرة؛ ليجمع الجموع لحرب بلادسيت.

قال الإمام السالمي ﷺ: خرج محمد بن ناصر من الحزم إلى الظاهرة، ولم يمر بالرستاق؛ لأنه قصده بلادسيت، قال: وحشر من البدو والحضر، واجتمع عنده عسكر كثير، وسار من الظاهرة إلى بلادسيت، ولما وصلها أرسل إليهم أن يؤدوا له الطاعة فأبوا، فحاصرهم وأمر القوم بالهجوم عليهم فهجموهم، وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، ثم هجموا على العارض وكانت لبني عدي فأخذوها منهم، وأخذوا أيضًا غمر وخضعت له بلدان بني هناءة كلها، ولم يبق فيها أحد منهم، فالذي قتل قتلَ والذي طلب التسيار سيره بأمان.

قال الإمام: وقتل من أصحاب محمد بن ناصر في أول الهجوم على باب

بلادسيت قدر عشرة رجال وجرح أناس، وانتهى أمر بلادسيت وتوابعها وخرج عنها محمد بن ناصر وهذا حالها.

عودة محمد بن ناصر إلى نزوى للنظر في الأحوال

وصل محمد بن ناصر نزوى بعد حرب بلادسيت؛ ليدبر أموره في صدده، وأقام بها ستة أشهر في أيام الشتاء، وتأكد من عدوه وصديقه، وقد أصبح الحال في عُمَان ولا زعامة لأحد إلا لمحمد بن ناصر، ويجاذبه الحبل خلف بن مبارك، وإذ ذاك أرسل إلى أهل منح خصوصًا أهل حجرة البلاد أن يدخلوا في طاعته، فأبوا وامتنعوا، فجهز لهم جيشًا فأحاط بهم ولا منقذ لهم ولا معين، فقطع الجيش نخليهم من الفيقين وجر عالي، حتى إذا رأوا أنهم مغلوبون لا محالة خضعوا وأذعنوا بعدما ذهبت أموالهم، فخرج عنهم متوجهًا إلى الظاهرة، ونزل الغبي وأخذ في جمع له جحفل ضخم بدوًا وحضرًا، وأمر بحمل التمر من الظاهرة إلى الحزم، وصحبهم أهل وادي بني غافر، ومن هو من أصحابهم وتوجه بنفسه شرقًا يريد حرب العوامر؛ لأنهم ناصروا سابقًا خلف بن مبارك هم والحبوس وآل وهيبة وكثير من قبائل الشرقية، ومعهم بنو هناءة؛ لأن بني هناءة جاءوا إلى العوامر مناصرين لهم لما بلغهم أن محمد بن ناصر يريد حربهم.

وكان محمد بن ناصر وخلف بن مبارك، بل مطلق بني غافر ومطلق بني هناءة اشتدت العداوة بينهم لهذه الحروب والفتن التي يخوضونها على الرئاسة والزعامة، والدم أكبر مثير للضغن وأعظم مورث للحقد والعداوة، سحب محمد بن ناصر جيشه على بلدان العوامر، فالتقته الجموع من العوامر وآل وهيبة وبني هناءة، فدارت رحى الحرب بينهم، وعظم الخطب وعمل السيف عمله، وزهقت أرواح.

قال المؤرخون العُمَانيون وفيهم الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: وقعت بينهم حرب عظيمة، حتى كاد أن تكون الهزيمة على أصحاب محمد بن ناصر ومن معه، ثم إنهم ثبتوا

وتراجعوا، فوقعت الهزيمة على بني هناءة، وقتل منهم خلق كثير فولوا الأدبار هاربين، وأصحاب محمد بن ناصر خلفهم، حتى أدخلوهم حجرة العاقل، فرجع محمد بن ناصر ومن معه غالبًا مظفرًا، وكان سيف بن سلطان معه، فتوجه جبرين؛ ولكنه لم يقر قراره لنشوة النصر حتى صار أشهى إليه الحرب، فإنه ما لبث في جبرين إلا قليلاً، ثم توجه الظاهرة؛ ليجمع جيشًا، وعلى كل حال إن المنتصر يزداد نشاطًا وقوة وتميل النفوس إليه عادة أيا كان؛ فلذلك تراه كلما توجه إلى قوم لبوا أمره، ويظهر أنه كان مبذالاً للمال، فاجتمع معه جيش كبير خرج به إلى نزوى، وجمع معه أهل نزوى وأهل أزكى وأهل بهلى أيضًا، وبني ريام وسار بهم إلى سيفم، وكل يظن أن الجيش قاصد إليه، وفي سيفم أرسل إلى سعيد بن جويد الهنائي ومن معه من أهل العقير والغافات؛ ليدخلوا في طاعته، فأبوا، وأظهروا عتوًا، وكأنه لم يكف ابن جويد الدرس المتقدم، ولم يجعله معتبرًا. ويرى قوة خصمه متوافرة؛ لكن إذا ضلت العقول على علم لم تفد النصائح، فأمر محمد بن ناصر بحصار القوم.

وفي أثناء الحصار خرج سعيد بن جويد خفية متسللاً؛ ليستجيش من يظن يرجو نصرته، فمر على الظاهرة إلى صحار، فجمع قومًا من صحار وينقل، لأن ينقل نكثت الصلح الواقع بينهما وبين محمد بن ناصر، فاجتمع عند سعيد بن جويد الهنائي جيش، وجاء إلى عملى وضم وجمع معه بقية بني هناءة ومن شف منهم وأرادتهم، وكذلك أهل وادي العلا وجميع بلدانهم، وكان ذلك في ظرف سبعة أيام؛ لأنه يعهد أصحابه محاطًا بهم ومحصورين.

ولا شك أن يقظة محمد بن ناصر تقيل معهم وتبيت، وقد تحقق أمر ابن جويد عند محمد بن ناصر تمامًا، فاستعد لملاقاته، حتى إذا نزل سعيد بن جويد العبشي أراد الهجوم على محمد بن ناصر وأصحابه مباغتًا لهم، فالتقوهم في صدر الغافات، فدارت المعركة بين الطرفين، فوقع ابن جويد قتيلاً وقتل معه زعيم بني

علي غصن، وقتل جملة في هذه المعركة، وأثر عليهم قتل سعيد بن جويد وغصن العلوي، وأعيان رجالهم وانهزم الباقون شر هزيمة، واهتز محمد بن ناصر نشاطًا.

قال الإمام: وأمر محمد بن ناصر بالغزوة في كل بلد ملكها من بهلى ونزوى وبلدان الظاهرة؛ لإظهار الناموس.

قلت: لم أعرف معنى إظهار الناموس إلا أن يكون القوة. قال: وسحب أصحاب محمد بن ناصر سعيد بن جويد إلى الغافات، وفيها حصنه وفي الحصن عياله وأهله وأولاده وقومه؛ لينظروه ويخضعوا بالطاعة لمحمد بن ناصر، فأبوا وأصروا، فضرب عليهم الحصار، وبقي محاصرًا لهم قدر شهرين حتى فرغ ما عندهم من الزاد، حتى أكلوا الأنعام وأفنوا ما لديهم من الطعام.

وكان القائد لهذه الحرب من جهة محمد بن ناصر مبارك بن سعيد بن بدر الغافري، وكان محمد بن ناصر بعد قتل ابن جويد وهزيمة قومه عهد بالأمر إلى مبارك بن سعيد وإلى جبرين، ولما رأى آل سعيد بن جويد أن لا مناص من الخروج حين نفد ما عندهم، وقُتِلَ من قتل من قومهم، وبعد ذهاب أموالهم بالاستهلاك نخلاً وحروثًا وحيوانًا، صالحوا على هدم حصنهم، أي على أن يهدموه بأنفسهم فهدموه بأيديهم، ووصلوهم بأمان وبقي حصن العقير محاربًا، ولعله ينتظر العقر وإلا فقد رأى أمامه دروسًا يحسن السكوت عليها؛ ولكن بعض النفوس لا تهتدي حتى لصلاحها.

وفي هذه الأثناء عزل محمد بن ناصر مبارك بن سعيد بن بدر، وجعل مكانه راشد بن سعيد بن راشد الغافري، وأقام هذا محاصرًا لحصن العقير المشار إليه جيش كبير من أهل بهلى ونزوى و أزكى والظاهرة وبنو عافر وبنو ريام، وداروا بالحصن كالخاتم بالإصبع وطوقوه بالحصار، فلا يخرج منه خارج ولا يدخله داخل حتى أكلوا ما عندهم، ورأوا أنهم في ذل قاهر لهم، وإذ ذاك طلبوا الصلح على أن يهدموا حصنهم بأيديهم فوافقهم القائد فهدموه، فكانوا كما يقول الله عزوجل: ﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ [الحشر: ٢] وذلك

بعدما خربت بلدانهم، وقطعت نخيلهم، ودمرت أوطانهم، ولم تبق لهم نخلة ولا فلج يجري على وجه الأرض، ورجع الأقوام كل إلى وطنه.

خلف بن مبارك يزحف لحرب نخل

ولما رأى خلف بن مبارك أن محمد بن ناصر مشتغلاً بحروب الداخلية، خرج من مسقط إلى بركا واستجاش من قدر عليه ومن خف معه، وجاء إلى وادي المعاول واستجاش المعاول وطلب منهم حرب نخل فأجابوه. قال ابن رزيق والإمام أيضًا: أما خلف بن مبارك فإنه جمع جمعًا ونزل وادي المعاول، وانتقل بهم إلى نخل فحاصرها، وكان فيها مرشد بن عدي اليعربي، قال: فمكث أربعة أيام، ثم خرج مرشد من الحصن، وكأنه كان على غير استعداد فيه، قال: فأحرقوه وهددوا منه ما قدروا عليه، ومع ذلك صالحه أهل حجرة الجميمي.

قال: ثم عقب عليهم من عقب، ودخل على حين غفلة من أهلها، قال: هرب أهلها إلى سمائل، وبعضهم التجأ في حجرة الجناة مع بني مهلل، قال: ثم إن الذين بقوا عند بني مهلل أرسلوا إلى أهل نخل أن يجيئوا من جانب الحمام، أي من أعلى البلد، فجاءوا بقوم من حيث لا يدري بهم آل مهلل، فدخلوا عليهم على حين غفلة منهم، وقتلوا من قتلوا فخرجوا إلى وادي المعاول حتى إن المعاول نصروهم ودمروا لهم الحرب إلى حجرة الجناة، وكأن بني مهلل هم من عصبة المعاول.

قال: فمكثوا يحاربونهم ثلاثة عشر يومًا لا يهدأ ضرب البنادق حتى انهزموا من الحجرة، وكثر فيهم القتل وتخيبوا، ثم إن المعاول قالوا لا نبغي حجرة في الجناة فهدموها، وكأن علاية نخل هي تابعة للمعاول، وتخربت نخل وتشوه وجهها وساءت حالها.

قال الإمام: ومكثت نخل مدة من الزمان لم يوجد فيها من الإنس إلا الكلاب والسباع على القتلى، وبعد ذلك قسم بنو هناءة نخل على بني هناءة، ومكثوا فيها – أي بنو هناءة – إلى أن ملك سيف بن سلطان أي أخذوا فيها مدة كما

سوف تراه وهذه من الخطأ، حيث تؤخذ أموال أهل القبلة فتغنم بغير حق، ويتولى المسلمون أموال إخوانهم يأكلونها بغير حق، وعضوا عليها بالنواجذ إلى أن ملك سيف بن سلطان بعد ما بلغ الحلم، وأقيم إمامًا فعند ذلك سلموها لهم وذلك أوان تخليج النخل، فصاروا يتوسلون بالقاضي ناصر بن سليمان المدادي في نزوى، فجاءوا بكتاب إلى المعاول فسلموها لهم وتراجع أهلها الذين فروا منها والذين اختفوا في جوارها.

* * *

محمد بن ناصر يجهز الجيوش لحرب الحبوس

لما كان متوقعًا عند الحبوس أن محمد بن ناصر لابد وأن يغزوهم يومًا ما، حيث تظاهروا بحربه مع عدوه خلف بن مبارك، وكأن خلف بن مبارك يرى أن لا مناص من حرب محمد بن ناصر للحبوسي، بقي هو وإياهم يتراسلون في أمر محمد بن ناصر، ويتفاهمون وكأنه من المقرر لديهم.

قال التاريخ العُمَاني: وأما محمد بن ناصر فجهز جيشًا من البدو والحضر، فقصد به بلدان الحبوس من الشرقية من المضيبي والروضة، ولما علم خلف بن مبارك صحة ذلك تجهز لمناصرة الحبوس، فخرج بجيش مسقط والباطنة ومن معه من جماعته، وكان الالتقاء بالمضيبي لأكثر الله هذه اللقاءات على هذا الحال.

قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ: والتقى –أي محمد بن ناصر– بجيش خلف بن مبارك، بالقصير والحبوس وغيرهم من بني هناءة بالمضيبي، فوقعت الحرب وجلت المعركة. قال الإمام: فوقع بينهم حرب عظيمة وانكسر خلف بن مبارك، وتحصل في حجرة المضيبي فحاصرهم محمد بن ناصر وقطع نخلهم وخشاها، ولما استشعروا العجز عن دفاعه طلبوا الصلح والأمان، فأمنهم محمد بن ناصر وأدوا له الطاعة، ولم يعلم محمد بن ناصر أن خلف بن مبارك معهم في حجرتهم، ثم شاع الخبر بوجود خلف معهم، وأنه متحصل في حجرتهم فلم يستحسن محمد بن ناصر أن ينكث

العهد الذي عاهدهم به، وأن ينقض صلحه الذي صالحهم إياه، ثم خرج خلف هاربًا إلى إبراء عند آل الحارث، فاتبعه محمد بن ناصر بجيشه حتى وصلا إبراء، ودخل خلف إبراء ولم يظن أن محمد بن ناصر يتبعه، فأقام مع آل الحارث فأرسل إليهم محمد بن ناصر أن يؤدوا له الطاعة ويخرجوا خلفًا من عندهم، فأبوا ورأوه صعبًا عليهم أن زعيمًا التجأ بهم فيسلموه لخصمه، فأعلن محمد بن ناصر حربهم، وما كان خلف بن مبارك إلا جارا لهم بلاء أراد أن يغمسهم فيه، ولعله كان يراهم من أنصاره، فأقام محمد بن ناصر يقطع نخيلهم ويدمر أنهارهم، ولم يقدروا على دفعه حتى رأوا لا بد من إخراج خلف من بينهم، وأن البلاء بوجوده بينهم لا يزال مستمرًا عليهم، وماذا عسى أن ينفعهم وهو لا يزال في سأم الهزيمة، ومحمد بن ناصر في نشاط النصر والظفر، فبين الحالين فرق كبير.

قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ: فأخرجوا خلفًا، وكان خلف رئيس بني هناءة كافة، وكان مقره مسكد وهي مسقط ولا تزال في يده. قال: ثم إنهم صالحوا محمد بن ناصر من بعد خروج خلف من عندهم وقبل منهم محمد بن ناصر وأعطاهم الأمان على العهد والميثاق، ورجع عنهم وأقام بيبرين، وكان أكثر إقامته بها، ثم إنه لم يطل المقام بها بل خرج إلى الظاهرة.

* * *

محمد بن ناصر يتجهز لحرب الرستاق

لما تبين لمحمد بن ناصر أن أهل الرستاق لهم ميل إلى خلف بن مبارك وأنهم ظاهروه لما زحف إلى الرستاق في حال دخوله عندما كان محمد بن ناصر مشغولاً بحرب بني هناءة، فأكن لهم سوءا يتحين له الفرصة، وكل ذلك عقوبة من الله لأهل الرستاق على ما فعلوه في الإمام مهنا، وما فعلوه في القاضي عدي بن سليمان وزميله، والفتنة إذا جاءت يعم شرها الأمة صالحها وطالحها.

خرج محمد بن ناصر من جبرين إلى الظاهرة؛ ليجمع جيشه منها، وكان أكثر

ما يستجيش أهل الظاهرة لقساوتهم وغلظ أكبادهم وعدم مبالاتهم بما يلاقون، فجمع من الظاهرة جيشًا ضخمًا وغرب بهم، ولم يعلم به أحد من قومه أين يريد، فمر ببلدان بني نعيم وجمع ناسًا من بني ياس وبني نعيم أيضًا وغيرهم من القبائل، وسار بهم على طريق وادي الجزي، ومر على بلدان بني قليب، فصحبه من رجالهم من صحبه ومضى على خط الباطنة يسحب جيشًا أرعن، فخاف منه أهل صحار فلم يغشهم، ثم أخذ في الشرق سائرًا فخافه أهل فلج الحواسنة أن يدمر واديهم، وأصحابه يأخذون كل ما يجدون من إبل وغنم، وفيهم من لا يعرف الصديق من العدو، وارتاعت القبائل في الباطنة، كل يظنه قاصده، وكان المذكور يروم حرب الرستاق، فالتقاه خلف بن مبارك بمن معه من قومه عند أفلاج عرعر من الرستاق، فالتحم القوم قتالاً، وأحاط محمد بن ناصر بجيش خلف، وليت خلفًا تأخر عن هذه الأمور التي تجلب له عار الهزيمة في كل مرة.

قال الإمام: ولى أصحاب خلف هاربين منهزمين، ودخل خلف في بيت هنالك، واختفى فيه واتبعه محمد بن ناصر بقومه، ولم يعلم أنه هناك مختفيًا. مالك يا خلف في كل مرة تنهزم ثم تختفي، أبرز لمحمد بن ناصر الذي جئت لملاقاته المرات العديدة، قال: وظن خلف أن محمدًا تركه بعد القدرة عليه، فدخل محمد بن ناصر الرستاق، ولا تسل عن خوف أهل الرستاق لما رأوه منه في المرة الأولى، حيث خرجوا من البلاد فتاهوا في الفلا، وماتوا جوعًا وعطشًا، فقام محمد بن ناصر يدمر أفلاج الرستاق ويقطع النخيل ... ويراسلهم أن يذعنوا بالطاعة، وهم يأبون خوف العاقبة التي لا يدرون فيها مصيرهم فدمر فلج الميسر وهو أكبر أفلاج الرستاق، ودمر فلج أبو ثعلب وفلج الحمام، وقطع نخلاً.

ولم يكن لأهل الرستاق قدرة على الخروج لحربه ومنعه، ولما رأوا العجز ورأوا أن الرجل غير تاركهم، وقد رأوا منه وسمعوا وهموا بالخضوع فساعدهم القدر إذ جاءت الرسل من الظاهرة تخبره أن راشد بن سعيد الغافري أخذ حصن

مقنيات، والوالي فيه مبارك بن سعيد بن بدر حسدًا منه لمبارك المذكور، لأنه رأى محمد بن ناصر يقدمه، فأمر محمد بن ناصر بترك الرستاق على حالها ذلك، ونهض تاركًا لها بعدما دمر أنهارها.

وكان علي بن ناصر بن حمد الكلباني أحد زعماء بني كلبان، قام لراشد بن سعيد وناصحه وخوفه سطوة محمد بن ناصر ونقمته التي لا يقدر لها راشد، ومن كان مثله وسلم له الحصن بعد ما ضمن له من محمد بن ناصر ألا تصيبه منه عقوبة، وكان محمد بن ناصر يعرف أقدار الرجال، وكانت حربه على قانون الحروب الصحيحة، لا على غطرسة

الباقين، فقبض علي بن ناصر الحصن إلى أن وصله محمد بن ناصر، فترك فيه مباركًا واليًا، وترك معه الحواتم - فرقة من بني غافر- وسار قاصدًا إلى يبرين وكانت هذه القضية رحمة لأهل الرستاق، حيث استنهضت محمد بن ناصر من بلدهم، وإن كان قد قضى وطره منهم ودمر أنهارهم، إلا أنه لا يعرف ماذا يفعل بعد ذلك فيهم، وأقام بيبرين مدة، ثم انتقل بجيشه إلى نزوى وتمركز بها وهو الحاكم القوي في عُمَان الداخلية كلها، وله الحول والطول في عُمَان، والله يعز من يشاء ويذل من يشاء.

كان محمد بن ناصر من رؤوس القبائل العُمَانية، ومن الزعماء المعروفين، فأصبح الآن يطلب الزعامة الكبرى للسلطنة أو الإمامة؛ ولكنه كان بطلاً صنديدًا لا يعرف للموت ولا للذعر أبدًا، وإذا كان من العلم ما يقوم به أوده كان حقيقًا بالزعامة الكبرى؛ لأن الزعيم إذا لم يكن شجاعًا جريئًا لا يصلح أن يكون قائد أمة، كما قيل: إذا كان القائد ثعلبًا كانت أسود الأمة ثعالب، وإذا كان قائد الأمة أسدًا كانت ثعالبها أسودًا، وهكذا.

ومحمد بن ناصر في وقته أقوى رجل عرفه التاريخ، فإنك كما قرأت عنه ستقرأ أنه ما خرج من حرب إلا قام لمثلها ولا رجع من غزوة إلا خرج لمثلها وهكذا أيامه بغير ملل، ولا خوف ولا سآمة، ولا تحدثه نفسه إلا بالنصر والواقع هو كذلك، فإنه لم تعرف له هزيمة أبدًا.

إمامة محمد بن ناصر الغافري

نسبه: محمد بن ناصر بن عامر بن رمثة بن خميس الغافري، قال الإمام: نسبة إلى غافر جد له، قال: ووجدت أنه من سامة بن لؤي بن غالب القرشي.

قلت: وقضية سامة بن لؤي بن غالب المذكور ذكرناها في «العنوان» وسبب خروجه إلى عُمَان وصحة نسبه إلى لؤي بن غالب، وإن دفعه بعض نسابة قريش.

قال الإمام: وسبب ذلك أي سبب إمامته أن محمد بن ناصر لما كان منه لما ذكرونا من الحروب، أي وتوجهه إلى نزوى بعدما قضى أعظم مهماته، وصل نزوى بمن معه، وأرسل إلى رؤوس القبائل وأهل العلم من غرب عُمَان وشرقها، فاجتمعت إليه جموع كثيرة ولما اجتمعوا طلب منهم أن يبرأ من الإقامة بالحرب وبأمور المسلمين، وأن يقيموا من أرادوا مع سيف بن سلطان، واعتذر إليهم فلم يعذره القاضي ناصر بن سليمان بن مداد ومن حضر من المشايخ من رؤساء القبائل، ولم يزالوا في معالجة هذا الأمر، وغلقت أبواب حصن نزوى والعقر، فلا يدخل ولا يخرج خارج اهتمامًا بهذا الأمر الجلل الذي يريد محمد بن ناصر أن يتخلى عنه، وهم لا يرون له أحدًا إلا محمد بن ناصر الذي لم يعرف له انهزام في حرب، ولا لسبقه نبوة عند الضرب، ولا لسهمه التواء عند الطعن، ولم تعرف له خفقة في حروبه التي مرت على القارئ.

قال الإمام: وما زالوا كذلك ليلتهم حتى قرب الفجر، فعقدوا له الإمامة وضربت مدافع قلعة نزوى، ونادى المنادي له بالإمامة والعز والأمان، لكل قبيلة تؤيد المواجهة من يمن ونزار من بدو وحضر، وكان هذا ليلة السبت لسبع ليالي خلون من المحرم سنة ١١٣٧ سبع وثلاثين ومائة وألف للهجرة.

❊ ❊ ❊

الإمام السالمي يناقش القضية

قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: وانظر في مبايعتهم له بعد تلك الأحداث المنكرة والأمور المهولة، قال: وفي كشف الغمة أنهم بايعوه تقية، قال الإمام: قلت: ولا يسوغ ذلك لقضاة المسلمين وعلمائهم، وكان الإمام، رَحِمَهُ اللَّهُ وعفا عنه، ينظر إلى الأحوال الواقعة في حروبه من فعل جيوشه من حمل أولاد الناس، وبيعهم في الأسواق، وانتبابهم لأموال عباد الله، ولا يردعهم ولا يزجرهم، وإن منصب الإمامة منزه عن مثل هذه الأحوال، وأن الإمام من شرطه أن يكون من خيار أهل الإيمان والتقوى مع العلم الذي يجب لحامل هذا المنصب، وأن محمد بن ناصر من الرجال الذين يقاتلون من أجل الدنيا.

قال الإمام: غير أن الأمر يحتمل شيئين، أما الأول أن يكون محمد بن ناصر محقًا عندهم في حروبه السابقة؛ لأن يعرب بن ناصر وأشياعه كانوا بغاة على المسلمين، وعلى هذا الاحتمال، فيقال إن تلك الأحداث إنما كانت من معرة الجيش، ومن أحداث بعض السفهاء كما وقع بعض الأحداث في جيوش أهل العدل، وهم لم يرضوا بذلك ولا صوبوا فاعله قال: ... والاحتمال الثاني: أن يقال إن تلك البيعة كانت على سبيل الدفاع حتى تضع الحرب أوزارها، وللمسلمين أن يقدموا في الدفاع إذا غشاهمم العدو من لا ولاية له عندهم، إذا رأوا صلاحيته، وأن غيره لا يقوم مقامه، فثبتت إمامته عليهم على هذا الشرط الذي شرطوه عليه وتجب عليهم طاعته إذا دعاهم لدفع عدوهم على حسب ما بايعوه.

قال: وإنما جازت الإمامة ها هنا لمن لا ولاية له؛ لأن الدافع واجب على الكل، فهم إنما قلدوه واجبًا عليه رجوا أن يقوم به، وأن يكون لهم به الظفر ولا تزيد هذه الإمامة إن لم يصلح منزلة فوق منزلته إلا وجوب الطاعة في الدفاع، وذلك إن لم يصلح حاله، فإن صلح فلكل درجات مما عملوا، ورب إمام بويع على الدفاع أولاً، ثم ترقى أمره حتى صار في منزلة الظهور، وأكثر الأئمة من بعد

مهنا بن سلطان إنما بويعوا على الدفاع فيما يظهر من حالهم.

قال: وإذا نظرت إلى فعل المسلمين في أول ظهور أمرهم بعُمَان، وفي تقديمهم لمحمد بن أبي عفان على ما قيل فيه سهل عليك الأمر، واتضح السبيل، وبرح الخفا، وعلمت أن الدين سهل يسر.

قلت: لما بويع محمد بن ناصر بالإمامة أصبح متتوجاً تاج الفخر والشرف، وعظم بذلك قدره وشاع في الناس ذكره، وعلا صيته وارتفع قدره، وعند ذلك ثار حسد أعدائه وزاد حنقهم، وغلت مراجل حساده في عُمَان، فقاموا يتظاهرون لمعاداته حسدًا من عند أنفسهم.

الحسد عنصر الشر

لما علم أعداء محمد بن ناصر ما صار اليه من العز والشرف ، وما رقى اليه من المجد ، قاموا يتعسفون فسادا في الأرض ، وأخذوا في التقحم علي الأمور بغير هدي ، ورامو أمورا تركسهم في الباطل علي هاماتهم ، ولا يخلفون وراءهم الا سؤ الأحداثة ، ومع ذلك يشاهدون أحوال هذا البطل القوي، ويعلمون عنه ما يكفي لإرشاد أهل الأفكار ، ولكن اذا عمى السمع والبصرلا يكون للانسان إلا العثار ، فإن محمد بن ناصر لما تكرر عقد البيعة له بالإمامة ، وأنتهت الأمور علي هذا لبحال ، بقي في نزوي حتي صلي الجمعة ، ثم توجه الى جبرين وفسح للأقوام التجمعة معه إلا القليل منهم ، واقام بجبرين مدة يسيرة ، ريثما يصلح احواله ويرتب أعماله ويهيئ عماله ، بلغه أن مانع بن خميس العزيزي هجم علي الغبي ، وقهر حصنها ونهب سوقها ، وأفسد فيها ، وأغار مهنا بن عدي اليعربي ، وعامر بن سليمان بن يلعرب الريامي ، وسليمان بن حمير علي اليعربي علي خزانة التركة وأخذوا ما فيها ، واتصلت أخبار هذه الحوادث الي الإمام محمد بن ناصر.

فقام متوجها إليهم ، وأرسل الي القاضي ناصر بن سليمان بن محمد ابن مداد ، والوالي عبد الله بن محمد ليلحقوه بالقوه الذين داعاهم لهذه البادره الحاضرة ،

والمتجمعون بنزوى وهو يسير أمامهم لأنه لم يمر نزوى ، بل جاء عن طريق خميلة ولم يكن عنده من العسكر إلا القليل ، لكنه عنده جيش من عزمه لم يتعود الانهزام ولا الذعر ، وبذلك هجم على أهل البركة الذين احتلوا ذخيره الدولة ، واغتنموا بغياً وبطرا على اهل الحق ، وكان الهجوم وقت الضحي حين ترى العين أختها ، ولم يرد قتالهم، بل ناصحهم على الرجوع عن مثل هذه الأحوال، وعلى رد ما أخذوا من غالة بيت المال، فأبوا وأصروا على حربه وقتاله، وسرعان ما صنعوا لهم مرصدًا على مسجد الشريعة، وهو الذي يسميه أهل عُمَان بومة، وهذه التسمية أصلها غير عربية، وقبضوا الجبل الشرقي، وكسروا فلج البركة واشتدوا في أمرهم، فصنع الإمام بومة تقابل العدو بالمسجد الأسفل من شريعة البركة والجبل الأسفل كذلك، وبقى بين الطرفين إطلاق النار، وقذف الرصاص.

قتل منه بعض عزابة الركاب من أصحاب محمد بن ناصر، وجرح كذلك، فصالت بعد ذلك بعد رجال محمد بن ناصر البواسل كالأسد الكاسرة، فهرب القوم منهزمين، وإذ ذاك قبض رجال محمد بن ناصر على ناصر بن بلعرب الريامي، وعلي بن صالح من أهلي كَمَهْ بفتح الكاف والميم آخره هاء ساكنة، بلدة بأعلى نزوى على سفح الجبل الأخضر، وكان هذا الهجوم من محمد بن ناصر قبل أن يصله أحد من المدد، بل كان ذلك بالذين كانوا مع الإمام أول ما وصل كما ذكرنا، وانسحق شر القوم، وانحمى كما يمحو الماء المداد.

وأمر الإمام بحمل التمر الباقي في خزانة البركة إلى يبرين، ورجع الإمام إلى نزوى ونزل بمساجد الغنتق؛ لأن ذلك المكان أوسع له ولم يدخل نفسه خوف من عدوه، ولو كان خائفًا لتغلغل بالحصن وقلعته الحصينة، وكان في هذه الآونة أراد حرب أهل تنوف؛ لأنهم صاروا أعوان العدو في البغي على الناس؛ ولكن توسط بين الطرفين رجال من الأعيان، فتركهم بعد ما قرر تخريب تنوف عن آخرها لما كان منهم، فأذعنوا له وواجهوه وعاهدوه ألا يخونوه، وكان عفوا إذا

أذعن المجرم غير متأثر مما فعل، موفقًا في مساعيه، منصورًا في إقدامه لا يثبت له عدوه في ميدان الحرب، ولما رأى الانقياد من أهل تنوف طابت نفسه عليهم وعفا عنهم، وبعد ذلك توجه إلى الغبي ومعه ستة رجال، فلم يشعر أهل الغبي إلا ومحمد بن ناصر يقتحم سور الحصن، ويدخل عليهم برجاله الستة.

وكان في الحصن مانع العزيزي كما سبق الكلام عليه معاديًا لمحمد بن ناصر، وكان يظن أن محمد بن ناصر سيأتيه في جيش، وإذا به يحتل ذلك الحصن الذي تولاه عدوه بستة رجال هو سابعهم، إنها لبسالة يضرب بها المثل الرائع، فخرج العزيزي ذليلاً هاربًا من الحصن تولاه وسيطر عليه فكان الخوف والرعب من محمد بن ناصر أقوى من جيشه، وخرج القوم الذين معه هربًا لا يلوون على شيء ما أبدًا، بل فرارًا من الخطر الداهم هو محمد بن ناصر، فكان روعهم منه كفيلاً بطردهم عنه، وقتل خادم لمانع المذكور.

وتولى الحصن وولى عليه واليًا ورجع هو إلى يبرين مقرره المعروف، ثم انتقل إلى نزوى وطلب حضور القبائل إليه، فحضرته جموع كثيرة وخرج بتلك الجموع يريد ضنك إرجاع الوحاشا بضم الواو وحاء مهملة وشين بعدها، قوم من أهلي ضنك ويردهم إلى بلدهم، فإنه أخرجهم منها صاغرين، ودمر حصنهم، وكسر قوتهم، حين عادوه.

والآن لما خضعوا وأذعنوا وقهرت عليه يده ورجعوا عن مظاهرة خلف بن مبارك، فإنهم ناصروا المذكور، وصاروا في طاعته، فغزاهم محمد بن ناصر قبل إمامته، فدك صرحهم وقضى على نعرتهم، فلم يقدر خلف بن مبارك أن يرد عنهم، وبذلك لاموا أنفسهم وعرفوا حقيقة الأمر.

ولما شاع هذا الحال وأن محمد بن ناصر جاء لهذا الصدد، تبرم آل عزيز أهل ضنك، ولم يرضوا أن يبني الآن عزيز حصنهم، ولا أن يرجعوا إلى وطنهم، وبذلك دخلوا على بعض طغام مظاهرة، فلقوا لفيفًا منهم، وجمعوا جمعهم، وراموا

حرب محمد بن ناصر، فجاءوا بجمعهم والتقاهم محمد بن ناصر بطل الحرب في ضنك نفسها، فسرعان ما تمزق شملهم وفرق جمعهم، وانهزموا تمامًا وحينئذٍ تحققوا أن لا طائفة لهم بحربه، وعمل محمد بن ناصر في ضنك ما شاء أن يعمل في مضاء لا يعرقله أي شيء.

* * *

مانع بن خميس يلتجئ بالنعيم

لما خرج مانع بن خميس العزيزي من حصن الغبي هاربًا بعد ما عاث في ذلك البلد هو ومن وازره، لم ير له ملجأ يلتجئ به، وكادت الأرض تضيق به، وفعل السوء لا يكون منه إلا الوبال لراكبه، قصد مانع بن خميس السنينة؛ ليحتمي بحماها الذي لا يحميه من محمد بن ناصر كما لم يحمه حصن الغبي من بطل الحرب، فكيف بالسنينة؛ ولكن من لم يفكر في أمروه لا يزال حائرًا ذليلاً، فلما علم محمد بن ناصر بوجهة مانع المذكور، خرج في إثره طالباً له في شرذمة من الرجال قليلة أصحاب خيل وإبل، فلم يشعروا به إلا وهو معهم فقبض مانع بن خميس أسْراً، ورجع به قائدًا له برغم أنفه، وجاء إلى ضنك، حيث لمانع القوة والرهط، وهل يتحرك أحد من قومه مناصرًا له، فلم يكر ثم توجه الغبي فمر على أفلاج بدو آل عزيز جماعة مانع المذكور الذين نهبوا سوق الغبي بالأمس مع مانعهم، فنزل محمد بن ناصر على أفلاجهم فدمرها، ورجع إلى الغبي وأقام سوقها ولبث ما شاء الله أن يلبث، ثم حشد من جانبها من قبائل الظاهرة ما شاء الله، وتوجه إلى جبرين وأقام بها أيامًا قلائل، ثم توجه لنزوى فنزل ببيت المزرع؛ ليجمع رجالاً من نزوى، ثم مضى إلى أزكى وأخذ منها رجالاً، وأرسل إلى الشرقية فلباه أهلها ولا يعلم أحد أين يريد، وبقي عدوه في كل بلده خائفًا هذا الجيش علي. وهكذا فسرت بذلك هيبته في أرجاء البلاد.

* * *

الإمام محمد بن ناصر يهاجم أهل علاية سمائل

كان في سمائل إذ ذاك أناس تمردوا كما يقول أحد كتاب الإفرنج، ومنهم البكريون في سمائل وأهل فلج الحيلي، وقوم عكاشة وبني ربيعة وأولاد سعد أمبو علي، وأفسد في سمائل آل عمير أيضًا قبلهم، فجاء هذا البطل؛ لتطهير البلد من السوء الذي بها، والتمرد على الحق، وكانت جموعه التي جمعها كما ذكرها.

قال الإمام رحمه الله: فخافت منه بنو رواحة أي لعلاقتهم بأهل العلاية، فلم يلتفت على بني رواحة شيء حتى أتى سمائل، فأول شيء عمله ألقى نصحه للبكرين.

قال الإمام: فلم يزل يناصحهم وأهل الحيلي وقوم عكاشة، ولكن يا للأسف لم يبين التاريخ عماذا يناصحهم؟ وما هي الأعمال التي ارتكبوها؟ وكأنه أمور لها أهمية كبرى، حيث اجتاحت إلى هذه الحركة الكبرى.

قال الإمام: فأما أهل الحيلي وأصحاب عكاشة فصالحوه وأدوا الطاعة، فأرسلهم إلى البكريين؛ ليناصحوه فلم يقدروا عليهم، وكأنهم أصروا على خلافهم، فأمر بالركضة عليهم في ليلة باردة شاتية مطيرة مظلمة ذات رعد وبرق، فلم يشعروا به إلا هو في أعلى السور مع الحارس يقول له: عمن تحرس؟ فقال: مخافة أن يهجم علينا محمد بن ناصر، فقال له: هذا محمد بن ناصر عندك، فسقط في يده، وانخذل حالاً وانخذل أهل الحجرة كلهم لما نادى محمد بن ناصر على رأسها.

وطلب أكثرهم الخروج بأمان فأمنهم، ولم يبق من الحجرة شيء برج واحد وشيء من الغرف فيها بكر وأولاده وبنو عمه، فأطلقوا عليهم النار حتى قتلوا عن آخرهم، وقتل من قوم الإمام أربعة رجال فيهم مملوك للإمام اسمه بخيت، كان قدمه على جميع الخدام، فجاءته رصاصة فقضت عليه، وهدمت الحجرة كلها، وأقبل على أولاد سعد أمبو علي فأودعهم القيد، وهدم المهم من حجرتهم، ولأجل البيان فإن عرف العُمَانيين أن الحجرة في البيوت الملتفة على بعضها بعضًا، تحيط بها أسوار وأبواب، فهي كالحصون في معناها.

قال الإمام: وسلمت له سمائل زكاة ثلاث سنين، ومنه نتبين أن الخلاف بينهم والإمام محمد بن ناصر من جملته امتناع زكاتهم، فكانت تلك العاقبة، قال: وكان آل عمير قد أفسدوا في سمائل، وجازوا جميع أموال الأغياب، فرد محمد بن ناصر كل مال لأهله ورد الأمور على القرار الصحيح، وأجراها في مجاريها والرجل غير متغطرس كما تشهد له أعماله، والأفعال دالة على ما في نفس الفاعل.

❊ ❊ ❊

محمد بن ناصر يلاقي خلف بن مبارك في حيل العوامر

بلغ محمد بن ناصر وهو في سمائل أن خلف بن مبارك يروم الخروج من مسقط لحرب الرستاق، حين علم أن محمد بن ناصر مشغول بأمور سمائل، فتجهز له محمد بن ناصر؛ ليلاقيه في حيل العوامر من السيب، فيلتقيه قبل قصده فوصل الباطنة وكان خلف بن مبارك في مسقط، وكان محمد بن ناصر يخرج من معسكره بالحيل إلى غبرة بوشر لعله يلتقي بخلف في هذه البيئة، فلم يخرج خلف بل بقي خائفًا هجومه على مسقط، فما رأى له إمكان الخروج كان محمد بن ناصر يخرج هو ومملوك له اثنان فقط، وهو يعلم أن خلف بن مبارك إذا خرج لا يخرج إلا بجيش، فهنا يتجلى ما يقوله الناس إن محمد بن ناصر عنده أسرار.

يدلك على ذلك أنه لم يهزم مرة واحدة، ولم يصب برمية واحدة في كل تلك الحروب التي خاضها، مع أنه يباشر الحرب بنفسه قبل أن يصل الجيش فيقتحم الأسوار، ويباشر بصدره خطوط النار، ولم يتعثر بأي شيء يعرف، وهذا هو هنا يتلقي خلف بن مبارك ومعه مملوك من خدمه فقط وهذا أكبر دليل على ما قيل، فإنا ما قرأنا في التاريخ عبقرياً من الرجال يغامر بنفسه كهذه المغامرة، ويرتكب هذه المراكب الصعبة، ولا بأس عليه ولا خوف، ولله في خلقه أسرار.

وإذا تتبعنا أحوال محمد بن ناصر في حروبه أيقنا أن الرجل أوتي شيئًا فوق العقل، فإن وقائعه مع أعدائه لها أهميتها البالغة، فإن الحرب في جميع الأمم

تكون سجالاً إلا حرب محمد بن ناصر لم تكن سجالاً، بل انتصار محض، وهذه المحررات التاريخية من شك، فليتتبع ذلك يجده كما قلنا، فإن أبطال الحرب معروفون جاهلية وإسلامًا، ولم يعرف لواحد منهم نصر محض في كل موقعة، وكذلك لم تكن لهم سلامة نفسية، ومما يدل على أنه ذو خصائص سرية لما كان عند آخر ذرة من حياته في صحار، إذ جاءه الخبر أن خلف بن مبارك أقبل بجيش كثيف، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، هذه ساعة لا لنا ولا علينا، ما ندري ماذا يقضي الله فيها، فقضى الله بقتل الرجلين كما سوف يأتي إن شاء الله في محله.

ولا زال خلف بن مبارك خائفًا من محمد بن ناصر في مسقط، وقد سد الأبواب، وأقام الحرس على الطرق، ولم يقصده محمد بن ناصر قصدًا خاصًا في مسقط، ولو قصده لم تكن لتمنعه أكثر من بقية حصون عُمَان وقلاعها؛ ولأن العادة قاضية بينهما بانهزام خلف بن مبارك ونصرة محمد بن ناصر، وقد أقام محمد بن ناصر في حيل السيب قدر نصف شهر منتظرًا خروج خلف ولم يخرج من مسقط.

* * *

محمد بن ناصر والمعاول

لما أيس محمد بن ناصر من خروج خلف بن مبارك من مسقط رجع إلى سمائل، وكان المعاول أنصاراً لخلف بن مبارك، كما أنهم هم الذين قادوه على حرب نخل كما سبق، ثم وقع بينه وإياهم شرهة وعتاب رأوا أن يهاجموا حصن بركا، فاحتالوه على دخوله فدخلوه بصفة الاحتيال، فتولوه ليعلم خلف بن مبارك أنهم ينفعونه ويضرونه، ويؤثرون عليه إذا لم يتراجع عن سياسته التي هو عليها في جانبهم، وإذ ذاك أرسلوا لمحمد بن ناصر في سمائل يخبرونه عما فعلوا.

وكأنهم يتخوفون من خلف أن يهاجمهم، فجاء محمد بن ناصر إلى السيب والتقاه المعاول، وعاهدوه على حرب خلف بن مبارك، وعلى تخريب مسقط ولم يجر كلام في حصن بركا من الطرفين، بل هو في يد المعاول، والمذكورون هم بعهدهم مع محمد بن ناصر. ولما افترقوا غرب محمد بن ناصر فظن المعاول أن محمد بن ناصر توجه لقبض الحصن، فلحقوا به ونزل هو الحرادي من بركا، ونزل المعاول في مناخه وعند غروب الشمس، فرشوا على ركابهم يرومون التوجه إلى بلدانهم؛ ولكن أرادوا أن يصلوا المغرب فنزلوا الساحل أفرادًا، ومن هناك يتسابقون إلى الحصن، وقالوا لطناف الركاب سر بركابك في خفية حتى تدخل بهن وادي المعاول، وسرعان ما نكثوا العهد، فلما تحقق محمد بن ناصر أمرهم أرسل إليهم ما بقى من متاعهم في مناخه، وتوجه راجعًا إلى سمائل وكان أهله بها فحمل أهله منها وتوجه إلى جبرين.

* * *

محمد بن ناصر يهاجم بغاة البدو من عامر بن ربيعة

لا يخفى أن البدو أفسدُ خلق الله من أول يوم عرف فيه التاريخ؛ ذلك لأنهم أشد كفرًا ونفاقًا، وأجدر ألا يعلموا ما أنزل الله، وقد عاشوا على الغزو والنهب ما لم تصرفهم عنه قرينة هي بريق السيف ورصاص البنادق، ولما كان محمد بن ناصر

قد برز بسيفه في الميدان يقطع رؤوس البغي، ويرد الطاغي عن هواه برغم أنفه، فإنه لما رجع من الباطنة ورأى من المعاول خلاف ما عاهدوه عليه، أحب إبقاءهم على ما هم عليه إرغامًا لخلف بن مبارك.

ولما قفل من سمائل قصد البدو من عامر بن ربيعة وآل سعلى، ومن اشتمل عليهم ومن وأطاهم من سكان الباطنة، وهج عليهم في باديتهم، وتوجه أولاً إلى ركابهم فظل يعرقبها ويعقرها؛ لأنها قوتهم التي يفسدون بها في الأرض، وهرب منه الرجال فقتل إبلاً كثيرةً تمكن من قتلها، وكان راكبًا على فرس، وبيده كتارة أمضى من عزمه، ومعها رمح طويل، فكان يضرب الإبل يمينًا وشمالاً يقطع أعناقها، ويعرقب أرجلها، ولم يسمح لأحد يأخذ شيئًا؛ ذلك لأن يبيح كسر قوة الباغي، ولا يحل ماله لعصمته بالتوحيد، عمد بالنص الوارد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، فتقتل خيل الباغي وإبله وبغاله وحميره، وتخشى أمواله نخله وشجره، وتهدم قصوره وحصونه، ويقتل عندما يتمكن المسلمون منه، أم غنم أمواله فلا أبدًا، ويستعان بسلاحه وآلة حربه على قتاله، وهذا هو عمل المسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين.

قال الإمام نقلاً عن التاريخ العُمَاني: ووصل إلى فريق من فرقانهم فقتل رجالهم، فصاحت نساؤهم بالأمان يا خلف بن مبارك إنا في طاعتك، يظنونه خلفًا. فأكثر فيهم القتل، وهو إمام القوم لم يلحقه إلا أهل الخيل والإبل السيارة. قال: وسيف بن سلطان معه لا يفارقه في جميع حروبه وغزواته حتى قضى غرضه من هؤلاء البدو البغاة المفسدين في الأرض، ثم رجع إلى الحزم فأقام بها أيامًا قلائل، ورجع إلى بلدة سِنِيْ بكسر السين المهملة، وبكسر النون مخففة بعدها ياء ساكنة لا يظهر عليها الإعراب، وهي في وادي بني غافر.

قال: فأقام بها أيامًا ثم رجع إلى يبرين، قال: وكان إقامته بها، وكانت البدو من عُمَان قد أفسدوا الطريق ينهبون ويقتلون فلا يقدر أحد أن يسافر إلى مكان إلا بجماعة كثيرة.

قلت: وهذا شأن البدو في كل الأجيال، وهنا وجدوا الباب مفتوحًا لمخافة خلف بن مبارك، ومحمد بن ناصر، وكثرت الصيال والقتال والغارات المتواليات، فأظلمت الطرق، وتخوف الناس، وتعطل السعاة، وتوقفت الحركات التجارية إلا ما شاء الله، وأصبح الناس تأخذ منهم مأخذها.

* * *

محمد بن ناصر يسوق زعماء وهيبة لواحة جبرين

لما كان آل وهيبة أكثر البدو نهبًا وسلبًا لاسيما كونهم أنصار خلف بن مبارك، وقد استأذت الناس من بطشهم، وكان لهم رئيس يقال له بوخرق؛ لأن البدو غالبًا يستعملون الألقاب ولا يتبرمون منها كهذا اللقب وكخرق الفضعة وأمثالها، قال: وخاصة آل وهيبة.

قال الإمام ﵀: فحشدهم أي محمد بن ناصر بجميع أهلهم وإبلهم وغنمهم، وأمرهم بالنزول حوالي جبرين، قال: وذلك قهر منه لهم حتى ماتت إبلهم وأغنامهم، وضعف حالهم، ولم يقدروا على مخالفته، فلما كانت ليلة أحد عشر من شهر الحج، خرج محمد بن ناصر بمن معه من القوم قاصدًا منازل آل وهيبة، وهاجم بلدهم السديرة ودمرها، وقتل من وجد فيها منهم. قال: فكانوا يهربون إلى الرمل من أسافل عُمَان وخرابها، أي من جهة الجنوب، وكل موضع ليس فيه ماء يظنون أنه لا يتوصل إليهم لقلة اهتداء الحضر لتلك الأماكن، وقلة دلالتهم بمواردها.

قال: فمضى إليهم أي تابعًا لهم؛ ليقطع عروق الفساد، ويستأصل شأفة القوم، قال: فقتل: منهم ستة وثلاثين رجلاً من أكابرهم، وأسر خمسة وتسعين رجلاً، وقتل إبلهم وأغنامهم وحمل الأسارى إلى يبرين مربوطين في الحبال، قال: وأما بوخرق فإنه قصد مسكد أي مسقط ودخل مع بني هناءة، قال: وقيد محمد بن ناصر الأسارى في يبرين شهرًا وأرسل بوخرق إلى الإمام أنه يعاهده لا يضر أحداً، ولا يفسد.

قال الإمام: وأمنت الطرق. قلت: كيف لا تأمن الطرق وسيف الإمام لا يزال على أعناق البغاة لا يقي منه واقي ولا يرده راد، ويقول الشاعر العربي الحكيم:

بسفك الدما يا جارتا تحقن الدما وبالقتل تنجو كل نفس من القتل

ولا شك أن أهل البغي والفساد لا يردعهم إلا القوة الغالبة، ومحمد بن ناصر أقوى رجل في عهده، فإن آل وهيبة أنشط قبيلة وأقوى في بادية عُمَان فجمعهم حول جبرين رغم أنوفهم، ويهوي على بقيتهم في سديرتهم، فيهز تلك السديرة هزاً روع أهلها فيرتحلون هاربين عنها إلى الرمل النائي، ثم يتبعهم على تلك الأماكن، فيقتل الرجال ويؤسر الباقي في الجبال، كما تقاد الأغنام للبيع إنها لخطوة لا يستطيع مثلها قادة الدول الكبرى الذين عرفهم التاريخ من العهد البعيد، فلله در تلك الشخصية البارزة ملء عيون عهدها إنها لخصيصة قل أن يوجد مثلها خلق الله للحروب رجالاً، ورجالا لقصعة من ثريد، سبحان من يمنح من يشاء من عباده خصالاً عديمة المثال، ويرفع أقدار بعض الرجال حتى يظهر بهم من سلطانه ما شاء.

* * *

ينقل تظهر الخلاف لمحمد بن ناصر وتتعرض للهجوم

لقد سبق أن أهل ينقل رفضوا ما بينهم ومحمد بن ناصر، وتداعوا لحربه. قال الإمام، وابن رزيق، والمعنيون بالتاريخ العُمَاني: إن محمد بن ناصر أم بالحشد إليه بيبرين، أي طلب اجتماع جنوده المطيعين له في عُمَان من شرقها وغربها، فاجتمعت إليه في يبرين جموع عظيمة لا يعلم عددهم إلا الله، وأرسل إلى بني هناءة من بلدان وادي العلا والحيل، وضم وعملى، فأطاعته جميع بني هناء ولم يعصه أحد.

هذه عبارتهم بنصها، وهي تدل على قهره الباهر وسلطانه القاهر، قال: وسار بهم قاصدًا ينقل، ونزل في أعلى البلد وأرسل إليهم؛ ليخلصوا له الحصن، فأبوا وشدوا الحرب.

قلت: هذا جنون سافر، حيث عرفوا حق الرجل، وعلموا العلم اليقين عيانًا وسماعًا، وجربوه فلم يعصونه؟ فإذا صال عليهم لم يقفوا له في كل معركة يبتدئونها ويهربون آخرها، أليس لهم عقول يهتدون؟ أليس لهم رؤوس تنصحهم؟ أليس لهم أصدقاء تبين؟ وقد داس محمد بن ناصر وهاجم القلاع بالقلة من الرجال، وكيف وقد سحب عليهم الجحفل الوفير.

قال الإمام: فخرج ذات ليلة رجل من أهل ينقل يقال له عصام، فصالح الإمام محمد بن ناصر إلا أن البلد ليست في يده

قلت: ليس ممن يصالح، بل هذا ممن يخضع ليد يريدها عند محمد بن ناصر.

قال الإمام: فقال له محمد بن ناصر: جماعتك لأجل حقن الدماء، قال: يتبعوه، والمعنى ناصحهم فلم يقبلوا منه.

قلت لو قبلوا منه لكان أعز لهم وأكرم؛ ولكن الله يلب عقولهم، قال: وأقاموا الحرب غير مفكرين فيما يكون، قال: وكان بيت عصام على السور، فأدخل محمد بن ناصر ومن معه البلد، فلما دخل محمد بن ناصر البلد، أطلق للسيف حده وأعطاه عند ذلك زنده، فلم يزل يعمل اللازم الملقى على عاتقه حتى طلبوا الأمان فأمنهم، وهذا غاية أمرهم، أليس كان الأمان في أول الأمر وقبل انكشاف العجز والاعتراف بالذل وطلب الأمان فيمن به عليهم.

قال الإمام: فقيد أشياخهم، وحملوا إلى يبرين مصفدين في الحديد، قال: وترك فيهم واليًا وأدت له الطاعة والمعنى خضعت له راغمة.

❊ ❊ ❊

نهاية المزاولة بين محمد بن ناصر وخلف بن مبارك والصراع المرير

لما كان لكل شيء نهاية، ولكل قائم غاية، وهذا حكم الله في عباده وإن بلغوا ما بلغوا، وفعلوا ما فعلوا، وعاشوا في هذه الحياة ما عاشوا، فإن محمد بن ناصر، لما فرغ من أعمال ينقل، ورتب أمورها توجه لصحار وقدم أمامه من رؤساء جيشه ربيعة بن حمد الوحشي، ليناصح بني عمه القابضين لحصن من طرف خلف بن مبارك بل باسمه؛ ليهبطوا من الحصن، فلما وصلهم قال: شدوا الحرب إذ كان ميله نحو خلف بن مبارك، وإنما كان مع محمد بن ناصر بالقهر، وأما محمد بن ناصر فكان من الرجال الذين إذا تولوا يتولون بخالص ضمائرهم، وإذا خاصموا كانوا بتلك الضمائر.

قال الإمام، وابن رزيق، وابن سرحان وغيرهم من مؤرخي عُمَان: لما دخل محمد بن ناصر صحار التقته بنو هناءة الذين مع خلف بن مبارك، وقامت الحرب على ساقها بين الطرفين، وهم بحصن صحار، فوقع القتل فيهم، فقتل منهم جملة، وجرح ربيعة بن حمد الذي قدمه محمد بن ناصر؛ ليناصح قومه عن الحرب وأخذ أسيرًا جزاء خيانته، وانكسر بنو هناءة كما هي العادة التي يمشي فيها محمد بن ناصر، فسبحان الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء.

وتراجع بنو هناءة إلى الحصن بعد الهزيمة، ونزل القوم بالجامع الكبير، ونزل محمد بن ناصر في بيت ابن محمود أحد أعيان صحار إذ ذاك، وطلب إحضار ربيعة بن حمد، فلما حضر، قال له: إن شئت أن تقيم معنا فعليك الأمان، أي لا تخاف لأجل ما فعلت، وهذا من الحلم بمكان، قل أن يوجد مثله، وإن أردت أن تسير إلى أصحابك بالحصن سيرناك بأمان، فأراد المسير إلى الحصن فسيره، وكان لمحمد بن ناصر اثنتا عشر فرسًا، كانت وظيفتها كشف الأحوال، واستطلاع العدو، يبعثها عيونًا تطالع المشرق، تراقب خلف بن مبارك، هل له نهوض إلى صحار عندما شاع خبر مسير محمد بن ناصر إليها، وكان بلغه أن خلف بن مبارك جمع بني

هناءة من الرستاق ومسكد، ومن شف معه من القبائل، وأنه نزل بحصن ضخم، وكان محمد بن ناصر قد استخلص جميع صحار وسلمت له رعاياها، ونادى مناديه فيها بالأمان لكل أحد.

قال الإمام: وأمن أهلها من جميع الطوائف، فلم يؤخذ على أحد منهم شيء، وكانت عنده البدو من بني ياس والنعيم، ومن اشتمل عليهم، والحضر أيضًا كذلك، فأصبحت ليلة من الليالي قد خرب زرع دخن من طوى في البلد، فجاء صاحبها إلى الإمام شاكيًا فسأله من خرب زرعك؟ فقال: بنو ياس والنعيم والبدو الذين معك، فقال له: كم غرامة زرعك؟ خذ مائتي محمدية، إذ كانت العملة المتداولة في ذلك العهد، فأبى صاحب الزرع أن يقلبها، فقال له: خذ أربعمائة محمدية، فأبى فقال له: خذ خمسمائة محمدية، فقال: لا أرضى إلا أن تنصف لي منهم.

قال: فأرسل إلى مشايخهم فحضروا عنده، فأمر بهم فصلبوا، وما كانت نصفته إلا الجلد فجلدوهم جميعًا وهم يستغيثون به، فلم يغيثهم إلى أن انقضت النصفة فأطلقهم من الحبال.

قال الإمام: وكانت هذه حيلة من بني هناءة؛ لينفروا عنه البدو، قال: وكان هذا من محمد بن ناصر عن جهل بالأحكام، فإن أمر التعزيز والعقوبات راجع إلى نظر الإمام لا إلى صاحب الحق، ولا إلى سائر الرعية وإنما لصاحب الزرع غرم زرعه فقط، فإن عرض عليه حقه فلم يقبله فلا حق له، وقيل يجبر على قبول حقه وليس له أن يتحكم على الإمام في عقوبة الجاني.

قال: ثم إن البدو خرجوا من عند محمد بن ناصر إلى بلدانهم راجعين، فعلم خلف بن مبارك بخروجهم، فزحف عليهم بمن معه من القوم، وهجموا عليهم بعد طلوع الشمس قليلاً، فجاء من جاء إلى محمد بن ناصر يخبره أن خلف بن مبارك وصل بمن معه من بني هناءة، فقيل إنه قال:« هذه ساعة ليست لنا ولا لهم إلا ما شاء الله.

قلت: هذا ما أشرنا إليه سابقًا أن محمد بن ناصر كان له أسرار يمشي على ضوئها.

قال الإمام رحمه الله: ثم ركب فرسه وركب أصحاب الخيل معه والتقوا خلفًا ومن معه على باب حصن صحار، فوقع بينهم القتل وقتل خلف بن مبارك، وهو أي محمد بن ناصر يتبعهم، حتى وصل تحت جدار الحصن، فضرب محمد بن ناصر من فوق الحصن ضربة تفق، وأخذه أصحابه فمات، وقتل من أصحابه قدر خمسة عشر رجلاً.

قال الإمام: ودفن خلف بن مبارك داخل الحصن، ودفن محمد بن ناصر في بيت غربي الحصن عند حجرة الشيعة، قال: ومكث بعدها دفن ثلاثة أيام لم يعلم بموته إلا الخاصة، قال: وكاد أصحاب الحصن أن يسلموه، قال: وقيل والله أعلم إن أحدًا بعث محمد بن ناصر من قبره، ورمى به خارج البلد، وذلك بعد أن رجع كل إلى بلاده. وهنا انتهت مزاولة الرجلين ومنافستهما على هذه الحياة، ولم يحصلا على شيء منها كما يقول المتنبي:

تفانى الرجال على حبها وما يحصلون على طائل

وقد تواقع هذان الزعيمان في عُمَان بأهل عُمَان بأكثر من خمس وقعات التي يباشرها كلا الزعيمين، أما الحرب التي خاضها محمد بن ناصر فكان النصر حليفه فيها بعُمَان.

* * *

إمامة سيف بن سلطان بن سيف

نسبه: هو سيف، الذي كان رؤوس القبائل يريدونه للإمامة ابن سلطان صاحب الحزم ابن سيف قيد الأرض بن سلطان بن مالك بن أبي العرب اليعربي، الذي كان محمد بن ناصر لا يزال حاملاً له في جميع حروبه وغزواته، ويتذرع به على الإمامة؛ ليقتاد به سواد الأمة، وآل الأمر على إمامة محمد بن ناصر فقام قيامًا دوخ القبائل، وقهر به العتاة، وأذل به البغاة إلى آخر ذرة من حياته.

ولما قضى الله عليه، وعلى خصمه خلف بن مبارك، ورجع الناس إلى سيف بن سلطان المذكور، وهذا مقصد الرؤساء الذين أرادوا هذا الأمر للمذكور، فعاكسهم فيه القدر، وسلط الله عليهم محمد بن ناصر يقطع الرؤوس، ويقهر العتاة، حتى إذا انتهى دوره، ورجع الأمر إلى سيف بن سلطان المذكور، وكان قد بلغ الحلم وأخذ درس الحرب من ذلك الصنديد الغافري، الذي مازال معه في حله وترحاله.

قال الإمام السالمي رَحَمَهُ ٱللَّهُ: سيف بن سلطان الصبي الصغير الذي مات عنه والده صغيرًا، ومالت إلى تقديمه غوغاء الناس أهل الشقاق من أكابر الرستاق، وهذه الجملة من هذه الإمام العلامة، أشبه بقنبلة ذرية رمى بها ذلك العالم. قال: وكان ذلك سببا للفتنة العظيمة والبلاد الطويل، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فكان سبب اختلافهم ما قصصناه وما سنقصه إن شاء الله، ولله الملك الدائم، وهو الواحد القهار.

قال: وكان سيف بن سلطان هذا لم يفارق محمد بن ناصر؛ لأن محمدًا كان يحمله معه في جميع حروبه ومواقفه سياسة منه وطمعًا في انقياد الناس بسببه، فلما قتل محمد بن ناصر بصحار، رجع بنو غافر ومن معهم بسيف بن سلطان إلى نزوى، وذلك حين ما بلغ الحلم. قال: فأقامه القاضي ناصر بن سليمان بن محمد بن مداد إمامًا للمسلمين يوم الجمعة بعد الزوال في العشر الأوائل من شهر شعبان من سنة أربعين ومائة وألف. قال: قدموه إمامًا لتقدم ولايته؛ بسبب ولاية أبيه، فإن أباه كان إمام المسلمين، وكانت ولايته على رعيته واجبة وأطفاله تبع له في ذلك حتى يبلغوا الحلم، ويحدثوا حدثًا يخرجهم من الولاية عند المسلمين، وقيل إن البالغ منهم يكون في الوقوف حتى يعلم منه حال يوالي عليه أو يعادي عليه، فتمسك القاضي بأحد القولين، نظرًا منه للأمة، وطلباً للسداد ومحاولة لجمع الشمل، ولا راد لقضاء الله، ولا معقب لحكمه.

قال: فإن سيف بن سلطان لبث ما شاء الله، ثم أحدث أحداثًا لا يرضاها المسلمون، فعزلوه ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وكان سيف بن سلطان قبل عزله طلب من الشيخ سعيد بن بشير الصبحي، أن يزيد في الجعل المقرر للإمام لمعاشه في بيت مال المسلمين، ويعرف في العرف العام بعُمَان بالفريضة، أي الشيء المفروض له والمقدر لمعاشه، طلب سيف المذكور زيادة على من سبق من الأئمة قبله، وكان أمر المعاش منوطاً بنظر المسؤولين في الدولة من خيار المسلمين الذين إليهم الحل والعقد منذ عهد الجلندي بن مسعود رَحَمَهُ ٱللَّهُ، عملاً بتقرير عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ لأن الإمام بمنزلة الأخير في بيت مال المسلمين ليس له أكثر عن حاجته الخاصة.

وكان المسلمون قد جعلوا للأئمة شيئًا معينًا لا يتجاوزه الإمام، ولما نصب محمد بن ناصر الغافري زاده المسلمون حين رأوا حاجته تتجاوز اللازم الذي فرضه المسلمون سابقاً، فزادوه عليه نظراً منهم رحمهم الله، وأراد سيف بن سلطان أن يجعلوا له مثل ما جعلوه لمحمد بن ناصر، وكان الوالي سالم بن راشد البهلوي قد ألح على الشيخ الصبحي في ذلك، فقال له: لا بل فريضة آبائه؛ لأن العاقدين الإمامة لجده الإمام ناصر بن مرشد رَحَمَهُ ٱللَّهُ، لم يألوا جهداً ولم يتركوا اجتهادًا ولو جاز لهم، ووسعهم فوق الألف، الذي جعلوه لجده الإمام ناصر لما بخلوا به، فرحم الله الإمام الناصر، كان أزهد القوم وأعلمهم وأتقاهم، ولم تطل عينه إلى رياش الدنيا، ولم يغره حطامها، ولا طالت إليها عينه بأكثر مما يسد جوعته ويستر عورته، ويحفظه من العدو، ويقيه الحر والبرد، كانوا جعلوا له كل سنة ألف محمدية عملة ذلك العهد.

قال الإمام السالمي رَحَمَهُ ٱللَّهُ: ولا جاز لهم أن يزيدوه لما بخلوا عليه حاشاهم، ولو لكل يوم ألف لو جاز لهم ذلك لجاز للإمام أخذه وقبوله منهم إذ لا غرم عليهم في أموالهم، ولا دخل على الإمام في قبوله منهم إذ صار للعطاء المفروض في بيت

مال الله، ولا جاز لهم ما اختاروه لجاز للإمام ما فرضوه.

قال الإمام: وأرجو أنهم أخذوا ما فعلوا تأويلاً من قول الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان: ٦٧]، أي وسطًا بين الحالين، فإن القوام معناه ما تقوم به الحياة.

فقال الشيخ الصبحي للإمام سيف: هذه هي فريضة آبائك، ولله در آبائه الكرام، وليته لم يتجاوز خطوهم ولم يخالف سيرتهم؛ ولكن الأمر لله عز وعلا وكل ما يفعل العباد يحفظ لهم عند الله جل شأنه، فخذها سيدنا فريضة هنية وهبة برية لا وبية، خارجة على حكم التقية، ولا أعلم أن جدك الإمام سلطان بن سيف، ولا جدك سيف، ولا عمك بلعرب، ولا أباك سلطان طلبوا ولا أخذ أحد منهم زيادة على ما مضى عليه إمامهم الزاهد العبد الصالح ناصر بن مرشد، وتلك فرضة كافية، ومات عليها الأسلاف، ولا أريد لك خلاف ما عليه السلف، فهذا اختياري، والجهدة مني، ولا خفت في أمرك لومة لائم، بل اخترت لك ما اختاره الله لمثلك من الأئمة، واختار المسلمون لهم ذلك نظراً ومعونةً، وموافقة لكتاب الله.

قال سالم بن راشد: كيف جعلت فريضة الشيخ محمد بن ناصر أكثر من هذا؟ قال الشيخ: أخاف أن يكون وقوعها على وجه التقية والحلال أولى في حكم الله وحكم البرية، وكان هذا نهار ٢١ شعبان سنة ١١٤٥هـ خمس وأربعين ومائة وألف للهجرة. قال: ثم غير السيرة بعد ذلك، وعزلوه أي رأوا منه أشياء تخالف سيرة الصالحين قبله، وهم إنما يريدون أن يحملوه عل تلك السيرة الزاهرة والدولة الطاهرة.

قلت: أما أمر المعاش فيختلف باختلاف الأوقات غلاء ورخصاً كما قرروه في نفقة من لا يملك أمره ونفقة المرأة على زوجها، ونفقة الأولاد على أبيهم، وأن ذلك موكول إلى نظر الحاكم الشرعي، فيجاري فيه حالة الوقت، فإن الأحوال

تتحول من حال إلى آخر؛ ولكنهم رحمهم الله كانوا على سيرة سلفهم حراصًا أشداء، ولضبط النفس عن الشهوات أشد، رضوا من الدنيا بقوت الأكل، رحمهم الله ورضي عنهم.

ولما عزلوا الإمام للأحداث التي عدوها عليه راح إلى نخل، وكان الوالي فيها جساس بن عمر بن راشد الحراصي، فأدخلوا بلعرب بن حمير الحصن وسيف بن سلطان بالبطحاء، ولم يدروا بدخوله ومنعوا الحصن من سيف بن سلطان، ونهض المذكور إلى بطحاء وهي من وادي المعاول، وأرسل خاله سيف بن ناصر إلى مسقط فقبضها، وأما بلعرب بن حمير فأقاموه بنزوى إمامًا.

* * *

إمامة بلعرب بن حمير

لما عزل سيف بن سلطان عن الإمامة، بويع بعده بلعرب بن حمير بن سلطان بن سيف بن مالك بن بلعرب اليعربي بنزوى، وذلك في سنة ١١٤٥، وقام معه فريق من أهل عُمَان، وبقي فريق آخر عند سيف بن سلطان متمسكين بإمامته كما أرادوها من أول الأمر، أي من يوم هو صغير لم يبلغ الحلم. وهنا انقسم أهل عُمَان فرقتين، فرقة آزرت الإمام الجديد، وفرقة بقيت على ولائها لسيف بن سلطان، فتولى الإمام نزوى وبهلى، و أزكى وسمائل والشرقية وعُمَان الداخلية، وبقي في يد سيف بن سلطان مسقط والباطنة والرستاق.

* * *

الحرب يقيمها الإمام على سيف بن سلطان

لما رأى بلعرب أنه الإمام المقبول، ورأى أن سيف بن سلطان مرفوض من الإمامة لأحداثه لزمه القيام عليه ليرفع يده عن المملكة العُمَانية، وليدخل فيما دخل فيه المسلمون، وهو يرى أنه الإمام المؤيد من أول يوم، وأنه الأحق بهذا الأمر لما سبق من حاله، وبيده المملكة العُمَانية، فإن مسقط والساحل كله يقوم

مقام الداخلية، وهنا يبتلي الله عباده، حيث يخالف الناس أمر ربهم.

جهز الإمام بلعرب جيشًا لحرب بني رواحة الذين يناصرون سيف بن سلطان على الإمام العدل، ولما علم سيف بن سلطان بذلك جهز جيشًا؛ لمناصرة بني رواحة، وجعل قائده أخاه بلعرب بن سلطان، والتقى الجيشان واصطدما في وادي بني رواحة، وانهزم بلعرب بن سلطان وقومه، وفروا إلا من تحصن منهم في حجرة وبال، فحاصرهم جيش الإمام بها، وأمر بقطع نخل بني رواحة إلى أن رأوا ضرورة الانقياد والخضوع لما لا بد منه، فأذعنوا ونزلوا على حكمه راغمين، وبعد ذلك رفع الحرب عنهم وأذن لقومه بالرجوع إلى أوطانهم، وهدم بروجهم ورسم لهم خطة القهر والغلبة، وأراهم ما يكرهون، وارتحل عنهم بعدما تحقق خضوعهم.

* * *

الزحف على بني هناءة في بلادسيت

لما رجع الإمام بلعرب من تدويخ بني رواحة رأى من المحتوم الزحف على بني هناءة الذين ما زالوا طيلة تلك الأيام اليعربية منذ عهد الإمام ناصر بن مرشد، وهم على حال مغالبة ومطاولة حتى صار عليهم ما صار، وتقاتلوا هم ومحمد بن ناصر، ووقع بينهم وإياه ما وقع، وأحاط الإمام بلعرب بن حمير ببلاد سيت، وقطع نخلها ودمر أفلاجها وهدم مبانيها حتى أخضعها لسلطانه راغمة ثم خرج عنها.

* * *

الزحف على جبرين وفيه بنو هناءة

كان سيف بن سلطان لما تولى الأمر أدخل بني هناءة حصن جبرين وولاهم إياه، فعضوا عليه وظنوا أنها أنشودة أدركوها، وعزة وصلوا إليها، وأن هذا الحال من هذا الإمام ضد ما كان عليه محمد بن ناصر فإنه كان يطاردهم ويستمر الصراع

بينهم وإياه، وإذا بهذا الإمام يعكس القضية فيوليهم المقام الذي جعله محمد بن ناصر غابه وعرينه، فأذلهم هذا الإمام وأخرجهم منه، وسيرهم بأمان إلى أوطانهم مع أهلهم وعيالهم وذراريهم وأمتعتهم، أوصلهم إلى بلدانهم وأرحامهم في الحال، واستراح منهم وهدأت الحال بينهم وإياه، والدهر يعمل ما يدق به العصف ويطيل به الخلف وهكذا الأيام نداولها بين الناس.

❊ ❊ ❊

سيف بن سلطان يجر الأعداء على عُمَان

لما رأى سيف بن سلطان أن الأمور تسير في غير صالحه، طلب من أهل مكران نصرة على قومه أهل عُمَان، ولم يبال بما يكون منهم في الوطن والدين، فجاءه رهط من البلوش أهل البنادق، والتقاهم ولف جموعه معهم، وأقبل بهم على طريق الجو، فالتقاهم بلعرب بجيشه العُمَاني، ودارت رحى الحرب بينهم لا كثر الله من أدارها على هذا الطريق، واقتتلوا قتلاً شديداً حتى كادت الهزيمة أن تكون على الإمام بلعرب وأصحابه؛ ولكنهم صبروا وقاتلوا حتى لان الحديد من حرارة النار، فانهزم سيف بن سلطان وجنوده، ومزق الله شملهم وفرق جمعهم، وركبهم العُمَانيون قتالاً وأسراً وسلبًا، ومنهم من فر على وجهه ومات عطشًا وجوعًا، ومنهم من لا يهتدي لطريق فتاه في الأرض فهلك، وسقط في يد سيف بن سلطان، ورأى أن عداوة أهل عُمَان تتجسم في وجهه وأنه لا وجه له معهم لهذه الأحوال التي اقترفها وهو كذلك يرى أن العداء قد تناهى، وأنه لا يزيله إلا غلبته عليهم ولا يمحوه إلا أمر يذل العُمَانيين وبقهرهم فيأتوا إليه خاضعين.

❊ ❊ ❊

طلب سيف بن سلطان من العجم النصرة على أهل عُمَان

لما رأى سيف بن سلطان سقوط الأمر من يده، وأن وراء ذلك الذل الذي يرمي به في الحضيض، طلب من ملوك العجم وأرسل أعوانه هذا الصدد، ولا يدري أن القوم لا يبذلون أرواحهم، ويسفكون دمائهم لأجل سيف بن سلطان؛ لكنهم يريدون ملك عُمَان إذ تذكرهم الأيام بعهدهم السالف فيها؛ ولكنه غير مبال، ولعله متمذهب بمذهب من يرى الكفر خيرًا له من الغلبة والعياذ بالله.

ولما وصل طلبه إلى القوم بادروا بسرعة ملموسة لإجابته، عسى أن يدركوا محو هذه الأرسم العربية من أرضها، أو اغتنام ما لديها على الأقل، فجاء جيش العجم ونزل خور فكان آخر ليلة الخميس من شهر ذي الحجة سنة ١١٤٩هـ تسع وأربعين ومائة وألف للهجرة، وقصدوا الصير، فخرج سيف بن سلطان؛ ليتلقاهم وترك في مسقط عنه واليًا، وعلم بلعرب بن حمير عنه، فحشد الجموع وخرج من نزوى أول شهر المحرم سنة ١١٥٠ خمسين ومائة وألف للهجرة.

والتقى الجيشان بالسميني، واجتمع سيف بن سلطان وبلعرب ابن حمير اليعربيان وأجنادهما في غرة شهر صفر من نفس السنة المذكورة، ووقع بينهم تناوش، فقتل من قوم بلعرب الأكثر حتى آخر ذلك اليوم، وانهزم بلعرب وقومه، وأخذ كل ما لديهم من عدة ولم يرجع أحد منهم إلى هرب عن الوقعة، ولم يرجع أحد بشيء مما لديه من سلاح وعتاد وغيره، وبعضهم ضل الطريق وتاه في المضيق، وقتل بعضهم في الطريق؛ لأن المنهزم كل يتعاطاه لتأثير الهزيمة عليه عادة، وضاع ذلك الجيش الذي قاده بلعرب في هذه المرة بجامع ما لديه من قوة وقدرة وآلة حرب، ولم يرجع أحد بعد الهزيمة فكانت شر هزيمة.

وبذلك استولى سيف بن سلطان على الجو، أي البريمي وظنك والغبي وأدت له الطاعة وأعلنت له الخضوع القبائل التي بهذه المنطقة الحساسة، وأدت له هذه القبائل إلى الظاهرة الخراج، وساق له الأموال العظيمة أهلها اتقاء لشر العجم

الذين معه والغالب يتشفى من المغلوب كما يشاء، وانساق العجم على أوجههم حتى دخلوا عبري وأوقعوا بأهلها الشر العظيم، قتلاً وسلباً ونهباً، وأخذت أموالهم كلها رغم أنوفهم، وهذا فيمن اكتفوا منه بذلك، وحملت نساؤهم وصبيانهم وذراريهم.

قال الإمام: وأصابهم ذل وهوان، ورجعت العجم إلى مركزها بالصير بغنائمها من عُمَان، قال الإمام: وأما سيف بن سلطان فإنه مر بقومه على بهلى وناوشته الحرب، ثم خضعت له وأصلحت معه خوفًا من عجمه المشار إليهم، ولما سلمت له الأمر ولى عليها سالم بن خميس العبري، ومضى فبات بطيمسا فارتاع منه أهل نزوى حتى الذين في قلعتها، ففضلوا الهرب منها خوفًا من سيف بن سلطان حتى كاد بلعرب بنفسه يخرج من الحصن مرتاعًا لما شاع بينهم من الذعر، إلا أن سيف بن سلطان لم يقصد نزوى، بل جاء منح ثم أزكى ثم سمائل، وأناخ بفلج العد المعروف الآن بالمدرة أعلى سمائل، وطلب قبائل وادي سمائل، فواجهوه هناك ولبوا دعوته، ثم توجه لمسكد ولم يتعرض للحصون بل أعرض عنها سياسة منه، ثم انتفض أهل الغبي وقام معهم بنو غافر فاستولى بنو غافر على الغبي، وخرج الوالي منها، ثم جاء أهل بهلى إلى بلعرب بن حمير فأدخلوه واستولى عليها.

❋ ❋ ❋

سيف بن سلطان يواصل جيوشه من العجم على أهل عُمَان

لما رأى سيف بن سلطان أن عُمَان قلته وغير راغبة فيه لهذه الأحوال التي رآها الناس والنوايا التي يتحسسونها منه، وهو قد خرق حجاب الشرف وكسر جسر الإيمان ولم يبال بما يلاقي تبعاً للملوك الجورة، وقد رأى محمد بن ناصر وحروبه بعُمَان، وهو دائمًا معه لا يفارقه ولم يره يومًا يميل إلى أعداء الدين والوطن؛ ولكن كان أول اليعاربة خير أول وها هو الآن يريد أن يكون آخرهم شر آخر، فسبحان الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي.

فإن سيف بن سلطان طلب من ملك العجم زيادة جنود فأرسل إليه رهطًا عديدًا من عتاة القوم، فجاءوا على طريق شيراز. ولما نزلوا الصير انضموا إلى أصحابهم وتقوى بعضهم ببعض، ونشط البغاة الظالمون، وفي يوم التاسع عشر من شهر شوال من سنة ١١٥٠هـ خرجوا إلى عُمَان على طريق البريمي والظاهرة، ووصلوا إلى بهلى وتحرك أهل بهلى؛ لحربهم والتقاهم أبطالها فدارت رحى الحرب، فقتل من العجم الكثير، وكذلك من أهل بهلى بل الأكثر، وانهزم أهل بهلى ودخلت العجم بهلى في اليوم الثالث عشر من ذي القعدة من نفس سنة ١١٥٠هـ، واستولى عليها وهرب أهلها وقتل من قتل من الأهل والصبيان والنساء والولدان وسلبوا جميع ما في بهلى، وعلى كاهل سيف بن سلطان جريمتهم يوم القيامة وإن شاء الله؛ ليجزي كلاً بعمله والله المستعان على هؤلاء الجورة الذين لا يراعون الحق ولا يشمئزون من الباطل.

* * *

العجم يعيثون في نزوى

لما أنهى العجم أمر بهلى خرجوا إلى نزوى؛ ليعملوا عملهم الذي جاءوا له، وقد تركوا حامية في بهلى، وكان خروجهم لنزوى أول يوم من شهر الحج من سنة الخمسين ومائة وألف، وقد ضاق ذرع أهل نزوى من هذا العدو الداهم، وكان أهل عُمَان في تيه بني إسرائيل لا يهتدون لشيء مما ألم بهم، ولم يتحركوا لمناصرة إخوانهم ومعاونة أخدانهم، وقد سمعوا ما حل بجيرانهم، وأنه لا شك نازل بهم بل غاية أمرهم أن يكونوا مع العدو المهاجم حتى ضاق الحال ببلعرب بن حمير في قلعته التي هي الحصن الحصين، فاستولى الرعب على الكل فهرب بلعرب كما هرب غيره، وبقيت البلاد ولا مدافع للعجم ولا منازع، والتجأ بلعرب بوادي بني غافر.

وكان بالقلعة بنو حراص فثبتوا فيها، ولم يتزعزعوا منها، وخضع بقية أهل

نزوى للعجم وصالحوهم على ما أرادوا منهم، فلم تمكن العجم من نزوى، ورأوا أن أهلها استشعروا الذل والخوف، وضعوا عليهم الخراج وامتصوهم، ثم عذبوهم أشد العذاب فقتلوا الرجال والنساء والأطفال والكبار والصغار؛ لقصد الإرهاب وبث الروع والخوف في الأرض.

قال الإمام رَحَمَهُ ٱللَّهُ: وحملوا من النساء من أرادوا حمله، وفعلوا في نزوى أفعالا قبيحة، وأذاقوهم أليم العذاب حتى قيل أنهم قتلوا من أهل نزوى مقدار عشرة آلاف من الرجال والنساء والأطفال.

قال الإمام: ولم يسلم من أهل نزوى إلا من قدر على الهرب وهم القليل والله المستعان. قال الإمام: ولسيف بن سلطان من ذلك النصيب الأوفر من الوزر، حيث قاد إليهم الأعداء ونسي ما فعله آباؤه وما وقع فيهم من آبائه الكرام، وظن أنهم ينصحون له وهم أعداؤه.

قال الإمام: وما ينتج رأي السفيه إلا مثل هذه الأفعال القبيحة، قال ولم تقدر العجم على القلعة.

قلت: لاسيما وهي جديدة العهد، وليست لديهم النسافات العصرية، ومن حسن الحظ لأولئك السادة الأمجاد، بقاؤها ذكرًا لهم بعُمَان.

قال الإمام: وكذلك الحصن لم يقدروا عليه؛ لأن القلعة هي الحامية له، وقد بلغ العجم أربهم من نزوى، حيث لا دافع لهم، وإنما بقيت القلعة حامية نفسها فقط، وما زال العجم في نزوى يعيشون في ذلك الحرم الذي يغار عليه كل من في قلبه ذرة من إيمان بعُمَان، قال رسول الله ﷺ «إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس ناسا مفاتيح للشر مغاليق للخير». الحديث. فكان سيف بن سلطان مفتاح شر لعُمَان، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ثم خرج العجم من نزوى يوم ستة عشر من شهر الحج بعدما حجوا في نزوى وقضوا مناسكهم فيها إلى أزكى، فصالحهم أهلها وأدوا لهم ما أرادوا منهم، ثم

سمائل وإلى الباطنة بعد خروجهم من أزكى لم يقفوا في سمائل ولا في غيرها حتى دخلوا مسكد في اليوم الرابع والعشرين من ذي الحجة من نفس السنة، واحتووا على البلد وما فيها، ولم يبق سوى الحصنين الجلالي والميراني، وحاصروهما واحدا وأربعين يومًا حتى يوم الخامس من صفر من سنة ١١٥١هـ واحد وخمسين ومائة وألف للهجرة، ولم ينجحوا فيهما، ثم خرجوا من مسكد ومضوا إلى بركا وصحار.

قال الإمام: فرد شر سيف بن سلطان عليه، جاء ليقهر بهم صديقه الذي يزعم أنه عدوه، فطلبوا قهره بنفسه، وحاصروا حصونه وهرب هو عنهم في مراكب في البحر حتى نزل ببركا، وخرج الطو وتلقاه أهلها بالكرامة وصحبوه إلى نخل، ثم توجه إلى الظاهرة والتقى هو وبلعرب بن حمير بوادي بني غافر، إذ كان بلعرب هاربًا عن العجم من نزوى لما وصلوها إلى بني غافر، ولم يزل معهم حتى هذا العهد، وإذ ذاك قام بعض مشايخ بني غافر ومن معهم من بقية شيوخ القبائل، وقاموا لبلعرب يستعفونه من الإمامة ويرجعونها لسيف بن سلطان رضاء له ودفعًا لشره وقطعًا للمفسدة العظمى، وإنما كان هذا من رؤساء القبائل وشيوخ البلدان الذين رأوا الأعمال التي سلفت وهو بسببها ولم يشترك معهم أهل العلم والفضل.

قال الإمام: فما بلي أهل عُمَان بهذا البلاء إلا بمخالفتهم لأهل العلم وأهل الفضل، فإن أهل العلم يدعون إلى الحق وإلى ما أوجب الله على عباده، وأهل الدنيا يدعون إلى شهواتهم وما ينالونه من حطام دنياهم، فإنهم لا يعرفون الحق، ومن عرفه يفضل وجهة الطمع على وجهة الدين، وبعضهم يرى أن أمر الدنيا مقدم على أمر الدين؛ لأن الدنيا هي كرسي الدين، ولا بأس إذا كانت الدنيا تأتي من ناحية الدين؛ أما إذا كانت تأتي من حظيرة الشيطان ومن شر بني الإنسان فلا خير فيها بل فيها الشر فنعوذ بالله مما لا يرضاه الله.

سيف بن سلطان يتغلب على الأمر بعُمَان

لما كان سيف بن سلطان لا يبالي بما يأتي وما يذر، ولا يفتكر في حق ولا باطل، بل غاية ما عنده نيل السلطة مهما كانت وكيف كانت؟ ورأى الناس الأحوال خارجة عن نهج الحق، وأصبح أهل عُمَان يئنون ويبكون على الواقع فيهم من القتل ومن سبي ذراريهم ونسائهم وولدانهم، وتدمير منازلهم ونهب أموالهم، وتبدل حبهم لليعاربة وتوقيرهم إياهم، للأعمال التي لاقوها من سيف بن سلطان وعجمه، إذ قتلوا من أهل نزوى خاصة أكثر من عشرة آلاف قتيل غير المسبيين، وتبدل الحال الأول بهذا الحال الحالي، وتأثر الناس بذلك، لم يعد الحب السابق لهذه العائلة التي هذه أفعالها.

وإذ ذاك اجتمعوا حين رأوا المكروه ويدرون ماذا يكون من هذا الذي غير الوضع وكدر الصفو، وأوقع الناس في المآسي الكبيرة، وصاروا هنا يدًا واحدة رغم الواقع، ورأوا انقطاع العجم الذين خرجوا من مسقط وأصبحوا في بركا وصحار، وبقيت بقية قابضة على ناصية بهلى، وانقطعت عنهم أخيار أصحابهم، بعثوا منهم قدر مائة نفر فرسانًا؛ ليأتوهم بخبر أصحابهم، وأين هم الآن؟ وماذا الذي اقتضاه نظرهم؟ فإن هؤلاء في قلب الداخلية.

وكان قصدهم أولاً مسكد؛ ليعلموا ما هم عليه هناك ولما نزلوا وادي سمائل، تلقاهم أهل وادي سمائل، وحمير بن منير بقومه أول النهار يوم ثامن من شهر صفر، فقاتلوهم وقتلوا أكثرهم، ثم صار حمير بن منير بمن معه من العسكر وأهل أزكى وبنو ريام إلى بهلى يوم تاسع عشر من صفر، ودخلوها يوم واحد وعشرين، واستولوا عليها، واحتصن العجم بحصنها فحاصروهم، ولما اشتد عليهم الحصار خرج فريق منهم ولعلهم يريدون بذلك الخروج التخفيف عن المؤنة التي عندهم، أو يريدون التسلل شيئًا فشيئًا، فلما خرجوا اعترضهم المحاصرون لهم، فقتلوا أكثرهم وبقى من بقى منهم، لم يقدروا على الخروج من الحصن؛ لأنهم يعلمون أنهم بخروجهم مقتولون جزاء ما فعلوا في البلاد، وبقوا في حصنهم، وجاء

سيف بن سلطان ومن معه فأخرجهم بسلاحهم ومتاعهم ودوابهم، وأوصلهم سيف بن سلطان بأمان؛ لأنه جاء بهم وهو السبب في مجيئهم، وأصحبهم مبارك بن مسعود الغافري إلى صحار كخفير لهم من طرف الإمام، لا بارك الله في تلك الإمامة التي هذا عملها.

وفي كلام شكيب: أن سيف بن سلطان التجأ إلى نادر شاه صاحب فارس، وساق العجم لحرب عُمَان باسمه، وذكر الحوادث التي ذكرها التاريخ العُمَاني كما هي، وكانت تلك أعمال سيف بن سلطان في عُمَان، وتبدل حال عُمَان من مجد مشرق بلغ رأس الرجاء الصالح، ثم أصبح بلاء وبيلاً، عم الصالح والطالح، وهذه الفروق التي تمتاز بها الرجال وتختلف لديهم الأعمال، ولكل درجات مما عملوا، والله يتولى من عباده الصالحين.

قال شكيب: إن سيف بن سلطان ما زال يخشى ابن عمه بلعرب بن حمير، فاستمد العجم فأنجده بجيش تقدم إلى الظاهرة ومعهم سيف بن سلطان المذكور وجماعته، قال: فتغلبوا على بلعرب وأفحشوا في القتل والنكاية حتى رجع سيف إلى نفسه، ورأى عداوة ابن عمه أهون عليه من صداقة العجم، فانحاش إلى مسقط كما قدمناه أنه جاء بهلى، ثم منح وأزكي وسمائل، حتى جاء مسقط وذلك حين رأى أن الأمر بيد العجم لا بيده، ولا يلتفتون إلى أمره، وهم إنما جاءوا لغرض الانتصاف، وأخذ الثأر من أهل عُمَان لما سلف من الأحوال التي لا يزال التاريخ العُمَاني يرتلها عن العهد القديم، ثم جددته الدولة اليعربية الزهراء، وقادت الأعداء من أنوفهم راغمين، إلا أنها لم تفعل شيئًا لم يأمر به الشرع، حتى جاء دور سيف بن سلطان، فدمر موارد الشرف المورودة، ثم قضى على المجد العُمَاني حين ساق له من يبتلعه منه، وهو يرى ولا قدرة له على أمر ولا نهي ولا حركة ولا سكون، وأصبح العجم يحتلون الحصون منه برغم رغبته.

قال: ولبث العجم يجتاحون البلاد، ويوقعون بالأهالي، حتى قام بنو غافر

على بلعرب وأجبروه على التخلي عن دعواه الإمارة، ومبايعة سيف بن سلطان بدون منازعة، قال: فلما ثقلت حملة العُمَانيين باتفاق كلمتهم على العجم، جلوا عن البلاد إلا الجيش الذي كان أمام صحار، فإنه بقي يحاصرها وفي هاتيك الأثناء قام رجل في مدينة نخل اسمه سلطان بن مرشد من بني يعرب فادعى الإمامة سنة ١١٥٠هـ الموافق سنة ١٧٣٨م، وانتزع البلاد من يد سيف بن سلطان ومن جملتها مسقط، قال: فاستغاث سيف بالعجم ووعدهم بالتخلي لهم عن صحار إن ضمنوا له الاستقلال بالإمامة، قال: فسرح العجم جيشًا إلى مسقط استولى على البلد والحصون، قال: ولكنهم لم يسلموها إلى سيف، فذهب هذا إلى بلدة الحزم ومات بعد ذلك بقليل، قال: أما سلطان بن مرشد فمات على أثر جراحة في قتال العجم عن صحار. هذا كلام أمير البيان شكيب المصري، وهو يتلقى الأنباء من بعيد، وأكثرها من كتب الأجانب، فإن الحروب التي خاضها سيف بن سلطان أعرف بها أهل عُمَان، قالوا: إن العجم الذين انكسروا من مسكد ساروا إلى الصير، وفيها إخوانهم وركب منهم أناس إلى بلدانهم، وبقيت منهم بقية بالصير ما شاء الله من الزمان، وسار إليهم سيف بجيش عظيم من البر والبحر، وسير إليهم المراكب من البحر، فلما وصل بلدة خت بالخاء المهماة والتاء المثناة من فوق وهي قرب الصير، جاءه الخبر أن مركب الملك، بسكون اللام، أحد مراكب الدولة اليعربية قد احترق وغرق بمن فيه، فعزم على الرجوع، إذ هذه فادحة هامة، فإن هذا المركب هو الأسطول الضخم في الدولة، وهو أكبر البواخر المهمة، وفيه الأموال والرجال والسلاح والعتاد، فرجع سيف بن سلطان عن العجم إلى عُمَان، وبقوا هم بالصير ودانت له جميع حصون عُمَان، وأدت له الرعية الطاعة.

فلبث على ذلك الحال مدة ثم ظهرت منه أحداث لم يرضها المسلمون، قال الإمام: ولا رضوا مبدأ أمره ولا منتهاه، ووضع الخراج على الرعية، واتفقوا على غيره فنصبوا سلطان بن مرشد.

❊ ❊ ❊

إمامة سلطان بن مرشد اليعربي

قال الإمام رحمه الله: هو آخر أئمة اليعاربة فيما انتهى إلينا علمه.

قلت:... سيأتي بعده بلعرب بن حمير المخلوع؛ لأجل سيف بن سلطان فإنهم بايعوه مرة أخرى فيكون آخر أئمة اليعاربة، أما سلطان بن مرشد فإنه بويع بعد أن استغاث الناس والرعية من أحوال سيف بن سلطان.

قال: فاجتمع من شاء الله من مشايخ العلم من بهلى ونزوى و أزكى ورؤساء القبائل من بني غافر وغيرهم، وأهل وادي سمائل ومشايخ المعول، واجتمعوا في نخل وتناظروا فيما بينهم، فاتفقوا على إمامة سلطان بن مرشد وعقدوا عليه بعد الاتفاق بجامع نخل ليلة الحج، أي ليلة عرفة التاسعة من ذي الحجة سنة ١١٥٤هـ أربع وخمسين ومائة وألف، فقام بأمر الله واستقام بحمد الله على الحق والعدل، وخاضت له الحصون، ووهي كما قلنا عنها سابقاً يراد بها طاعة البلاد كلها، لن الطاعة وعدمها منوطة بالحصون التي هي الحجة في المملكة العُمَانية إذ ذاك، بخلاف عهدنا الحالي، حيث الأوضاع تغيرت، وأصبحت ترمى من السماء، وبذلك أصبحت الحصون غير كبيرة الأهمية، حيث لا تحصن من فيها، بل ربما صارت وبالاً على أهلها منا شاهدنا في عهدنا الحالي، ونحن على رأس القرن الرابع عشر للهجرة، وقبل هذا كله كان المعول على الحصون وكان التطاحن والتنافس عليها.

فسبحان من يظهر بدائع ملكوته في كل آن وهو على كل شيء قدير.

* * *

سيف بن سلطان يستعد لمصادمة الإمام ثم ينهزم

لما علم سيف بن سلطان اجتماع أهل عُمَان على سلطان بن مرشد، وقد قلدوه الزعامة الدينية، ووضعوا على هامته تاج الإمامة، أيقن أنهم عادوه وباينوه، وعلم بل تحقق أنهم قادمون عليه في رستاقه، تجهز لحرب وضرب معسكره أعليَ فلج الميسر من علاية الرستاق؛ لأن طريق القادمين من هناك وبقى متأهباً في شدة، ثم دخله الرعب وتصور في نفسه غلبتهم عليه، إذ كان اجتماع المسلمين مع إمامهم لله وفي الله ووقع الخوف في نفسه، واستشعر العجز عن مقاومتهم، فعند ذلك فضل الهرب عن أصحابه.

فلما جن الليل انسل الرجل من معسكره تاركًا فيه كل حاجاته لئلا يعلم أحد من القوم بهزيمته، ولما وصل الإمام سلطان بن مرشد أعليَ الرستاق، حيث المعسكر المشار إليه صباح الجمعة آخر شهر شعبان، لم يجد مقاومة وتحقق أن السيف أغمد وكفى الله المسلمين شره، ودخل الإمام الرستاق على حال هدوء واطمئنان، وتلقاه أهلها بصفاء القلوب من غير أن يرى من أحدهم شيئًا، وقابلوه بالكرامة، ودخلها بحال السلامة، ولما رأوه أهلاً للإمامة، ووازروه وناصروه، واحتوى على جميع علائق الرستاق، ولم يبق له معارض إلا حصنها فيه عبيد سيف بن سلطان ووالدته وبعض عياله، فخاطبهم الإمام بالنزول من الحصن ولم يقبلوا، وفي أنفسهم رجاء لسيف بن سلطان، فحصرهم الإمام وأحاط الجيش بهم من كل جهة، وما زالوا على ذلك الحال، والجيش محاصر لهم، وبقوا شهرين وعشرة أيام، ولما لم يرووا من سيف بن سلطان حركة، نزلوا من الحصن وتولاه الإمام. وانكشف بعد ذلك أن سيف بن سلطان في مسقط، وكان قد جمع قومًا من مسقط ومطرح والسيب وبركا، وعسكر ببركا وبعث الإمام له بعض قومه، وأمر عليهم أخاه لأمه سيف بن مهنا اليعربي، فتوجه بجيشه إلى بركا فالتقاهم سيف بن سلطان بجيشه، ودارت بينهم معركة حامية رهيبة، أسفرت

عن انتصار الإمام على سيف بن سلطان، وقتل من جيشه القليل، أما جيش سيف فهلك أكثره ولم ينج منه إلا القليل الذين انهزموا، أو الذين ألقوا بأيديهم إلى الإمام، وانهزم سيف المذكور إلى مسقط، ورجع سيف بن مهنا إلى الرستاق بالنصر المؤزر والظفر الأكبر.

ولما قر قرار سيف بن سلطان بمسقط، جاءته ثيبة أي جماعة مناصرة له هكذا في العرف العام عند أهل عُمَان، وهم بدو من طغام الظاهرة، فنزلوا الحزم، ولما علم بنزولهم طلع هو من مسقط وجمع من الباطنة قومًا فجاءته جنود كثيرة، من مرتزقة البدو وغوغائهم، الذين لا يعرفون دينًا ولا يتبعون دليلاً من عامر بن ربيعة، أجلاف لا خبرة لهم بحرب، ولا غرض لهم إلا السلب والنهب، وكان من قدر الله أن وقع بينهم شقاق وتنافس، أثار الشر بينهم فاقتتلوا فيما بينهم وعمل السلاح عمله فانهزموا عن قتل ذريع فيهم، ثم تنافروا إلى أوطانهم وبقي بدو الظاهرة في الحزم، ورأوا أنهم على غير طائل من أمرهم، وبذلك فضلوا الرجوع إلى أوطانهم، ولما تحقق الإمام سلطان بن مرشد سوء أمور سيف بن سلطان، جمع قومًا من الرستاق وتوجه إلى نخل... واستجاش أهلها وصحبه منهم الكثير، ثم خرج إلى بدبد واستجاش أهل وادي سمائل، ثم وصل أزكى وجمع من رجالها رهطًا هامًا، وخرج بهذا الجمع إلى مسقط يوم الخميس ثاني ذي الحجة من هذه السنة، ولما وصل روي ضرب معسكره فيها، وكان جيشه ضخمًا كثير العدد، وكان نزوله روي ليلة رابع ذي الحجة، ثم خرج بقومه إلا القليل منهم تركهم في روي حفظًا للمعسكر، ثم زحف برجاله على مسكد ليلاً فهاجمها تحت ظلام الليل، فأحدر القابضين للجبال وأنزلهم إلى الأرض من ليلته تلك، وتمكن من جميع مقابض مسقط من بروج وسيران وقلاع.

وتولى الإمام البلد إلا الكوتين الجلالي والميراني، وهما الحصنان المانعان وأرسل شرذمة من الجيش لحصن مطرح فاحتلته حالاً، وكان من أمر سيف

بن سلطان هرب على طريق البحر، ولما علم به الإمام أرسل في طلبه مراكب إلا أنهم لم يتوفقوا فإن ريحًا عاصفًا هب عليهم دون ناحية خورفكان فغرقت بالقوم وتلاشى أمرهم وكان قائدهم بجاد بن سالم، فرجع بقومه إلى مسكد، أما سيف بن سلطان فانكسرت دقالة مركبه في حوزة خورفكان قبل الوصول إليها، فاستأجر سفنًا أوصلته إلى خورفكان، ثم توجه بمن معه وهم فقط خمسة رجال، وقيل ثمانية رجال، وتوجه من هناك إلى العجم الذين بالصير، ثم منها إلى فارس؛ ليعيد البلاء على عُمَان، ولما علم العجم الذين هناك تلقوه خيالتهم وحملوه على فرسانهم، وبقي المركب هناك، فتولاه أحمد بن سعيد البوسعيدي الذي ورث العرش بعدهم كما سوف يأتي إن شاء الله في تاريخه وخرج سيف بن سلطان إلى شيراز.

* * *

أحمد بن سعيد بن أحمد البوسعيدي يبرز في الميدان ليتولى ملك عُمَان

كانوا يقولون إن أحمد بن سعيد اتصل بسيف بن سلطان في صدر دولته، وإنه ولاه صحار؛ لأهميتها في ذلك الوقت، لما رأى فيه من الكفاءة، ويقول بعضهم إن سيف بن سلطان أراد مشيرًا له في أموره بصفة وزيرًا يستعين به في مهماته، وكان أحمد بن سعيد تاجرًا جمع ثروة وتحصل على أموال، فاختاره سيف بن سلطان خصيصًا لصدده.

قال شكيب في تعليقه على حاضر العالم الإسلامي: وكان سيف بن سلطان محتاجًا إلى مشير يعتمد على رأيه، فأشار الناس عليه برجل من التجار كان معروفًا بالاستقامة اسمه أحمد بن سعيد من عترة يقال لها البوسعيد، قال: فتولى هذا مدينة صحار، قال: وأحسن إدارتها وحمد الناس طريقته، قال: فحسده سيف بن سلطان على المنزلة التي نالها في قلوب الأهالي، قال: وأراد أن يقبض عليه إلا أن الناس أصلحوا بينهما.

وفي ابن رزيق قال: وقد عدم سيف بن سلطان الصديق الذي يفرج عنه الكروب، فقال له رجل من خاصته: لا أرى لك اليوم للمساعدة رجلاً حازمًا تقر به عينك إلا أحمد بن سعيد البوسعيدي، فإنه هو في الرأي الحميد نهاية، وفي الشجاعة غاية، فقال: أي سيف بن سلطان، ومن ولي به؟ فقال له: أنا إن شاء الله آتيك به، فكان من التوفيق المقرر للتصديق أن الإمام سيف بن سلطان، قد أزمع المسير من مسقط إلى الرستاق، ثم منها إلى نزوى. وإذا بأحمد بن سعيد مقبلاً على ناقته، وكان الإمام سيف بن سلطان لم تسبق له معرفة بأحمد بن سعيد، فعرفه به أحد رجاله قائلاً له: هذا أحمد بن سعيد الذي تسمع به. وكان الإمام على فرس فنزل إلى الأرض وترجل كل من معه من رجاله، ونزل أحمد بن سعيد أيضًا، فتصافحا باليدين، وأخذ الإمام بأحمد فجلسا في ناحية عن القوم يتحدثان فيما بينهما، ويقول الإمام لأحمد بن سعيد إلى أين تريد؟ فقال: للمطرح لقضاء أغراض خاصة، فقال: امض إليها، وإذا سمعت برجوعي من الرستاق إلى مسقط فائتني بمسقط.

فلما رجع الإمام سيف بن سلطان وسمع به أحمد بن سعيد أنه رجع إليها وفد عليه فأكرم محله، ثم بعثه إلى الحسا لقضاء وطر له، فمضى إليها وأتاه بما أراد، فشكر صنيعه، وأكرم وأدني محله إلى أن قال: فلما رآه أهلا للولاية ولاه مدينة صحار وأعمالها، أي ومن أعمالها الطرف الشمالي كله، فتسيطر صحار على ذلك الجانب، فتولى وتعزل وتبدل وتغير وتسود ذلك الإقليم العُمَاني إلى آخر حدود عُمَان؛ لأن ذلك الحال كان لها من عهد الجاهلية، إذ كانت هي كرسي عُمَان معًا، قال: فأظهر أحمد بن سعيد العدل والإنصاف بين الرعية، وفشى إحسانه وكرمه فيهم، فأحبوه على ذلك، وأتته قبائل الشمال والظاهرة أفواجًا وفرادى وأزواجا، فأكرمهم وأحسن إليهم.

ولا شك أن للكرم تأثيرًا في النفوس، قال: وألان جانبه لهم وساوى بينهم

في المعاملات، قال: وقصدته شيوخ الجبور من الحفري والحرادي وحي عاصم، فرفع منزلتهم وأحسن إليهم، وسرى صيته فيهم وعم البلاد وأذعنت له الناس بالانقياد، وأظهر العدل، فأثنت عليه الأمة. قال، فلما بلغ صنيعه ذلك الإمام سيف بن سلطان، قال لبعض خاصته: والله ما فعل أحمد بن سعيد ذلك إلا لينفر الناس مني، وليجعلهم إليه، وأنه يحاول بهذا الشأن ليتولى الأمر عني فإني إن لم أعزله من ولاية صحار ليشقيني.

وكلامًا مثل هذا مما يدل على تبرمه والحجة عليه أن واجبه هو هذا الحال فلم يعدل عنه ولم يترك الحق ويركن إلى غيره؟ وهو يتسمى بالإمامة وهو أبعد منها بعد الثريا عن الثرى، وليس أحمد بن سعيد بمجرم، إنما هو المجرم، إنما فعل أحمد بن سعيد الواجب وتظاهر بما ينبغي، فما باله الآن بأفعال كان هو حقيقًا بها.

قال ابن رزيق: فبعث له كتابًا يطلبه فيه بالوصول إليه بمسقط، فلبى دعوته فجاءه معه خادم يدعى مسعدًا وهو لا يدري ما عند سيف بن سلطان، ولم يعهد أنه صدر منه ما يخالف الحق، أو يحدث حدثًا يوجب تغير الوضع بينه وبين سيف بن سلطان، وإذا بسيف بن سلطان ينوي الانتقام من أحمد بن سعيد، وكان أمر خاصة عبيدة بقبضه وإيداعه السجن بالكوت الشرقي، وربما رام قتله.

وكل هذه الأحوال تعسفات من سيف بن سلطان التي لا يبقى له معها عمل مرضي، وإذا كان قد ساءه عمل أحمد بن سعيد، وأراد عزله فللعزل مناهج صحيحة وطرق لا يتبرم منها عامل، فبالأمس عاملك واليوم ترميه للنار تأكله، ليس هذا من الحق في شيء؛ ولكن الأمور عند إدبارها ترى الناس العجب فأحمد بن سعيد بالأمس جئت به، لتنتصر به، وتستعين بآرائه، واليوم تعامله بسوء المعاملة، وأنت تتسمى بالإمامة، ثم إن عهد آبائك نصب عينيك لم تبل سرابيلهم، وقد أبليت أنت سيرتهم وعملت بضد أعمالهم، أما كنت غنياً عن هذا الحال.

قال ابن رزيق: وكان بيت الإمام سيف بن سلطان هو البيت الذي صار بعده

لداود المارديني، قال: ولما وصل أحمد بن سعيد قرية روي جاء هو وخادمه من عقبة وادي الكبير حتى نزلا على الزبادية من ذلك الجانب، فأناخا ناقتهما هنالك، وقصد أحمد بن سعيد يريد الإمام سيف بن سلطان بنفسه فردا يظن أن عند الإمام شيئًا من الأمور السرية، فيتفاهم معه فيها.

قال ابن رزيق: حتى بلغ حذاء بيت جده رزيق بن بخيت بن سعيد بن غسان، وكان قد تلقى من الإمام ما يريده في أحمد بن سعيد من سوء الفعل، قال: وكانت بينهما مكاتبات ومراسلات ودية، فسأله عن قصده فأجابه أنه جاء إجابة لدعوة الإمام له، فأنذره رزيق وحثه على الرجوع والنجاة بالنفس من الوقوع في الهلكة.

قال ابن رزيق: فقال أحمد بن سعيد لابن رزيق المذكور: لعله يريد أن يعزلني عن ولاية صحار؟ فقال ابن رزيق: أجل ويريد أن يقتلك، ولما تحقق أحمد بن سعيد ذلك من ابن رزيق هذا كر راجعًا على أثره؛ لأنه رأى صدق مقال ابن رزيق؛ لأنه مطلع ودلائل الأحوال تؤيده، وكان أحمد بن سعيد يرى انهيار صروح الدولة بأعمال سيف بن سلطان، وقد صار أحمد بن سعيد سيد الطرف الغربي الشمالي بالسيرة الحسنة، وبائتلاف الناس وتأليفهم، فخرج من مسقط وعلى وجهه حلة حنق وفي قلبه حقد على رجل يروم قتله في غير ما جرم، وعلى الأقل يروم عزله في غير ما سبب، بعد ما تألف الناس وألفهم.

ولكن الرجل كان ممن يدري ويدري أنه يدري، فعمل بالحزم وأخذ يمد أياديه على الحجر القوي، ويأخذ الأشياء من مظانها، ويتهيأ للأمر الذي هو أكبر وهو الاستيلاء على الأمور بيد من حديد، وفتح أبواب السياسة وهيأ نفسه للرئاسة، فاجتلب أهل الباطنة وواثق أهل الحل والعقد بالعمل المثمر، وبسط يده لمن رآه من الرجال الذين يعول عليهم، وقابل الأمور بلوازمها، وركز معالمه في ذلك الأفق على القوى المعتبرة، وربط الأمور كما ينبغي، وبقي يخايل الحوادث بقلب لا يمل وعزم لا ينثني، يرى أن الناس قد اشمأزت من سيف بن سلطان وأعماله وأنهم

نافرون منه مباينون له، والذين معه إنما يجارونه تقية له خوف تعسفه، والناس يتلون بمثل هؤلاء الرجال الذين لم يكونوا للأمور بأهل، وإنما أن ابن الإمام الفلاني أو السلطان الفلاني.

وهكذا ولا يفهمون أن فلانًا صار سلطانًا أو إماماً بأعماله الحسنة، وأن سوء الأعمال يهدم الشرف ويسحق الأثر الجميل، ويبقى أحدوثه السخرية، وباختلاف العقول وتباينها تتباين الأعمال، وتلك حكمة الله ﷻ في خلقه، وبها يتفاضلون وبمقتضاها يمتازون.

وما من شرف يكون في أمة إلا وأصله فيها الصلاح، وتلك سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً، والله يعلم المفسد من المصلح. وساق ابن رزيق القضية بين أحمد بن سعيد وسيف بن سلطان بلهجة العامة، وعلى أسلوبها الطويل الفارغ؛ ولذلك ترانا نلخص القضية ونضعها في أسلوب المناسب وعبارات لها قيمتها، وإنما نأخذ من ابن رزيق نفس المعنى ونضعه في قالب صحيح من نوع الوضع العربي المعتبر.

ولما تحقق سيف بن سلطان، أن ابن رزيق جد الشاعر هو أنذر أحمد بن سعيد، وأعرب عن نوايا سيف بن سلطان فيه، ورجع إلى صحار وعض عليها بالنواجذ، وقرر في نفسه ألا يخرج منها إلا إذا أرغمه القدر؛ لأن سيف بن سلطان لم يعد يصلح إدارة ملك أو لقيادة أمة، لاسيما أن الأمة العُمَانية قد لفظته لأفعاله السيئة، وعند ذلك تناول سيف بن رزيق وزج به في السجن بعد ما هدده، وظل المذكور يتلطف له وينكر إنذاره لأحمد بن سعيد، وهذه هي في الحقيقة واجبة على ابن رزيق، حيث علم بقتل رجل مسلم على غير حق، فبقي في سجن سيف بن سلطان ثلاثة أشهر، وكان سابقًا من المعتمدين عنده والمقربين في أعماله.

ثم طلب سيف بن سلطان أحمد بن سعيد مرة ثانية؛ ليأتيه إلى مسقط فتعلل له واعتذر بأعذار لا يسلم لها سيف بن سلطان؛ لأنه الأمير وأحمد بن سعيد

المأمور، وعلى المأموم أن يتبع إمامه، ولما تحقق سيف بن سلطان إصرار أحمد بن سعيد على إجابته، تجهز إليه في أربعة مراكب من مراكب الدولة الكبار منها، وما يدري سيف بن سلطان أن الأمور تتحول بمعناها الكلي إلى أحمد بن سعيد، وأن في الغيب مناديًا يناديه لها، وأن عهد بني يعرب قد آن انتهاؤه، ولكل شيء غاية ينتهي إليها، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وأن الله يفعل مما يريد.

وخرج سيف بن سلطان بأساطيله الضخمة المشحونة بالمال والرجال، والمجهزة بسلاح الوقت حتى أرست بجانب حصن صحار، وأرسل سيف ابن سلطان إلى أحمد بن سعيد بالوصول إليه، فتوجه إليه في قارب صغير يسير سيرًا عنيفًا، وقد وقف الناس ينظرون إلى هذا الشخص الذي له عند الإمام هذه الأهمية، ولما قارب من مركب الإمام ناداه خدام الإمام ارجع إلى حيث كنت، فرجع فأخبر الإمام برجوعه بعدما دنى منهم، فقال: اتركوه لعله نسي شيئًا ذهب ليأتي به.

ومن هنا يدرك العاقل معنى الانقلاب من سيف إلى أحمد، حيث أصبح عبيد سيف بن سلطان يصرخون لأحمد بن سعيد بالرجوع إلى مقره، وبقوا في انتظاره يومهم ذلك إلى الغد، وبقي سيف بن سلطان في مراكبه، وأحمد بن سعيد في حصنه، ولا يعرف أحد ماذا يكون وكل واحد من الرجلين يدبر أمره ولا يريد أن يتظاهر بالعداء السافر وكان سيف بن سلطان كل يوم يرسل إلى أحمد بن سعيد يدعوه بالحضور ولا يرد له جوابًا.

وشاع الخبر في البلاد بالأزمة التي وقع فيها الرجلان، فكان الناس ينثالون إلى أحمد بن سعيد، ويتكاثرون حتى ثار الجبور من الحفري والحرادي وحي عاصم، وكانوا كثيرًا أعيانًا في بركا، فجاءوا سيف بن سلطان في أسطوله، وتكلموا معه بشأن أحمد بن سعيد، وأن الرجل متخوف منك، ولن ينقاد لك وأنت على هذه الحالة، وإذا اختصمتما فإما لك وإما عليك، وما كان أحمد بن سعيد مستحقًا

منك مثل هذه المعاملة بعد ما صان البلاد وحماها من الأعادي، وقام بواجبه في حق الأمة، ونهاية الأمر أصلح الجبور الحال بصالح أحمد بن سعيد، ولعل ذلك كان عن تعارف بينهم، فكان الصلح أن يواجه سيف بن سلطان هلال بن أحمد، وهو أكبر أولاده.

وكان هلال رجلاً عاقلاً منظورًا إليه في الناس، وهو الذي قاد الحملة العُمَانية إلى البصرة لإنقاذها من براثن الفرس، كما سوف يأتي ذلك في محله إن شاء الله.

فواجه هلال بن أحمد عن أبيه، وعلى أن يبقى هلال عند سيف بن سلطان نيابة عن أبيه، وأشاعه إلى الناس عن اتفاقهما، فأكرم سيف بن سلطان هلال بن أحمد وأجله، فرجع سيف بن سلطان بأساطيله إلى مسقط، وهلال المذكور معه.

وكأن الحال أصبح على هدوء بينهما لا سيما أن عُمَان الداخلية فيها منافس كبير لسيف بن سلطان، وهو الإمام سلطان بن مرشد اليعربي، الذي احتل الداخلية كلها، فلم ير سيف بن سلطان إلا احترام أحمد بن سعيد، برغم ما هو فيه، ورجع مسقط ولم يزل هلال كذلك يغدو ويروح عند سيف بن سلطان، حتى جاءه الخبر أن العجم الذين طلبهم، وصلوا خورفكان، ووصلته كتب شاه العجم بذلك، وإذ ذاك أذن سيف بن سلطان لهلال بن أحمد أن يعود لصحار، فرجع هلال إلى أبيه أحمد بن سعيد، وأخبره عمَّا علم.

ولا شك أن أحمد بن سعيد أصبح في أزمة أكبر من الأولى، حيث قد تخالف هو وسيف بن سلطان، وأدى الحال بينهما إلى ما علم كل أحد، وهؤلاء العجم يكونون قوة لسيف بن سلطان، فلعله يرميه بهم أحمد بن سعيد؛ ليتشفى منه، وهم نهمون إلى صحار وإلى بطلها الكرار، إذا ساعدتهم الأقدار، وكان سيف بن سلطان وعدهم بها وهم يدعونها من قديم العهد، ولهم رغبة إلى الأخذ بناصيتها، والتحكم عليها؛ ولكن الأمور في يد القدر والله ولي كل شيء.

العجم ينزلون خورفكان

بناء على طلب سيف بن سلطان النصرة من العجم للمرة الثانية، جاءوا بجيش عظيم ونزلوا خورفكان، وكان أحمد بن سعيد في بلدة العوابي، فزحفوا على صحار؛ لأن أحمد بن سعيد استعصى على الإمام وباينه، وليس الغرض الحقيقي هذا، وإنما هو سحق أحمد بن سعيد؛ لأن العجم رأته حجر عثرتها فيما تحاوله، وأحاطوا بالحصن يضربونه بالمدافع، وإذ ذاك سارت الرسل إلى أحمد بن سعيد بالعوابي، فجاء مسرعًا واشتدت شكيمته على العجم، ووقف لهم وقفة الليث في عرينه، وكان زحفهم على صحار حال وصولهم خورفكان، واغتنموا فرصة غياب أحمد بن سعيد عنها لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ١١٤٩هـ.

وشاع خبر وصولهم في عُمَان، فاستوحش الناس منهم وحشة لا مزيد عليها، لما عرفوه منهم في المرة الأولى، وما فعلوه في عُمَان في عهد غير بعيد، وهذه أفعال سيف بن سلطان المريرة التي تريد الرجل بغضًا في قلوب الأهالي، واشمئزوا منه، ومن بقية اليعاربة الذين يمتون إليه بصلة؛ ليمحي الشرف اليعربي، ويهوي إلى الحضيض الأسفل؛ وكان العجم وهم على ما يقول ابن رزيق: ستون ألفًا انقسموا قسمين، قسم تجرد لحرب صحار، وقسم توجه بمعية سيف بن سلطان إلى عُمَان عن طريق البريمي، فكتب إليه بعض أهل العلم ينصحه عن هذه الأفعال، ويؤنبه فيها ويبين له أحوال القوم، ولم يذكر هذا الناصح باسمه خوفًا من سيف بن سلطان وأعوانه.

ومن جملة ما قاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرعد: ١١] من الله، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، هذه مصيبة علينا وعليكم ما أعظمها، ورزية ما أشأمها، فإن ظفروا طغوا وليسومونكم سوء العذاب، يذبحون أبناءكم ويستحون نساءكم، وفي المثل: إذا أتاك امرؤ أوغرت صدره فلا تأمن مكره وكيده وغدره، يشير

بذلك إلى ما سبق من آبائه الأئمة الكرام حال اصطلامهم لفارس وتوابعها، قال: أأنت نائم أم يقظان؟ أم استولى على قلبك الشيطان؟ أم لك حجة على المسلمين؟ أم سلطان أتى لك أن تتولى قومًا غضب الله عليهم، وتبعث كتبك ورسلك قاصدة إليهم، وتدعوهم إلى حضرتك، وترجوهم لنصرتك؟ إنها لأكبر العبر لمن اعتبر، أجهلت أم علمت... فغفلت ما حل منهم في جزيرة البحرين من قتل رجالهم، وأخذ سفنهم قسرًا، وما صنع بكبيرهم مهراب سلطان، ومن معه من عجم وزعاب، وجرثومتهم محمد بن عبدالله البحراني...إلى أن قال: والله لو كانت القلوب لها أبواب، وفتحت لوجدتم نيران العداوة تتقد، ولظاها يخرج من خياشيمهم إلخ ما قال؛ ولكن النصح يؤثر ويقبل إذا كان في النفس إيمان، أما إذا كانت منهارة لا تعول إلا على هواها، فليس للنصح مجال:

إنما تنجع المقالة في المرء إذا صادفت هوًى في الفؤاد

ولكن نفس سيف بن سلطان زاغت عن الحق واستمرأت السوء.

* * *

العجم وحصارها لحصن صحار

رأى العجم أن أحمد بن سعيد هو الخط الذي يجب أن يمحى من صحيفة عُمَان، فإنه البطل الذي لخطته جمرة حمراء، وحية عسراء، وقد رغب إليها سيف بن سلطان أن تكون صحار لها إذا نصرته لإثبات إمامته التي يحملها بلاء عُمَان، وقد شدد العجم الحصار لصحار، وضربوا حصنها بالمدفعية التي معهم، حتى كاد أن يتهدم من شدة ضربهم إياه، وكانت مدفعيتهم ثقيلة جدًا بالنسبة إلى عهدهم، ولما رأوا صموده لهم ووقوفه في أجوههم كالطود، أقاموا لهم بنيانًا محاصرًا للحصن؛ وليكون ملجأً لهم ومعتصمًا، ومن لأحمد بن سعيد ينصره في أزمته، وعُمَان الداخلية تتلاقى عليها موجات من سلطان بن مرشد، وبلعرب بن حمير الذي خلع إرضاء لسيف بن سلطان، وأن سيفًا المذكور عدو أحمد ابن سعيد،

لاسيما أن العجم الذين جاءوا لمناصرته كانوا موعودين بصحار لهم طعمة على مناصرتهم، وهم لا يزالون عاشقيها من العهد الأول.

قال ابن رزيق: كان عدد المحيطين بصحار ستين ألفًا. قلت: الصحيح عشرون ألفًا، والباقون توجهوا لعُمَان الداخلية مع سيفهم؛ ليعيدوا له الملك.

قال: وعدد سفنهم خمسمائة سفينة، قال: ومضت سرية منهم إلى وادي المعاول غزاة، فبلغوا دون مسلمات، فهزمهم المعاول، قال: ومضت منهم سرية إلى قريات فقتلوا منها خلقًا كثيرًا، وأسروا نساء وصبيانًا، فبعثوا بهم إلى شيراز.

قال: ومضت منهم سرية إلى مسقط، وفيها سيف بن مهنا اليعربي والي الإمام سلطان بن مرشد، فتلقاهم في سيح الحرمل الذي هو الآن مطرح الكبرى، فدارت رحى الحرب بينهم حتى انكشفت عن ملحمة عظيمة انهزمت فيها العجم إلى روي، ثم كروا في اليوم الثاني فقاتلهم سيف بن مهنا بمن بقى معه من العرب، فقتل المذكور، وقتل معه من اليعاربة ثلاثون رجلاً، ومن سائر قومه خلق كثير، وقيل إن جملة قتلى العرب ثمانون رجلاً، ثلاثون من اليعاربة والباقون من بقية عسكره، واحتل العجم مطرح ومسقط، ثم زحفوا على الحصنين الجلالي والميراني، وقام الصراع على أشده، فانهزموا؛ ولكنهم بقوا مسيطرين قعلة البلاد، والكوتان محصورتان، حتى وصل إليهم ربعهم المحيطون بصحار، فإنهم لم يزعزعوا من صخرة أحمد بن سعيد شيئًا أبدًا، وعند ذلك تركوه وتوجهوا لمسقط عندما بلغهم أنهم فتحوها، ولما وصل هؤلاء أعادوا الكرة على الكوتين مرة أخرى، فاحتلوها وهلك أكثر من فيهما وعند ذلك تمكنوا من البلاد وعسكروا فيها، ومن جملة الذين باعهم العجم أبناء جد حميد المؤرخ.

❊ ❊ ❊

الإمام سلطان بن مرشد يتوجه لحرب العجم الذين بصحار

لما تحقق سلطان بن مرشد حصار العجم، جمع جيشاً توجه به لمناجزة العجم في صحار؛ لأن أحمد بن سعيد صار ضد سيف بن سلطان، وأن سيفاً المذكور عدو الطرفين، وأن العجم أعداء الكل، خرج الإمام المذكور بجيشه مناصرة لصحار ولأميرها أحمد بنن سعيد، الذي لم يتزعزع عن مركزه ولم يخضع لجيش العجم، إذ كان على استعداد كامل، ولما وصل الإمام الخابورة بلغه أن العجم بعثوا سرية منهم إلى القصير القريب منها، وأن أهل البلد خرجوا لهم بعدما رأوهم مشتغلين بالنهب، فإنهم تمكنوا من البلد، وقاموا ينهبون كل يلاقون، فحينئذٍ كر عليهم أهل البلد، فوضعوا السيف فيهم، فكشفوهم وقتلوا الأكثر منهم، ولم يرجع إلى صحار منهم إلا القليل.

قال: وأمر أميرهم الخان الخائن بالغارة على صحم وما حواليها، ومنها القصير أيضًا، فصادفوا الإمام سلطان بن مرشد، فاقتتلوا هم وإياهم، وسقط في المعركة من فرسانهم الكثير، ثم توجه الإمام بمن معه إلى العجم الذين بصحار، وعندما وصلوا وجدوا العجم قد تهيأوا لهم في أكمل أهبة، فقام القتال على أشد ما يعرف، وكان جيش الإمام الذي وصل به صحار بالنسبة إلى جموع العجم الذين بها، ومن لف معهم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، وتعاطى الفريقان كؤوس الحمام، فسقط من أمراء العجم كلب علي، وقتل من رجالهم المشاهير كثير، وقتل من العرب رهط الإمام مهنا بن سلطان، وثلاثون رجلاً من اليعاربة وأصابت الإمام أيضًا جراحات من العجم؛ لأنه باشر الحرب بنفسه لقلة الجيش، فتناولته سيوفهم ورماحهم؛ ولكنه استطاع البقاء عليها حتى دخل حصن صحار الذي جاء لمناصرته عند أحمد بن سعيد، فبقي في الحصن يومًا واحدًا، وقيل عاش ثلاثة أيام فقضى الله عليه رَحِمَهُ اللهُ وغفر له وللمسلمين المجاهدين معه.

وكان سيف بن سلطان في هذه الآونة في حصن الحزم، والعجم تفعل أفاعيلها

في عُمَان وأهل عُمَان، فاسترسل بطن سيف بن سلطان، ولم يلبث إلا أيامًا يسيرة فمات وانتهى أمر الرجلين، والحرب قائمة بين أحمد بن سعيد والعجم على ساقها، ولم يروه في يومهم إلا وهو أشد من أمسهم، وعند ذلك رأوا أنهم لا يقدرون عليه، فوهنت عزائمهم وضعفت نفوسهم، ورأوا أحمد بن سعيد كل يوم يشتد ساعده وتقوى همته، فطلبوا مسالمته وحالوا النجاة منه، وفضلوا الارتحال عنه، فصالح قائدهم أحمد بن سعيد على الارتحال بما معهم، وقنعوا من الغنيمة منه بالخروج عنه والإياب، فأجابهم إلى ذلك، وقد استدعى أميرهم ومعه عشرة رجال من أعيانهم، فأدخلوا الحصن وأكرمهم، وقدم لهم الطعام، فلما أكلوا وشربوا واطمأنوا، طلب أميرهم من أحمد بن سعيد أن يوسع لأصحابهم الذين بمسقط أن يخرجوا بما معهم، كما وسع لهؤلاء، فأذن لهم أحمد بن سعيد أن يحملوا ما معهم من آلة حرب وغيرها من أسبابهم التي في أيديهم، وطلبوا منه أن يحملهم إلى بندر عباس فقال عن شاء الله.

كلمة شرطية لا يعرف جراء شرطها ما هو، وعند ذلك خرجوا عنه، ولم يمكثوا في البلاد أكثر من ثلاثة أيام، وقيل يومين فقط، ثم ركبوا سفنهم ومضوا إلى بندر عباس.

❊ ❊ ❊

أحمد بن سعيد يزحف إلى بركا ليتولاها

لما ارتحل العجم من صحار، وصرف الله شرهم، وغرب نجم بعيهم، فلا يعود طالعًا إن شاء الله، خرج أحمد بن سعيد وعلى هامته تاج شرف يلمع في وجوه الأعداء، وعليه وقار المجد، وقد تدرع هيبة ألفتت الأنظار إليه، ورفعت معنويته فوق ما كان عليه، وانتخب من رجاله ألفي رجل خرج بهم إلى بركا، وكان حصنها بيد المعاول فسلموه له، ولعل تعارفا تقدم بينهم وإياه، فتولى الحصن المذكور، وولى عليه خلفان بن محمد السعيدي المعروف بالمحل، ورجع هو إلى صحار منتظرًا للأمور كيف يكون وضعها، وهل للعجم عودة فإن صحار أصبحت حديث السمر عند القوم.

أحمد بن سعيد يستعمل بركا ميناء لعُمَان بدل مسقط

رأى أحمد بن سعيد أن العجم الذين في مسقط قذى في عينه؛ لكن زوال ذلك القذى غير هين في الحال، ومن سياسته أن سيتحين الفرص، فإذا آن أوانها لم يضيعها، ورأى الرأي أن يتركهم ومسقط الآن حتى تدق ساعة زوالهم منها، ورأى مما يذلهم استعمار بركا كعاصمة وميناء لتجارة عُمَان، فإذا قامت سوقها لم يأت مسقط أحد. وبذلك يظلم أفقها في وجه العجم، وتنهار حياتها، وبانهيارها يصبح العجم في لا شيء طبعًا، فأقام في بركا كل حاجيات عُمَان وضرورياتها، وأن لو تحرك العجم إليها لكانوا في أوهن من بيت العنكبوت، فإنهم في مسقط في حصن منيع لإحاطة الجبال الشاهقة بها، ولاسيما إذا سقط العدو المهاجم في بطنها بقي الحصنان في منعة، أما بركا فلا؛ لأن الحصن في يد العربن وهي أرض ساحلية مكشوفة.

وكأنه لم يحب أن يتحرش بالعجم، ولم يبتدئهم بحرب، فانحاز الناس على بركا للبيع والشراء، وللأخذ والعطاء، وسارت إليها السفن من البحر، وناقلات الأمتعة من عُمَان إبلاً وحميرًا وغيرها.

ففي التاريخ: وأقيمت الموازين في بركا لوزن الأمتعة التي تجلب من الهند ومن عُمَان، كما كانت تجلب إلى مسقط أيام سيف بن سلطان، وكان الوالي خلفان بن محمد بن السعيدي المعروف بالمحل، هو العامل من طرف أحمد بن سعيد، قال: فاستقامت في بركا سوق راج فيها ما كان يروج في غيرها، وقصدها الناس؛ لحوائجهم من شتى الجهات، وانتقل إليها التجار من عُمَان، قال: وانتهى إليها وفود عُمَان والظاهرة للبيع والشراء، وحمل ما يحتاجون إليه منها، وبذلك انقطعت المادة عن مسقط، وسقط في أيدي القابضين لها، وضاق ذرعهم فيها، وضجروا بمقامهم وانقطاع المواد عنهم، فإن مسقط كما يعلم حالها، وإذ غير ذي زرع تحيط بها الجبال الجرداء، وهيهات أن يأتيها العُمَانيون في حالها ذلك، وزاد في ضعف العجم ارتحال أصحابهم من صحار.

ثم زاد خوفهم أيضًا لما بلغ موت سيف بن سلطان، الذي جاءوا على اسمه، فعند ذلك بعثوا رسولاً إلى الحزم يطلبون أقرب رجل إلى سيف بن سلطان يصل إليهم بمسقط، فلما بلغ أهل الحزم رسول العجم، أرسلوا إليهم رجلا اسمه ماجد بن سلطان، فلما وصل إليهم طلبوا منه أن يسر إلى شيراز بكتاب منهم، أن يسلموا إليه البلاد، ووافقهم فكتبوا له كتابًا إلى الشاه يخبرونه فيه بموت سيف بن سلطان، وأن الواصل بكتابهم هو أقرب الناس إلى سيف بن سلطان رحمًا، وأنهم بقوا في مسقط ومطرح أضيق حال، وقد انقطعت العرب عن مسقط، وانحصرت المادة ولا شيء في مسقط مما يعتاشون به، وقالوا لماجد: أظهر الطاعة للشاه، أي تلطف له وجدد بينك وإياه عهدًا، فإنه إن كتب إلينا بتخليص ما بأيدينا من معاقل مسقط ومطرح إليك نخلصها لك، فأجابهم ماجد إلى ذلك، وخرج إلى شيراز عن طريق بندر عباس.

فلما واجه الشاه وأعطاه الكتاب الذي زوده إياه العجم من مسقط، وقرأه وفهم ما فيه أقامه في دار الضيافة ثلاثة أيام، ثم كتب له كتابًا إلى أصحابه الذين بمسقط يأمرهم فيه أن يسلموا ما بأيديهم من معاقل مسقط ومطرح، ورجع ماجد على الطريق الأولى، ومن بندر عباس ركب سفينته التي جاء فيها فضربها الريح، وثار عليها طوفان البحر وهي سفينة صغيرة لا تقدر على مصارعة أمواج البحر، فقذفتها الأمواج إلى صحار، فمضى على أحمد بن سعيد في حصن صحار، وأخبره بما جاء به من عند الشاه، وأنه أمره تسليم المعاقل إليه، فأخذ أحمد بن سعيد الكتاب منه، وأرسل به أحد جماعته وهو خميس بن سالم البوسعيدي، وأمره بقبض المعاقل المشار إليها، وأن يظهر لهم أنه رسول ماجد وأنهم اتفقوا هم وماجد المذكور على حال صلح لا فرق بينهم، وأن ماجد مقيم عند أحمد بن سعيد، فسار خميس بن سالم، ومعه أربعمائة رجل من رجال أحمد بن سعيد.

فلما وصل إليهم وعرض عليهم كتاب الشاه، ظنوا أنه من جماعة ماجد بن

سلطان، وقد بثه ماجد إليهم فسلموا له المعاقل كلها، فترك فيها خميس بن سالم أصحاب أحمد بن سعيد الذين جاء بهم من صحار، قال: وكتب خميس بن سالم إلى أحمد بن سعيد بقبض معاقل مسقط ومطرح من العجم. وأشار إلى قضية ماجد أمير البيان، حيث قال: إن أحمد بن سعيد هذا لم يكتف بتخليص صحار حتى استولى على بركا، فحاصر مسقط، فأرسل الإيرانيون ماجد بن سلطان من أبناء عم سيف بن سلطان على الشاه يلتمسون منه الأمر اللازم إلى الحامية الفارسية بتسليم الحصون إليه، فوقع الأمر باتفاق غريب في يد أحمد بن سعيد، فابلغه إلى الحامية وخرج هؤلاء على أنهم سلموا الأمر والحصون إلى أحمد بن سعيد باسم ماجد بن سلطان، والحقيقة أن أحمد تسلمها بالخديعة.

وقيل: إن أحمد بن سعيد لما رأى سفينة ماجد جاءت على غير قانون سير السفن، استنكرها فأرسل جنده لها، وإذا فيها ماجد بن سلطان ومعه كتاب الشاه، فقبض عليه ثم سجنه، وتولى منه الكتاب وأرسل به إلى العجم، هذا الذي شاع، وهذا كله من حظوظ أحمد ابن سعيد، حيث انساق إليه الإمام سلطان بن مرشد، فمات في حصن صحار عند أحمد بن سعيد، ثم جاء الآن ماجد بن سلطان حاملاً استلام مسقط، فاستلمها أحمد البطل الذي قام ليلتقط شذاذ الملك العُمَاني عند تبعثره.

وبعد ذلك صنع أحمد بن سعيد وليمة عظيمة للإيرانيين في بركا، كانت نهايتها أن الأهالي هجموا عليهم وذبحوهم، ونجا فلهم بالسفن قاصدين ساحل إيران. قال: ولما كان ملاحة السفن هم العرب، فإنهم أخرقوا السفن لإهلاك الإيرانيين الذين كانوا منهزمين بها إلى بلادهم، وقذفوهم أنفسهم في اليم ونجوا بسباحة على الشاطئ، قال: ومهارة العُمَانيين في السباحة واقتحام البحر معلومة، وهكذا انتهت غزاة الفرس ببلاد عُمَان.

وفي التاريخ العُمَاني: أن أحمد بن سعيد استدعى العجم بصحبة خلفان بن

محمد المحل على بركا، وبعث إليه ألفي رجل من رجاله الذين يعتمد عليهم من رعايا صحار، فإنهم أصبحوا أنصاره الخاصين، وكذلك أهل بركا وطبعًا أن والي المنطقة يكون في أهلها طاعة وانقياد لاسيما إذا كان محسنًا إليهم يصير محبوبًا فيهم مطاعًا لدبهم، وهؤلاء الرجال أرسلهم أحمد بن سعيد إلى خميس بن سالم والي مسقط في هذه الآونة؛ ليتركهم على مقابضها وحصونها عندما يخرج بالعجم إلى بركا كما أمر أحمد بن سعيد، ففعل خميس ما أمره به سيده أحمد بن سعيد، ولما وصل بركا ومعه العجم المشار إليهم ضربوا خيامهم بالقرحة لتحل عليهم قرحة الدمار، وإذ ذاك بعث إليهم أحمد بن سعيد الضيافة ولخيلهم بالطعام.

قال ابن رزيق: أخبرني أبي محمد بن رزيق عن أبيه جد حميد وهو رزيق بن بخيت بن سعيد بن غسان، والشيخ معروف بن سالم الصائغ، والشيخ خاطر بن حميد البداعي، والشيخ محسن القصاب العجمي، وقد دخل كلام بعضهم في بعض.

❋ ❋ ❋

أحمد بن سعيد يأخذ ثأر العُمَانيين من العجم

قالوا لما رجع العجم من مسقط إلى بركا في صحبة خميس بن سالم السعيدي، وفيها يومئذ أحمد بن سعيد، أي في بركا ضربوا مخيمهم في القرحة، وكان أحمد بن سعيد أعلن لأهل بركا بإكرام العجم المذكورين إكرامًا عامًا، وأن يتظاهروا بالرعاية التامة.

قال: فما يمر أحد على حلة من حلل بركا إلا ورأى فيها قدورا تفور بالطعام ضيافة للعجم من أحمد بن سعيد، ولا يمر أحد بحلاو– والمراد به صانع الحلوى المعروفة في عُمَان– في سوق بركا، إلا وهو يصنع الحلوى بأمر أحمد بن سعيد للعجم، ولا يمر أحد بزراع إلا ورآه يجز زرعه لخيل العجم.

قال: وما بات لأحد درهم أو فلس على أحمد بن سعيد، فضلاً عن دينار

قالوا: وكلام الناس على حدة يقولون: إن العجم لا يستحقون هذا الإكرام، وإنما يستحقون أن تضرب أعناقهم بالسيف، قالوا: وبعد ما خيم العجم ببركا لثلاثة أيام، خرجت موائد كثيرة للعجم في صواني رحبة، وهي الجفان التي يوضع فيها طعام الأضياف غالبًا. قالوا: ودخل أكابرهم الحصن مع رسول أحمد بن سعيد، أي خميس بن سالم، قالوا: وعدد الداخلين خمسون رجلاً وهو أعيانهم، قالوا: فما كان بعد دخولهم الحصن إلا ساعة من النهار، حتى ضرب طبل في الحصن، ومعه منادي ألا من له وتر في العجم فليأخذه منهم.

قال: فما استتم كلامه إلا والصائح يصيح من كل مكان، فخرج عليهم الصغير خلف الكبير، من أهل بركا، ومن انضاف إليهم من سائر البلدان، فوضعوا فيهم السيف، ففشا فيهم القتل، وقام لهم كل أحد من جانبه، فما بقي إلا قدر مائتي رجل يصيحون الأمان الأمان يا أحمد بن سعيد، فلما بلغ أحمد كلامهم، وارتفع إليه ضجيجهم نادى المنادي من الحصن ارفعوا عنهم السيف، فرفع عنهم وبقوا رهن الذل والصغار جزاء أعمالهم التي أوقعوها في العُمَانيين، وحصارهم لأحمد ابن سعيد، وضربهم إياه بالمدافع، ولو تمكنوا منه لقتلوه.

وقالوا: وأما أكابرهم الذين دخلوا الحصن فقد ضحى بهم الحصن في ضحوتهم تلك، وتركهم جزر السباع، فذاقوا وبال أمرهم، وغسل بهم أحمد بن سعيد عار العُمَانيين، وأخذ بهم الثأر، فإن ذلك الإكرام الذي تظاهر لهم به أحمد بن سعيد، أراد به تسكين نفوسهم وفك حزمهم، وتفكك جمعهم، فلما رأى العجم ذلك منه تناسوا ما فعلوه فيه وفي قومه، واطمأنوا إلى الهدوء الذي رأوه، وما دروا أن الدم العُمَاني غال عند أهله، وأن أحمد بن سعيد هو الذي يغار عليه عندما أضاعه سيف بن سلطان، وكان من سياسته التي امتاز بها في هذه البادرة أنه لم يكن منه لهم عهد ولا ميثاق في اطمئنانهم، فيقال إنه غدر بهم أبدًا، بل كان متلفتًا ومتحرزًا مما يسجل عليه وصمة في هذه الحادثة، ولا طلب من

أولئك الخمسين الذين دخلوا عليه؛ لكنه كان متوقعًا ذلك منهم حين اطمأنوا بين ربوع بركا، ونسوا فعلهم، ولم يهتموا بشيء من أمر العُمَانيين.

ولا شك أن الحرب خدعة، ثم إن اللائذين به، الصارخين له، لما أمر برفع السيف عنهم، طلبوا منه التسيار فسيرهم في سفن أهل بركا إلى بندر عباس، وفي الطرق التي جاءوا منها، وخرج العُمَانيون، فلما لججوا بهم خرقوا السفن، وتقاحموا عنها سبحاً في البحر، فغرقوا جميعاً، وبذلك نال أحمد بن سعيد من العُمَانيين المكانة العالية، وعظم شأنه فيهم، وجل سلطانه وطار له صيت ملأ الآفاق وتتوج هيبة الملوك على الإطلاق.

* * *

أحمد بن سعيد يعيد خميس بن سالم لمسقط

لا يخفى أن أهل مسقط لما جاء العجم هربوا منها بذراريهم خوفًا منهم، ولم يبق إلا أعمى أو ضعيف لا يريد ولا يراد، وتفرقوا في الباطنة جماعات وأفراد، وبعضهم في حطاط، ولما قر قرار الأمن بمحو رسم العجم، أرسل أحمد بن سعيد خميس بن سالم عائدًا لمسقط؛ ليصلح من شأنها، وأمر أن يصحبه كل من كان يسكن مسقط والمطرح.

فلما وصل خميس ومن معه لم يعرفوا حدود بيوت الأهالي الخارجة من السور، إذ خربتها خيل العجم إذ كانت غالبًا مبنية بالسعف والجريد، فأكلتها خيل العجم ولم تبق منها باقية، وعاثت فيها إذ كانت مطلقة لا تربط، حيث يحيط بها سور من الجبال المنيعة، وإذا بأرواثها ملء الأماكن، وقامت الفتنة بين الأهالي وأشهر والسلاح على بعضهم في وجه خميس بن سالم، ووقع القتل ولم يقدر خميس على منعهم حتى انكشفت الفتنة عن ستين قتيلاً.

وبعد الشقاق واضطراب الأمر، سكن خميس نارهم بالتعب والنصب، وقسم خميس المنازل والأمكنة التي لم تعرف بينهم على التحري، وبارى بينهم

في الدماء التي سفكت، وقاموا بعمرانها من جديد، وخططوها على أهلها. وكان خميس بن سالم هو الوالي، وتراجع الناس إليها، وقامت سوقها هي والمطرح؛ لأن مطرح وليدتها في الحرب والسلم، أمرهما واحد وعاد العُمَانيون إليهما.

* * *

أحمد بن سعيد يزحف إلى الداخلية

لما أطمأن أحمد بن سعيد من العجم في الحال، زحف بجيش كثيف إلى الداخلية؛ ليضعها في يده كما وضع مسقط العاصمة، وليجمع شمل الكل في إطار عزيمته، خرج إلى الرستاق فسلمت له، وكيف لا تسلم له وقد عرفته العبقري الكريم، ثم مضى على سمائل، وأذعنت له تمامًا غير ناظرةً في شيء ما.

ثم ارتفع على أزكى فألقت إليه مقاليدها راغبة، فقبضها بغير نزاع، وإنه للكفؤ الكريم، ثم مضى إلى نزوى فصافحته بأكفها مصافحة الود والرضا، ثم توجه لبهلى وهي منتهى القصد، وقد تأهبت للقياه بإخلاص وصفا، لم يجد من هذه البلاد كلها إلا الرضا به سيدًا كريمًا، وهمامًا عظيمًا، وعليه علم العدل يرف، ويد الإحسان مبسوطة البنان، والسيف والسنان جمال الميدان، وكان سليمان بن محمد بن عدي اليعربي واليًا بسمد الشأن، فأتاه يحمل الخضوع والإذعان.

وكان قد ولاه إياها الإمام سلطان بن مرشد، فقبضها أحمد بن سعيد، وولى سليمان المذكور حصن نخل، وتعاهد أحمد بن سعيد، وسليمان بن محمد ألا يخون أحدهما صاحبه، وتولى أحمد بن سعيد ملك عُمَان بغير معارض أو منازع، وأصبح هو الحاكم المطلق في عُمَان كلها.

قال ابن رزيق: فهذا سبب انتقال الدولة من اليعاربة إلى أحمد بن سعيد البوسعيدي.

* * *

أحمد بن سعيد وبلعرب بن حمير

في التاريخ العُمَاني أن بلعرب بويع بالإمامة مرة أخرى، فإنه انخلع منها أولاً على يد مشايخ بني غافر إرضاء لسيف بن سلطان، ورجاء لكفاف شره.

قال الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو أولى بالنقل عنه في مثل هذه النوازل قال: إن سياق التاريخ يقتضي أن بويع له مرتين، مرة قبل سلطان بن مرشد رَحِمَهُ اللَّهُ، وذلك في سنة ١١٤٥هـ، ثم استعفى من هذه الإمامة وترك الأمر لسيف بن سلطان، حين خافوا العجم على عُمَان، بافتراق سيف وبلعرب.

قال: والمرة الثانية بعد ذلك؛ لكنه لم يعرف تاريخها، أي لم يجد لها تاريخًا، وهو الذي حكم بتفريق أموال سيف بن سلطان، ومعه الشيخ حبيب بن سالم أمبوسعيدي العقري النزوى ومن معه من المشايخ، وهذا الشيخ اضطراب حاله مع إمامه المذكور وقيده، ومن هنالك تكدر الصفو بين الإمام والشيخ، وعاد الشيخ يعد على الإمام أحداثًا، ورأى خلعه بها إلا أنه لم ينخلع هذا الشيخ، بل انخلع أحمد ابن سعيد في وقعة فرق، وذلك بدل أنه عاد إلى نزوى وأعلن إمامته، وقام بدوره في عهده، فخرج عليه أحمد بن سعيد بروؤس القبائل من عُمَان، واحتج عليه في نقاش طال بينهما في بلد فرق، فإنه خرج ليتلقى أحمد بن سعيد بمن معه، فاقتتلوا في فرق وقتل بلعرب وأكثرية جيشه.

وكان النصر حليف أحمد بن سعيد، وهناك نصائح أوردوها وأحداث عددوها، وأقوال دونوها، وآثار عولوا على مقتضاها، والحقيقة كل إنسان له جانب مدح لمحبيه، وجانب قدح لمنافسيه؛ ذلك لأن الكمال لله وحده، وكان جانب القادحين فيه قويًا، والأخذين عليه لهم مقال محفوظ.

قلت: والمفهوم من سياق التاريخ، أن بلعرب عاد إلى إمامته بالقعد الأول فقط، ولذلك لم يجد الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ، تاريخاً لإمامته الثانية، فإنه لما مات سلطان بن مرشد بصحار، ومات بعده سيف بن سلطان بالحزم، لم يبق منافس لبلعرب هذا، فجاء بإمامته إلى نزوى.

وكان أحمد بن سعيد قد تولى البلاد، والتفت حوله أكثر أهل عُمَان ساحلاً وداخلاً، وأصبح هو صاحب الحل العقد، وظهرت قدرته الساحقة للعجم، ولم يرد العُمَانيون قائدًا لهم غيره لاسيما في تلك الآونة الحرجة التي لها أثرها الرائع.

قال الإمام: وكان قتله بعد خلعه بسنيات. قلت: تلك السنيات هي التي مشى فيها سيف بن سلطان مع العجم الأخيرين، حتى انتهى أمرهم على يد أحمد بن سعيد العبقري اليقظ الذي تصدى لسحق تلك القوة العجمية المتغلغلة في مسقط.

قال: وخرج عليه أحمد بن سعيد البوسعيدي، وذلك بعد أن استولى على حصون الباطنة وما حولها، وخرج إلى نزوى وهذا الكلام يوهم أن ذلك في حال خروج أحمد بن سعيد إلى الداخلية، وليس كذلك، بل ثبت أنه تولى الحصون أحمد بن سعيد بغير حرب وخرج عنها، وهي في يده، ثم جاء بلعرب إلى نزوى، وأعلن إمامته فخرج له أحمد بن سعيد.

قال: وذكر بعضهم أن أحمد بن سعيد التقى ببلعرب بن حمير، وقال له: أنت إمام فوق إمام كيف هذا؟ أي كيف صح إمامان في حوزة واحدة، ليس هذا من دين المسلمين؟ فاحتج بلعرب على أحمد بن سعيد بأن سيف بن سلطان غير السيرة، وخالف الجماعة، وسد باب الطاعة، واختار المسلمون إمامًا غيره، فلذلك عزلوه، ثم اختاروني وعقدوا لي بالإمامة، قال: فقاتله أحمد بن سعيد بروؤس القبائل، فقتل بلعرب بفرق وخلصت نزوى لأحمد بن سعيد، وذلك في سنة ١١٦٧هـ.

وفي هذا الكلام ما فيه من اعتياض؛ لأنهم ذكروا دخول أحمد بن سعيد عُمَان الداخلية بعد انتهاء أمر العجم في بركا، وأنه لم يعارضه أحد من أهل عُمَان، حتى انتهى إلى بهلى، ثم جاء الرستاق عن طريق الجبل، وبذلك انتهى أمر اليعاربة، وتقلص ظلهم، واقبل أمر عُمَان ينساق إلى أحمد بن سعيد كما عرفته متتابعًا ولله الأمر كله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

إن أحمد بن سعيد ممن له في عُمَان غيرة كبيرة، ولها بها اهتمام عظيم عرفه التاريخ، وله صمود وصبر على الحوادث إذا نزلت، ومن اعتبر في أعماله ومساعيه عرف منه بطلاً عبقريًا لا يقعقع خلفه بالشنآن، ولا شك أن الرجال بعزائمها، فإنه لما كانت عزائم بني عباس نابعة من العنصر الصحيح، كانت مفخرة عربية يعتز بها العرب، حتى إذا جاء الخلف الأخير على منهاج الخلاعة خرت المملكة على وجهها وتبعثر بناؤها، وتلاعب بها أعداؤها انظر بين المعتصم والمستعصم ترى عجبا.

❊ ❊ ❊

أحمد بن سعيد في طالعه السعيد

كان أحمد بن سعيد من أهالي أدم، وكان الشيخ خلف بن سنان الغافري معروفًا بأسرار إلهية، زار أدم ولقي أحمد بن سعيد، وتفرس فيه النجابة التي تؤهله لأن يكون ملك البلاد وسلطانها، وكان من عنصر زعامة معروفة بعُمَان، وكان يقال إن الشيخ خلف من أهل الكشف وهم الذين منحهم الله علماً عما يحدث في الكون.

فلما رأى أحمد بن سعيد وكان غلامًا صغيرًا، وأحسب أنه أيضًا كان يتيمًا، تلقاه الشيخ بوقار، ومسح على رأسه قائلاً له: اتق الله في الرعية معربًا عنه أنه سيملك أمر عُمَان، ونشأ وشب وشاع له ذكر في الوسط من الناس، حتى اتصل بسيف بن سلطان اليعربي، واستعمله سيف بن سلطان المذكور، فوجد منه كفاءة لم يجدها من غيره حتى جعله محل ثقته، وسيف دولته، وألقى إليه أهم أموره، وكانت صحار ولا تزال هدف الغزاة، ولبعدها عن العرش العُمَاني نزوى.

وكان والي صحار يعتبر بمنزلة حاكم مستقل له حله وعقده في الطرف الشمالي من عُمَان إلى الحسا وما إليها، ولكفاءة أحمد بن سعيد وللأحوال التي تناط بصحار ولاه إياها فأدار شئونها إدارة رفعت قدرها وأعلت منارها، وأصبح

علمها منظوراً إليه بأعين الإكبار كما قال الإمام، وجد سيف بن سلطان من أحمد بن سعيد كفاءة لم يجدها من غيره، فجعله سيف دولته، وموضع شوكته وصولته، فوض إليه الأمور كلها.

قلت: ومن هناك جد الرجل حتى لحظته العيون بالوقار، وعلا صيته وهو الذي هيأه الله أن يكون خليفة المستقبل في عُمَان، وعُمَان إذ ذاك في أرفع مكانة في الجزيرة، كما أنها كذلك من عهدها الجاهلي.

قال الإمام: إن أحمد بن سعيد هو أول هذه الدولة البوسعيدية، بل هو رافع بناءها وواضع حجر أساسها، وهو أبو ملوك العصر، وأشار إلى ما قلناه في التاريخ العُمَاني، وذكروا في استيلائه على ملك عُمَان وجهين:

الأول: أن سيف بن سلطان أرسله ليخلص له حصون عُمَان، ويقاوم بلعرب بن حمير الذي هو ضد سيف المذكور، وخرج بجمع كبير من زعماء القبائل حتى انتهى إلى نزوى وفيها بلعرب. فقال له أحمد ابن سعيد: أنت إمام فوق إمام، كيف هذا؟ أي هذا لا يصح، وساق القضية التي ذكرناها، وأن أحمد بن سعيد قاتله حتى قتل في فرق، وإذ ذاك عقدوا الإمامة لأحمد بن سعيد حين رأوه أهلاً لها، والصحيح عند أهل التاريخ هو ما قدمناه، وكان أحمد بن سعيد واليًا بصحار، واليعاربة تتهارش في عُمَان، فسيف بن سلطان يقول أنا الإمام، ومعه جانب من أهل عُمَان، وسلطان بن مرشد يقول أنا الإمام الصحيح للإمامة، وبلعرب بن حمير يقول أن الإمام وهكذا.

وكان أحمد بن سعيد من حزب الإمام سلطان بن مرشد عندما رأى أحوال سيف بن سلطان تجري في غير طريقها، حتى وقع من سيف بن سلطان ما وقع من انقلابه على أحمد بن سعيد، وهمه بقتله،

وأن أحمد بن سعيد اتحد مع سلطان بن مرشد حين رآه على الصراط المستقيم، وهذه من محامد أحمد بن سعيد، ولذلك لما أحاط العجم بصحار، وحصروا أحمد

بن سعيد فيها خرج سلطان بن مرشد لمناصرة أحمد بن سعيد، واعترضه العجم في الطريق، فاقتتلوا هم وإياه، وجرح الإمام المذكور ولجأ إلى أحمد بن سعيد، ثم مات معه في حصن صحار، إذ أصابته جراحات من سيوف العجم، وأن أحمد ابن سعيد لما أصبح العلم المفرد بعد سيف بن سلطان، وبعد سلطان بن مرشد، سلطه الله على العجم فمحا رسمهم من عُمَان، ثم خرج إلى الداخلية؛ ليتولى ما بقي من ملك عُمَان كما قدمنا، حتى صفا له الأفق، وذرت رياح عزيمته غبار أعدائه في عُمَان، ونظرت عزيمته إلى منافسيه نظرة الحجر اليقظ، وكان على أوفى المرام في إرساء دعائم الملك، ولا يزال ينظر إلى الأعداء بأعين الحزم، ويحسب لها حساب من لا يطمئن بالدهر إذا سكن، فإنه سرعان ما تنقلب أحواله، ويتغير عن مجراه الطبيعي، وإذا نام الراعي تعاوت الذئاب على الغنم، وعث الوحش في المراعي، وصعب الأمر على القائد والسائق، إلا إذا ساعد الحظ.

وأحمد بن سعيد من الرجال الأفذاذ في عُمَان، ومن الملوك الأجلاء الذين هم الشهب اللامعة، وإنه العبقري العظيم في عهده، ولو لم يكن له من العمل في عُمَان إلا سحق العدو الفارسي الذي كان منه بعُمَان ما تذوب له الأكباد، وينصهر له وعي العقل ونور الفؤاد، ومن كأحمد بن سعيد صارع العدو عن الوطن، وكافح الشر حتى سكن، ودافع عن البيضة بصدر رحب، وجد واجتهد حتى جلا السوء عن وجه عُمَان، وأطار في ربوعها طائر اليُمن، فله بذلك الحمد الخالد والشكر الذي لا ينمحي من سجل التاريخ فلله دره من همام والرجال بالأفعال.

❋ ❋ ❋

أحمد بن سعيد وزعماء بني غافر

لا يخفى أنه لما أصبح أحمد بن سعيد حاكم عُمَان، وإليه أمرها، وبيده الحل والعقد، وكان بنو غافر بقي في أدمغتهم من عهد محمد بن ناصر من نوع ما بقي في نفوس اليعاربة من الادعاء بالملك، ومن الانتساب إليه كما هو شأن الأمم غالبًا إذا كانت فيها زعامة دينية أو دنيوية، ترى طيلة العهد أن لها ما ليس لغيرها، وهذا أمر معروف في كل الأجيال، ألا ترى هرقل لما قام يبحث عن النبي ﷺ، قال: هل كان في أجداده من ملك؟ فقيل له: لا... فقال: قلت: لو كان في أجداده من ملك لقلت رجل يطلب ملك آبائه.

والمعنى أن دعوى الملك لا تكاد تنمحي من نفوس ذرية الملوك سواء كان الملك إمامًا أو سلطانًا تبقى دعوى الملك في ذريته؛ لذلك بقي في نفوس ذرية محمد بن ناصر شيء مما ذكرنا، ولقد قام أحمد بن سعيد بأمر عُمَان واحتوى على الساحل والداخل إلا ما كان من أمر الظاهرة، فإنه بقي صوت بني غافر صناجًا فيها، وتبين لأحمد بن سعيد ما يخالف لأمره، وما يخشى من وميض رماده، فخرج على القوم بقوته العسكرية؛ ليتحسس أحوال القوم، ويجس نبض عروقهم هل هو ساكن أو متحرك؟ وإذا به غير ساكن فقيل إنه دس على رؤوس بالقتل، فقتل جملة منهم.

قال الإمام السالمي: قال ذو الغبرا: لما ملك أحمد بن سعيد وساد، ودانت له الخلائق واستقام ملكه، وخذل عدوه ودلته نفسه بقتل أكابر بني غافر، فلما قتلهم مشى إلى ديارهم بجيش عظيم، فالتقوا بالأثيلة، فصح عليهم الكسر وهم فئة قليلة، وفي حديث الشيخ ناصر بن جاعد أنه جيش عليهم ثلاثين ألفًا إلى الظاهرة، وخرج لهم مقدار سبعين رجلاً، وكسروا الجيش كله، ومات كثير منهم بالجوع والعطش بعد أن ولوا الأدبار، قال: وكثير منهم لم يتمكن في الهزيمة أن يستريح مقدار نصف ساعة أو ربع ساعة، ولذلك ماتوا.

قلت: لا يعقل أن ينهزم جيش بلغ ثلاثين ألفًا بسبعين رجلاً، إلا أنه يحتمل أن تكون في الجيش خيانة، ولعل القوم كانوا يرون أن قتل شيوخ بني غافر كان غير مرضي عندهم، وهنا خانوا وانقلبوا بالجيش إلى الهزيمة المنكرة، حتى لم يقر لأحد قرار حتى ربع ساعة، وحتى مات الأكثر بالجوع والعطش، نعم لو كانت القضية قضية نبوة لقلنا تلك معجزة، وأما والحال على خلاف ذلك، فهنا تتبين مؤامرة في الجيش أخفيت وراء الستار، والله أعلم بما هنالك.

إلا أن لهذه الهزيمة لما شاع خبرها أثر على السواد الأعظم في عُمَان.

قال ابن رزيق وغيره: إن تلك الحرب وقعت بين أحمد بن سعيد، وناصر بن محمد الغافري، وقال: وكان النصر فيها لناصر بن محمد بن ناصر، وقتل من قوم أحمد بن سعيد اثنا عشر ألفًا، فيستفاد من كلام الشيخين: ناصر بن أبي نبهان، وخميس بن راشد المعروف بذو الغبرا والد الشيخ ماجد، أن أحمد بن سعيد قتل مشايخ بني غافر، ولا شك أن القتل لا يكون إلا بسبب، وبقى النظر في السبب هل هو حق أو غير حق، ولعله ما أشرنا إليه والله أعلم بما هناك.

ولعل قتل شيوخ بني غافر المذكورين هو الذي وقع على يدي هلال بن أحمد بن سعيد، وأن هلالاً لم يقل للقاتلين شيئًا، فإنهم لما استجابوا لداعيه ووصلوا إليه، وصاروا في ذمته هوى عليهم فريق من قومه فقتلوهم عن آخرهم، وهم الذي يقال لهم أولاد فرخ الريح من أهل القرطي، وكان محمد بن حمير اليعربي وهو الذي جاء بهم على هلال، وطلب هلال منهم تسليم حصن القرطي فلم يوافقوا، وكانوا في أمان محمد بن حمير أحد أركان ثورة هلال بن أحمد بن سعيد، وكانوا أخص الخاصة لناصر بن محمد بن ناصر الغافري الزعيم الكبير في الظاهرة، وهو صاحب حصن العينين، كما سوف يأتي خبره في محله، وهؤلاء الشيوخ المقتولون هم شرارة الظاهرة.

ولما بلغ قتلهم أحمد بن سعيد لم يقل شيئًا فظن الناس هو الآمر بقتلهم، وإلى

هذا يشير كلام المشايخ وتحقيق الحق لا يدركه إلا الله ﷻ، ولذلك على أثر القضية المشار إليها جهز أحمد بن سعيد جيشًا ليطفئ به ثائرة الظاهرة، وليريها أنه القوي على إطفائها، وله السلطان الذي لا تقدر الظاهرة أن تظهر عليه، فسحب جيشًا أرعن جمع فيه أهل عُمَان من نزوى إلى جعلان، وأضاف إليه أهل الباطنة فخرج به وهو كما وصف ثلاثون ألفًا دخل به الظاهرة من الجهة الغربية، ولما سمع به بنو غافر تجمعوا له، وكانت الظاهرة كلها تحت إمرة ناصر بن محمد والجيش الوافد كلهم كانوا غربًا، ونزولهم ساحة القتال في حال تعب ونصب من الطرق، إذ كانوا مشاة على الأقدام طيلة طريقهم، وكان الوقت حارًا شديد الحرارة والناس في أشد التعب لذلك، ولما دنى بعضهم من بعض سرعان ما انهزموا وبانهزام فريق واحد تعم الهزيمة الكل، فكان الأمر كما قيل إنهم هلكوا إلا ما شاء الله.

❋ ❋ ❋

أخلاق أحمد بن سعيد وصفاته

كان لأحمد بن سعيد أخلاق حسنة عرف بها، وصفات اتصف بها، والأخلاق الجميلة في الزعيم أيا كان تضعه على هامة النفوس، بل على قلوب الرؤوس، وأي رئيس يكون في الأمة، ولم تكن له أخلاق حميدة، سرعان ما تنفض الناس من حوله. قال الله ﷻ لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وصفه بصفة كانت مدحًا عظيمًا له، إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قال ابن رزيق: إن امرأة بشرته أنه يكون إمام عُمَان، فلما صدقت بشارتها أبقى لها في نفسه ما يرعاها به؛ لكنه أدركها ميتة، فأجرى لذريتها فريضة مكافأة لها، وكذلك العجوز التي اختفى في بيتها بينقل من الظاهرة أبقى لها مقامًا هامًا، وكان أراد أن يعلم ود قومه له، ومحبتهم له، فخرج في خفية ولم يعلم به أحد، وأشيع أنه لا يعرف في أي مكان أو أنه ميت، فلما بلغه ثورة بلعرب بن حمير، خرج

فأحس من قومه الإصرار على أوامره، وعلم أنهم ثابتون على ولائه محافظون على زعامته عاضون عليها بالنواجذ، كما أكر الجبور الذين جاءوا إليه، حين زحف عليهم سيف بن سلطان في حصن صحار بسفنه لإخراجه منها، وأصلحوا الحال بينهما بجعل ولده هلال بن أحمد، عند سيف بن سلطان؛ ليطمئن من منافسة أحمد بن سعيد له، فكان معه حتى وصول العجم إلى خور فكان، ثم أرخصه.

وقد صاهر الجبور المذكورين تألفًا لهم وتقريبًا لهم حين رأى منهم ما سره وأكرم صالح بن صباحية من أهل حوائر الوادي من نزوى وجعل له الرئاسة على قومه لأجل ضيافة كانت منه له في نزوى، وكان يحل الأعيان ويحترمهم ويوقر الصغير والكبير، أكثر من توقيرهم إياه، وكان إذا أراد الخروج من الرستاق إلى بركاء يأمر أن تصنع له حلوى في الرستاق، ولعلها كانت لها شهرة، وكان إذ جاء نزل بنعُمَان فيقيم فيها يومين أو أكثر، فإذا نزلها جاءه أولاد الفقراء والضعفاء والمساكين، فيعطيهم من تلك الحلوى، فيذهبون بها إلى أهليهم وهم مسرورون منه وكذلك أهلهم، وهذا يعم سكان المنطقة من حد حي عاصم في الشرق إلى الحفري في الغرب، ثم تأتيه رعايا بركا للتسليم عليه، وكذلك أهل السيب إلى المصنعة فيستقبلهم ببشاشة وطلاقة وجه وحسن التفات، ويقضي لهم حوائجهم ثم يتوجه إلى مسقط فإذا جاء روي نزل بها فيمكث فيها يومه ذلك.

وبالصباح الباكر يتوجه إلى مطرح فتصطف له أهلها على الطريق من منطقة سيح الحرمل إلى ثغر المطرح، فإذا وصل إلى مطرح نزل في بيت بالدكة، فيأتيه بنو حسن للتسليم عليه أولاً، ثم تتبعهم اللواتيا، ثم بنو زراف، أما بنو حسن لكونهم أهل البلد وأما اللواتيا وبنو زراف، لكونهم تجار البلاد، فهو يراعيهم لذلك، ويرعى لهم أحوالهم هنالك، ثم يتبعهم بقية أهالي المطرح، فإذا تم أهل مطرح توجه إلى مسقط القوارب التي تجر في البحر.

فإذا وصل الجزيرة أطلقت المدفعية طلقات من الصيرتين ومن الكوتين، ومن

المراكب الراسية في البحر، فلا تسمع إلا دوي المدفعية في جبال مسقط تتردد لها زجل عظيم، فيبرز للناس في الجزيرة فتأتيه الناس زرافات ووحدانا حتى إذا انتهى استقبالهم ومقابلتهم، دخل بيته بالجريزة، وكان واسع الصدر كثير البذل، جم النوال معطاء مبذالاً، كما يلزم وفوق اللازم، ذا تواضع وتؤدة وحلم والتفات إلى الرعايا، وبذلك غرس حبه فيهم، وأطبقوا على تعظيمه، وتهافتوا على طاعته، كان صبورًا على كيد العدو لا يتأثر من الخلاف والشقاق، وإذا رأى الفرصة لم يضيعها، شجاعا مقداما لا يبالي بالعدو كيف كان موفقا في غالب أحواله.

وذكر ابن رزيق له أسراراً الله أعلم بصحتها، وكرامات قبل أن يتولى الأمر، وهي دالة على توليته، ولقد أحسن إدارة شؤون الوطن والبلاد حين أمنت واطمأنت وسكنت.

قال الإمام السالمي رحمه الله: كانت أيامه أيام راحة واستراحة بعد الفتن والمحن. قلت: وكانت له همة عالية في بناء مجد عُمَان، وإعلاء شأنها.

قال ابن رزيق: لقد حاز أحمد بن سعيد قصب السبق في مكارم الأخلاق توفيقًا من ربه الخلاق، فقد ساوى بين الغني والفقير، والبصير والضرير، ورعى رعيته بإحسانه، وأقر أعينهم بمكين مكانه، فهو في الكرم آية، وفي الشجاعة غاية، لولاه لصارت عُمَان وأهلها في حكم العجم، وأضحوا هم الملوك وأهل عُمَان لهم خدم، فجرع أكثرهم كأس الحمام لما أحاطوا بصحار ستين ألفًا أو يزيدون في المقدار، فصالحوه لما رأوا عزيمته أحد من السيف البتار، ورجعوا إلى بلادهم أذلة بعد العزة، وأخرج من كان بمسقط إلى بركاء، فقضى عليهم فيها.

وكان ولى خلفان بن محمد بن عبد الله البوسعيدي شؤون الخراج بمسقط، وولى خميس بن سالم شؤون العسكر بمسقط ومطرح، وولى حسن الصرهنج على مراكب السلطنة، وولى القضاء بمسقط الشيخ محمد بن عامر بن عريق العدوي المعولي من أهالي حلة المطلع من أفي، وولى قلم الحسابات رزيق بن بخيت بن سعيد

بن غسان، جد المؤرخ حميد المعروف بابن رزيق، ورتب أعمال السلطنة أحسن ترتيب، يتناسب مع العصر واشترى العبيد الزنوج ألف عبد من الزنوج، وألف عبد من النوبان، وأسكنهم الرستاق وأضاف إليهم من العُمَانيين ألف جندي، جعل الجميع بالرستاق إذ جعلها هي العاصمة، وجمع الخيل والإبل المعدودة لمهمات الدولة بالرستاق، واتخذ أربعة أعلام خاصة به تنتشر على موكبه عندما يتحرك لهم، اثنان رأساهما من ذهب، واثنان رأساهما من فضة، وإذا خرج إلى مكان خرج بأهل العلم الموجودين معه من مشاهير العلماء.

وكان لا يطيل بمسقط بل كان لا يتم شهرًا فيها وفي كل مرة يتفقد حصونها وما بها من عدة، وما يلزم لها من مؤونة، ثم يمر على الفرضة عند خروجه من الحصون وينادى أن كل ما نزل هذا اليوم بالفرضة لا عشور عليه قل أو كثر، وكان دخل الفرضة التي تعرف الآن بالجمرك قدر ثلاثة لكوك صافي المصاريف كلها، ويرتفع أحيانا إلى خمسة لكوك، وكان له عسكر كثير في المراكز المهمة والعثور المنظور إليها رعاية لحفظ المملكة من هجوم العدو المباغت، فإن الحزم هو الحفاظ وهو سور المملكة، وكان أكثر عسكره بالرستاق، حيث هو بها وهو المقصود بالذات من ناحية الأعداء، ثم بصحار؛ لأنها في وجه الغازي، ثم في مسقط؛ لأنها الميناء المهم.

قال الأمير شكيب: أحسن التدبير، وسن للمملكة قوانين مالية وتجارية واستبقى لنفسه إمارة الجيش البرى، وعهد إلى رجل من خواصه بنظر الأسطول، ونظم جيشًا دائمًا.

قال الإمام السالمي: أعطى أحمد بن سعيد المملكة حقها، والمعنى صان البلاد وحماها، واحتمل على كاهله أهم الأمور، وهو عداء العجم، وكان حكيمًا في أعماله يعلم أن بغض العجم قد تغلغل في قلوب أهل عُمَان، وعم ذلك البغض اليعاربة الذين جاءوا بهم إلى عُمَان لغير موجب إلا التنافس الضار،

وما من أحد يجر عدوًا على وطنه إلا كان لدماره غارسًا لما يقلعه من أرضه، فإن غرس الشر لا يكون ظلاً لغارسه، ولا يثمر إلا الذعاف له، وهذا أمر جربته الأمم قديمًا وحديثًا، وإذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابًا، وكان أحمد بن سعيد ممن بعثه الله؛ لحفظ الوطن في تلك الأزمة، وليعلم أهل عُمَان أن الأمر إذا لم يعضده الدين والإيمان سرعان ما ينهار.

فإنه لما كان الإمام ناصر بن مرشد الرجل المؤمن أيده الله ونصره وشد عضده، وقوى عزيمته، ثم جاء بعده أولاد عمه الذين خلفوه على الأمر يحملون تيجان الإيمان وأعلام الرشاد، أصبح العُمَانيون يضعون رؤوسهم لهم لوقايتهم من الأسواء ويفدونهم بالأرواح. ولما جاء سيف بن سلطان على خلاف ذلك خرج منه كالشعرة من العجين.

❊ ❊ ❊

أحمد بن سعيد يناصر الدولة العثمانية على العجم بالبصرة

كانت الدولة العثمانية مدت أياديها إلى الشرق العربي، وكانت البصرة من جملة ما تولته تلك الدولة، فزحف إليها من الإيرانيين جحفل ضخم اصطلمها من أيدي رجال الدولة المشار إليها، وحيث ذلك الوقت بزغ فيه الطالع السعيد لأحمد بن سعيد، وشاع له صيت بلغ مسامع الدولة العثمانية، فطلبت منه المساعدة على الفرس المحتلين للبصرة.

قال أمير أبيان: استولى العجم على البصرة، فذهب أحمد بن سعيد بعشر سفائن حربية تجر عددًا كبيرًا من القوارب، حمل عليها عشرة الآف مقاتل.

قلت: وفي بعض الروايات ثمانية عشر ألف مقاتل، وقائد الحملة هو ولده هلال بن أحمد.

قال شكيب: وهزم الإيرانيين ونصر الدولة نصرًا مؤزرًا، قال: فسرت الدولة منه وأجرت له راتباً سنويًا كان لا يزال يتقاضاه أئمة مسقط إلى أواخر القرن

التاسع عشر، ومن جملة أسطوله طراد اسمه الرحماني، هو الذي كسر سلسلة الحديد التي وضعها الإيرانيون في شط العرب؛ لمنع أسطول عُمَان من الدخول إلى البصرة، فأرسله أحمد بن سعيد إلى مانغالوا في جنوبي الهند سائلاً عن السبب في حجز مؤونة الأرز التي كانت ترد عُمَان كل سنة، قال: فاستقبل تيبو عامل السلطان أعلم من في مملكة غرناتيك مندوب عُمَان بكل حفاوة، وأخبره أن السبب في ذلك هو من متلصصة البحر الذين هم بساحل المالابار قال: فقصدهم الطراد إلى ديارهم، وقتل زعيمهم، أي وبعد ذلك تأدبوا عن الاعتراض للمارة فلله در أحمد بن سعيد.

* * *

الظاهرة وأحمد بن سعيد

كنا قلنا تحت عنوان أحمد بن سعيد وزعماء بني غافر، إن بني غافر لما كانوا عاشوا تحت علم محمد بن ناصر، وكان محمد بن ناصر بحيث لا يخفى مقامه في وقته حتى بلغ درجة الإمامة، وكانت بسالته مضرب المثل في عُمَان، وكان النصر حليفه في كل وقعة، وكان يباشر الحرب بنفسه، ولم تعرف له قط كبوة، ولا لسيفه نبوه، حتى عظم قدره وعلا ذكره.

وافتقرت عُمَان بينه وخلف بن مبارك الهنائي، وتغلغلت العداوة وخصوصًا في قلوب المغلوبين، حتى شاع ذلك وذاع، ولما مات محمد بن ناصر، وخلف بن مبارك قتيلين بصحار، واعتقل بالأمر من جاء بعدهم بقي في نفوسهم ما بقى مما خلفه المذكور، ولذلك قاموا ببلعرب بن حمير حين رأوا أحمد بن سعيد يتقدم على حصون عُمَان ليتولى ملكها.

ثم كان الأمر على خلاف رغبتهم، وكانت حركتهم مزيجًا من بني غافر واليعاقب، ومن اشتمل عليهم من دروع وظواهر وبني قتب، وبني كلبان ومن إليهم الذين كانوا أنصار محمد بن ناصر، وكذلك النعيم، وبني ياس وهؤلاء تألبوا

على أحمد بن سعيد وباينوه بالعداء وانهزموا في وقعة فرق، ورجعوا وقلوبهم حامية حقدًا على أحمد بن سعيد، ولذلك تألبوا عليه من امتلاك حصون الظاهرة، وقصدهم أحمد بن سعيد، فلم ينتصر عليهم، بل انتصروا عليه، وبذلك نهجوا إلى غير عُمَان، وتعلقوا بأناس آخرين حتى تبدلت جميع صفاتهم وتركوا قوميتهم إلى قومية أناس آخرين؛ لأن قلة العلم وغلبة الجهل واشتعال الحقد في قلوبهم أثمر تغيير أفكارهم ومعتقداتهم وأخذ بهم إلى موالاة غيرهم فعم ذلك وبعد حين أكثر قبائل الظاهرة إلى ما شاء الله. ولم يزل يسري فيهم داء الجهل والفوضوية حتى أنه لم يعرف في الظاهرة بعد الدولة اليعربية عالم ولا حتى متعلم أو متخلق بأخلاق المتعلمين. ونتيجة لفوضويتهم وجهلهم أضمروا عداء للسلطات العُمَانية التي هي جامعتهم، ولكون الجهل يسري فقد لحق بأهل الظاهرة أهل جعلان التي خرج منها أول عالم جليل هو، منير بن النير الجعلاني وبإختلاطهم مع بعض أهل الظاهرة ونفورهم من أبناء خلوتهم، خيم عليهم الجهل فأصبحوا لا يعرفون من معتقدات الدين الإسلامي شيئًا فأورثهم جهلهم فوضوية مطلقة، ومع تأكدهم أنهم فقدوا العلم والمعرفة فقد أصروا على ما هم فيه من جهل ونعرات جاهلية؛ لذلك فقد تغير الوضع العُمَاني من أقاصيه وأصبح الأفق العُمَاني وعليه غبار الجهل والضلال، فإنهم أصبحوا أنصار الباطل من أول يوم وقعت فيه حرب بلعرب بن حمير بفرق. ثم قام أحمد بن سعيد فقبض على شيوخهم فزادت النفرة ونأت النفوس إلى حد بعيد. ثم زاد الطين بله، الواقعة التي وقعت بينهم وأحمد بن سعيد التي لم يخططها تخطيطًا كاملاً. لذلك لم ينتصر فيها أحمد بن سعيد فلذلك ابتعدوا عن دولتهم العُمَانية وبقيت فيهم نخوة بني غافر ومعرة النفوس فيها وفيمن أنضاف إليهم وتفرقت الوحدة الدينية إلى مذاهب شتى، إذ لم يكن بعُمَان سابقًا إلى هذا العهد الذي ذكرناه غير وحدة علمية دينية قديمة واحدة. وقد عانت السلطنة العُمَانية من هؤلاء الفوضويين ذوى النعرات الكثير، والكثير. وأصبحت

الظاهرة بابًا لغزاة عُمَان وأصبح العراك مستمرًا بين الغزاة والسلطات العُمَانية حتى عهد قريب.

قال أمير البيان: وكانت بلاد الظاهرة بمكانتها من الداخلية لم تخضع تمامًا لأحمد بن سعيد، وكان علة الكلمة لبني غافر. قال: فثار منها أحدهم وهو ناصر بن محمد، أي ولد الإمام الآنف الذكر. قال: واشتعلت الحرب بينه وأحمد بن سعيد. قال: فساق إليه هذا عساكر من العُمَانيين فانكسروا وأخيرًا تصالح الفريقان على أن تبقى الظاهرة في يد بني غافر ويعترفوا بالسيادة للإمام أحمد.

ومضى الحال على هذا غير مرضي من الجانبين، بل كان في نفسه على خصمه. قال ابن رزيق: وسبب حرب الإمام أحمد بن سعيد، وناصر بن محمد الغافري، أن ناصر بن محمد كان من دهاة العرب، وكان صاحب أموال ورثها من آبائه، وكان له مال جزيل، حيث تولى البحرين من الإمام الطيب الذكر سلطان بن سيف اليعربي بعد فتحها من العجم، كما قدمنا ذكرها في كلام على هذا الإمام، ولما مات الإمام المذكور رَحِمَهُ اللَّهُ، ووضع النزاع بين اليعاربة بعُمَان، اغتنم العجم الفرصة، فزحفوا على البحرين بجيش ضخم أحاطوا بالوالي المذكور وحصروه، وطال الحصار، واستمرت الحرب، وناصر قابض على الأمر بيد من حديد، ولا يزال ينتظر نصرة الدولة، فتأتيه فتفرج أزمته والدولة أصبح داؤها في جسمها، ويعالج جروح روحها، فأنى تكون نصرتها لوالي البحرين.

وقد حاول العجم نزول ناصر بن محمد من قلعة عراد التي بناها العُمَانيون ولم يقدروا على ذلك، وأرسل العجم إلى ناصر في صورة الناصح أن الإمام قد مات، وأن اليعاربة الآن في خلاف ونزاع فيما بينهم، وأهل عُمَان منقسمون أيضًا كل واحد والاضطراب سار فيهم، فخذ ما شئت من المال، ولا عار عليك في ذلك، فلم يصغ إليهم أولاً، ولما طال العهد، رأى أن لا بد من الخروج؛ لأنه لا ناصر له من قومه، فصالح العجم على النزول على ما بيده من المال، وما يدفعونه له، وكان

قد جمع أموالا طائلة، إذ بقي مدة على ولاية البحرين، وخراج البلد كله إليه.

فخرج من البحرين وسلمها للعجم، وجاء إلى عُمَان حتى جاء الغبي، وكانت هي كرسي الظاهرة، وبها واجهة أكثرية الظاهرة، وصار هو الرئيس عليهم، فطلب منهم أن يبني بيتًا في العينين على رؤوس الأفلاج؛ ليكون لهم حصنًا ومرجعًا، وليسيطر به على الغبي وغيرها، فلم يسمحوا له بذلك، وبقي يفكر في الطريق الذي يتسنى له به مطلبه، حتى إذا صار الأمر إلى الإمام أحمد بن سعيد، وزال الأمر عن اليعاربة، وقع اتصال خاص بين الإمام أحمد، وناصر بن محمد، حتى صاهر الإمام ناصرًا، والتحم الصفر والحديد بعضه ببعض.

وبذلك رأى أهالي الظاهرة أن الأمور جاءت منقادة إلى ناصر بن محمد، فإنه ابن الإمام المعروف، وأنه الغني الموصوف، وتلك أهم مؤهلات الزعامة، وكان ناصر المذكور كما هو معروف من دهاة العرب، فعند ذلك قال ناصر للإمام: على أي شيء تركت حصن الغبي بيد غيرك؟ قال له الإمام: أنا لا أحب الفتنة، قال ناصر: بيني وبين أهل الظاهرة، فقال ناصر: وأي فتنة وأنت إمام عُمَان كلها، فكيف لا تكون الغبي من حملة ممالك عُمَان. قال: لا أحب الفتنة بيني وبينهم، وبالأخص لما صرت أنت صهري، وقدموك عليهم فصرت الرئيس عليهم، فقال ناصر: أرى أن تقبض حصن الغبي، فإذا قبضته لم يبق لك عدو يقدر على إظهار عداوته لك من أهل الظاهرة كلها إذا كانت الغبي هي المركز المهم في الظاهرة، ولا يهولنك الأمر، فأنا أقبض الحصن وأقبضه من تريد من الولاة، فوافق الإمام على ذلك، فأرسل معه محمد بن عمير البوسعيدي فقبض ناصر حصن الغبي، وقبضه الوالي المذكور بدون منافس.

وقال ناصر للوالي: لا تهتم من أهالي الظاهرة، ولا تهتم من أهالي الغبي فأنا أكفيك أمرهم وعندي المال والرجال، وهذا كله مكر وخداع، فلما أحس أهل الظاهرة بحر الإنصاف من الوالي المذكور، وخصوصًا جبابرتهم وعتاتهم الذين

تعودوا؛ لأن يسيروا كما يهون، وجاءوا إلى ناصر بن محمد يشكون أمر الوالي، فقال لهم ناصر بن محمد: والله ما صنع فيكم غير العدل والإنصاف؛ لكنكم يا أهل الغبي لا تحبون العدل بينكم ولا الإنصاف منكم، وكل من صار لكم محبًا صرتم له أعداء، أردت أن أبني بيتًا في العينين بمالي لا بمالكم، وفي أرضي لا في أرضكم؛ ليكون معقلاً لعزكم، فأبيتم وأنا حالي حال الإمام أحمد بن سعيد، فمن أطاعه منكم فهو محب لي، ومن عصاه منكم فأنا عدو له.

ولم يزل ناصر بن محمد بن ناصر يتردد على الإمام ويدخل معه ويكثر المسير إليه، وقد اصطفاه الإمام وأعلى مقامه عنده، وهو يدرس له جبابرة الظاهرة فردًا فردًا، ويشير إليه من يريد له قيدًا منهم، فلما رأوا تقدمه مع الإمام، ورأوا تأييد الإمام له، وكيف لا يؤيده الإمام وقد تقدم إليه بحصن الغبي أكبر حصن في ذلك العهد.

فحينئذ تراجع القوم، وقالوا في أنفسهم: إن ناصر سيقهرنا قهرًا بالإمام والأولى إرضاؤه، فجاءوه وقد سرى الضعف فيهم فقالوا: ابن ما شئت أن تبني نحن غلطنا في منعك حسب المفهوم. فقبل ذلك منهم وشرع في البنيان، ولما أكمله وسكن فيه، وحط فيه ثقله خرج إلى الإمام ومعه بقية الذين يخشى منهم.

وقال: للإمام ما بقي من يخشى منه الخلاف لك، ولا بقي خصم في الظاهرة إلا هؤلاء القوم الذين جئت بهم إليك، وأخبره بأسمائهم واحدًا واحدًا فاحبسهم وقيدهم ولا تطلقهم حتى يهلكوا فإذا هلكوا انقادت لك الظاهرة كلها، ففعل الإمام، وكان مستصفيًا له. وإذا به يعمل لنفسه بإهلاك معانديه، فلما رجع عن الإمام وبلغ إلى مكان يسمونه دفع الأودية وهم مضيق بين الجبال قال لجماعته: إن الإمام لا يحب إلا هلاكنا، فإنه ما احتشمني لما أتيته ببقية المحبين فلان وفلان وعدد أسماءهم فقيدهم وهربت أنا عنه خوف أن يقهرني معهم في غفلة منه ومن رجاله، والآن عومت على حربه، فهو بهذا مكر بجماعته إذ ساقهم إلى الإمام؛

ليقيدهم بدسيسته، ويقضي عليهم انتقامًا له حين عارضوه، ثم مكر بهم هنا قائلاً لهم: إن الإمام يريد يهلكنا؛ ليكونوا في جانبه، وقد بلغ مراده من الإمام ومنهم.

وهذا من جملة دهاه الذي عرف به؛ ولكنه يفكر لعل يومًا ما تكشف عن هذا فيكون وبالاً عليه من الجانبين، وقال لهم: إن كان حالكم حالي فابنوا بروج واديكم وشنوا الغارات على الرستاق، فأنا معكم بالمال والحال، ولقد كفانا ما أتانا منه فأجابوا على ذلك، إذ الظاهر كما يقول والغيب لا يعلمون عنه شيئًا، فبنوا بروج واديهم بغاية السرعة.

ولما رجع إلى الغبي قال: لأهلها كذلك، ولما أجابوه على حرب الإمام كتب إلى ابن رحمة الهولي بوصوله إليه للمفاهمة، وأن يجيء بقومه، ولوح له بإشارات من كيده ومكره، فجاء المذكور ومعه قدر خمسمائة رجل، فعند ذلك أمر أهل الغبي بمناوشة الوالي وأن يبينوا له خلاف ما كانوا عليه، واجتمعوا بالعينين للمشورة على حرب الوالي إن خالفهم، ولما أحس الوالي الخلاف من أهل الغبي، وكان ناصر هو المتعهد بمناصرة الوالي، وبلغ الوالي أنهم مجتمعون بالعينين سار إليهم لشكوا لهم ما سمع وما رأى، فدخل عليهم، وإذا بهم على شوكة حرب ولعله ظنهم عليه لا معه.

قال لناصر ما الذي عزمت عليه وأنت، وجماعتك بهذا الاجتماع؟ قال: لقد عزمت أنا والجماعة على حربك إذا أبيت الخروج من الحصن وتسليمه إلي، فمن أنذر فقد أعذر، فقال الوالي: أريد منكم المهلة ثلاثة أيام، إما سلمت إليكم الحصن، وإما بادرتكم بالحرب، فقالوا له كلهم عن لسان واحد: ذلك لك. فلما رأى الوالي أن لا طاقة له بحربهم سلم الحصن إليهم ذلك اليوم؛ لأنه تحقق ألا يقدر على عمل أي شيء وهو بين ظهورهم، وإمامة بعيد منه، فخرج كما دخل ولم يفكر ناصر بن محمد أن وراء الوالي إمامًا حاكمًا قويًا؛ لكن في نفس ناصر أنه أقوى من الإمام في الظاهرة، فإن قواته التي يقوم بها من عُمَان وأهل عُمَان

الشرقية لا يهتم منهم أهل الظاهرة؛ لبعد الشقة، وكون الطرق في أيدي غافرية الظاهرة ويرون من أصعب الأمور حرب الظاهرة.

* * *

أحمد بن سعيد يجهز ولده هلالاً لحرب الظاهرة

لما وصل والي الغبي إلى الإمام أحمد بن سعيد وأخبره عن الواقع، وأن زعيمهم الذي كان الإمام يعتمد عليه أصبح هو عميد العداوة، وأن أهل الظاهرة جعلوه رئيسهم، استغرب الأمر واستعظمه، حيث لم يكن منه في حق ناصر إلا إمضاء رغبته، وامتثال أمره، وهو الذي طلب من الإمام أن يقبض حصن الغبي، وهو الذي أشار على الإمام بقبض أولئك الشيوخ الذين جاء بهم ناصر إلى الإمام أحمد ابن سعيد...، وأشار عليه بقتلهم وأنهم هم المحذورون في الطرف الظاهري، وبصرفهم يستريح من نوازل الظاهرة.

ولما حصل المطلوب وأصبح ناصر معاديًا للإمام أحمد بن سعيد بغير موجب فتبين أن له غرضًا خاصًا، ليته لما أراد ذلك أبقى صحبة الإمام قوة له وسندًا يعتمد عليها في سواد الأمة، وساس الأمور بغير هذا العداء السافر، فأين الدهاء الذي عرف به؛ ولكن هزة المال تجلب للنفس العطب.

ولو قال للإمام إن عاملك رأيناه لا يصلح لسياسة الحال الحاضر في الظاهرة، ونحن عمالك والحصن نحن سلمناه إليك، ونحن هنا منك وإليك وعدها تأمر بأمر فنحن نقوم به إن شاء الله، ولكان الإمام يقبل منه ولو تحقق في الباطن أن الرياح منه والمطر منه، إلا أن الأحوال تكون مستورة عن سواد العامة، وإن كان ظن أن أهل الظاهرة يتهمونه بقتل الشيوخ الذين سعى هو بقتلهم عند الإمام، فإن الظاهر يعبر عن الواقع أن الإمام هو الذي قتلهم، فلا تعلق لهم بناصر بن محمد بن ناصر المذكور إذ هو بنفسه خرج هاربًا من الإمام كما يزعم؛ ولكن أبى الله إلا ينكشف غدر ناصر للإمام والناس، فعند ذلك جهز الإمام أحمد بن سعيد

قوته للزحف على هؤلاء في دُفْعِ[١] الأودية أولاً؛ ليزيل ما هناك من شوك الشر الذي قام به ناصر بن محمد، وجعل ولده هلالاً القائد لهذا الجيش، وكتب لمحمد بن سليمان بن عدي اليعربي والي نخل، أن يذمر له رجالاً من نخل ينصافون إلى هلال بن أحمد، ويكون أميرهم محمد بن حمير اليعربي، واستدعى أيضًا قبائل الشرقية إلى جعلان، وطلب نجدة من بلوش مكران، ومن الزدجال.

وأثار الإمام الكتائب من جهات عديدة، ومضى هلال بن أحمد يقود القوات المتجمعة مع الإمام، حتى أتى دفع الأودية وهو المضيق المهم فلم يقدر بنو غافر على الدفاع[٢] عنها وهرب القابضون لتلك الأبراج التي حصنوا بها ذلك المضيق، فقبضها وقضى عليها ثم جاء القرطي وهو لبني شكيل، وكان بنو شكيل من أنصار ناصر بن محمد بن حمير يناصحهم فانقادوا له، وأتى بهم إلى القائد هلال بن أحمد.

وعندما وصل إليه وقد أعطاهم محمد بن حمير الأمان إذ سلموا حصن القرطي إلى القائد هلال، وإذ ذاك وثب عليهم من قتلهم جميعًا، وكانوا اثني عشر رجلاً يلقبون أولاد فرخ الريح، وكلهم أولاد عم، وهم أخص الخاصة من بني شكيل، وأخص أنصار ناصر بن محمد الغافري، فحمل بنو غافر قتلهم على محمد بن حمير اليعربي، وأضمروا العداوة لمحمد بن حمير وأقاربه، وبقوا في حقد متقد لم يبرد حتى قتلوا سيف بن مالك بن سيف اليعربي في نفس القرطي.

وقضى هلال بن أحمد أيضًا على حصن القرطي وهذه القضية هي التي يشير إليها الشيخ أبو نبهان، ورجع هلال بن أحمد إلى أبيه منصورًا وغانمًا من هذه الحملة، حيث قضى على القوة رجالاً وحصونًا، وكان الإمام أحمد بن سعيد بصحار، وقد اجتمع معه جحفل ضخم وجيش جرار من شرق عُمَان كلها،

---

(١) اسم مكان معروف، المؤلف.

(٢) المثل الشائع يصدق هنا إذا جاء موسى وألقى العصا إلخ. المؤلف.

فخرج بهذا الجيش على طريق الظاهرة، وجاء على طريق السليف، وكان الوقت حارًا شديدًا إذ كان وسط القيظ، فمضى حتى سيح الطيب والقوم في تعب، إذ أكثرهم مشاة، فدارت رحى الحرب بينهم، فانهزم جيش الإمام إلا الزدجال، وآل وهيبة البلوش، حتى قتل هؤلاء كلهم جميعًا، ولم يفلت منهم أحد.

وهذه الوقعة تعرف بوقعة سيح الطيب، أفنت رجالاً عديدة، وهلك المنهزمون بالعطش؛ لأنهم غرب لا يعهدون الموارد، وتوجه الإمام وولده منفردين لا ثالث لهما على طريق نجد الحديد إلى نزوى، وتفرق ذلك الجيش كله كما يقولون شغر بغر، ولم ينج منه إلا من لاذ بالغبي، فإن ناصر بن محمد أكرمهم وسيرهم إلى أوطانهم بحال السلامة.

* * *

أحمد بن سعيد يشن الحرب على نخل

كان بنخل محمد بن سليمان اليعربي على اتفاق هو والإمام أحمد بن سعيد وتعاهدا أن لا يخون أحدهما صاحبه، وكان من أولاد الإمام أحمد بن سعيد سيف وسلطان أرادا أن يتوليا الأمر على أبيهما، وحاولا حصن بركا.

قال ابن رزيق: كان ولدا الإمام أحمد بن سعيد سيف وسلطان مستنكفين عن طاعة والدهما الإمام أحمد بن سعيد، يحاولان انقياد الرعية إليه ما دونه، فأرادا أن يقبضا عليه حصن بركا، فمكثا في حصن نعُمَان أحد حصون بركا وهو محل إقامة الإمام في بركا، أي يتحينان الفرصة لحصن بركا، فمكثا في نعُمَان، ثم بعثا إلى سيف بن سلطان اليعربي بنخل، إذ كان نائبًا لمحمد بن سليمان في نخل حال غيابه إلى وادي بني خروص طلبًا أن يرسل إليهما مائة رجل من أهل نخل، فلما وصله كتابهما لم ينتظر عودة محمد بن سليمان من وادي بني خروص، ولم يشاوره في هذا الصدد، ولعله ظن أن ذلك عن اتفاق بينهم، فقام بطلبهما وذمر الرجال، وجعل القائد عليهم من أهل حلة العتيك اسمه خنجر بن سعود.

فلما وصل خنجر بن سعود بقومه من أهل نخل، قام الأميران سيف وسلطان واقتحما بهم حصن بركا، وما شعر قابضوه إلا والقوم معهم في الحصن، ولما علم أهل الحصن أنهما أبناء الإمام لم يكترثا منهما، ولعلهم ظنوا أن الإمام أمرهم بذلك خوف عدو تخشى مباغته هجومه، وكان أحمد بن سعيد إذ ذاك بالرستاق، فلما بلغه الخبر استنكر الأمر من ولديه اللذين يرجو أن يكونا له عونًا على عدوه، وإذ بهما يقتحمان على الأمر منافسين له، ولعله غرة الشباب وسورة الملك حركتها، فإنه كما قيل لا يلد الأسد إلا أسدًا ولا تلد الحية إلا الحية.

وعند ذلك توجه الإمام أحمد بن سعيد بوجه حنق على فعل ولديه المذكورين فأحاط بحصن بركا وطوقه بالجيش وحصره حصرًا حارًا، وأطلق عليه مدفعية ثقيلة، ولم يزل الحصن يتحطم من ضرب المدافع حتى كاد أن يندك وهما فيه، ولم يقدر أحد أن يقترب منه؛ لشدتهما ومرارة صبرهما تحت غبار رصاص المدافع الداوي كالرعد في صعقاته، حتى استأذن القضاة الذين صحبوا الإمام من الرستاق، سألوه الإذن في الدخول عليهما لإلقاء النصح لهما، فدخلوا وبينوا لهما أن الله لا يرضى عليهما ولا يوفقهما ما داما معادين لأبيهما مخالفين لأمره، فأثر في الرجلين وامتثلا أمر والدهما وخرجا من الحصن إلى أبيهما.

وأخرج أهل نخل إلى نخلهم، وعفا الإمام عن ولديه وأعرض عن أهل نخل؛ ولكنه أضمر العداوة لمحمد بن سليمان واتهمه بالمواطأة لهما، واتفاقه معهما أمامهما؛ فقد قبل عذرهما آملا فيهما عدم العودة لمثل ذلك، وأن الحركة التي أقاماها غلطة منهما، وأما محمد بن سليمان اعتقد فيه نكث العهد، وعدم الوفاء بالوعد، ولما علم محمد بن سليمان بما كان من أهل نخل بواسطة نائبه، ولم يملك من الأمر شيئًا إذ السهم ملك قصده، ولم ير التوجه بعذره إلى الإمام، والحرب قائمة بينه وبين ولديه على ساقها، وهو يطلق المدافع على حصن بركا وأهل نخل، وبقي حائرًا لم يدر ماذا يفعل.

ولما انتهى الأمر بنزول سيف وسلطان، ورجع الإمام إلى الرستاق قام محمد بن سليمان يكاتبه ويعتذر له ذلك بأعذار عنده، فلم يقبل الإمام عذره، والحقيقة أن طريق العذر غير مبعدة، وصفه العذر غير واضحة، ولو كان ذلك كما يقول لنزل حالاً إلى الإمام وألقى ما عنده واعتذر إذ ذاك بما لديه من عذر، أما كونه بقى ينتظر الأمر لمن يصير فإذا صار لسيف وسلطان فهو معهما بمقدمة رجاله، أو صار للإمام توجه إليه بعذره أنه غير موجود.

فهذا العذر أوهن من بيت العنكبوت، وكل أحد يفهم العذر المشار إليه أنه واهي، وقرر الزحف على نخل، فجمع جيشًا ضخمًا من السند ومن الزدجال ومن الرستاق ومن سائر بلاد عُمَان داخليًا وساحليًا، فاجتمع له جحفل جرار، وتوجه بهذا لنخل والحقيقة أن سيف بن سلطان هو الذي جر البلاء على نخل في هذه القضية والجاهل لا يبالي وقديمًا قيل:

وجــــرم جــــره ســــفـهـاء قــوم فــحــل بـغـير جــارمــه الــعــذاب

فدخل الإمام نخل ولم تقاومه البلد، إنما قاومه الحصن، فوجه إليه المدافع ذات القنابل الوارية وقد ضرب الجيش معسكره في نخل كل في مكان، أما الزدجال فعسكروا في بيت الشريحة الذي لبني عزان فرقة من أهل نخل، وبقية القوم انتشروا في نخل إلى حضين، حتى لا يأتيهم عدو يباغتهم على طريق عقبة الصخبري.

وكان الشيخ عبد الله بن صالح الرواحي رئيس بني رواحة، وشيوخ المعاول غير راضين بحرب نخل، نظرا إلى أن محمد بن سليمان ما أحدث حدثًا أن يعامل عليه بسخط.

قلت: أما في نظر الإمام فإنه حدث هام، حيث ساق عامله جيشًا لمناصرة ولدي الإمام أحمد بن سعيد.

قال ابن رزيق: فلما طال الحصار خرج الشيخ عبد الله بن صالح بجماعته

بني رواحة إلى بلدانهم، وخرج أيضًا شيوخ المعاول بقومهم، كذلك بغير إذن من أحمد بن سعيد، وكان هو لما طوق الحصن بالحصار، وأمر بضربه بالمدافع وأحكم الرصد عليه توجه إلى الرستاق للتدابير اللازمة، فكان خروج الذين خرجوا والإمام غير موجود بنخل، وبقى باقي الجيش على حاله يعيث في البلاد، يقطع النخل ويهدم البناء، ويقتلع الشجر من أصوله، وما أبقوا من النخل والشجر إلا قليل، وأهل البلاد هاربون منها وأرسل يطلب من زعماء الظاهرة المناصرة، فلم يتحصل منهم على مفيد، ورجع بالخيبة.

ثم توجه إلى النعيم وكان زعيمهم إذ ذاك شامس بن محمد بن بيات الشامسي فأجابه بألف رجل من نعيم وبني قتب، فمر بهم على طريق جبرين ثم على طريق وادي بني رواحه، وتسللوا في الوادي في حال خفية وانقسموا جماعات وفي دفعات أيضًا، وتوجهوا للمطرح؛ ليشاغلوا الإمام في فكره، وليشوشوا عليه في هذه الجهة المهمة، وكان دخولهم مطرح عن طريق عقبة مراخ، وهجموا البلاد، ونهبوا وسلبوا وعاثوا في البلاد كلها وانتهبوا السوق وحملوا أموالاً على الأهالي والتجار، وتجهوا إلى نخل فاعترضهم المعاول، ولم يغنوا شيئًا ولعلهم لم يبذلوا جهدًا؛ لأنهم خرجوا عن الجيش هم وعبد الله بن صالح الرواحي.

وكان جيش الإمام خرج من نخل زرافات ووحدانا، وحل محلهم قوم جاءوا لنصرة محمد بن سليمان من بني غافر أعداء الإمام، وجاء قوم من بلدة الحزم التي هي تحت الرستاق، ثم خرج أهل الرستاق، وأخيرًا خرج الزدجال.

ولعل الإمام يبذل في حرب محمد بن سليمان وكان سبب فشل جيش الإمام أحمد بن سعيد خروج عبد الله بن صالح والمعاول، وبخروج هؤلاء تزعزع قرار الجيش، وظل يتملص من نخل خارجًا، ولما وصل الخارجون من مطرح ووصلت نجدة بني غافر وأهل الحزم، تقوى محمد ابن سليمان وأحاط على الجيش المحاصر لحصن نخل، فأحاطوا بأهل الرستاق والزدجال؛ ولما ضاق

عليهم الحال طلبوا من محمد بن سليمان أن يسيرهم بما عندهم من السلاح فوافقهم، فخرجوا من نخل.

قلت: يتبين أن أحمد بن سعيد لم يجتد في هذه الحرب أولاً؛ لأنه خرج وترك الجيش يعيث في البلاد، ثم لم يعد عليه بعائدة، ثم بلغه خروج الخارجين منه ولم يرسل قومًا يدلهم، وعلم عن وصول المناصرين لهم ولم يتحرك بشيء ما، ومما يؤيد ما نتحراه أن السعاة لما رأوا أحمد بن سعيد غير مجتهد في حرب محمد بن سليمان، سعوا بالصلح بينهم على أن يبقى محمد بن سليمان مكانه، وألا يخون أحدهما صاحبه وانتهى الأمر في قضية نخل على هذا الحال.

ولعل الإمام أحمد بن سعيد في تراخيه عن حرب نخل خاف استفحال الخطب بينه وبين المناصرين لمحمد بن سليمان من أهالي الظاهرة، وكان لكل عهد سياسة، وكان أحمد بن سعيد السائس الأكبر المحنك المشهود له بذلك في أحوال عديدة.

❊ ❊ ❊

سيف وسلطان ابنا أحمد بن سعيد يحتلان مسقط

لقد سبق أن سيف وسلطانًا ابني أحمد بن سعيد احتلا حصن بركا بأهل نخل وقام والدهما أحمد بن سعيد عليهما، فأخرجهما من الحصن بعد شدة، وسلما أمرهما لوالدهما الإمام، واصطلح الحال بينهما وأبيهما، وظن الإمام أحمد لا يعودان لمثلها وإذا بهما يقتحمان على الحصنين الجلالي والميراني، فقبض سيف بن أحمد الحصن الجلالي وسلطان الميراني، وبقبضهما على ناصية مسقط، واحتلاها وأخرجا من في الحصنين من جنود أبيهما ومعهما الشيخ جبر بن محمد الجبري، وبعض الرجال فواجههما أهل مسقط من تجار وغيرهم وتمكنا من البلاد.

ولعل ذلك كان عن خيانة من القابضين والدراهم تفعل أكثر مما تفعله الجيوش، ولما بلغ خبرهما أباهما أحمد بن سعيد هبط من الرستاق بجيش لا يزال معه معتدًا له

دائمًا للحوادث الطارئة، فلما دخل مسقط هم بضربهما بالمدافع، وكان معه أخيار الرستاق، وبالأخص هم الذين أخرجوهما من حصن بركا برضا أبيهما، فساروا إليهما بصفة الناصح المشفق بالكل، وصوروا صلحًا بين الطرفين، هو أن ينزلا إلى أبيهما مذعنين له، وأن يبقى سيف مع أبيه في حله وترحاله، وأن يكون الحصنان في أيديهما لا ينزعهما منهما، ولا يرفع أيديهما عنها، فقبل الطرفان هذا الصلح والداعي لهما إلى ذلك كأنهما أحسا بأن أباهما قدم عليهما ولده سعيد، وتخيلا ميل الناس إليه، وقد ظهر هذا الحال بعد أبيهما وبقى الحال على ذلك سنة كاملة.

وبعده هبط الإمام أحمد بن سعيد من نزوى وولده سيف معه، ولما وصل بدبد قيد ولده سيف وحمله إلى مسقط مقيدًا، ولما وصلها هم يضرب الحصنين بالمدافع على من فيهما من العسكر أيا كانوا، فقام الناس بينهما بالصلح على أن يسلما إليه الحصن الغربي، ويبقى الحصن الشرقي في أيديهما، ويطلق الإمام ابنه سيف من القيد، فأطلق ولا يلزمه ملازمة أبيه، بل إن شاء سار، إلا فعلى رغبته متى يريد المسير إليه لمقابلته.

ورجع أحمد بن سعيد من مسقط إلى عاصمته الرستاق ورجع ولداه إلى بركا ونزلا حصن نعُمَان وكان يقيمان في نعُمَان غالبًا، ولم يزالا بعين الإمام، وهما لم يحاولان أمرًا لو نبا السيف دونه لما عيب.

وبناء على ما أشرنا إليه سابقًا أنهما لحظا عطف أبيهما على ولده أرادا أن يعمل به أخوة يوسف بيوسف، ليخلوا لهما وجه أبيهما، وكان المذكور تأثل أموالا بالبلد من وادي المعاول، ولعل ذلك من جملة ما غاظهما، فسارا إليه بصفة زائرين ومكثا معه يومين فقابلهما بكل حفاوة وجميل، ولعله لم يتصور مل يريدان، فطلبا منه أن يصحبهما إلى نعُمَان بصفة زائر لهما فوافقهما وخرج معهما، فلما وصلا نعُمَان قيداه وحملاه في سفينة إلى مسقط ونزلا بالحصن الشرقي، إذ كانت في أيديهما بالصلح المتقدم.

فلما بلغ خبرهما أحمد بن سعيد قام من الرستاق مغضبًا، ونزل مسقط بجمع كبير فأرسل إليهما أن يطلقا أخاهما المذكور، فأبيا وأصرا على عدم إطلاقه، وعند ذلك أمر على قابضي الحصن الغربي بضربهما بالمدافع، ونصب على الحصن المذكور المراصد، وهي السيب المحاصرة له المحيطة به، وأمر قادة المراكب أن تضرب الحصن بالمدافع من البحر فأطلقت النيران على الحصن الجلالي من كل جانب، فلا تسمع في مسقط إلا صعقات المدافع بشدة مريعة، وبقيا في حصنهما والمدد يصل إليهما من بطانتهما، فإن لهما بطانة، ولكل أحد بطانة.

فكان أهل طيوي وأهل صور ومن معهم يسحبون لهم المئونة اللازمة بأنواعها تمورًا وأغنامًا وغيرها مما تدعو إليه حاجتهما، حتى طالت الحرب بينهما وأبيهما، فهرب أهل مسقط إلى يتى وقريات وغيرها من الساحل خوفًا من رصاص المدافع الذي ينتشر في البلاد، حتى تنكسر جانب كبير من الحصن: فلما حاول الجنود الركضة عليه لم يقدروا، إذ وجدوا رصاصًا أحمر يخطفهم، فقتل منهم رجالاً في حال زحفهم عليه، وكان الشيخ الجبري معهم، فخرج إلى الطرف الشمالي يستجيش أهل ذلك الجانب، وجاء بجيش أميره صقر بن رحمة الهولي.

وكانت سياستهم تقتضي الإحاطة بالرستاق ما دام أحمد بن سعيد محيطًا بالكوت في مسقط، وأنه كان يغار على الرستاق كثيرًا؛ لأنه اتخذها عاصمة ووطنا فأحاطوا بحصنها، وأرجفوا بها إرجافًا شديدًا، فكان من القدر أن خان أحد الخدام في الجلالي، وأهبط سعيد بن أحمد إلى أبيه بحبل من الكوت يحمله على ظهره.

وكان الخادم قويًا ويعرف بابن منح فجاء بسعيد إلى أبيه، ولما أصبح الصباح تحققا هرب أخيهما سعيد والخادم معه، وكانا جعلاه الحارس الخاص على أخيهما المذكور، ولما بلغهما إحاطة الهولي بالرستاق، خافا اجتياحًا إياها، ثم يعود على مسقط فيجتاحها، إذ قيل له إن عنده ثلاثين ألفًا، فأرسلا إلى أبيهما بالخروج

من الحصن، وواجها أباهما بالجزيرة، وطابت نفسه عليهما وأعطاهما عطايا، وحمد نظرهما وما لا حظاه في هذه المبادرة وخرج أبوهما إلى الرستاق وهما إلى نعُمَان، وإلى هذا يشير أمير البيان، حيث قال: ولم يكف كون بني غافر مستقلين بالظاهرة، واليعاربة مالكين بعض الحصون، حيث ثار على أحمد ولداه سيف وسلطان، واعتصما بقلعة بركا.

ثم ذكر حرب مسقط إلى أن قال: ثم إن أحمد أخذ هذه المسألة بالتؤدة، وانتهت بينه وبين ولديه بسلام، والحقيقة أن أحمد بن سعيد لم يتأثر من ولديه كل التأثر لما للولد في قلب الوالد من الحنو والعطف، ومن ناحية الرجلين رأى فيهما الحفاظ على الملك وأنهما لن يضيعاه، وأن تلك الحروب التي قاما بها ما هي إلا دروس تعبر عن المستقبل الذي سوف يعترضهما، فمن هذه الناحية رأى فيهما العزم الذي يحبه منهما وعرامة الولد في صغره دليل عقله في كبره، وأن أحمد بن سعيد في آخر عمره فضل الرفق واحتمل عدة أسايا.

ومن ذلك سكوته عمن أحاط بالرستاق في حال الحرب بمسقط بينه وبين ولديه وأن ذاك كبير في اعتبار الزعامة العامة، إلى آخر ما عرف له من أخلاق واشتهر به من رعاية، فإنه كما قال الإمام السالمي رَحِمَهُ اللهُ: وكان أحمد بن سعيد صاحب همة عالية ومطلب سام، وجرأة وإقدام، فصار ملك عُمَان كله إليه ما شاء الله.

قلت: هذا الذي استثناه الإمام العلامة هو ملك الظاهرة من عُمَان كما أشرنا إليه. قال: ودانت له القبائل، وسكن الحركات، وأطفأ كثيرا من الفتن، وأمر ونهى، وقام بأمر الدولة، وأعطى المملكة حقها، ودافع العجم، قال: واستراحت الرعية وتجدد الملك.

❊ ❊ ❊

مقام أحمد بن سعيد من الناس

إن مقام أحمد بن سعيد من الأمة بعُمَان بحسب المعلوم مقام وطيد، لا يتزعزع حبه خصوصًا أهل الساحل من صحار إلى مسقط لهم فيه محبة خاصة؛ لأنهم ألفوه أكثر من غيرهم واصطفاهم قبل غيرهم، فكان يقوم ويقعد بهم، وجعلوه بمثابة الأب الشفيق عليهم خصوصًا في حال أزمة العجم، وخوف الناس منهم، وأما أهل عُمَان الداخلية، فمقامه عندهم مقام هيبة؛ لأنهم علموا منه ما أكبروا عليه في أحوال متعددة، فأهل الساحل على طول الخط لا يرون لأحد فضلاً كفضل يرونه لأحمد ابن سعيد، فلا تسمع منهم إلا الإمام، وابن الإمام، وسوق الإمام، وبلاد الإمام.

وهكذا حتى رسخ في قلوب الذرية، وحتى إن بعضهم يلهج بهذا في حواره وحديثه، ولا يعرف من هو الإمام المعني بهذا فقرر ذلك في قلوب النشء بعدهم متوارثًا حتى الآن، يجري ذلك على ألسنتهم وإن كانوا لا يعرفون المعنى به من هو.

ولا شك أن للفضل مقام، وللزعامة لزام، وجبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وهو قد أحسن إلى أهل الباطنة ليكونوا له أداة صالحة عندما يتهجسون من العدو شيئًا أن يكونوا مع الإمام بكل مستطاعهم، وإذا كان الإمام ذا أخلاق وذا رعاية، ولو شعور حساس، وله حفاظ صحيح على الأمة، أنزلته الأمة منزلة التوقير والتعظيم، وبذلت في صالحه ما عز وما هان، وإذا كان بخلاف ذلك كان الأمر على العكس، والله يعلم المفسد من المصلح.

وكان أحمد بن سعيد من صالحي الملوك، ومن السلاطين المحبوبين في سواد الأمة، على المعروف في الجيل الذي عاش فيه، وكان أحمد بن سعيد حجر أساس هذه الدولة البوسعيدية، وواضع دعائم أساسها بالسيف، وكان الباني لأركانها، والمشيد لمعالمها والموطد لعرشها، والمعبد لطريقها، بحيث يعرف ذلك الكل من

أهل عُمَان، فإنه لم ينلها بالهوينا، ولم تأته ميراثًا، وإنما جاءته بحد الصارم الذكر، وببذل المال على الرجال الذين هم دعاة إليه، والحماة له، والرعاة لأوامره، وبسهر الليالي بين السيف والرمح ومن طلب العلا سهر الليالي، واحتمال الأذى وركوب المشقات قال أبو تمام:

طلب المجد يورث المرء خبلا وهمومًا تقضقض الحيزوما
فتراه وهو الشجي خليا وتراه وهو الصحيح سقيما

ولقد قضى أحمد بن سعيد على الدولة اليعربية حين رآها على الطريق النائي عن الحق، ورآها تجنح إلى الباطل، وتجمع إلى فساد عُمَان بحر الأجنبي إليها بعدما أخرج آباؤه منها إلى الأيدي الأثيمة، حتى قضى على ظلمها وفسادها، الذي طم على الأمة وغسل أحمد بن سعيد العار عن وجهها، وأعاد إليها سمعتها، وكبح جماح عدوها، بحيث أصبح انتقامه من العدو يغطي ما فعله بعُمَان، وعليه فيجب أن يرفع شأنه، ويعلى مكانه، وتؤيد زعامته، فإنه البطل الغيور، والليث الهصور، الذي قام بواجب الوطن.

* * *

وفاة أحمد بن سعيد الإمام

وحيث أن كل حي ميت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وإن ذلك لابد منه فقد توفي أحمد بن سعيد في سنة ١١٩٦هـ بالرستاق وقبره بها غربي الحصن.

قال الإمام السالمي رَحِمَهُ اللهُ: كانت أيامه أيام راحة واستراحة بعد تلك الفتن والمحن، يعني الفتن التي قام بها سيف وسلطان، والعجم بعُمَان، وكانت مدة ملكه بعد العقد تسعًا وعشرين سنة، وقبل العقد منذ أن كان واليًا على صحار كذلك، فكان عهده له أثره الخالد.

قال ابن رزيق: وكانت وفاته في حصن الرستاق ليلة الخميس من شهر ذي العقدة سنة١١٨٨هـ.

قال أمير البيان: كانت مدة ملكه أربعًا وثلاثين سنة، قال: وكان خلاص عُمَان من العجم على يده.

قلت: وكانت مصيبته على أهل عُمَان كبرى؛ لأنه أصبح السد المنيع لعُمَان من العدو الأجنبي الذي يحاول في عُمَان ما يحاول، فإن الشر العُمَاني الفارسي لا يزال من العهد الأول الذي عرفه التاريخ؛ ولكن كل شئ يجري بمشيئة الله ﷻ، والله يعز من يشاء ويذل من يشاء، وكل شيء ينتهي إليه، وتلك هي سنته.

وبموت أحمد بن سعيد وقع الخلاف فيما كان منظورًا إليه، فإن خلاف أولاد أحمد بن سعيد بزغ فجره في أيام أحمد بن سعيد كما علمت، وقد حاول سيف وسلطان الاستيلاء على الأمر في عهد أبيهما، وقيدا أخاهما سعيد بن الإمام فماذا يكون الحال والعُمَانيون الذين يستغلون الخلاف ينتظرون دق ساعته؛ لينظم كل فريق إلى جانب، وقد أصبح الملك يبكي بانيه، ويندب بالأسف المضني راعية، فإن أحمد بن سعيد بذل في صالح الأمة النفس والنفيس.

❊ ❊ ❊

أولاد أحمد بن سعيد

لقد توفي أحمد بن سعيد وترك أولادًا ذكورًا سبعة: أولهم وهو أكبرهم: هلال بن أحمد، الذي قاد الحملة إلى البصرة، وهو الذي قضى على مشايخ بني غافر في حرب القرطي فقرطهم قرطًا أتى على آخرهم، ومات بالسند إذ أصيب بالعمى، فخرج للعلاج، فكان سبب موته بالسند.

والثاني: سلطان، وهو الذي قام هو وأخوه سيف بالحرب عهد أبيهما في بركا وفي مسقط كما سبق.

والثالث: سيف الذي توطأ هو وسلطان على تلك الحرب المشار إليها، وإلى سلطان تتصل الملوك في عُمَان وزنجبار كما سوف يقف على ذلك القارئ إن شاء الله.

والرابع: هو سعيد الذي كان أحمد بن سعيد يحبه، وهو الذي تآمر عليه أخوه سيف وسلطان وقيداه، وهو الذي تولى الملك بعد موت أبيه كما سوف يأتي خبره إن شاء الله، وإليه ينتسب أولاد بدر بن حامد.

والخامس: قيس بن الإمام الذي تولى الرستاق العاصمة المحبوبة لأحمد بن سعيد، وتولى صحار أيضًا، وإليه تتصل سلسلة آل عزان كما سوف يأتي بيان ذلك إن شاء الله.

والسادس: محمد وإليه يتصل نسب أولاد راعي ظبية المعروفون، وهو الذي تولى السويق أولاً، وسيأتي خبره مفصلا.

والسابع: طالب الأعمى الذي تولى الرستاق أيضًا، وله فيها حل وعقد وقد كان شديدًا، ولم يعقب وسنفرد لكل واحد منهم ذكرًا خاصًا لأيضًاح قضايا تاريخهم والله ولي التوفيق.

قال الإمام السالمي: وهو يذكر وفاة أحمد بن سعيد قال: وخلف أولادًا منهم سعيد بن أحمد، وسلطان بن أحمد، وقيس بن أحمد، ومحمد بن أحمد، وطالب بن أحمد، وهؤلاء كلهم يقال لهم أولاد الإمام، قال: فأما سلطان فهو أبو ملوك مسكد وزنجبار، وأما قيس فهو أبو ملوك الرستاق، وكانوا قبل ذلك على صحار وتوابعها، وأما محمد وطالب فإنهما وليا من قبل إخوتهما فولى طالب الرستاق، وولى محمد السويق من الباطنة، وأما سعيد فهو الذي ملك بعد أبيه بالحال، وتسمى بالإمامة، وخاطبه بها أبو نبهان لمعنى خاص.

قال: واشتهر بهذا من بين إخوانه فأولاده يقال لهم أولاد الإمام ابن الإمام، قال: ولم يعدل في ملكه، ولم يرض المسلمون عليه، وكان أديبًا لبيبًا معدودًا من أدباء عصره، قال: ومما ينسب إليه من الشعر قوله متغزلاً:

يا من هواه أعزه وأذلني ... كيف السبيل إلى وصالك دلني
وتركتني حيران صبا هائما ... أرعى النجوم وأنت في عيش هني

عاهدتني أن لا تميل عن الهوى وحلفت لي ياغصن أن لا تنثني
هب النسيم ومال غصن مثله أين الزمان وأين ما عاهدتني
جاد الزمان وأنت ما واصلتني يا باخلاً بالوصل أنت قتلتني
واصلتني حتى ملكت حشاشتي ورجعت من بعد الوصال هجرتني
لما ملكت قياد سري في الهوى وعلمت أني عاشق لك خنتني
فلأقعدن على الطريق فاشتكي في زي مظلوم وأنت ظلمتني
ولأشكونك عند سلطان الهوى ليعذبنك مثل ما عذبتني
ولأدعون عليك في جنح الدجى فعساك تبلى مثل ما أبليتني

هذه الأبيات الرقيقة ذات الانسجام العذب، والمشرب الحلو في أسلوبها اللطيف، ولفظها الرائق، ذات الذوق الحلو عند أهل الفن.

* * *

سعيد بن أحمد بن سعيد الإمام

لا يخفى أن أحمد بن سعيد الإمام هو الباني لهذه الدولة البوسعيدية وواضع حجر أساسها، وهو هيولاها على الصحيح، وبجهوده وعزمه قامت على أنقاض تخريبات سيف بن سلطان، الذي ساء فعله عندما تولى الأمر، وقد قلده العُمَانيون أمرهم، وخضعوا له احترامًا لآبائه الذين كانوا يتولونهم ويرضون عنهم، ولما تولى سيف المذكور جاء في طريق خاص به اختاره لنفسه، ولم يصغ لنصح ناصح، ولا لرأي مجرب الأمور، ولا للعرفين بالحقائق من مشايخ العلم الذين يقوم البناء على كواهلهم.

فإن الإمامة قضية علمية تقوم بأهل العلم وتقعد بهم، ولما ظن اليعاربة أن الدولة ميراث سواء كان الوارث صالحًا أو غير صالح، ورأوا أنهم السادة في عُمَان نزع الله ذلك من أيديهم، ووضعه في أيدي غيرهم ليعلموا أن الأمر في الحقيقة بيد مالكه الحقيقي الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو الذي ينزع

الملك من أيدي مالكه الذي يظن أنه الحقيق به، والمالك له، ويضعه في يد الآخر الذي لم تحكم به النفوس ولم تتصوره العقول والله أعلم حيث يضع رسالته.

ولما مات أحمد بن سعيد كرسي الدولة البوسعيدية، وواضع حجر أساسها، تولى الأمر ولده سعيد، وتسمى بالإمامة من غير أن يجتمع عليه أهل الحل والعقد، ممن هم الحجة في الدين، فإن الإمامة في المذهب أصلها اختيار المسلمين لصالحها لا لكل من يقول أنا الإمام، فإن إمام الصلاة لا تصلح إمامته إلا إذا رضيته الجماعة، فكيف بالإمامة العظمى، التي عليها أحكام شرعية ليس لأحد أن يقضى فيها إلا بأمر الإمام الذي تجب طاعته من الناحية الشرعية.

وكان سعيد بن أحمد الابن المحبوب لدى والده أحمد بن سعيد، فإنه يتوسم فيه سمات الخير، ويرجو منه المصلحة العامة في الأمة، ولذلك غار منه أخوه سيف وسلطان، فأركباه الأدهم، وأودعاه الجلالي، وخاف أبوه عليه من ذلك؛ ولكنه نجا منهما وبعد أبيه تولى الأمر على إخوته.

وكان ابن رزيق يصفه بالشجاعة وفصاحة اللسان والأدب العربي، وله رواية ودراية

وله شعر أوردنا منه تلك الأبيات المارة آنفا، وبعد موت أبيه تولى حصون عُمَان إلا حصن الحزم، وحصن نخل، وحصن جبرين، وهو الذي ولى أخاه قيس صحار، وجيش لأرض السر جيشًا ضخمًا أراد به إخضاع قبائل الظاهرة، فقتل منهم عدة رجال خصوصًا من بني غافر، فإن بني غافر بقوا على الحال الذي كان عليه والده، ورأى الظاهرة عدوه الذي لا بد من الأخذ على يده مهما كان.

قال ابن رزيق: وغزا الحمراء فقتل شيخهم، وهابه أهل عُمَان، واتخذ الرستاق عاصمته إذ ذاك، وولى على مسقط الشيخ محمد بن خلفان البوسعيدي المعروف بالوكيل.

ولما كانت الحرب التي قام بها محمد بن ناصر الغافري، وخلف بن مبارك

الهنائي، سيئة الأثر بعُمَان، وكان من أثرها تأصل الضغن بين العُمَانيين، وتحزبوا من أجلها، وتغلغلت العداوة في قلوبهم لبعضهم بعضًا، وشمل ذلك كل من دخل فيها من القبائل ومن لم يدخل، وسرى في النفوس سريان النار في الهشيم، فانقسم الناس من أجلها في عُمَان قسمين كما هو معلوم، فأثر ذلك العداوة بين المسلمين في الوطن والدين، وأصبحوا حزبين متعاديين أشد العداوة، وإذا اعتبرت الأحوال ربما وجدت لمحمد بن ناصر العذر؛ لأن أكثر المسلمين كانوا معه حتى بايعوه بالإمامة، وعاش إمامًا يقوم ويقعد باسم الإمامة، ولم يقل أحد من أهل العلم إنه أحدث حدثًا يوجب خروجه من اسم الإمامة، وكانت القبائل معه، وأما خلف بن مبارك بخلاف ذلك؛ ولكن للضعف أسباب منها الجائز ومنها غير الجائز، وأهل عُمَان لا يليق بهم والأعداء محيطة بهم من كل جانب، إلا أن يكونوا يدًا واحدةً، ولسانًا واحدًا، ويتركوا كل ما يخل بموقفهم، وإلا أكلتهم الأمم المحيطة بهم، وهم في فخ عداوتهم لبعضهم بعضا ليس ولعمر الحق هذا من صفات الرجال الأحرار.

ولم يصرح لنا التاريخ عن الصفة التي تولى بها سعيد بن الإمام أحمد الأمر بعد أبيه، هل هو بولاية العهد له؟ أم باتفاق العلماء الذين هم الحجة في الإمامة؟ أم تولى بحكم القهر والغلبة مع أن أخويه سيف وسلطان نافسا أباهما على الأمر وقاتلاه كما عرفت، وقبضا على سعيد المذكور وأودعاه السجن، وهما هنا موجدان ولم يعرف لهما نزاع في الأمر، ولا مقال ولا احتجاج.

وكان سعيد المذكور في عهد أبيه تولى نزوى، وهذا يدل على مكانته من أبيه إلا أنه لم يحسن العمل فعزله أبوه وولى غيره، وكان أهل نزوى ممن يكرهه حتى شكوه إلى أبيه، وكان الشيخ الصائغي كذلك وهو من أهل نزوى لا يرغب في سعيد بن الإمام أحمد، بل اعترض له عمله.

قال ابن رزيق: إن الإمام سعيد بن الإمام أحمد أحدث أحداثًا بعُمَان غير صالحة، قال: فمقته أهل عُمَان كافة، ومالوا إلى أخيه قيس وهموا بعقد الإمامة له في المصنعة، ومعهم سيف وسلطان وطالب ومحمد، ولم تنته القضية، وأرجأوها إلى العاصمة السعيدية الرستاق، فتوجهوا إليها، وكان سعيد المذكور فيها وأرسلوا إليه بالحضور معهم فلم يحضر، ولعله خاف على نفسه فأرسل إليهم بالضيافة ليشاغلهم بها عن الحضور، ولما تحقق الأمر الذي اجتمعوا له باغتهم بإطلاق مدافع القلعة عليهم، ووافق ذلك حال فراغهم من الأكل، فتفرق القوم عن غير شيء يحسن السكوت عليه، وكان اجتماعهم بمحلة قصري من الرستاق، وتبعثر الرأي الذي بيتوه، ولعلهم رأوا نار الفتنة تشتعل بهم، ففضلوا التأخير إلى وقت أخير.

حتى في السنة الثانية من ولاية المذكور، اجتمعوا في نخل لهذا الصدد بعينه، وكان بها محمد بن سليمان بن عدي اليعربي، وطلبوا حضوره معهم ولم يحضر ولعلهم رأوا منه العداوة وهم في بلاده، وكان أيضًا أرسل لهم بالطعام لهم ولدوابهم ولعله خائف من الأولى التي وقعت عليه من نائبه في عهد الإمام أحمد بن سعيد، وخرجوا من نخل ولم يتم لهم أمر، وعلى كل حال إن الأمور مرهونة بأوقاتها وفساد الرأي إذا تردد.

❊ ❊ ❊

حمد بن سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد

كان للإمام سعيد بن الإمام أحمد، ولدان هما حمد وأحمد، وكان لكل واحد منهما كياسة وعقل، وكان حمد أعقل الرجلين، ولعله أدهاهما، ولما رأى عدم قابلية أهل عُمَان لأبيه سعيد، وأن عدم قابليتهم له لا بد أن يؤثر على الأمر، وكانت له أفكار بعيدة، وكان أيضًا يحاول الملك من أبيه؛ ولكنه يرى أعمامه سيف بن سلطان وإخوتهم حوله كالأسود الضارية، ومثلهم كما قيل من تلقي

منهم لاقيت سيدهم، فأراد أن يدخل الحظيرة من بابها، وقد مهد سياسة لمرامه قد لا يفطن لها منهم إلا غواص ذو فكر ثاقب.

قال ابن رزيق: كان حمد داهية من دواهي العرب، لما رأى أحوال أبيه لا يقتضيها الحال، فعند ذلك التفت إلى أهل عُمَان بما يقربهم منه، وتدخل فيهم وفتح لهم باب الاتصال رامزًا إلى والده استكشاف ما عندهم، والاطلاع على ما تقضيه نواياهم، ولم يسأم والده من ذلك، فكانوا يأتونه زرافات ووحدانا، وكان لأبيه بمنزلة الوزير وكانوا يأتونه يتوسلون به إلى أبيه فيما يهمهم، فيقوم معهم ويكرمهم، فأحبوه وأخلصوا له المعاملة كما ينبغي، وإذا رأوا من أبيه شيئًا يحذرون منه أو يخافونه، أتوه فقام معهم، وبذلك نال منزلة في قلوبهم، وسار به حديثهم، ويقرب أهل العلو والفضل والورع.

قال ابن رزيق: فأحبه أهل عُمَان وزاد بغضهم لأبيه، وتآمر هو وبعض أهل عُمَان في الاحتيال على أن يتولى الملك عن أبيه؛ لأنه الأحق به، وسوغوا له ذلك ورغبوه فيه؛ ولكنه يتظاهر لهم بضد ذلك. ولعله سياسة منه، ولعله خوفًا أن يطلع عليه أبوه، فلم يفتح لأحد منهم باب مجارات في الموضوع؛ ولكنه يعمل في نفسه نفس المطلوب، وهو بحسب الظاهر يتباعد عن الصدد بعيدًا، ويمنع الحديث في الموضوع أصلاً؛ ولكنه يعطي الوافدين عطاء هامًا، ويبذل لهم مبذلاً فوق الحد، وهكذا كان حاله حول هذا المقام الهام.

قال ابن رزيق: وأكثر النقل هنا عنه، وإن كان بعبارة أخرى؛ لأنه في الغالب لا يعبر تعبيرًا صحيحًا، بل يأتي بكلام العامة. قال: وما زال حمد المذكور يتحين الفرصة؛ ليتناول ما بيد أبيه من السلطة، حتى ثارت فتنة بين أهل اليمن، وأهل النزار من أزكي، ووقعت بينهم حرب دامت مدة، وسعيد يسمع ويرى ولا يتحرك، فقام حمد على أبيه في هذا الصدد، وثار سعيد بجمع كبير من أهل عُمَان، وبالأخص أهالي الرستاق وبعد ما تمت قضية أزكي قام حمد لأبيه قائلاً:

إنك وليت على مسقط محمد بن خلفان بن محمد البوسعيدي المعروف بالوكيل، وإن محمدًا المذكور أخرج العسكر الذين تركتهم أنت في الحصن الشرقي، وكذلك عسكر الحصن الغربي، واستبدل بهم صبيح الضوياني في الحصن الشرقي، وكذلك الحصن الغربي ترك فيه مسعود بن أحمد البارحي، وهذا يدل على تصرف يوهم الاستبداد بالأمر.

فقال سعيد: ما أظن ذلك إلا لمصلحة لنا، وما يراه الحاضر لا يراه الغالب، فكان سعيد يحمل القضية على محمل حسن، وهو مطمئن من المذكور لا يعتقد فيه إلا الطاعة، وكان حمد يريد بذلك فتح باب الدخول على الأمر الذي بيد أبيه، وهنا قال له: اكتشف للأمر أرسل له يرسل لنا دراهم وأرزًا لمقابلة شؤوننا هنا، واكتب له ذلك بخط يدك خاصة، فإن أرسل المطلوب، فهو كما تعتقد أنت، وإلا فالرجل ليس بواليك.

فوافقه وكتب الإمام سعيد لمحمد بن خلفان بالمطلوب، وإذ ذاك دس حمد لمحمد بن خلفان إذا جاءك كتاب من والدي يطلب كذا وكذا من الدراهم والأرز، فلا ترسل له شيئًا، فقد حصل كفايته من هنا، واعلم أنه يريد الهجوم عليك بالقوم الذين معه ليخرجك من عملك؛ لأن الناس قد أوحشوه بك لما بدلت العسكر، وإنك شريت جملة من العبيد، وإنك بسطت لصبيح بالعطاء تريد ليكون معك وإنك رفعته فوق قدره إذ أمرته أن يدخل سوق مسقط على حصانه والعسكر خلفه، وأمامه، وهكذا في سكك مسقط، وإن هذا كبير قد تأثر منه في نفسه وأضمر لك ما أضمر، وكذلك تقريبك لمسعود بن أحمد البارحى، وبذلك العطاء له داخل في نفسه، وإنك أمرته يتعمم بالشالات الكشميرية، وهي ملابس فاخرة يتزين بها الأكابر في ذلك العهد، وإذا أرسلت له ما طلب ليصلك بخيله ورجله، فيعزلك من الولاية إذا سلمت من القتل.

قال: وتلك مكيدة من حمد وحيلة منه يريد بها أن يصل الأمر إليه من

أبيه فوصل كتاب حمد إلى المذكور محمد بن خلفان الوالي، قبل أن يصل إليه كتاب أبيه، فلما قرأ كتاب حمد ظنه إخلاصًا منه ومودة، وتصور صدقه، وأنه ناصح أمين.

ولما وصله كتاب الإمام سعيد، وعرف ما فيه، قال له: ارجع إليه، وقل له يقول لك محمد ما عندي لك شيء، وهذا جوابه شفاهيًا فقط، ولما رجع الرسول إلى سعيد وأخبره بما رد عليه محمد بن خلفان، وعند ذلك خلا بولده، وأخبره بجواب الوالي له، وأنك يا حمد صدقت فيما قلت، فقال له حمد: أنا ما قلت إلا حقًا، فإن لي رجالا بمسقط يكاتبونني عن صنيعه كله، فإنك صرفت همتك عن مسقط، فلا تظن أن مسقط لك، فقال له: ما الرأي إذن في القضية؟ فقال له حمد: أرسل ولدك أحمد ليناصحه ويتعرف حقيقة الرجل، ليطلع على أخباره، ثم يرجع إلينا حتى نعلم حقيقة الأمر عنه، ولسنا بمنصرفين من أزكي إلى الرستاق، ولا إلى غيرها حتى يرجع إلينا ولدك الأخ أحمد.

واتفقا على ذلك، وهنا قدم حمد لمحمد بن خلفان الوالي كتابًا إذا أتاك أخي أحمد احبسه وأودعه القيد، قبل أن يحبسك ويقيدك، فإذا فعلت ذلك قطعت طعمه منك وطعمه من مسقط، وأرسل به رسولاً عانياً، وأسر إليه بذلك.

فلما وصل أحمد مسقط حبسه الوالي وقيده في الجزيرة، وهرب أصحابه إلى أزكي وأخبروا سعيد الإمام بالواقع، فتأثر منه وعيل صبره، ورأى نفس الأحدوثة في الناس كبيرة، وقال لوالده: حمد هذا عاقبة رأيك الذي قلت لي به إنه الرأي السديد فأجابه حمد: أرى أن نمضي إلى مسقط بمقدار هين من الرجال قدر مائة رجل فقط، فننزل روي وأنا أمضي إلى مسقط، واجتمع بمحمد بن خلفان، وأخلص أخي من حبسه، ثم آتيك به فقال سعيد: أما تكفي الأولى عن الثانية، أي ربما حبسك أنت فتكون الرزية أعظم والجريمة أجل، وكأني به فاعل. وكان على وجهه لا يظن أن القضية هي عملية حمد، فعذله ابنه حمد قائلاً: دع

الوساوس وطاوعني في هذا الأمر، وألح على أبيه وأكثر له المقال، وأطال معه الجدال، والوالد الحنون يتلوى على الابن الثاني لمحبته له، لا يرضى أن يلحق بأخيه في الأسر والشماتة، وما زال حمد بأبيه حتى وافقه ومرجل غافل لا يظن في الولد خيرًا.

وكان حمد يحاذر أن لو وصل الإمام، وقبض مثلاً على الوالي أن يبين منه شيء دسائسه ضد أبيه وأخيه، فتنقلب الأمور عليه قبل أن يتمكن على الحصول من نتيجة العملية التي وضع خطتها، ورتب مجراها.

ولا شك أن المأخوذ غافل، والملك له ثمن، والنفس تتطلبه بما عز وهان لا سيما أولاد الرؤساء، فإن هذا أمر وضعه الله في الطبيعة البشرية من أول عهدها، وما زال التنافس عليه في العرب والعجم، ولولا ذلك لما احتاجت الأمم إلى التطاحن بالمدافع، ولما هلكت الجيوش العظيمة بذلك، وكم ممن قتل أباه على الملك فضلاً عن غيرهم، وعند هذا الحال كتب حمد إلى الوالي محمد بن خلفان يقول له: إذا وصلك كتابي هذا أجمع أهل مسقط ومطرح وخدامك وعسكرك، وانزل بهم في سيح الحرمل، وهذا السيح هو الذي تقع عليه الآن مطرح الكبرى، فإذا أبلغك عنا أننا نزلنا روي أبعث لنا رسولاً ومعه كتاب منك للوالد تقول فيه: إن كنت تريد إطلاق ولدك أحمد فليأتني ولدك حمد، وله الأمان مني، وامكث أنت ومن معك في روي، فإذا تقدمت إلينا فترا من روي تقدمنا إليك بخيلنا ورجلنا السلام.

وأرسل حمد بكتابه هذا رسولاً سريًا، فلما وصله هذا الكتاب جمع الوالي جموعه كما أمر حمد ليوهم سعيد بن الإمام القوة عليه، وكان المذكور غافلاً، والعملية تمشي في ظلام غفلته، فلما وصل الإمام سعيد روي، وأخبرهم العوام من الناس الذين لا علم لهم بظاهر الحال، وكان القابضون بسد روي وأهل البلد يخبرون سعيدًا وولده عن الجمع الذي جمعه الوالي، وأنه معسكر بسيح الحرمل بجيش ضخم.

فمكث سعيد ومن معه في روي، ومضى حمد إلى الوالي، ولما تصافحا وهش أحدهما صاحبه، والعملية بينهما لها مقامها، ولها أثرها وشكر محمد بن خلفان رعاية حمد له، وكان حمد ماكرًا بالرجلين معًا، ومحتالاً عليها، وتبادلا الحديث، وكل واحد منها يشكر الآخر على حسن الصنيع معه، والحيلة ماشية في نشاطها، فأمر حمد بإطلاق أخيه أحمد، وأنهما يرجعان معًا وأبيهما إلى الرستاق لإتمام البرنامج المخطط، وكن أنت يا محمد مكانك لا ينازعك في الملك منازع، وسوف أعود عليك بعد استقرارنا بالرستاق.

وحقيقة المعنى لأضعن والدي وأخي بالرستاق، وأصل أنا لسلخك من الحكم وقبض الأمر عنك، والظاهر أصلك لحسم الصلح بينك والوالد، فإنا لا نرضى لضياعك أنت ولا نرضى ما يريده الوالد فيك، وأنت حر اليقظ الذي قمت بالواجب، وأيدت الدولة، ولك عندنا مقام، ونحن معك لا مع الوالد الذي يريد هدم هذا البناء الشامخ والركن الباذخ.

ووضع لمحمد بن خلفان وضعًا نام عليه في وطاء مهيأ على حسب الظاهر وللرجال عوائل لها تأثيرها، وبعد رجوع الإمام سعيد وأولاده وخاصته إلى الرستاق تصور له أن مسقط خرجت من يده، وأن محمد بن خلفان عاض عليها بالنواجذ، ولعله عنده من يؤيده، وبالجملة استولى اليأس على الإمام المذكور من مسقط، وبقي حائرًا لا يعرف الطريق الموصل إلى حل هذه الأزمة الجاثمة على كاهل إمامته.

وبعد أيام قام حمد لأبيه قائلاً: ألك يا والدي حيلة على قبض محمد بن خلفان أو قبض ما في يده بغير حرب. فقال: لا، وماذا أفعل؟ وقد تمكن الرجل من الأمر وساعدته الأقدار، فجمع أموالاً وافرة واستجلب لتأييده أناسًا، وربما ساء ظنه في إخوته الذين عرفت منافستهم له سابقًا، وقد تبين منه العناد والرد للأمر، وهذا يعبر عمًّا هم عليه من المخالفة.

ثم قال لأبيه بعد ما تحقق عجزه: أرأيت إن عملت حيلة وأخرجت الأمر من يده، وتمكنت منه أتترك لي ذلك؟ قال: نعم قال: أتعاهدني على ذلك، وعلى أن تترك لي حصون عُمَان أدبرها بنفسي إلا حصن الرستاق، ولك على الطاعة والامتثال فيما يرضاه الله، فقال له: نعم، نظرًا؛ لأن أمر الولد لا يبعد عن يد الوالد، فأجابه على ذلك من غير تردد.

والظاهر أن هذا الحال لا يدل على عقل مميز ولا على وعي صحيح، قال حمد لأبيه: أنا أذهب إلى مسقط لتدبير الأمور، وإذا وصلك كتابي أدعوك فيه للوصول إلى مسقط، فأسرع الكرة ولا تتعرقل، وأقدم بمن معك من الرجال، ثم عزم الرجل على تنفيذ خطته، واصطحب معه قدر رجل، فجاء مسقط مباغتًا مع أنه كان قد مهد له طريقًا يسًا لا يخاف معه ولا يخشى.

ولما نزل الجزيرة، وكانت المناخ الصالح، فأجلس رجاله في مناخه، وذهب هو إلى بيت الوالي، فلما تلاقيا هو ووالد الوالي خلفان تصافحا وربما تعانقا، وبعد حديث ودي دار بينهما عاجلا منه، جئت لأصلح الشأن بينك والوالد، وبين الوالد وولدك محمد، ذلك هو أن يدفع ولدك محمد للوالد كذا وكذا من الدراهم سنويًا ولمحمد ما قضت يده من المعاقل لا ينازعه فيه منازع، فسر خلفان بذلك وأنعم له بذلك إنعامًا قلبيًا، وطلب حمد المقام بمسقط ثلاثة أيام، فأجابه البلاد بلادك فأقم بها ما شئت لا حرج عليك، وطلب أن يخلي له جانب من بيت النواب، فأخليا له ذلك وسبقت إليه الفرش والأواني؛ لأنهما رأياه أحسن إليهما الإحسان الكامل، حيث أعطاها ملك مسقط وتوابعها بعد ما كان المذكور واليًا أصبح حاكمًا.

وفي الليلة الثانية خرج عندما تمكن الليل وهبط الظلام على الأرض، وحمل معه شيئًا من النقود، ومعه خمسون رجلاً من قومه، وسار توا إلى الحصن الشرقي، فلما كان بالباب الأول من الحصن نادى بأعلى صوته صبيح الضوياني أمير

عسكر الحصن، فأتاه ففتح الباب وأدخل حمد الحصن هو ومن معه من الرجال، فلما رأى حمد أنه تكمن من الحصن، قال للضوياني المذكور: لقد كفرت النعمة التي أنعم بها عليك أبي أيام مقامك معه بالرستاق، فصرت لنا بعدما أنعمنا عليك عدوًا أزرق، ما حملك على ذلك؟ وكان الضوياني يعهد أن حمدًا والوالي على حال اتحاد، فلذلك أدخله الحصن؛ ولكنه عن أن الدخول في مثل هذا الوقت فيه ما فيه، ثم قال حمد للضوياني: والدي أرسل لك هذا المال، وأمرني أن أقعد معك برجالي حتى يأتي هو إلى مسقط، وأمرني أن أبلغك أن تعصي أمر محمد بن خلفان فإنه عاملنا فلا تطعه في كل شيء. من الأمور فإذا جاء إلى هنا أن ترده خاسئًا أو تطلق عليه النار هو أو أحد من رجاله.

فامتثل الضوياني أمر حمد، وأخذ المال وأعطى الشراع وجهة الريح لا سيما رأى أنه مغلوب على الأمر، ومقهور في حصنه، فلما رأى حمد تحقق أمر الحصن، هبط وأبقى أصحابه الخمسين رجلاً في الحصن، ثم توجه إلى الحصن الغربي، وكانت العملية هي نفسها وكان التعارف بينه والبارحي منذ مدة قد تقرر ففتح الباب، ودخل حمد ومعه الخمسون من رجاله، وأفاد البارحي أن الملك لكم وأن محمد بن خلفان عاملكم ولا مانع لدينا، ويا بواب افتح لا سيما حين علم أن الحصن الشرقي الآن في يد حمد، وأن رجاله فيه، وأن الضوياني سلم الأمر له، فقال له، فقال حمد لمسعود نفس ما قال للضوياني، فإن أتاك هو أو أحد من رجاله أطلق عليه الرصاص.

ولما تمكن من وضع عمليته هنا هبط أيضًا وقد نال ما طلب، وقد أنفذ خطته كاملة كما أرادها، وكان ذلك كله في نفس الليلة المشار إليها، وخرج حمد منهيًا عمليته في الحصنين، يريد الحصن الشرقي وإذا بماجد بن خلفان أخي محمد بن خلفان في الطريق وكان متخفيًا فظنه حمد بن سعيد، فجاء إلى أبيه قائلاً: إن حمد بن سعيد راح إلى الحصن الشرقي، وقد احتال عليك ووضع برنامجًا عنده

للاحتيال، فغالطه أبوه بأن حمدًا عندي أسراره وإلي يلقى ما عنده، فلا تظن الأمر غير ما عندي، فقال له: اذهب إلى مناخه في بيت النواب، فإن وجدته ووجدت أصحابه معه فالغلط مني، فسارا معًا وإذا بالمكان خالي إلا الفراش فقط والأثاث فعلم محمد بن خلفان أن المكيدة قد انتهت من حمد، وأن تلك المراسلات كلها خداع، فانتظر محمد بن خلفان طلوع الشمس، وإذ ذاك تجهز في خدمه وحشمه، وسار يريد الحصن، فلما دنى منه أطلق عليهم الرصاص ثم رجعوا إلى الحصن الغربي فكان الأمر كذلك.

وبذلك سقط في يد محمد بن خلفان هذا، وعلم أن الأمر انتهى لحمد، فرجع إلى بيته يفكر في الحادث على هذا الوضع، وماذا يكون بعده وعند ذلك أرسل حمد إلى أبيه بالثورة عاجلاً، فجاء أبوه بقوته العاجلة حتى دخل مسقط ولا منافس له ولا منازع وإذ ذاك أطلقت من الحصنين والسفن الراسية في الميناء، ونشرت الأعلام المخبرة عن الواقع وهبط حمد لمقابلة والده، وأرسل إلى محمد بن خلفان أن يحضر، فحضر الكل في بيت الجزيرة.

ولما استقر بهم الجلوس قال حمد بن سعيد لمحمد بن خلفان: قد عزلناك عن الولاية، وسامحناك عمّا سبق منك من الإساءة والاجتراء علينا فلك الأمان منا، فمضى محمد بن خلفان وإخوته وأبوهم معًا إلى بيتهم، ثم بعث حمد إلى سليمان بن خلفان بن محمد، فولاه مسقط وقد قبضها حمد فعلقها عن خلفان وأولاده بعيدة بوضع رجاله في الحصنين، وتولاها عن الوكيل وأبيه.

والحقيقة أن هذه العملية كان المقصود بها والده سعيد، وهو الذي رفع قدر محمد بن خلفان إلى المحل الذي رمى به منه؛ لأنه لم يكن عمرو بن العاص، وإنما كان أبا موسى الأشعري، ومكث سعيد بن الإمام أحمد في مسقط ثلاثة أيام، ثم عاد إلى الرستاق، وقد علم أن أمر ملك عُمَان بيد ولده حمد، وأنه هو تحت مراحم حمد المذكور، فكانت الرستاق وطن سعيد بن الإمام لا يخرج منا إلا

لغرض خاص، ثم يعود إليها وبقي حمد وهو السيد المطاع، والملك المتبع، فأصبح له الحل والعقد في عُمَان كلها، وجاءته القبائل خاضعة ومسلمة إذ كانت معه في عهد ملك أبيه كما قدمنا، وسار سيرة حمده المسلمون فيها، وعدل في الناس وكان كريمًا مطلق اليد، وأحسن إلى الكثير من الناس، وكان على حال يرغب فيه المسلمون من حسن الرعاية كما سبق الإشارة عنه.

قال ابن رزيق: فكان من جملة خاصته من أهل العلم والورع، الشيخ القاضي مبارك بن عبد الله النزوي، والشيخ سليمان بن ناصر المهللي، والشيخ أحمد بن ناصر الحراصي، والشيخ خميس بن سالم الهاشمي، والشيخ فضل بن سيف اليحمدي، وغيرهم من أهل العلم والورع والفضل، وجعل مسقط وطنه الخاص.

* * *

الحرب بين المعاول وأهل نخل

في أيام حمد المذكور، قامت حرب بين أهل نخل والمعاول، سببها ثورة أهل نخل على حجرة الجناة التي لآل مهلل على رؤوس أفلاج أهل نخل، وكان بناء تلك الحجرة مراغمة لأهل نخل بمساعدة من السلطان سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد أيام احتلال نخل وفي هذه الأثناء وجد أهل نخل متنفسًا لهم، فثاروا على الحجرة المذكورة ثورة موحدة فقضوا عليها، قتل فيهل من قتل من الطرفين، ولكن انتصر فيها أهل نخل.

وعند ذلك قام المعاول مناصرين لآل مهلل، إذ هم من أهل عصبتهم، ولم تزل الحرب في اشتعال، وسعيد الذي هو السلطان أصبح سلطانه إلى ولده حمد. وكان المذكور متعصبًا لآهل مهلل، ولعله يرى تلك الثورة مخالفة، وأنها لم تكن عن اتفاق.

قال ابن رزيق: الذي هو المعنى بهذه الحوادث: ولما اشتدت الحرب بين المعاول وأهل نخل من قبل هدم أهل نخل لحجرة الجناة التي لأولاد مهلل، أعان

حمد المعاول على حرب أهل نخل بالمال والرجال.

قلت: ما كان ينبغي من الحاكم الذي هو الرئيس العام، أن يعين فريقًا على آخر أو طائفة على الأخرى، بل عليه أن يقوم لإطفاء الفتن وردع المثيرين لها، اللهم إلا إن لم يكن قادرًا على الإنصاف، وتحقق عجزه.

قال ابن رزيق: أخبرني غير واحد أن حمد بن الإمام سعيد حشد أيام حربه لنخل من أعراب جعلان، وهم بنو بحسن وحلفاؤهم، وأضاف إليهم أعراب الساحل، وأهل الرستاق وغيرهم من الحضر، قال: فركض بهم على نخل ومعهم رجال المعاول قال: فانكشف جيشه.

قلت: لعل في الجيش خيانة وإلا فنخل يكفيها المعاول إن كان القيام على الحق، اللهم أن يكون مع أهل نخل تعصبات من أناس آخرين، وهذا من الغلط الذي يقع فيه كثير من الحكام الذين لا يبالون بإخلال أحوال المنصب العام، الذي يستدعي أن يكون الحاكم الميزان العدل في الأمة.

قال ابن رزيق: ثم رأى أي حمد الصلاح في إصلاح شأنهم، أي بعد ما انكشف جيشه وتحققت، راح إلى بركا. قال: فاستدعى مشايخ الجبور الذين في بركا والنوافل فأرسلهم إلى والي نخل ليأتوه به لإتمام الصلح، وكان الوالي المذكور مهنا بن محمد بن سليمان اليعربي، الذي ما زال في نخل منذ الإمام أحمد بن سعيد: فقام المشايخ المذكورون بما كلفوا وكتبوا للوالي المذكور، فلبى دعوتهم بمن معه، وجاء على طريق الطو تفاديًا من لقاء المعاول، وليكون أهل الطو العضد له، ولعل المشايخ المرسلين إليه كروا قاصدين إليه، فالتقوا بعقبة الطو، وكانوا جمعًا كبيرًا فتوجه الكل إلى بركا، فلما تقابلوا عند حمد، تمم الصلح بينهم ولم يبينوا حقيقة الصلح على أي صفة كان، ولعله على هدم ما وقع.

قال ابن رزيق: واستفتى -أي حمد- أهل العلم في حربه لنخل. قال: وزعم أن حربه لهم لرأي رآه استحقوا به الحرب، قال: فلم يلزموه الضمان، أي لأنه

كان مستحلاً لحربهم، قال: فتاب عما كان منه، أي ليس عليه إلا التوبة، وهو المفروض على المستحل إذ رأى هو أو رأى من يعتمد عليه من أهل العلم خطأه في حربه، والمرجع إلى الله.

قال: فضرب الطبل في حصن بركا بالأمان على أهل نخل، وقال حمد لمهنا الوالي: ارجع إلى نخل فإني سآتيك، أي لإتمام الصفا وإعلان الوفا، ثم جاءه حمد المذكور لإصلاح الشأن بين الوالي عن أهل نخل والمعاول من الشق الثاني، وجمع حمد الكل لإصلاح الشأن، وقابلهم مهنا الوالي بنخل بما يليق إذ استضاف الكل، ثم عاد حمد أيضًا إلى نخل بصفة ودية بينه والوالي؛ لتدعيم العلاقة في المستقبل، ودخل الحصن عند صلاة الفجر، والتقى بالوالي وصليا معًا. وقعدا يقرأن القرآن حتى طلوع الشمس.

وكان حمد المذكور وصل نخل مفردًا فقط، ثم تواصل أصحابه عند الضحى مبلغ ألف رجل.

هذا خلاصة ما في المقام مع ترك إطالة الحكاية عنهم، حيث نوخوا، وحيث يتناجون، وماذا قال أحد الزعمين للآخر إلى الآخر لابن رزيق مما يشبه أقصوصة ألف ليلة وليلة.

* * *

أعمال حمد بن سعيد أيام دولته

قال ابن رزيق، وهو يصف أعمال حمد بن الإمام سعيد قال: بني برجا على مكلا مسقط، أي ثغر البحر عند المدخل إلى ميناء مسقط، فقال مصحح ابن رزيق، يصف المكلا: جمهورية اليمن الجنوبية، ولم يعلم المكلا الذي يعنيه ابن رزيق، فذهب بسهوه إلى البلد المعروف بهذا الاسم في اليمن، ولم يسبق لهذه البلدة أو المنطقة ذكر في تاريخ عُمَان، فهذا ليس من التصحيح؛ لكن من البلية إسناد الأمر إلى غير أهله، وكم مثل هذا.

قال ابن رزيق: وأودعه- أي برج المكلا- مدافع كبارًا، أي لأنه في وجه الداخل لثغر مسقط، قال: وبني قلعة نزوى، وهي المعروفة حتى الآن، وبني قلعة بحصن بركا، وأدخل فيها المدافع الضخمة التي تليق للدفاع في ذلك العصر، قال: وأمر بصنع باخرة حربية في زنجبار، وهو الذي سموه الرحماني، وكان مركبًا ضخمًا بديع الصنعة، غريب الشكل، يحمل ثقلاً كبيرًا اشتهر في دولة آل بوسعيد، واستقضى في بركا الشيخ سالم بن محمد المعروف بأبي الأحول البلحسني الأزكوي الشاعر الأديب، وأحسن إليه كما ينبغي وعلى كل حال أن الإحسان في أهله شبه الواجب، بل مما تحمد عقباه.

ويسجل التاريخ لصاحبه الثناء الحسن الجميل، ويبقى أحدوثة حسنة طيلة الدهر، من ذلك أنه أمر ببناء بيت خارج سور بركا، ولما كمل بناؤه ساق إليه التمر والأرز والسكر والأواني اللازمة، حتى الصناديق المعتاد استعمالها والفرش التي يستدعيها الحال، ثم أرسل إلى أهل الشيخ للوصول إلى بركا على اسم الشيخ بحصن بركا قائمًا بأعمال القضاء فلما وصل أهل الشيخ بركا، وكانوا ظنوا أن سالم مريض، فاستدعى وصولهم إليه أمر حامليهم أن ينزلونهم في ذلك البيت، وأمر أن يخبروا أن البيت بيتهم، وأن كل ما فيه لهم، قال له: إن هذا البيت لك، وكل ما فيه هو لك، وإن أهلك الذين خلفتهم وراءك هم الآن في البيت، فلما دخل الشيخ البيت عجب من الحال الواقع، حيث وجد البيت مملوءا من المال على اختلاف الأنواع، فحمد الشيخ الله، وشكر الأمير حمد شكرًا من عميق شعوره، وفيه قال تلك القصيدة الرائقة التي يقول في مطلعها:

ما بين بابي عين سعنة واليمن ... سوق تباع به القلوب بلا ثمن

ومشى فيها يتغزل ويشبب إلى أن قال متخلصًا:

لا زلت مقتصرًا عليه كما غدا ... مولاي مقتصرًا على فعل الحسن

حمد الذي حُمدت جميع خلاله ... فحلت به للخلق أخلاق الزمن

وذهب يمدحه مدحًا يعبر عن الواقع من المذكور، لا عن صفات مستعارة أو مختلفة، وعلى كل حال إن اللها تفتح اللها، وتنطق العي حتى يظن أنه من الفصحاء أهل النهى.

ولما شاع صيته، وتحدث عنه الناس تأثر من حديثهم عمه سلطان، وخاف منه أيضًا عمه سيف بن الإمام أحمد لمقدمات جرت بين سيف وأخيه سعيد والد حمد، حيث قيده هو وأخوه سلطان، وحلاه إلى كوت مسكد كما علمت ذلك مما سبق، وأن الخادم ابن منح أخرجه من الكوت والمدفع يدوي في جبال مسقط، ووالده في بيت الجزيرة، لهذا ولما بقي في النفوس خرج سيف المذكور إلى لاموه من أفريقيا الشرقية من أرض الزنج، وإذ ذاك خاف حمد من عمه سيف ما يريد أن يصنع في تلك الأرض وهي مستعمرة عُمَانية.

ولما وصل وجد عمه سيف ميتًا، فرجع إلى عُمَان وبقي عمه سلطان، وكل واحد منهما يخشى بأس الآخر، وكان سلطان وسيف متوالين وهما شقيقان، فعد سلطان مسير حمد إلى لاموه ضغينة وحرجًا كبيرًا، حيث إن سيف ترك حمدًا لا يعارضه في أمر عُمَان، وأضمر له العداوة، فجاء سلطان إلى نزارية وادي سمائل كما يقول بن رزيق، وطلب منهم المناصرة على حرب حمد بن سعيد المذكور ابن أخيه، فعاهدوه على المناصرة، فأول شيء عمله اقتحم على حصن سمائل فتولاه، وطرد منه عمال حمد، وكان دخولهم له من جهة السوق، ثم خرجوا منه، حيث طردهم البرج المربع منه، فلم يقر قرارهم فيه، وعند ذلك زحف سرحان بن سليمان الجابري السرحاني على عوامر سيجا، وكانوا من أنصار حمد متحصنين في حجرتهم فاحتلها منهم وشرد بهم، فغضب حمد على بني جابر وتأصلت عداوته لعمه سلطان، فجاء بجيش ضخم، ولما وصل لم يجد من يكون معه لما جاء به، ووقعت الخيانة في الجيش فتعللوا له بعلل رآها ترده على ورائه، فرخص الجيش كله، وتوجه هو

إلى مسقط، ولم يعول على شيء في وادي سمائل، وأعرض عن حرب بني جابر إذ رأى في قومه ما لا يرغب فيه وللناس أنظار.

ثم رجع حمد إلى مسقط إلى الرستاق ليتفاهم مع أبيه فيما هو بصدده، ولما علم سلطان بتوجهه إلى الرستاق هاجم سلطان مطرح بقومه من وادي سمائل، فدخل عليها من عقبة مراخ شرقي الوطية، فنهبوها وحملوا أموالاً طائلة، ثم ضرب معسكره بدار سيت شمالي بيت الفلج، وإذ ذاك جاءه والي مسقط سليمان بن خلفان بن محمد الوكيل القائم بها من طرف حمد بن سعيد، وعنده جمع من خدام وأحرار وعساكر مسقط ومطرح، فكان جمعًا كبيرًا فالتقاهم سلطان بمن معه من نزارية وادي سمائل، يعني الغافرية على رأس عقبة دار سيت فانهزم الوالي وجيشه، ووقع فيهم قتل كثير، وجراح أكثر أثخنهم، ورجع عنهم سلطان وجنده من جبروه، وبقوا في دار سيت، ولم يقدر الوالي أن يعود عليهم مرة أخرى، ثم عاد سلطان إلى وادي سمائل، وضاق حمد بسلطان ذرعًا وأهمه أمره كثيرًا، وبعد عهد غير طويل تواقف كل واحد منهما عن صاحبه.

وفي هذا الحال غزا حمد أهل وادي السحتن، فهدم بروجهم وقهر قوتهم، ثم توجه لمسقط وأقام بها أيامًا، ثم توجه إلى نزوى وحشد الحشود من قبائل الداخلية فهاجم بهلى إذ كانت في راشد بن مالك العبري من أهل العراقي، وما كان مع راشد المذكور من الرجال المعول عليهم إلا قدر سبعة رجال، وكان بينه وبين بني كلبان عداوة، وهم الذين أثاروا حمد على حرب بهلى، ولم يشعر بهم إلا وهم محيطون بالحصن وما زال راشد بن مالك يهوى عليهم هوي الأسد الضاري حتى كاد أن يخرجهم من البلد، فضلاً عن الحصن؛ ولكن القدر قضى عليه فقتل بعد أن هاجمهم سبع مرات بأولئك الرجال السبعة، فقتل المذكور وقتل معه رجل يعرف بالشمار، وبقتله سلم الحصن لحمد وتولاه، فولى عليه بني هناءة.

ثم رجع يريد مسقط، ونجح حمد في حرب بهلى؛ ولكن لم تكن في صالح بني

كلبان، إلا أن بني كلبان كان نصيبهم منها شفوا غيظهم من راشد العبري، وقد ذكر شكيب أرسلان أعمال حمد في عُمَان وفي أفريقيا بموجز من الكلام، كما تراه في العليق والبسط في بعض الأحوال يقتضيه الحال؛ ولكن ابن رزيق يدون القضايا بحسب معرفته، ويضعها بلغته، ولا يميز بين القبائل بأنسابها، وإن ذكر القضايا بأسبابها، ثم جاء المصحح فزاد الطين بلة، إذ كان لا يعرف المصطلحات العُمَانية فيأخذها كما يفهمها، وكان واجب المؤرخ أن يدرس أولاً المصطلحات، وليس له أن يحكم في قضية قبل العلم بتحقيقها.

قال ابن رزيق: وكان حمد يجل عمه سلطان إلى حد بعيد، كما أن سلطان كذلك كما سوف تراه في كلام الإمام السالمي. قال ابن رزيق: وكان حمد مع عظم هيبته التي سرت في عُمَان وغيرها، إذا ذكر عمه سلطان يقول لما أظن أحدًا من الملوك أهل القوة والبأس، إلا دون سلطان. قال: وإذا ذكر سلطان حمدًا قال: لا نظير لحمد في الهيبة والبأس.

وكان مما حكاه ابن رزيق من اهتمام يرويه عن القاضي سعيد بن أحمد بن سعيد اليحمدي: وكان كثير الملازمة للشيخ فضل بن سيف اليحمدي، وهو كثير الملازمة لحمد بن الإمام سعيد، وذات يوم خرج معه من مسقط إلى بركا، ووصل سلطان نعُمَان قبل وصولهم، وكان سلطان يعالج حمدًا؛ ليقبض عليه، ومع ذلك لما قضوا صلاة الفجر قاموا لقراءة القرآن كما هي العادة معهم، فاعتزل حمد في جهة خاصة، وظل يفكر في هيئة المهموم، وبعد الفراغ قال له فضل اليحمدي: أسألك بالله ما هذا الفكر الذي أنت فيه؟ قال: أتفكر في ثلاثة أشياء لا طيب للعيش إلا بها، فقال له فضل بن سيف ما هي؟

فقال: أولاً: ممباسة فإن حصنها قوى وحصولها كالمتعذر، وحلفاء بني مزروع الونيكة، وهم قوم كثيرو العدد، وقد تحالفوا مع المزاريع على المناصرة.

وأما الثانية: فبمبي الهند فهي بلدة كثيرة العدد شديدة العدة. وأما الثالثة:

وسكت قليلاً ثم قال: أعظم شأنًا من الحالتين، وهي الرجل الواصل إلى نعُمَان قبل وصولنا، ويعني به عمه سلطان. فجعله أهم من حرب مماسة في عددها وعصبيتها، وأهم من بمباي الهندية في قوتها، فقال له فضل: هو همك وما معه أكثر من اثني عشر رجلاً، قال: هو أعظم من أمر مماسة وبمباري شأنا عندي، ثم أمر بالمسير إليه، فقربت الخيل والركاب، ثم توجه إليه في جمع كبير، وفي أثناء الطريق إذا هم بسلطان ومعه الاثنا عشر رجلاً أصحابه، ولما رآهم سلطان ترجل إلى الأرض وترجل أصحابه أيضًا للقاء حمد بن سعيد، وجعل يمشي وخطام ناقته في يده، فابتدأه حمد بالسلام، وهو على ظهر جواده، ولم ينزل كما نزل عمه والجند محيطون به، فقال: يا عم تفضل معنا للضيافة، فأجابه سلطان أنت تفضل معنا ومن معك لتقيل في نعُمَان، فأجابه بالوفاق وذهب معه إلى نعُمَان، فقال معه على ضيافته، وبقى معه إلى الظهر، ثم رجع حمد وسلطان عمه معه مشيع له إلى أخريات الطريق ثم رجع سلطان إلى حصن نعُمَان، فسأل فضل بن سيف حمدًا في اليوم الثاني: واجهك عمك سلطان وهو يمشي ويقود ناقته تعظيمًا لك وأنت لم تنزل من على ظهر حصانك وهو والدك فإن العم بمنزلة الوالد؟ فأجابه حمد: إني والله لعلى ظهر حصاني، وعمي راجل ونفسي ما تحدثني بالسلامة. فقال له فضل: كيف تخافه والجنود والعساكر من حولك؟ فقال: لو أن سلطانًا عمي سل سيفه النجم- وهو اسم السيف- لما بقى معي أحدا أبدًا.

وقال آل وهيبة لسلطان وأكثروا عليه: إن حمدًا ليس لك بكفوء حتى تترك الملك في يده، وأنت قادر على نزعه منه، فنحن علينا أن نترصد له إذا خرج من بركا قاصدًا مسقط، فنبيته ونهجع عليه وأصحابه ليلاً، وبحول الله لنفرقهم عنه يمينًا وشمالاً حتى تقبض حمدًا بيدك. وتودعه القيد.

فقال لهم سلطان: دعوا عنكم هذا الكلام، فإن حمدًا ليس ممن يقبض باليد فلا تتحدثوا بهذا وما زالوا به على هذا الحال حتى خرج حمد من بركا يريد مسقط

فجاءوا إلى سلطان وأخبروه وأنهم بيتوه في روي، وأنهضوا سلطانًا لهذا الصدد، وكان سلطان يحاول هذا الأمر من حمد؛ لكن بصفة غير محرجة، وخرج سلطان بآل وهيبة وباتوا بالقرب من مبيت حمد، فحرك آل وهيبة سلطانًا للهجوم في وسط الليل، ولم يتحرك، ولما أصبح توجه إلى حمد، ولما أصبح توجه إلى حمد، ولم يكن حمد يعلم عن سلطان شيئًا حتى رآه مقبلاً إليه بصحبه، فأخذ إبريقًا في يد أحد خدامه وتوضأ وصلى ركعتين، وبعد ذلك أرسل إلى عمه وكان قريبًا منه ينتظر فراغه من الصلاة فلما تصافحا قال لعمه سلطان: أعلم ما جئت له، وهذا لا يحسن بك ولا يليق منك، وأنا الآن بين يديك، فافعل ما بدالك، فقال سلطان: لا يا حمد لا تظن هذا الظن، وأنت ولدي وما في يدك في يدي ولا يهم الأمر فكن مطمئنًا.

فافترقا وشيع سلطان حمدًا إلى المطرح، وأمر له بعطاء وافر، ورجع سلطان إلى سمائل، فقال آل وهيبة: كيف أفلت الرجل وقد تهيأت لك الفرصة ولم يكن عند حمد من السلاح إلا خنجره فقط؟ فقال لهم: هبته وما كان بسلطان وهن ولا روع ولا جبن؛ ولكن هيبة حمد حالت بينه وبين سلطان وقصده.

وقال السالمي رحمه الله، وهو يتحدث عن حمد وسلطان، قال: حدثني من أثق به من أولاد الإمام أنه كان لسعيد بن الإمام أحمد ابن سعيد ولد يقال له حمد، كان قد طلع حسنة وثار ثورة مباركة، فكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر في أيام والده وكان أبوه بالرستاق، وكان هو ببركا، وكان يطوف بقومه على عُمَان باطنة وظاهرة، ثم يأتي الجوف والشرقية يصنع ذلك في السنة مرتين يتفقد الممالك والرعايا، وحصلت له في القلوب هيبة ومحبة.

قال: فدخل على أبيه يومًا وكان قد جاء من سفر وأبوه بالرستاق، وكان بارزًا في غرفة الصلاة، وكان قد تحزم بدَيوِلْي بفتح الدال المهملة وياء تحتانية ساكنة وواو مكسورة ولام مكسورة أيضًا بعدها ياء ساكنة رداء يعمل من الإبريسم والزرى، قال: فقام له أبوه ليحييه.

فلما رأى حمد لباس أبيه لم يتمالك أن تناول الديولى من حزام أبيه فجذبه إنكارًا لما رأى أبوه بذلك دورين أو ثلاثة، أي جذبه بعنف وغضب.

قلت: أساء فيما فعل، وقد أمره الله أن يحسن السيرة مع والديه، وأن يصاحبهما معروفًا ويقول له الله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] فكيف بمن يجذب والده حتى يدور دورين أو ثلاثة في حضرة الناس؟! إنها لسيئات يقع فيها أمثال هؤلاء الناس.

قال الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان عمه سلطان أي عم حمد المذكور عند آل وهيبة في سيوحهم الحدرية، ساكنًا معهم أي كان يحب البداوة لصحتها وما فيها من الفراغ وتجميم القلوب. قال: وكان همه وعزمه هم الملوك وعزمهم، فأخذ يومًا سبعين راكبًا وقصد بركا ليقتل ابن أخيه خوفًا على الملك أن يستولى عليه دونه، فلما وصل بركا وافق حمدًا خارجًا في البلاد على فرسه ومعه فارسان، أو قال ثلاثة، فتلقى حمد عمه بالترحيب ونزل عن فرسه وحياه، ثم ركب فرسه وقال: أنا قدامكم، ومضى إلى الحصن مسرعًا، فقال أصحاب سلطان كيف أفلت الرجل وقد عزمت على قتله؟ ولا تجد له فرصة مثل هذه؟ فقال: إني هبته

قال الإمام: وما كان بسلطان من وهن في باب الرجال، غير أن الأقران تعترف للأقران، قال: ثم أناخ على الكرامة وترخص ومضى، فما لبث حمد ذلك إلا قليلاً من الزمان، ثم توفى ورثاه أبوه بأبيات قال فيها:

وافى حمامك يا حبيبي بالعجل نار تلهب في ضميري تشتعل

إلى آخر الأبيات، ونسى الأب الحنون أخذ حمد الملك عنه وتركه في الرستاق، ونسى حين جذبه من حزامه الديولى جذبة دار معها ثلاث دورات في غرفة الصلاة بحصن الرستاق في ملأ من الناس؛ لكن شفقة الوالد وعطفه على الأولاد أمر غير مخفي.

* * *

المحل يحل على عُمَان في عهد حمد بن سعيد

أصاب المحل عُمَان في عهد حمد بن سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد، فاجتاح أكثر النخل وقضى على المزارع، وخرج أهل عُمَان أثر ذلك يلتمسون العيش في الباطنة حتى كادت تضيق بهم: وبلغ في عُمَان مبلغًا حتى بيع دلو الماء في مسقط بعشرة فلوس، حتى تأثر منه الكثير في عُمَان، ولعل أفلاجًا ييست منه ابتلاء من الله لعباده.

فخرج حمد بهم للاستسقاء في مسقط ثلاث مرات في ثلاثة أيام كل يوم بواد من أوديتها، فأجاب الله ﷻ دعوتهم، وأفاض عليهم غيثًا مدرارًا، وأرسل لهم سحائب غزارًا والله أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، لا يتعاظمه ذنب عباده إذا رجعوا إليه وكان حمد المذكور ملازمًا للصلاة في الجماعة ودراسة القرآن، ونوافل الصلاة كالضحى والإشراق، وكان رجلاً مهابًا وله همة عالية في أولاد الإمام للقيام بأمر الملك ورعاية الأمة، وبذلك أحبه الناس، ولكرمه الذي عرف به، فإنه كان كريمًا، وقبل موته جمع جيشًا أرعن جعل مخيمه في بركا وهو بنفسه في مسقط.

فلما اجتمع الجيش كما أراد في عدته وعدده، ولم يعلم أحد ماذا يريد بهذا الجمع الكبير، بل ظن صاحب الحزم أنه يريده، وظن عمه قيس بن الإمام أنه يريده في صحار، إذ كانت صحار إذ ذاك في يده، وظن آخرون أنه يريد حرب ممباسة؛ لأنهم كانوا يسمعون منه حديثًا عنها وظن كل فريق جهة، ثم خرج مسقط إلى سيح الحرمل قاصدًا بركا فأصيب بالحمى، فرجع إلى مسقط فاشتدت الحمى به، وظهر عليه جدري كثير، فكتب إلى أبيه بالوصول إليه في مسقط

وفي هذه الأثناء قدر الله حرق المركب الرحماني أم مراكبه، ولما بلغه ذلك زاد مرضه، ثم توفي ببيت الجزيرة من مسقط ليلة الجمعة ثامن شهر رجب سنة ١٢٠٦هـ، ودفن وقت الضحى في ظهر الوادي الأوسط من مسقط قريبًا من

قبري الشيخين الشقصي، والشيخ الصبحي، وجعل أبوه مكانه أخاه أحمد بن سعيد الذي سماه باسم جده الإمام أحمد بن سعيد، وولى على بركا علي بن هلال بن أحمد الإمام، ومضى هو إلى رستاقه مقتنعًا بها والحقيقة أن الرستاق عاصمة مهمة لها شأنها في عُمَان.

* * *

سعيد بن الإمام أحمد والعبريين

لا يخفى أن أحمد بن سعيد توفي سنة ١١٩٦هـ ، وقام بالأمر بعده ابنه المحبوب سعيد، ولم يحسن إدارة المملكة ولم يرضه أهل عُمَان، ورأى ابنه حمد أن الأمر إذا تلاشى ستكون عاقبته غير محمودة، فقام حمد بعد مضي ثلاث سنين منذ تولى أبوه الأمر واحتال على الملك كما تقدم. فتولاه وأداره بمهارة وسار فيه سيرة غير سيئة، وقام بواجبه حتى توفي في سنة ١٢٠٦هـ، وسعيد بن الإمام موجود على قيد الحياة.

وكان أمر الملك راجعًا إليه، وما زال هو والعبريون على طرفي نقيض حينًا يقوم عليهم، وآنا يصالحهم، وأحيانًا يزحف عليهم بجيوشه فينالون منه أكثر مما ينال منهم.

قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ حاكيًا عن الشيخ ناصر بن جاعد رحمهما الله: إن السلطان سعيد بن الإمام قال مال إلى نسف الهناوية، وتنكرت عليه الغافرية، قال: ومن جملة من خالفه العبريون ورئيسهم يومئذ الشيخ سالم بن مسعود، قال أبو نبهان: فكم مرة جاء إلى بلدهم الحمراء بجيوش كثيرة، وأعداد وفيرة، ولم يقدروا أن يشربوا منها ماء.

قال: ويخرج لقتالهم أناس قلة، قال: وفي مرات لم يعم الجميع بهم فيبادرهم أناس قليلون من الخمسة عشر رجلاً أو يزيدون قليلاً أو أقل، وفيهم كبيرهم هذا، أي سالم بن مسعود، فيقتلون فيهم ويولون الأدبار، والقتل فيهم وأهل البلد في

هيئة البراز لهم، وذلك إذا كان مجيئهم على غفلة منهم. قال: فلما لم يقدر عليهم صالحهم وأعطاهم العهود والمواثيق بالأمان عليهم جميعًا.

قلت: وهذا يدل على تكرار الحال بينه وإياهم، قال: وقرب أخا الشيخ سالم بن مسعود وأعطاه عطايا وافرة، والقصد أن يكون ضدًا لأخيه الشيخ سالم، وبني بينه وإياهم صداقة، ووعدهم بالزيارة تأكيدًا للصحبة وتدعيمًا للصداقة وتمام الألفة بينه وإياهم، وجاءهم بجيش كبير وجحفل ضخم.

وكان من سياسته أن ترك معظم الجيش وراء الحورة حتى لا تشمئز نفوسهم، ودخل البلد بأناس قلة ونزل البلد، فقابله العبريون بما يجب في حقه، وما يلين بهم في حق الضيف الكبير، وهم معروفون بالكرم.

قال الإمام: فذبحوا له للضيافة وعظموا الكرامة وقعد معهم آمنا منهم وهم آمنون منه، ولما حضر أكابر البلد وكانت نيته أن يقبض الأكابر ويهلكهم، فما كان غير قليل إلا ورأى العبريون أن جيشًا أحاط بهم، فظنوا أن وصول هذا الجيش لم يكن عن أمره ولم يكن عن علمه، وإنما هو عملاً بالعادة أن سلطان تتبعه الناس أين حل وأن رحل، ولا سيما في المهمات التي تلم بهم، فما شعر العبريون إلا والسيف على رءوسهم مسلولة عليهم، وأحاطت بهم الرجال من كل جانب، فقتلوا أولاً أخا الشيخ بن مسعود، وعند ذلك ثار ثائر العبريين أولاد حكم الصايح كما يقولون، ودارت المعركة بين الطرفين، وكانت بسالة العبريين معروفة، وشجاعتهم موصوفة.

قال الإمام: وكانوا يفرقون منهم لشهرتهم بشدة البأس، وقلة المبالاة بالموت وعدم روعتهم في الحرب، قال: فانهزم القوم وولوا الأدبار والقتل فيهم ممن حضر الشيخ لا غير، قال: ولم يعلم بهم من في البلد إلا والقوم قد خرجوا من البلد فبعدوا عنهم، واستمر الحال بين السلطان سعيد بن أحمد والعبريين عهدًا، فلما تولى الأمر ولده حمد لم يذكر عنه من هذا القبيل شيء، وإن هذه الأحوال وما

كان من نوعها أورث سعيد بن الإمام أحمد بغضًا في قلوب أهل عُمَان.

ولا شك أن سوء العمل وسوء التصرف في الأمور يورث صاحبه الخذلان.

* * *

قيام الشيخ أبي نبهان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لا يخفى أن الشيخ أبا نبهان كان من خيرة أهل العلم، ومن أفضل أهل زمانه، ولعله لا يماثله أحد هدى وتقوى وعلمًا، وآتاه الله جاهًا ووسع الله له الثروة فكان من أغنياء زمانه، وآتاه الله ذرية مباركة، فكان في أولاد الرجال الذين يشار إليهم بالبنان كالشيخ ناصر، الشيخ خميس، ولم تزل ذرية هذا الشيخ تتوالى على نهج الفضل، وما زال أهل العلم يخرجون منها حتى في عهدنا هذا.

ولكن لم يكن من صددنا الآن ذكرهم أفرادًا، وإنما المقام مقام الشيخ العلم الهمام جاعد بن خميس أصبح في عهده كعبة القصاد لمختلف المآرب الدينية والدنيوية، ولما كان كذلك رأى من الواجب القيام للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حد المستطاع، وكان أهل نزوى ظهر فيهم السفه وأخذت بهم النفوس الدنيئة إلى الأحوال المسترذلة، فخرجوا في بعض جبال سمد نزوى بنساء مسترابات، وقام عليهم أهل سمد، فكانت الفتنة بينهم حتى وقع بينهم وقع القتل، وكان هؤلاء الخارجون من أهل سفالة نزوى، من خصوص حوائر الوادي، وكانت الوقعة بينهم وأهل العلاية وقت الظهر، فسلت السيوف وأطلقت البنادق، فوقع أربعة رجال قتلى، واثنان من الخارجين عليهم، وكذلك الجراح عم الطرفين.

وكان عالم أهل نزوى إذ ذاك الشيخ سعيد بن أحمد الكندي، ورئيس أهل سمد عبد الله بن محمد الكندي، صاحب بيت سليط أحد حصون نزوى المهمة، وكان هذا الشيخ زعيمًا كبيرًا في نزوى لغناه، وكان جماعته أهل طاعة له، وكان مسؤولاً كبيرًا في علاية نزوى خاصة، وكان السلطان سعيد بن أحمد بالرستاق، فكتب إليه الشيخ سعيد بن أحمد الكندي يقول له:

أما بعد فإن السوقة طغوا وبغوا، ونهيناهم مرارًا فلم ينتهوا، فالآن قتل منهم أربعة رجال إلى آخر ما جاء في كتابه. ولم يرد له السلطان جوابًا، قام أكابر أهل سفالة نزوى يطلبون من عبد الله بن محمد القاتلين فوعدهم بالغد، فشاورهم الشيخ سعيد بن أحمد الكندي عالم نزوى إذ ذاك. فمنعه من تسليم القاتلين إلى أحد؛ لأن الناس أصبحوا لا يؤمنون في شيء، حيث استولى عليهم الهوى، فخاف التعدي في العقوبة.

ثم كتب أكابر عقر نزوى إلى السلطان بصفة الواقع، وما وصلوا إليه فجاءهم بجيش فلما وصل نزوى طلب من عبد الله بن محمد رئيس سمد نزوى المقتولين فاعتذر إليه بأنهم اختفوا عليه ولم يعرفهم، ثم طلب بعد ذلك سبعة رجال ضمانة عنهم حتى يأتي بهم، فأجابه إلى ذلك خوفًا منه، وكان أحد السبعة ولده، ثم طلب منه بيت سليط؛ ليجعل فيه رجالاً من طرفه، وكان البيت لعبد الله المذكور ملكًا بناه في أرضه المسماة سليط، وكان حصنًا منيعًا على رأس فلج دارس الذي هو زمام نزوى وعمدتها، فأبى عبد الله أن يسلمه للسلطان، ولما أبى من تسليم بيته أضمر له العداوة فاستجاش أقوامًا وجمع جموعًا، وقبض مقابض نزوى وخصوصًا العلاية، واجتمع أهل العلاية في بيت سليط، وفي جامع سمد، والسلطان وجموعه في الحصن، وأهل السفالة في حوائرهم، وأهل العقر في عقرهم وبقيت الأمور بين الطرفين غير مستقيمة من تاسع شوال إلى خامس عشر من ذي القعدة، وكانت القضية وقعت يوم ثامن شوال سنة ١١٩٨هـ.

ولم تقع في هذه الأيام التي ذكرناها حرب إلا كونهم متقابضين المعاقل، وإنما قتل رجل واحد جامودي من أهل علاية نزوى، أطلق عليه الرصاص من الحورة من بعض رجال السفالة، ولما تحقق عجز الشيخ سعيد بن أحمد الكندي، والشيخ الزعيم عبد الله بن محمد عن إخراج المقبوضين من يد السلطان، رجعوا بأمرهم إلى الشيخ العلامة أبي نبهان وتناظروا فيما بينهم، واستنهضوه لهذه المهمة، فجاء

الشيخ المذكور يوم خامس من ذي القعدة من الستة المذكورة، ونزل بالحذفة عند نفسه لا عند أهل العلاية، ولا عند أهل السفالة، ولا عند السلطان، وكتب إلى السلطان كتابًا يقول فيه:

أما بعد فإني جئت مع نفسي لا مع عبري ولا ريامي ولا كندي، ولا مع غيرهم، بل جئت مع الحق، والحق مع من اتبع الهدى، وله أردت، وقد بلغني أنك قبضت رجالاً بغير جنيّة، فهذا لا يصح لك ولا يجوز في دين الله، وفك عقولهم الساعة قبل اليوم، ولا تتأخر ساعة واحدة، وعليك من ذلك التوبة.

وكان السلطان يحترم الشيخ العالم أبا نبهان، فأجابه بالسمع والطاعة وأرسل له هدية قبلها الشيخ منه، وقال السلطان: أنا ما أريد إلا الفاعلين بأنفسهم فوعدوه بهم على أن يأتوه بهم وطلبوا منه أن تكون عقوبتهم في الرستاق لا في نزوى خوفًا عليهم من أصحاب المقتولين، فأجابهم وأطلق المقبوضين، ونادى مناديه بالأمان وفسح لأكثر رجاله بالعودة إلى أوطانهم، وطال القيل والقال في هذا المجال، حتى ولى أهل سمد نزوى أمرهم الشيخ سالم بن مسعود زعيم العبريين على ما سبق بينه، والسلطان من الحرب المتقدم ذكرها، وحينئذٍ أمتنع سالم بن مسعود من تسليم المطلوبين إلى السلطان، بل أذعن بتسليهم إلى ثقات المسلمين لا غير، وأظهر حقدًا على السلطان، حيث قتل أخاه في أمان.

وانظم إلى الشيخ جاعد الشيخ سالم بن مسعود، وأخيار المسلمين الذين يرون الشيخ جاعد الرجل الفذ في وقته، ومع ذلك كاتبهم أخ السلطان سلطان بن الإمام أحمد في القيام معهم على أخيه، فاشترطوا عليه أن يكون الأمر إلى خيار المسلمين، فيقدمون من يرونه أصلح للأمر، فوافقهم فقبلوا منه وطلبوا وصوله، وشاع الحديث عن هذا الصدد، فجاء سلطان بن الإمام إلى وادي بني رواحة فمنعوه من الطريق؛ لأن شفعهم عند أخيه سعيد، ولعل ذلك المنع كان عن تعارف بينهم وبين السلطان، فلم تتم عمليتهم، ولو أراد الله لها إتمامًا لجاء سلطان وادي

العق، وأصبح معهم في نزوى؛ ولكن الأمور تجري بمشيئة الله ﷻ، فقوى أمر السلطان سعيد برجوع أخيه سلطان بن الإمام أحمد.

وبقيت الأمور في نزوى تترامى في لجنة المحاولات، ولم يستقر للناس قرار على أصل صحيح، والأحوال أقرب للخوف منها للأمن، والسلطان على كل حال غير مأمون الجانب، والشيخ جاعد في مناخه المعروف، والناس تتوافد إليه، والسلطان في الحصن، ورأى الشيخ جاعد اجتماع الناس حوله والتفاهم عليه، وأن العلامة الجليل الموقر في الأمة، تحركت نفسه لإقامة سنن العدل وإعادة السيرة التي سار عليها الأئمة في عُمَان، وذلك واجب كل مسلم عند الإمكان.

قال الإمام السالمي رَحِمَهُ اللهُ: وأما أبو نبهان فإنه لما نزل الحذفة من نزوى، ورأى القبائل متجمعة على السلطان، أحسن في نفسه القوة على ما كان يحاول، فأخبر عن نفسه أنه نزل الحذفة؛ ليكون غير والج معهم، وفي معزل عن غيرهم لمعنى أراده، قال: ثم أرسل إلى السلطان يخبرة بنزوله بها، وأن أمره إليه إلى غيره على آخر ما ذكر.

وحاول الشيخ ومن معه دخول العقر؛ لأنه أحد حصون نزوى المعروفة، وفي أنفسهم إذا دخلوا العقر تمكنوا من الأمر؛ لأن العقر فيه كل ما يستدعيه الحال من المال والرجال، والتحصن فيه من هجوم كل ضد لهم خصوصًا عند الاتحاد، وكل المحاولة زوال السلطان، ورد الأمر إلى أهل العلم والإيمان وبتمكنهم من العقر تكون لهم قوة على الحصن.

أما القلعة فهي أيضًا ميسورة المنال، إذا قبضوا على العقر والحصن؛ ولكن لم يكن التوفيق إلا من عند الله، وما النصر إلا من عنده، ولكل شيء سبب، وشاء الله ألا يتم الأمر الذي أراده الشيخ أبو نبهان لأمر أراده الله في أزله، ولا يكون إلا ما يريد الله ﷻ، وبعد محاولة من الشيخ ومن معه لدخول العقر، اقتضى النظر الإقتحام عليه من السور، فقلوا عليه السلالم ودخلوا في الثلث الأخير من ليلة

ثامن عشر من ذي القعدة سنة ١١٩٨هـ، والسلطان نائم في حصنه، فلما انتبه من نومه قال له بعض أصحابه: نخرج على القوم قبل أن يتكاثروا، فقال السلطان: لا؛ لأنا لا نعلم الدولة الداخلة قليلة أم كثيرة؟ وخاف السلطان الخديعة نظره الخروج من البلاد؛ ليستجيش أقوامًا يعزز بهم قوته قبل أن يحاط به في حصنه، وتسد عليه طرق المواصلات، فيبقى محصورًا، ولا يعلم ما وراءه.

فخرج حالاً في نفر قليلين، وكان خروجه من باب السوق على خيل وركاب، ومضى إلى إبراء من الشرقية، من حيث استطاع وضل في مخرجه ذلك سبعة أيام يجمع الجموع، وأبو نبهان ومن معه في العقر محاصرين للحصن، ولعلهم استهانوا بأمر السلطان فظنوا هاربًا منهم، ولعله لا يعود خوفًا منهم، وإذا به عشية الأحد، بعد سبعة، يصبحهم بجيش عرمرم كالجراد المنتشر، من الجنود، ولا يخفى أن الناس تتبع السلاطين طمعًا فيما معهم، وإذا ذاك خرجوا لهم في سعال، وكان هؤلاء الخارجون أبطالاً جربتهم الأيام وجربوا الحروب وهم في سبالة معروفة، الأمور تجرى بمشيئة الله ﷻ.

قال أبو نبهان نفسه: إن في الخارجين من أولى الشدة والبأس يقاتلون كثيرًا، وإن قلوا يعرفون بذلك، وهو يشير بذلك إلى الشيخ سالم بن مسعود العبري وجماعته، قال: كانوا معروفين في قتال السلطان غير مرة، وفي قتال غيره ممن هو أقوى منه، فلا يقدر عليهم بحلية. قال: وفى هذه الوقعة تولوا على ورائهم منهزمين في الحال، من غير ما قتل ولا قتال، لأمر أراده الله تعالى في بقاء هذا السلطان، على ما هو عليه من البغي والغي والعدوان، والغي والطغيان، وعسى أن يكونوا كذلك أهلاً، كذلك لا مرد لأمر الله، ولا معقب لحكمه، ولابد من كون ما في سابق علمه.

ثم رجع الشيخ أبو نبهان إلى العقر بمن معه، ونزل السلطان في جامع السوق، ونزل جيشه معه حتى ملأ حوائر الوادي والبطحا، أي المسيل المستطيل إلى برج

القرن، وبهذا أصبحت محاولة لا أثر لها، فقام ناس بالصلح بين السلطان والشيخ، وقال الشيخ أبو نبهان: إن السلطان أرسل إليه مع أناس من أعوانه كتابًا يدعوه فيه إلى الصلح، فأجابهم إلى ما طلبوه لما رأى أنه فاته ما رام بالتخاذل عن القيام؛ لقهر البلاد ومجاهدة أهل العناد لإرضاء رب العباد، ووصل ناس من أولى الشدة والبأس، ففرح الشيخ بهم وأراد منهم أن يقفوا على الأسوار إلى الصباح فقط، ولم يقدر عليهم، والحقيقة لا لوم عليهم، حيث جنود السلطان محيطة بها وربما وجدوا عند السلطان المال ولا يجدونه عند الشيخ، وهذا الزمام الذي يقود الناس من أنوفها، وبالأخص السواد الأعظم.

وهذا الحال هو الغالب في كل أمة، وكل زمان، وحالة الشيخ هنا ضئيلةٌ جدًا، فلا معاش ولا عتاد ولا سلاح، فلا لوم عليهم على هذا الحال، وأشار على الشيخ أحد أصحابة بجبر أهل البلد أن يبايعوهم الطعام بالقيمة، فأبى أن يجبرهم إذ لم يصح معه أن لهم فضلاً عن حاجتهم.

قلت: ولو جبرهم لجاءوا بالسلطان على الشيخ حالاً. قال الشيخ ناصر بن أبي نبهان يعنى والده: أجاز جبرهم على بيع الطعام لمثل هذا الأمر الذي ذكره أن لو عرف أن معهم فضلة عن قوتهم لسنتهم، وكان الشيخ أبو نبهان فيما حكاه عنه الشيخ ناصر أن دخوله في هذا الأمر؛ لأن أخ السلطان وعدهم بالإعانة على حرب السلطان، وقد هيأ الأشياء اللازمة كلها؛ ولكن حيل بين ما يشتهى وبينه ورجع القهقرى، وكل ذلك في صالح السلطان لأمر أراده الله ﷻ.

ولما قرر الشيخ (الخروج) من العقر لم يقف بنزوى وأراد أهل سمد وقوفه معهم فلم يوافقهم لما رآه من (فشل) ما خطط، وانيهار ما بني، وراوده الشيخ سالم بن مسعود زعيم العبريين ومن معه من أبناء عمه الأبطال الذين عرفهم الشيخ زايد بن نبهان وغيره، الا أن الوقوف يحتاج إلى ألوف، وأن الرجال تحتاج إلى مال والدول، خصوصًا في أول تأسيسها وهذا من لا ينكره عقل ولا نقل.

قال: ولما تحقق خروج الشيخ من العقر ثم من نزوى خرجت جنود السلطان إلى سمد نزوى فأوقعوا بأهلها قتلاً وتشديدًا.

* * *

سلطان بن أحمد يحتل ملك عُمَان

كان سلطان بن أحمد أكثر مقامه بسمائل عند أخواله الجبور، فإذا خرج من سمائل لمهم عاد إليها خصوصًا بد وفاة أخيه سيف بن أحمد شقيقه، وكان صاحب همة عالية وعزيمة طائلة وكيف لا وأبواه أحمد ابن سعيد وأخواله آل محمد بن ناصر، وما زال العداء بينه وأخيه سعيد مستمرًا لا سيما لما تولى الأمر حمد بن سعيد، وقام قيامًا حمده فيه الناس اهتم بذلك سلطان اهتمامًا فوق الحد، وحاول قهر حمد مرات ولدنا ونحن آباؤه لا يمكن أن يتولى علينا، حتى إذا قضى الله على حمد، وعاد الأمر إلى سعيد مرة أخرى، خرج عليه سلطان وتولى عليه الأمر برغبة أهل عُمَان فيه وإعراضهم عن أخيه، ولم يبق في يد سعيد بن الإمام أحمد الا الرستاق.

وعلى كل حال زالت عنه دنياه وزال عنه أهلها، ومقتوه لا سيما إذا كان مطاعًا من أجلها، وكان سلطان رجلاً عاقلاً ذا رأى وتدبير، وأحسن إلى الشيخ أبي نبهان ورعاه واحترمه، ولم يأنس منه شيئًا منه يكدره أبدًا، واستراح في أيامه أبو نبهان وذريته، وقام في عُمَان مقامًا حمد فيه من الجانبين الهناوى والغافرى، وألف بين الناس وساد الكل على وتيرة أبيه أحمد بن سعيد، وزاد بالبذل فإنه كان مبسوطًا اليد لا يرد سائلاً ولا يدخر عن قومه شيئًا يستطيعه، فكان الناس معه بطبيعة الحال يوقرونه برغم ما يرون مما يؤثر عليهم من أمر الهناوى والغافري.

قال أمير البيان: وانتزع سلطان مدينة بركا من يد علي بن هلال كما قدمنا، ثم أخذ مسقط واستبد بالأمور، قال: وفي سنة ١٧٩٨م في ١٢ أغسطس انعقدت بين شركة الهند الإنكليزية (معاهدة) أمضاها جون مالكوم سنة ١٨٠٠ بين

الشركة المذكورة وبين السلطان على بعض المسائل التجارية، قال: وتبعها معاهدة أخرى بينه وبين الإنكليز أمضاها جون المذكور، يحق بموجبها لإنكلترة إقامة معتمد بمسقط، قال: وأخذ يمد سلطته في البلاد، فانتزع من يد أخيه سعيد ثغري السويق والمصنعة، وافتتح جزائر قشم وهرمز والبحرين في الخليج، وجعل ابنه سالمًا أميرًا عليها.

قال: إلا أن قبيلة العتوب التي كانت تلي أمور تلك الجزر عادت فاسترجعتها، وطردت ابنه منها، قال: وفي هاتيك الأيام غزا الوهابيون عُمَان، واجتنبوا الزكاة من الظاهرة ووقع الخوف من تقدمهم إلى الجنوب وكان سلطان قد حج تلك السنة فلما عاد من الحج وجد البلاد في المقيم المقعد.

قال: فقعد مجمعًا قرر فيه النفير العام لصد الوهابيين، فلما بلغ الأمر استوثق سلطان إلا أنه بقضاء الله وقدره، هلك بعد ذلك بقليل في قصة عجيبة، وهي أنه زار البصرة وبينما هو قافل منها نزل من سفينته في مرسى لنجة، وركب قاربًا بندر عباس وكان الوقت ليلاً فالتقاه ثلاث قوارب عليها رجال فتقاتلوا عليها وأسفرت المعركة عن مقتل سلطان، وذلك في ١٣ شعبان سنة ١٢١٩هـ الموافق ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٤م.

قال ابن رزيق: كان سلطان طويل القامة، جميل الصورة شجاعًا بطلاً صنديدًا لا يعبأ بكثرة أعدائه إذا كان في قليل من أهل خاصته فضلاً عن الكثير منصفًا من الظالم للمظلوم، وقد احتل حصن بركا من علي بن هلال ابن أخيه، وفي حال هجومه على حصن بركا صادف رجلاً من العسكر خارجًا يريد السوق لقضاء أغراضه، فقتله أصحابه وقتل سلطان بواب الحصن بخنجر طعنه بها، فأرداه قتيلاً.

كان هو ومن معه اثني عشر رجلاً فقط، فيهم خميس بن راشد الهنائي، ومصبح بن غريب القريني، ومحمد بن حمد الوهيبي، وسالم بن ثاني الجابري، ثم

دخل الحصن فلم يقدر من فيه على معارضته، بعث رسولاً إلى الطو يطلب منها رجالاً، فجاءه مائة رجلا غرقهم في مقابض الحصن، ولم يبق فيه أحدًا من رجال علي بن هلال إلا بنو رواحة في القلعة تقبضوا فيها ريثما يؤدوا واجبهم، ويتضح عذرهم، ثم نزلوا منها.

وكان نزولهم على يد شيخهم ربيعة بن أحمد الرواحي من أهالي محلة الجنينة من بركا، وحملوا كلما لديهم من آلة وعدة، وأتى سلطان أخواله الجبور وأمدوه بالمؤونة اللازمة من تمر وأرز وسائر الحوائج، وأرسل كتبه ورسله إلى المعاول ونخل وسمائل وطلب منهم أن يلاقوه في القرم من أعمال مطرح، فجاءه القوم الذين طلبهم بحسب الميعاد الذي قرره لهم، فاجتمع معه جيش ضخم.

ولما علم علي بن هلال بما وقع من سلطان من احتلاله حصن بركا وزحفه على مسقط، أنبه أبوه ولامه وعض على أصابع الندم، ثم أمره أن يتدارك مسقط فيأتيها من طريق البحر قبل دخول سلطان لها، فجاءه المصنعة وركب منها سفينة تقله إلى مسقط، وكان من قدر الله أن وصل علي بن هلال مسقط قبل سلطان، وتمكن منها؛ لأن سلطان إذ ذاك بعده في القرم، وكان سلطان كتب من القرم إلى أهالي مسقط، وأن لهم الأمان على أموالهم وأنفسهم، ولم يشعر أن علي بن هلال فيها، وكتب أيضًا إلى رزيق بمثل ما كتب للتجار والأهالي، وأمره أن يتصل بهم ويبلغهم عنه ما قصد له.

وكان رسوله سعيد بن مصبح الرواحي، ثم صار إلى أحمد بن سعيد وعلي بن هلال، وأخبرهما ما وصله من عمها وأراهما كتابه، وعندما أطلعا على الكتاب تكلما بكلام ظاهره يعبر عن قدوتهما على معارضة سلطان؛ ولكن عندما تحقق الأمر إذ بهما دون ما قالا، وإذا بسلطان يدخل مسقط، ولما نادى المنادي بدخول سلطان مسقط لم يقدرا على الخروج لما قالاه، فهجم سلطان على الباب الكبير فقتل من أصحابه ستة رجال، فانهزموا عنه ثم كروا عليه الثانية فقتل منهم ستة

رجال، وانهزموا أيضًا، ثم جاءهم علي بن عبد الله شيخ بني وهيب، وكان قابضًا للباب الصغير من طرف أحمد بن سعيد، فقال لسلطان وأصحابه أنا أدخلكم فأدخلكم من الباب الصغير بغير شيء، فلما دخلوا قال سلطان لعلي بن عبد الله: قبحك الله يا خائن، اطردوه من هنا فطردوه جزاء خيانته، وترك بالباب المذكور سرحان بن سليمان الجابري، ومعه مائة رجل من جماعته.

ثم دخل سلطان الجزيرة وهي إذ ذاك الحصن الكبير في رقعة مسقط، وكان دخوله من الباب المقابل لدكان محمد بن حبيب الرمحي الصائغ، ودكان عبد الغفور الصائغ مولى الحرث واشتبك القتال في مسقط من الجلالي والميراني، ونادت مدافعها بفتح الميدان، وزحف محمد بن خلفان على عقبة كلبوه، وكان من أنصار سلطان، وكان القابضون العقبة رجال حمد بن سعيد، وعلي بن هلال، فانهزموا وقبض محمد بن خلفان العقبة المذكورة وهي باب من أبواب مسقط.

وما زالت قوة حمد بن سعيد والي مسقط تضعف وقوة سلطان تتقدم، ثم سلمت الصيرتان وهما القلعتان اللتان على ميناء مسقط، وكذلك القطع البحرية سلمت لسلطان، وبذل محمد بن خلفان في نصرة سلطان النفس والنفيس، ولما تمكن سلطان من مسقط كتب إلى أخيه قيس، أني قبضت مسقط لك، وإنما أنا سيف دولتك وأنت أولى بهم في وادي القاسم، وعليك أن تشغل أخي وأخاك سعيد عن الزحف لمسقط فيكون قوة لولده حمد وابن أخيه علي بن هلال وتطول الفتنة وتكبر إلى حد بعيد.

فقام قيس كما أراد سلطان، وضرب معسكره في وادي القاسم مهددًا لأخيه بالمعنى المفهوم، إنك إذا توجهت لمسقط فأنا أتوجه للرستاق، وأن سلطان ما دخل مسقط إلا بأذني، ولا قام لها إلا بأمري، فكن مكانك في رستاقك، واترك ولدك وسلطان وشأنهما، وأنذره بالتهديد.

فوقف سعيد بن الإمام مكانه، وبقى سلطان وحمد وعلي بن هلال ومن

معهما في صراع لمسقط؛ ولكن كان أمر سلطان يتقدم، وأمر الرجلين يتأخر، وخرج محمد بن سليمان العدوي من الحصن الشرقي؛ لينهب بيت أولاد عمه ولما بلغ الخبر سلطان وهو في بيت الجزيرة.

قام كالأسد الخادر المغضب، فلما رآه محمد بن سليمان ومن معه مقبلاً عليهم هربوا منه فلم يتمكن منهم إلا على رجلين أرادهما قتيلين، وأما الباقون فدخلوا الحصن الشرقي، وكان محمد بن سليمان المذكور في حال هروبه صادف مسعود بن محمد بن سيد بن عبيدان، فطعنه برمح في أنفه وأخرج السنان من عنقه، وقتل من أصحاب سلطان رجلا ظاهريًا برصاصة أراده قتيلاً فمات أما مسعود، فيقال إنه عاش بعد سلطان عهدًا.

وفي هذه الأثناء قام أهل الخير الذين لا يحبون الفتن، ولا يرضون بها في الوطن، فسددوا الحال على أن يبقى الحصن الشرقي لسعيد بن الإمام، والحصن الغربي في يد محمد بن خلفان بن محمد الوكيل، باسم سلطان، ولقيس بن الإمام حصن المطرح، وخراجها وكل أمرها إليه، ودخل مسقط لسلطان وعليه تموين الحصن الشرقي الباقي باسم أخيه سعيد وتموين المراكب الراسية في البحر، ويكون محمد بن خلفان هو والي مسقط، وهو عامل سلطان يقيم بالجزيرة ما دام في مسقط.

وبقي الأمر كذلك مدة ثم خرج أحمد بن الإمام سعيد من الحصن وولى أمره محمد بن عبد الله الشقصي بأمر أبيه، وخرج علي بن هلال من الحصن الغربي وسلمه لمحمد بن خلفان والي مسقط، وقبض قيس حصن مطرح وترك فيه عماله وكل واحد منهم يتحين فرصة الآخر حتى جاء ذات يوم سلطان مسقط على حين غفلة من أهلها، وإذا بمحمد بن عبد الله الشقصي في الجزيرة، فجاء ليسلم على سلطان فقبضه وأمر أن يكفت ومن حظه سلم من القتل بل قال له سلطان: حياتك بتسليم الحصن، فسلمه راغمًا ولم تنفعه الحيل التي أبداها بين يدي ذلك

البطل الذي ما زال أمر مسقط ممتزجًا بدم دماغه.

ولما قبض سلطان الحصن سلمه إلى الجبور وجعل الأمير عليهم أحد خدامهم يسمى محيس بن سعيد المعروف بالزهيبي، وكتب سلطان لأخيه قيس بقبض الحصن الشرقي وأنه لك ليهدئ الحركة وكن واقفًا لأخي سعيد مراعيًا حركاته وسكناته، وانتهى أمر مسقط إلى سلطان وبقى محمد بن خلفان في مسقط بصفة والي لسلطان؛ ولكن لكل واحد عملية يدبرها نحو صاحبه، فقام محمد بن خلفان يبني الحصن الغربي ويقويه، ويضاعف له العدة ويشيد أركانه ويجلب له المدافع القوية ويزيد فيه الرصاص والبارود، ويملأ مخازنه بمثل هذه الأحوال من الرصاص وآلة الحرب.

* * *

محمد بن خلفان يتحفز لحرب سلطان

لقد حاول محمد بن خلفان الاستقلال بأمر مسقط عن السلطان، وكل يرغب أن يكون ملكًا، رأى محمد بن خلفان في نفسه قوة على قهر مسقط والاستبداد بها عن غيره وليس بين ذلك إلا أخذ الأهبة للدفاع عن الحصون بالمعدات وبالرجال، إذ كان العُمَانيون وحدهم، بعث محمد بن خلفان إلى خصيف بن مطر الهنائي أحد الرجال المقاديم في بني هناءة، يطلبه للوصول إلى مسقط بمن عنده من الرجال الذين هم ممن يعول عليه، فجاءه بمائة رجل من بني هناءة من خاصة بني عمه وأقاربه، ولما وصلوا قابلهم محمد بن خلفان بالجميل وانبسط لهم، وبسط لهم اليد وأعطاهم العطايا الوافرة، وأحسن إليهم تماماً وأنزلهم في الحصن الغربي، ولا يخفى أن مائة رجل في ذلك الحصن، وفي مثل ذلك الوقت ماذا يخرجهم إلا القدر.

وجعل المذكور والياً عليهم، ثم ذهب واشترى عبيداً من الزنوج وكانوا يجلبون بكثرة فحلاهم بالخناجر والسيوف، وهي إذ ذاك من سلاح الوقت، ولما

بلغ هذا الحال سلطان بن الإمام أوجس منه خيفة، وحاك في نفسه، وتأثر من هذا العمل عليه محمد بن خلفان.

وظاهر الحال أن محمد بن خلفان يخدم دولة سلطان، فالناس من هذه الناحية تقدره كما ينبغي؛ ولكن سلطان ذلك العبقري المحنك الذي أعطته أيامه دروسًا من مراسم السلطنة، وعلمته ما ينبغي أن يفعل من حيث لا تدري الأيام وأهلها ماذا يفعل، فإن الله ﷻ خلق عباده كلا لعمل، ومنهم لقصعة من ثريد، فتغافل سلطان أعمال محمد بن خلفان، وكأنه لم يستنكر منه أصلاً.

ثم خرج سلطان من بركا يريد مسقط، ومعه زعيم آل وهيبة محمد بن حمد في مائة رجل من جماعته، فركب سلطان بهؤلاء الرجال ومن انضاف إليهم من خاصته سفينة ومعه أيضًا بدر بن أخيه سيف، وكان سلطان كما هو الفطن اليقظ، وخبرة الحصن عنده بتمامها وكان للحصن المذكور باب سرى من ناحية البحر أعد للطوارئ المباغتة، وكذلك أيضًا للحصن الغربي، وكذلك لحصن المطرح، وكانت هذه الأبواب مغطى عليها ومحفوظة بحرس خاص.

فدخل سلطان من هذا الباب المشار إليه وهو من جهة مغب، أي الجانب الشرقي، فشاع في البلد دخوله وأشيع أيضًا أنه مصاب بألم الجدري فلما بلغ محمد بن خلفان هذا النبأ، وأن سلطان في الحصن، وأن به جدريا، توجه محمد المذكور وأبوه خلفان وأخوه علي ليعودوا سلطان، فلما كانوا بالجزيرة لقيهم ماجد بن خلفان أخو محمد بن خلفان، وأخبروه عما توجهوا له، وما بلغهم بسلطان من مرض الجدري، فقال لهم ماجد ما بسلطان شيء من مرض أبدًا، ولا تتعرضوا لنقمته منكم، وإياكم والقدوم عليه وما هي إلا إشاعة حيلة؛ ليصطادكم بها، واتركوا سلطانًا وحصنه، ولا توقعوا أنفسكم في الشبك، وقد علمتم بصنيعه في الشقصي، وله من هذا النوع نادر.

فلم يرق كلام ماجد لأخيه محمد، ولم يصغ له فتوجهوا إليه وإذا به بارزًا في

صحن الحصن لا بأس به، وعند ذلك أوجس محمد بن خلفان خوفًا من السلطان، فلما أرادوا الخروج قال السلطان: أما أنت أيها الوالد خلفان فمرخوص، وأما ولداك محمد وعلي، فقال له خلفان بن محمد: وما تريد من تأخيرهما؟ فقال: أريد الحصن الغربي، ثم أشار إلى قبض محمد بن خلفان فقبض، وأخذ إلى المحبس، فهبط خلفان والد محمد مذعورًا مرتاعًا يقول لمن يلاقيه قبض محمد قبض محمد.

أما علي فرخصه سلطان بعد ذلك؛ لأن المقصود بالذات هو محمد بن خلفان وغاية ما عند ماجد أن ركض هو وخصيف بن مطر على أهل السوق لينهبا أهل السوق، لما تحققا حبس محمد بن خلفان، فنهبوا ما قدروا عليه وما أمكنهم، وبذلك طافت عل أهل مسقط موجة ذعر عارم وابتأس الناس، فإن الشر كالنار يأكل ما يلاقي، وأغلق التجار دكاكينهم، وصك الناس على أنفسهم بيوتهم، وملأ الخوف البلاد؛ لأنهم يعلمون أن عند سلطان بدو وهيبة وليسوا بأقل شرا من غيرهم.

وكان ماجد وخصيف أرادا بذلك الاعتداء لحرب سلطان إلى رزيق بن بخيت جد المؤرخ المعروف، وأمره أن يأخذ معه ناساً فيهدم مباني محمد بن خلفان عاملك في مسقط، فقال ابن رزيق: يا مولاي هذه مبانيك ومحمد بن خلفان عاملك لا يملك شيئا فلا تخربوا بيوتكم بأيديكم، فوافق سلطان؛ ولكنه أمره بقفلها على ما فيها؛ لأنها بيت مال، وما فيها راجع إلى السلطان وأمره أيضًا أن يرسل إلى القطع البحرية بإطلاق مدافعها على الحصن الغربي فصده رزيق بدعوى أن الحصن أعلى منها إذا ضربها دمرها، فتركها سلطان.

ثم دخل رزيق على محمد بن خلفان في الحبس، وناصحه بتسليم الأمر لسلطان فامتثل فسلمها لسلطان وأمر خصيف الهنائي بالتخلي منها وبالخروج عنها، وبعد أخذ ورد وبوساطة الشيخ ماجد بن سعيد البرواني، أن يحمل خصيف من الحصن ما يريد، وانتقل محمد بن خلفان إلى بيت الفلج هو وخصيف الهنائي،

وكان معه خمسون رجلاً من جماعته، وكذلك حصن مطرح استخلصه سلطان من يد عمال قيس بن الإمام بعد ضرب مدفع، وإطلاق نيران البنادق، وبقي اثني عشر يومًا، وكل يوم والمدافع ترسم التاريخ، وفي النهاية انتهى أمره إلى سلطان بحرب محمد بن خلفان في بيت الفلج، ثم سحب سلطان المدافع التي في أسوار بيت الفلج وبروجه صلحًا بينه وبين محمد بن خلفان.

* * *

سلطان بن الإمام يحصن مسقط

لما قبض سلطان مسقط ومطرح، وقص أظافر محمد بن خلفان بسحب مدافع بيت الفلج، انتفىْ المحذور، وإذ ذاك أقبل سلطان على تحصين مسقط فأمر ببناء قلعة ضخمة على أرض الرواية؛ لتكون حصنًا لمسقط في ذلك الثغر؛ لأن أكثر الداخلين لمسقط المهاجمين لها يدخلون من ذلك الثغر، فقام خلفان بن ناصر البوسعيدي الذي ولاه سلطان مسقط ببناء هذه القلعة، فبناها وبنىَ البرج المقابل لها كحامية لها، وبنىَ البرج الآخر الشرقي الجنوبي كذلك، فتم بنيان الجميع في ثلاثة أشهر، وجعل سلطان في هذه المباني رجالاً انتخبهم واليه المذكور وحصن مسقط تحصينًا كاملاً؛ لعلمه أن إخوته لا يقلون عنه عزمًا وهمة وأنهم ينظرون إليه شزرًا.

ولا شك أن الملك لمن غلب ولا بد أن يتحركوا يومًا ما لمهاجمة مسقط.

* * *

قيس وسعيد أبناء الإمام يحاولون حرب سلطان

لما تبين لقيس وسعيد أن سلطانًا يحاول أن يكون السلطان اسمًا ومعنى، وهم كلهم أولاد أحمد بن سعيد، ولا خصوصية لأحد؛ لكنه لابد أن يكون السلطان أو الإمام أحدهم؛ لأنه ليس من المعقول في الأمم كلها إلا هذا، أما كونهم يتقاتلون على السلطة والرئاسة، فهذا ليس من الحق في شيء، بل هذا الحال هو الذي نهى

الله ﷻ عنه يقول: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦].

واختلاف الكلمة وتلاشي الأمور مما يثير الضغن، ويدخل العدو على الصديق والاعتبار بالماضين أكبر مرشد لأهل العقول، وأصدق شاهد على ما نقول؛ لكن أنفس الزعماء ممزوجة بحب المنافسة، وكان قيس بن الإمام حاول العُمَانيون أن يبايعوه بالإمامة؛ ولكن لم يكن التوفيق حليفهم.

وقد مر عليك أيها القارئ الكريم ذلك، وأما سعيد فهو الذي تولى الأمر بعد أبيه؛ ولكن لم يسعده الحظ، وأما سلطان فهو الذي مازال يحاول السلطنة في عُمَان، لما يرى في نفسه من القدرة عليها وهو الرجل العبقري الفذ الصريح، وكان عاش وقتًا غير قصير في بادية وهيبة في سيوحهم الحدرية كما قال الإمام السالمي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان ما لديه من وعي وإدراك يحاول به السلطنة في عُمَان حتى هذا الحال الذي تمكن فيه مسقط، وقام أخواه يستجيشان عليه وأكبر محرك لهما محمد بن خلفان المحل الذي أخرجه سلطان من مسقط والمطرح راغمًا، فتعاهد قيس وسعيد ومحمد بن خلفان على حرب سلطان، فاستجاش قيس من الظاهرة والباطنة خلقًا، واجتلب حتى العفار الذين هم بين عُمَان وظفار فقيل إن جيشه بلغ ستين ألفًا، وجمع سعيد بن الإمام أيضًا من جانب الرستاق من استطاع، فلما بلغ أمرهم سلطانًا أهمه جدًا فأرسل إلى أهل الشرقية ومن يأمل مناصرته من أهل عُمَان إلى جعلان، ولم يأتيه إلا ماجد بن سعيد البرواني، وكان هو الرئيس على الحرث، ولم يكن معه إلا قدر مائة رجل فزحف قيس وسعيد بجيشهما إلى القوم من ناحية الوطية، وضربا معسكرهما وملأ جيشهما تلك الرقعة كلها.

فما كان من سلطان إلا أن أمر بإشعال النيران بالسليط في جبال بيت الفلج، وروي وما طول الليل ليوهم قيسًا وسعيدًا وقومهما أن الجبال كلها مملوءة رجالاً، وما كان عند كل نار إلا واحدا واثنان يوقدان النار في السليط على الخرق

والجواني، فظن قيس وسعيد أن عند سلطان جيشًا ملأ السهل والجبل، والحقيقة ليس معه إلا رجال ماجد البراوني، وقليل من الجماعة ثم إن سلطانًا أرسل إلى قيس كتابًا يقول فيه: إذا وصلك كتابي هذا فامض بقومك مسرعًا إلى بدبد، وأقم بها حتى آتيك؛ لأخلص لك بدبد وسمائل وذر مسقط حتى نتفاهم نحن وإياك فيما بيننا، وأوهمه أشياء.

وكان قيس تغلب عليه سلامة الصدر ولعل قيسًا تخيل أن بدبدًا مضيق عُمَان وبقبضها سيكون القوي على الداخل والساحل، فلما وصله كتاب سلطان تلقاه بالصفا وتأثر به، ورأى فيه النجاح، فارتفع حالاً إلى بدبد وعسكر بها وتفرق جيشه إلا ما شاء الله.

فلما تزحزحوا عن مسقط، وانحلت الأزمة الداهمة أحكم سلطان قبض مسقط، وأتم عمليته فيها بأسرع ما أمكن، ثم خرج على طرق حطاط إلى سمائل، فلما وصلها صرخ في أهل وادي سمائل بأن قيسًا جاء بالداهية الدهياء؛ ليفعل أشياء تكون وبالاً على البلاد، وعنده من لا يعرف الصديق من العدو، فاستثار حماس القوم، وأثار حفائظهم فقاموا معه قومه رجل واحد، فأشعلوا الحرب وأطلق حصن بدبد مدافعه على قيس ومن معه، وقد نفد زادهم؛ لأنهم جاءوا ليقبضوا الحصن بغير عناء، وإذا به يلهب نارًا ويلقي عليهم من لفحه شرارًا، فتشاور الزعيمان قيس وسعيد، وتحققا من سلطان برقًا خلبًا، فافترقا من هناك فتوجه قيس إلى صحار وسعيد إلى الرستاق، وقد فرغ ما بأيديهما من المال الذي جمعاه لرخصة الجيش، فوقعت الحرب في الحال إلا أن الضغائن بلغت منتهاها.

ولا شك أن الملك ثمين ولا ينال بالهوينا؛ ولكنه بركوب المخاطر وبقطع رقاب الأباعد والأقارب، وواجه سلطان كل أهل عُمَان من شرقها وغربها، ولباه جميع أهلها واستقر قراره فيه، وأعلن سيادته عليها، ولما كان خصيف بن مطر الهنائي لم يزل في قلب سلطان له حقد لا يزال باقياً خرج سلطان إلى نزوى بصفة

سرية، وكأنه متغافل أمر الرجل أو معرض عنه فأمر على خادمه سويلم بن سالمين، ومحمد بن عيسى النيري الهنائي أن يرجعا إلى مسقط ويتحينا الفرصة؛ لقبض المذكور، هو يزال عقيد بيت الفلج؛ ولكنه ينزل إلى مطرح لحوائجه الخاصة؛ لكنه على حالة حزم وعلى صفة يقظة.

وفي هذه الأثناء يرى أن سلطانًا في داخلية عُمَان، ولعل حقده قد زال وكان بين خصيف المذكور ومحمد بن عيسى ضغن أيضًا، فساق القدر خصيفًا إلى مطرح؛ ليقضي بعض أوطاره آمنا من ناحية سلطان والمأخوذ غافل طبعًا، وكان معه اثنا عشر رجلاً من جماعته، وكان سويلم بن سالمين ومحمد بن عيسى النيري ومن معهم كامنين لخصيف على طريقه، فما شعر خصيف إلا والقبض يعمل عمليته فيه، وفر عنه جماعته؛ لدهشة راعتهم، وقبضوا خصيفًا وقيدوه وأودعوه السجن، ومنعوه الطعام والشراب، بحسب الأمر حتى مات، فألقوه في البحر بعيدا وانتهى أمره.

❊ ❊ ❊

سلطان يزحف على السويق والمصنعة

ولما استقر أمر مسقط وأمر وادي سمائل الذي هو حلقوم عُمَان، زحف سلطان على السويق على أثر قهره لوادي سمائل وطرده لأخويه قيس وسعيد، وكانت السويق إذ ذاك في يد سعيد بن الإمام، فقال سلطان الملك لا يكون مشتركًا لما يخشى فيه من الأحوال التي يعرفها أهل هذا الشأن، فسلمت له السويق حين عرفته السلطان لها، ثم عطف على المصنعة فلم تبعد عن أختها بعيدًا، وتم له هذا العمل متتابعًا في عهد غير بعيد المدى، وعند ذلك وجه عزمه إلى ما هو أبعد من هذا فاصطلح مع محمد بن خلفان لما يخشاه من مكره وتدبيره.

❊ ❊ ❊

سلطان يتحفز لحرب شهبار وتوابعها

لما تم الأمر لسلطان كما ذكرنا تحرك لاسترداد المستعمرات العُمَانية في الخارج، فقام سلطان في قوته الوفيرة، وفي عزيمته الشهيرة، فزحف برجال عُمَان على تلك البواخر الكبرى التي هي كالجبال الرواسي، فنزل ساحل شهبار من بلاد مكران، فسلمت له ما سبق في روعها الخالد أنها بالأمس عُمانية، ولا شك أن اليوم تبع لأمس.

ثم زحف بجيشه الضخم إلى مسقط وكانت من مهام بلاد بلوجستان، فاحتلها بعد يسير من الأمر السياسي، فقويت في ساحل مكران شوكته، ثم زحف على هرموز التي هي سويس الخليج، وكان احتلالها بآل معين الذين هم الزعماء فيها، وكان سلطان يدري من أين تؤكل الكتف، فأكرم سلطان بني معين فرفعوا العلم العُمَاني عليها بعد ما غاب عنها عهدًا، وتبدل وضعها.

ثم تابع زحفه الساحق وهجومه المتلاحق على البحرين فاحتلها راغمة، وقبضها مسالمة، وولى عليها الشيخ سيف بن علي بن محمد البوسعيدي، وبقى فيها عهداً غير طويل، ثم عزله وولى عليها ولده سالم بن سلطان، وكان ولداً صغيرًا لم يجرب الأمور كما ينبغي، ولم يمارسها وفق المطلوب، فعضده بالشيخ محمد بن خلف الشيعي نظراً إلى أن بين زعماء البلاد والشيعة تبايناً وتنافساً، وهذا من أخطاء السياسة.

فلما مضى وقت يسير إذا بعملية أهل البحرين تشرف على النجاح بتجمعهم على سالم بن سلطان واحتشادهم عليه وحصرهم إياه في قلعة عراد، ثم صور نوع من الصلح وهو إخراج الشيخ الشيعي ومن معه في أيديهم من سلاح وعتاد، وزاد وزناد، وخرج الشيعي فأخرج سالم بن سلطان معه وسويلم بن سالمين كذلك وسائر رجالهم إلى مسقط، وقبض على شيوخ البحرين بلادهم ووضعوا رئاستهم عليها، وهجم الزعماء على البحارنة أي الشيعة بعد منصرف سالم بن سلطان

وأصحابه منها، وقتلوا الكثير منهم وأذلوا الأكثر، وحازوا الأموال وتفرق جمع الشيعة في سائر البلدان، وعذبوا الباقين منهم بها عذابًا أليمًا ونكلوا بهم فوق الحد بدعوى دخول سلطان البحرين؛ لأنهم يدعون أن دخوله كان بسببهم، وأنهم هم الذين حركوه على البحرين واختلاف المذاهب بين الطرفين يؤيد المقصد، ورأى الشيعة البحارنة من أهل البحرين ما ساءهم فوق الحد و سيأتي لهذا المقام مزيد بيان في التعليق عليه إن شاء الله.

❋ ❋ ❋

النعيم يهاجمون صحار

من المصائب في عُمَان، ولا مصيبة مثلها معنى الهناوي والغافري، وما وضع الشيطان بلية بعُمَان مثلها ومن أجلها ثورة النعيم على صحار، إذ تصور لهم أن آل أحمد بن سعيد هناوية يحبون الهناوية ويميلون إليهم ويقربونهم أكثر من غيرهم، فقام النعيم على صحار متذرعين بأن لنا عادات من صحار وما أعطينا إياها، ودسائس أخرى يحوكها العُمَانيون وحدهم، فنزل النعيم في العوهي من أعمال صحار، وبالقرب منها، فما شعر أهلها إلا والقوم قد غشوا البلاد يقتلون وينهبون ويفعلون فيها غير الجميل، ولم يقدر قيس بن أحمد على زعزعتهم منها؛ لأنهم كثيرون وبادية البريمي تنساب إليهم زرافات ووحدانا، وأهل الأطماع من طعام الظاهرة كذلك.

ولما رأى قيس أن لا مزعزع لهم منها، استغاث بأخيه سلطان طالب منه النجدة العاجلة؛ لكشف هذا المهم النازل، فاستصرخ سلطان أهل عُمَان الداخلية إلى جعلان، فجاءه رهط غير هين واستثار أخاه سعيدًا حاكم الرستاق خوفًا من استفحال الخطب وتعديه إلى أبعد، وكذلك دعا سلطان سيف بن علي بن محمد، واحتشد جند عظيم غصت به صحار وكان قيس يحاول حل قضية القوم بالتي هي أحسن نظرًا لشر القوم القريب من صحار منذ عهد سابق، فكتب إلى النعيم

أن يرجعوا إلى ديارهم بغير قتال، ووعدهم بالمال الذي يريدونه.

وكان قد استمال من بادية البريمي الظواهر وحلفاءهم، وقرب أهل ينقل والسليف، ولما لم يقبل منه الرجوع ولم يريدا من الحرب، عبأ كتائبه، ورتب جيشه، وجعل على الخيل سيف بن علي بن محمد؛ لأن الخيل تكون في المقدمة، وبقية القبائل كل قبيلة برايتها، ومع أميرها، وانضاف بنو ياس إلى النعيم وهم خصوصًا أهل دبي وأميرهم هزاع، وكذلك بنو قتب.

فالتقى القوم بموضع يقال له الدباغ من صحار، فدارت رحى الحرب فهلك فيها ثلاثمائة رجل من النعيم، ومائة رجل من قوم قيس وسلطان، وكانت الهزيمة على النعيم؛ لبغيهم المفرط، ثم خرج النعيم وقبضوا وادي الجزي، وهو مضيق معروف نظرًا إلى أن المناصرين لقيس وسلطان من أهالي منطقة البريمي والظاهرة لا طريق لهم إلا وادي الجزي، وبالأخص الظواهر، ووقع في أذهان الظواهر أن شوكة النعيم انخضدت بتلك الواقعة التي تركت القتلى ملء ساحة الدباغ، ولما توسط القوم في وادي الجزي كر عليهم عدوهم كرة غضب وحقد، فأنقتل من الظواهر ومن كان معهم قدر ثلاثمائة رجل ورأوا- أي النعيم- أنهم أخذوا ثأرهم، وارتحلوا إلى البريمي، ولما تلاحقوا في البريمي ثارت الحرب بينهم بالغارات والغزوات، ولم تزل عهدًا طويلاً، وأغارت وهيبة على النعيم، فهجموا على القبائل فقتلوا من النعيم عدة رجال، وأغار سلطان على دبا عن طريق البحر، وخوفت الناس الشرقي... والنقبيين جملة، وأفسدت الدروع السبل، وخوفت الناس وما زال التعصب يواصل أعصابه حتى جاء سلطان بن الإمام إلى تلك الجهات فسدد الأحوال وأطفأ نيران الضلال.

❊ ❊ ❊

سلطان يقوم ببناء حصن الفليج

نظر سلطان بن الإمام أحمد أن لا بد للعائلة من مكان خاص لائق بعيد عن العواصف وهيشات الحروب، فاختار واحة الفليج؛ لقربها من بركا ومن مسقط، وغير بعيدة من وادي سمائل الذي كان يألفه سلطان في واحة مطلقة الهواء؛ لينة الموطئ منحازة عن معرات الجيوش، وهي واحة الفليج التي بين بركا ونخل والطو، فبنى سلطان ذلك البيت الحلو الأنيق في مدة وجيزة، وأسكن فيه بعض أهله، وكان كثيرًا ما يتردد عليه ويقيم فيه، وولى على مسقط بعد موت خلفان بن ناصر البوسعيدي الوالي بها سيف بن مسعود البوسعيدي، ثم عزله عنها وولاه بهلى، وولى على مسقط سليمان بن سيف بن سعيد الزاملي، ثم لم يطل عهده وولى عليها ماجد بن خلفان بن محمد الوكيل البوسعيدي، ثم أخرجه وولاه الشرقية وجعلان وصور، وولى على مسقط بعده سيف بن محمد ثم عزله، وولى عليها خصيف بن خميس بن حمدون الوهيبي، ثم ولى عليها بعده خلوف مولى لبني هناءة، ثم ولاها بعده سيف بن حنظل البوسعيدي، ثم ولاها بعده سيف بن محمد البوسعيدي، ولم تزل ولاته تتخالف عليها، ولم يزل مهتما بها كل الاهتمام، ويدير الآراء بشأنها في كل آن ثم أقبل عليها بهمة فعالة، فبنى فيها قصر العلم، ذلك القصر الضخم الرائع، وجعلها وطنه الخاص، وهو أول من تلقب بالسيد من أولاد الإمام أحمد بن سعيد، وعلى أثر هذا العهد أوفد عبدالعزيز السعودي إلى عُمَان عبدًا نوبيًا من عبيده ليفتح له ثغرة بعُمَان، ويبني له فيها بناء جديدًا تسجله الأيام في تاريخ السعودية في عُمَان، حين ظل أمراء عُمَان من آل أحمد بن سعيد يتقاتلون على الملك، ويتهارشون على الدنيا خلافًا لسبيل المسلمين وعدم اهتمام بأمر الدين.

❊ ❊ ❊

الاضطراب في عُمَان في عهد سلطان بن الإمام

كان سلطان بن الإمام تزوج بنت ناصر بن محمد الغافري أخت حميد بن ناصر، فتوفيت عنده فطلب سلطان ميراثه من أخيها فلم يتيسر له شيء منه، بدعوى أن كل ما بيده هو بيت مال لا إرث فيه لأحد، وامتنع حميد من دفع شيء لسلطان بن الإمام من تركة أخته، فوقع في النفوس أمر كان سبب التنافر والشقاق بين سلطان بن الإمام وحيد بن ناصر، فطلب سلطان مواجهة حميد، فامتنع حميد خوفًا من سلطان يقبض عليه، فتحقد سلطان وأضمر السوء لحميد بامتناعه من تسليم الإرث له وعدم إجابته لدعوته، فدس سلطان على حميد الدسائس من جهات شتى، وبأنواع مختلفة النواحي، ومنها أرسل من مسقط أحمد بن يوسف بن موسى الشيعي؛ لكسر مدفع ضخم أمام حصن جبرين، كان من الصفر وكان هذا الشيعي صفارًا أي يعمل من أجل الصفر وأنواع منها، فسار إلى نزوى وأقام بها صفارًا ثم طلبه حميد إلى جبرين؛ ليعمل له مراجل كبيرة، ولما رأى الفرصة سانحة عمل عمليته في كسر المدفع الصفر المذكور فكسره، ثم هرب بالليل إلى مسقط وكان ذلك المدفع من أشهر المدافع في قصر جبرين فقضى عليه.

قال ابن رزيق: فكثرت الغزوات والغارات، وتفاقم القتل ومالت النزارية كما هو تعبيره بذلك ويعني به الغافرية. قال: مالت النزارية وحلفائهم من أهل الحمراء والجبل وسيفم والظاهرة إلى حميد بن ناصر، فكان هو القطب.

قال في شأن الوالي سيف بن مسعود: فوقع القتل بينه وبين أهل جبرين، وأصابه جراح برصاصة من إطلاق نيران القوم، فرجع هو وقوم إلى بهلى متحيزًا بها، فعاش ثلاثة أيام، فمات في بهلى وظلت الحال تسير على هذا الحال، ومن المعقول إذا كانت الأمة لا جامع لها تحت راية واحدة لعب بها الشيطان وأغرى بعضها على بعض، فكان ذلك أعضل أدوائها وأصعب أمراضها، وهنا تغلغل هذا الداء وكاد لا يزول ولا يزال له عروق تنبض به؛ لتمزيق عُمَان، اللهم إلا إذا كان

للأمة جامع قوي من عدل وإنصاف، وإنزال الناس منازلهم وتأييد الحق أين كان، وممن كان وإلا فالأمر جلل والداء عضال.

* * *

سلطان بن الإمام يتهيأ للحج وفي النفس مآرب أخرى

في سنة ثماني عشرة ومائتين وألف، تهيأ سلطان بن الإمام للحج، فاصطحب من أهل عُمَان جملة من رؤسائها من شمال عُمَان منهم الشيخ محمد بن مطر الشرقي صاحب الفجيرة، ومهنا بن سليمان اليعربي، والشيخ ربيعة بن أحمد الرواحي.

ولما مضى على توجههم الحج بعض الأيام، وتحقق ذلك بدر بن سيف بن الإمام أحمد، قام بمن معه وكان يسكن حبرى من بلدان وادي المعاول، فدخل مسقط ليلاً ومعه بعض الرجال، فدخل على ماجد بن خلفان بن محمد الوكيل البوسعيدي، وتعاهد هو وإياه على أخذ الحصن الشرقي من مسقط، وكان سلطان ترك فيه أحد خادمه يقال له كومبُو بضم الباء الموحدة بعدها واو أميرًا على الحصن. وكان عتيقًا شقيقه سيف ابن الإمام والد بدر المذكور واختفى بدر عن الناس هو وأصحابه في الليلة التي دخل فيها مسقط في بيت ماجد بن خلفان، فلما كانت الليلة الثانية ليلة العملية مضى بدر إلى الحصن الشرقي وبصحبته خادمه براكا المعروف بالصرْمِلَّة بسكون الراء المهملة وكسر الميم وتشديد اللام المفتوحة عتيق والده أيضًا سيف بن الإمام، وخمسة رجال من أصحابه، وحمل معه كيسًا فيه ألف قرش، ولما وصل هو وأصحابه عند باب الحصن نادوا (كومبو) فأشرف عليهم من كوة بالحصن قائلاً: من أنتم؟ فقال له بدر أنا مولاك بدر بن سيف بن الإمام أحمد، افتح الباب؛ لأدخل معك لقصد المفاهمة، وهذا لك ألف قرش مقدمًا (فأدلى كومبو) له قفيزًا ويحذف أهل عُمَان نقطة الزاي فيجعلونها راء مهملة، فلما وصلت الدراهم إلى(كومبو) قال لبدر ارجع إلى ورائك وإلا أطلقت عليك الرصاص، ثم رماهم بحجر فرجعوا بالخيبة.

فلما رجعوا إلى ماجد بن خلفان، قال لهم: إياكم والمبيت في مسقط، فرجع بدر وأصحابه من ليلتهم إلى حبرى، ثم توجه منها لنجد، وكان مر على عجمان عند صديقه راشد بن حميد النعيمي، ثم توجه إلى الدرعية فألقى ما عنده إلى الأمير عبدالعزيز إمام الدرعية فتحالف معه.

ولما رجع سلطان من الحج أخبر عن شأن بدر وعمله قيد ماجد بن خلفان، ويال عن الخادم (كومبو) ماذا صنع، فأخبر أنه قبض الدراهم وطرد بدر وصحبه، وقبض على الصرْمِلّة براكا وقيده في الحصن الغربي، وقطع عنه الطعام والشراب حتى مات، ثم أمر به فألقى في البحر، وأما بدر فقد اتصل بالدرعية فاهتم من أجله كثيرًا؛ لأن الخطر لابد أن يكون هاماً جداً، وليته مكث في حبرى أو بعض بلاد عُمَان فإن مسيره إلى الدرعية فيه الرزية من قبل أهل الغرب وكان في العرف العام بعُمَان إطلاق لفظ الغرب على أهل نجد ومن إليهم، وبذلك كانت لأهل الغرب طرق لغزو عُمَان مهدها الأمراء المتنافسون على الملك الذين لا يراعون إلا نفس الرئاسة، على أي حالة كانت، وبذلك انجر حبلهم حتى امتد إلى عُمَان بواسطة القبائل والزعماء الذين أشرنا إليهم، ومن جر العدو على وطنه ضايقه في سكنه وأذله في أهله وتسلط عليه، ومن ذلك أغار بدو البريمي والظاهرة على مسارح الباطنة من السويق وحواليها، وعندهم من طغام بدو عُمَان أخلاط، وكان سلطان في بركا، فلما وصله الخبر ونمى إليه الصريخ أمر على محمد بن حمد الوهيبي ومن معه من آل وهيبة، وكانوا المقربين معه فخرج الركب في طلب الغزاة المشار إليهم، وها قد دخلوا وادي الحيملي فتلاحقوا بالوادي المذكور؛ ولكن الغزاة تمكنوا من قبض الطريق، وجاء آل وهيبة يسيرون في بطن الوادي، فأطلق عليهم الرصاص من رؤوس الجبال، فانتقل الشيخ الوهيبي وأكثر رجاله، ولم يسلم منهم إلا القليل، فلما وصل خبرهم إلى سلطان تأثر منه وضاق به صدره وعيل وصبره وخاف ما هو أكبر منه، فانتقل من بركا إلى الفليج واستدعى والي نخل مهنا بن محمد بن

سليمان اليعربي، وتفاهم معه واتفقا على طلب أهل عُمَان لهذا الصدد المهم، فإن له ما بعده من أمر القوم ولا تدرى النهاية ولا يعرف المصير.

* * *

سلطان بن الإمام وأهل عُمَان يعقد مؤتمرًا في بركا

ودعا سلطان بن الإمام بقبائل عُمَان الداخلية إلى جعلان، وعين لهم الاجتماع ببركا، فجاء الكثير منهم وكذلك أعيان آل بوسعيد أولاد عمه وإخوته أولاد الإمام أحمد بن سعيد، وهم أحمد بن سعيد بن الإمام، وعزان بن قيس بن الإمام، وطلب بن الإمام، وأخوه محمد بن الإمام، وسيف بن علي بن محمد والمشايخ ومحمد بن خلفان بن محمد، وأخوه ماجد بن خلفان بن محمد، والشيخ ماجد بن سعيد البرواني، ووالي نخل المقدم الذكر مهنا بن محمد بن سليمان اليعربي، والشيخ حجي بن سعيد الحسني وسالم بن علي العلوي، والشيخ عيسى بن صالح الحارثي، وخادم بن محمد الهاشمي، وكان المجتمع بحصن بركا، ولما استقر بهم الجلوس، افتتح سلطان الكلام، وأخبر الحاضرين عن قتل أصحابه، وأنه متأثر بقتلهم حتى قال في نقل ابن رزيق: فبقيت ككف بلا أصابع، وهذه الحرب متفاقمة علينا من كل مكان، ومن كان لي محبًا صار لي عدوًا، ومن زعم أنه لنا صديق فهو لنا غير نافع في حزات الضيق.

وهو يشير بذلك إلى أناس من أهل عُمَان. قال: فما رأيكم في هذا الشأن؟ فسكت القوم وبقوا كل طائفة تنتظر جواب الأخرى، وحتى تكلم الشيخ سيف بن علي محمد البوسعيدي، وها نحن نحررها بفحواها لا بنقل ابن رزيق.

قال: إن أهل عُمَان باقون على ولائهم ثابتون على عهدهم، لهم شدة وصبر على الحرب، لا يرهبون الأعداء ولا يخافون، وما محمد بن حمد الوهيبي، إلا واحد من كثير وكذلك أصحابه، وفي عُمَان من هم أشد لقتال الأعداء فمن ذكرت، وأثبت في الأزمات. فما نحن بجازعين من الوهابية وغيرهم من

الأعداء فإن قلوبنا التي نعصي بها الأعداء في صدورنا، والسيوف التي نضربهم بها على أكتافنا، وما خضاب الرجال إلا الدم، فطعم الحرب لنا كالمن والسلوى ولا خير في مقال لا تزكيه أفعال، وليعلم النجديون والأضداد المجاهرون أي منقلب ينقلبون.

ثم سكت فتكلم بعده آل بو سعيد مؤيدين لمقاله، وقال أكابر عُمَان والشرقية وبديَّة وجعلان: ما أحلى لنا حرب الطاغين.والباغين، ففي أعيننا كثيرهم قليل وفي قلوبنا عزيزهم ذليل، يأبى العزيز أن يعيش ذليلاً، فبينما هم كذلك في هذا المجال وتداول المقام، إذ ورد على سلطان رسول من قيس بن الإمام يحمل كتابًا منه يقول فيه: إن الحريق أحد خدام عبدالعزيز وصل، وأنه ضرب معسكره بالعَوْهِيِّ بفتح العين المهملة وسكون الواو وكسر الهاء بعدها ياء مثناة من تحت من أعمال صحار، ويسأل أخاه سلطانًا النجدة قبل استفحال الخطب، ويستحثه بالوصول إليه، فليرجع كل واحد منكم إلى بلده وقومه، وليأتني بما عنده ومن هم في طاعته من الرجال، وجعل موعد اللقاء الخابورة دون صحار، وافترقوا على هذا ومضى سلطان معه محمد بن خلفان وأخوه ماجد إلى مسقط للاستعداد المستعجل، وحالاً أمر سلطان بشحن العدة والعتاد وآلة الحرب في باخرته الكبرى الفلك من مخلفات الدولة اليعربية عليها السلام، وحملها جميع ما تدعو إليه الحاجة من الأمور الحاجية، ومضى بحمولته وتوجه سلطان على طريق البر فعسكر بالخابورة لتلقي القوم بها.

وجاءت القبائل العُمَانية تترى من كل صوب: فكان الجيش اثني عشر ألف رجل، ولن يفلت جيش هذا عدده بشهادة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولما بلغ الحريق هذا الأمر الذي قام به قيس وسلطان، لم يتمالك لقلع مخيمه، بل أشعل النار فيه روعًا واستولى عليه الذعر، فهرب بأسرع ما يمكن، ولم يتراجع إلا في البريمي ولم يبق بها عهدًا بل سرعان ما ارتحل إلى نجد؛ ليلقي مهمته إلى سيده، وزحزح الله شره وصرف بلاءه حالاً.

وعند ذلك جاء شيوخ البحرين مذعنين لسلطان خوفاً منه، حيث بلغه الحريق وجنده، خافوا من سلطان أن يرد الكرة عليهم.

وفي هذه الأثناء اصطلح الحال بين سلطان وحميد بن ناصر الغافري، ولا شك أن القوة هي التي تمهد طرق السيطرة وتدعم السلطان، لو ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾.

❊ ❊ ❊

الفهرس التفصيلي
لموضوعات الجزء الثالث والرابع

١- فهرس الآيات القرآنية

٢ - فهرس الأحاديث النبوية

❁ ❁ ❁

٣ - فهرس الموضوعات

تم بحمد الله

تنفيذ وإخراج وطباعة

الخليج العربي للدعاية والاعلان والنشر
Arabian Gulf Advertising & Publishing